

مقالات مختارة
بين

الطوائف والأديان



الدكتور الزين عباس عماره

مقالات مختارة
بين
الطبُّ والأدبُ

الدكتور الزين عباس عمارة

إستشاري ورئيس قسم الطبِّ النفسي
مستشفى الجزيرة ومستشفى أبوظبي المركزي.
دولة الإمارات العربية المتحدة.

بكالوريوس الطبِّ والجراحة (جامعة الخرطوم)
دبلوم الطبِّ النفسي (جامعة لندن)
عضو كلية الأطباء النفسيين الملكية (المملكة المتحدة)
عضو جمعية الأطباء النفسيين الأمريكية (الولايات المتحدة)

الطبعة الأولى

١٩٩٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

﴿ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

صدق الله العظيم

الاهداء

الى روح أستاذي الأول ..
العالم الجليل البروفسير التجاني الماحي ..
الذي عَلَّمَنِي حب القراءة ..
والهمني روح الكتابة ..
وحبَّ اليّ الطب النفسي ..
أهدي هذا الكتاب

المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن أحد دوافع تقديم هذا الكتاب هو تحقيق رغبة دفينة لنصيحة شخصية قديمة قدمها لي أستاذاي الأول العالم الراحل البروفسير التجاني الماحي في أيامه الأخيرة وهو يقاوم شدة المرض ويحاول كتابة مذكراته وخلاصة معرفته الموسوعية وكنا نجلس تحت ظل شجرة وارفة في الحديقة الأمامية في منزله بالخرطوم بحري وكان كلما انساب القلم تعثرت الحروف . . فيتوقف ويقول لي أوصيك يا بُني . أن تكتب كل ما عندك من أبحاث ومعلومات وأنت تتمتع بالعافية في سن مبكرة ولا تصدق نصيحة من يشيخ حتى آخر العمر لتنضج تجربتك لتكتب تاريخ حياتك . . هذه مهمة الآخرين . . ان مهتمك ان تكتب تجاربك العلمية والعملية للأجيال اللاحقة . . ولن تعرف من سيكون السابق أو اللاحق . . فإذا ضمنت العمر فلن تضمن العافية وإذا ضمنت العافية فلن تضمن وجودهما معاً وهذا ما تشاهده الآن . . عبثاً أحاول أن أسجل شيئاً على الورق فلا تكرر هذه المأساة .

لقد رسخت في ذهني هذه النصيحة وترسب في أعماقي ذلك المشهد وأنا مازلت في أول خطواتي في طريق الطب النفسي الطويل . . وقبل بضعة أعوام وقع في يديّ كتاب بعنوان (مقالات مختارة) وهو عبارة عن مجموعة مقالات للأستاذ الراحل في شتى مجالات الحياة خلال فترة عمله جمعها وقدم لها الزميل الدكتور الصافي والأخ الأكبر الأستاذ الدكتور طه بعشر أستاذ الطب النفسي بجامعة الخرطوم . . وأنا أقرأ الكتاب تذكرت نصيحة أستاذاي الغالية وبدأت أكتب . . وأكتب بإصرار . . وإحياءً مني لتلك الذكرى العطرة اخترت لهذا الكتاب عنوان (مقالات مختارة بين الطب والأدب) لأنها في مجموعها تهتم بموضوعات الصحة

النفسية والعقلية في قالب أدبي يهدف إلى الابتعاد عن إثارة الملل بجمود المصطلحات العلمية والتعقيدات الأكاديمية دون الاخلال بروح الفكرة أو وحدة الموضوع ولكن بالصورة التي تخدم الغرض الأول والغاية الكبرى التي ظلت هاجسي الأكبر في كل كتاباتي الأخيرة باللغة العربية ألا وهي وصول حقائق وانجازات الطب النفسي الى فئة المتخصصين وغير المتخصصين حتى تغطي مساحة الفراغ الخرافي الموجود في الساحة العلمية والأدبية حول اسهامات الطب النفسي في مقابل الطوفان الأسطوري للخرافات والشعوذة والبدع المستحدثة بشتى المسميات ولا تقع تحت مظلة الطب النفسي .

إن هذا الكتاب يناقش موضوعات تكاد تحيط بأكثر الأمراض النفسية والعقلية انتشاراً في المجتمع ويناقش أعراضها وطرق تشخيصها وعلاجها بصورة مبسطة ومختصرة وغير مباشرة في سياق أدبي يعطى بقدر الامكان الانطباع الصحيح والشكل المقبول نموذج المرض النفسي بعيداً عن المضامين المنفرة والأفكار الموحشة التي لا تفوت على فطنة المتخصص ولا تنطلي على حاضر بديته وذلك بالقدر الذي تسمح به صعوبة الجمع بين لذة الهواية وألم الاحتراف .

لقد سبق لي محاولة هذا الأسلوب في الكتابة باللغة العربية في موضوعات الطب النفسي في الكتب التي صدرت لي في الماضي تباعاً وهي «مدخل الى الطب النفسي» ثم «أضواء على النفس البشرية» ثم «حول سيكولوجية رعاية الطفل» وأخيراً هذا الكتاب «مقالات مختارة بين الطب والأدب» .

وأعترف بأنني جنحت عمداً الى الأسلوب الأدبي كأداة تناول جديدة لعرض قضايا قديمة مثل مرض (فصام الشخصية) تحت عنوان «المرأة المهشمة» Depression : The Shadowed Valley وهي ترجمات علمية لمصطلحات معروفة لها سياق أدبي ويندرج تحت هذه العنوان شرح هذا المرض ومساره والتنبؤ به ، تحذوني في ذلك رغبة وإصرار في الوصول الى القارئ المتعطش لمعرفة الطب

النفسي ولكن تبعده عنه خلفيات ذهنية خاطئة وانطباعات وهمية تحول دونه ومحاولة قراءة الكتب العلمية المتخصصة أو التوقف في الصفحات الأولى، اما لصعوبة المصطلحات أو لجفاف وضعف جاذبية العرض أو فقدان اللذة في مواصلة المشوار. . فحاولت أن أتخذ أسلوباً يجمع بين الاثنين . . احترام المعلومة وجاذبية العرض وهي محاولة تحتاج مني الى الممارسة الطويلة في القراءة والكتابة المتصلة للجمهور حتى تصل الى صيغة مناسبة تجعل من الطب النفسي أحد متطلبات العصر التي لا يتعطش اليها القارىء فقط وإنما يعرف أين يحصل عليها وكيف يتعامل معها ومتى يستفيد منها ولن يتم هذا إلا إذا بدأنا بأنفسنا وبادرنا بإبتكار أسلوب الوصول اليه .

وإنني أشعر بأنني تعلمت كثيراً من خلال كتاباتي بهذا الأسلوب في طرح أفكارى وقراءاتي والترجمة من المراجع الأجنبية والمؤتمرات الدولية الى اللغة العربية وبأسلوب يميل الى جذب اهتمام القارىء وشد انتباهه والدخول به في دائرة الضوء في عالم الطب النفسي .
ونسأل الله التوفيق . .

المؤلف

الفصل الأول

(قضايا الطب النفسي)

- القاموس النفسي
- اللغة جسر العبور النفسي
- اللغة والطب النفسي
- طب الحواس
- مدخل الى دهليز
- الأخذ والعطاء

القاموس النفسي

يقول العالم الراحل أبو الطيب النفسي الحديث في أفريقيا والمستشار الأسبق لهيئة الصحة العالمية للصحة العقلية في إقليم شرق البحر الأبيض المتوسط الدكتور التجاني الماحي أستاذ الطب النفسي بجامعة الخرطوم سابقاً في رسالة نقدية للمجمع اللغوي بالقاهرة حول «قاموس حتى الطبي» يقول :

«ان المؤلف الدكتور يوسف حتى لم يشر الى بعض المؤلفات المطبوعة أو المخطوطة والتي أصبحت تمثل مصدراً من مصادر الاصطلاحات، خاصة الكتاب الملكي والقانون لابن سينا والحاوي وغيره من كتب الرازي، ولا لآراء المدارس المختلفة ومفهومها في عالم النفس» .

أوردت هذه الحقيقة للتأكيد على مدى صعوبة التأصيل والتحديث في العلوم الطبية نتيجة ازدواجية دلالة المفردات في الترجمة وفي ظل حجب التعبير في اطار الكلمة المنقولة خاصة في مجال الطب النفسي والذي يركز على تفسير الدلالة النفسية للألفاظ والأمثال العامة، وهي أكبر مجالات الممارسة المهنية في ايضاح ضرورة تدويب المفاهيم الخاصة في اطار اللغة العامة الموحدة بين الاطباء والمرضى وجميع العاملين في حقل الصحة النفسية .

ان تعريف المصطلحات «الطبنفسجسدية - العقلية» تقع في مزالق الترجمة الحرفية والتعريفات الضيقة والقوالب الجامدة التي تكاد تسلبها شفافية الشعور المرادف للظاهرة، لأن الظاهرة هي الاصل والمصطلح هو الوعاء الناقل للتعبير، ولذلك نجد أن هناك ثلاثة مستويات من التفكير في تفسير الظاهرة النفسية أو ثلاثة ابعاد للرؤية في المصطلح الواحد للطب النفسي، أولها دلالة الظاهرة كما شاعت وليس في أصلها اللغوي ككلمة «انتحار» وثانيها معنى الظاهرة النفسية ووظيفتها

وغايتها من منظور علاقة تنظيمات الشخصية ببعضها البعض في كلمة «ادمان»
وثالثها مفهوم الظاهرة من منظور مرضى منقولاً بالنص أو الترجمة من
السايكوباتولوجيا مثل كلمة «هذات أو ضلالات» .

في نظري ان هذا المدخل ضروري وأساسي لتبيان صعوبة وصول حقائق
الطب النفسي بسهولة الى ذهن القارئ بعد محاولات أشبه بالولادة المتعسرة
للخروج من دهاليز الفلسفة والانعقاد العقلائي من متاهة مصطلحات
«الترجسية» و«العقد النفسية» و«العقل الباطن» وبعد هذه الولادة القيصرية خرج
الطب النفسي من اقبية التنويم المغناطيسي وغرف التحليل النفسي واضغات
احلام الحاسة السادسة وعمليات غسيل المخ فكان اشبه بالخروج من قوقعة
الانغلاق الفصامي الى هوس الانفتاح . . كالمستجير من الرمضاء بالنار فاستبدل
عقد الفلسفة بسيناريو الافلام التجارية والمسلسلات التلفزيونية والدوريات
الشهرية المسطحة والتي رجعت به الى الخلف من عدة طرق أخرى ودخلت به في
منطقة الظل ساحة الشبهات بين الحرام والحلال والخطأ والصواب والحق والباطل
وأصبحت حصيلة القاموس كالدليل المشوه أو الكمبيوتر المعطوب الذي يعطي
معلومات خاطئة يستقي منها المرضى اعراضهم بصورة مرتبة وجاهزة ويتقمص
منها الوسواسيون مخاوفهم المرضية وأوهامهم ويستلهم منها الجمهور الطرائف
والفكاهة ويختصر بها السينمائيون مشوارهم الى جزيرة الكنز.

وكما أن هناك ثلاثة مستويات في تفسير المصطلح النفسي فهناك ثلاثة
منطلقات في التعامل مع الظاهرة النفسية، أولها سمات الشخصية، وثانيها
الاعراض المرضية، وثالثها المرض النفسي ذاته . فاذا أخذنا الوسواس القهري
كمثال للأمراض النفسية الشائعة فنجد سمات الشخصية الوسواسية التي تتميز
بالافراط في التدقيق والتمحيص واعادة التنسيق والترتيب والالتزام بكل ضوابط
الحياة، كما نجد الأعراض الوسواسية التي تتمثل في عدم القدرة على مقاومة
الرغبة القهرية في الشك والحذر والحساسية المفرطة تجاه ما يقال من مدح وذم،
وتستحوذ هذه الأعراض على قدر كبير من نشاط الفرد الجسمي والحركي وأخيرا

المرض النفسي ذاته . . الوسواس القهري الذي يتميز بوجود أفكار أو تخيلات خاطئة يعلم المريض عدم منطقيتها ولا يقوى على مقاومتها، أو وجود حركات ولوازم حركية متكررة يعي المريض عدم جدواها ولكنه لا يستطيع مقاومة القيام بها تحت ضغوط آلام نفسية قاسية تشل قدرته في الحياة الطبيعية . . فلذلك قد تكون شخصية الفرد وسواسية وهذا طبيعي ، وقد تكون لديه أعراض وسواسية وهذا معقول ووارد في حدود الطبيعي ، ولكن عندما يصل مرحلة الشلل الحسي والحركي في تكرار الحركات اللاإرادية قسرا والتفكير القهري في دائرة مفرغة يكون قد وصل مرحلة المرض النفسي ، وقس على هذه المستويات أمراض الاكتئاب والفصام وغيرها من هذه المستويات الثلاثة .

وحتى نصل الى الحد الأدنى من الاتفاق على الحقائق العلمية عندما نقول هذا مجنون وذاك عاقل وهذا منبسط وذلك منطوي وذلك كثير الشك والأخر طيب القلب ، علينا أن نجد قياسا نفسيا في قاموس نفسي عربي موحد يضع الضوابط بين المعايير النسبية في الحكم الاخلاقي والتفسير العلمي للسلوك الانساني . . شيء صعب للغاية يقتضي ان تفتت صخرة المرض النفسي الى جزئيات يمكن تحريكها من القمة الى السفح لدراسة خصائصها الجيولوجية لمعرفة العلامة الفاصلة بين الجنون والعبقرية والتفسير العلمي للظواهر النفسية كالحلم والرؤية والهذيان والفارق بين الخوف والوهم والوسواس والتميز بين الهيستريا «العصاب الطرحي» والصرع أو الهجاج .

إذا كان الطب البشري بصفة عامة يعاني من قصور القاموس الطبي في استيعاب المصطلحات لدلول الحقائق العلمية في مجال السرطان والايذوعلم الفيروسات فان الطب النفسي يعاني اضافة صعوبة الفارق بين عتبة الشعور الحسي والحركي وصعوبة الفصل بين العضوي والوظيفي ومشكلة التحديد لمفهوم الطبيعي وغير الطبيعي ، فالطبيب العام ينتهي دوره عند تحديد الخط الفاصل بين الصحة والمرض والطبيب النفسي تبدأ مهمته بظهور المرض ولا تنتهي بتحقيق الصحة لأن معيار العافية نسبي في المرض النفسي ، وهذه حقيقة هامة قد تفوت

على بعض الاطباء ذوي التخصصات الأخرى والذين يرونه بعيدا عنهم ونراه قريبا منهم وأقرب اليهم من حبل الوريد . . . ولهذا تتبع ضرورة القاموس النفسي من أهمية وجود لغة مشتركة بين الاطباء في شتى المجالات والعاملين في حقل الصحة النفسية خاصة كما قال العالم الألماني النفسي المعروف كارل جاسبر عام ١٩٢٣: (ان الضلال DELUSION يمثل لنا أحد تلك التحديات التي لا يمكن حلها إلا إذا حددنا الحقائق بشكل واضح لأنه لو أن كل خطأ أو حكم خاطيء غير قابل للتصحيح سمي ضلالا فإننا لن نجد فينا من ليس عنده ضلال فكل منا له قناعته وانها لخاصية عالمية أن نتمسك جميعا بأحكامنا الخاطئة). وبعد نصف قرن من ذلك التاريخ وفي مؤتمر كندا عام ١٩٧٨ يشير الاتحاد العالمي للاطباء النفسانيين مناظرة حول سوء استخدام الطب النفسي في ممارسة حقوق الانسان بين الشرق والغرب في قضية «المنشقين السوفييت» الذين حجزوا في معتقلات روسيا أو هاجروا الى متجعات أمريكا وكادت تحدث تصدعا في بنية الاتحاد لأن كلمة «ضلالات» لهامدلول نفسي في كل قاموس فكري وقد برزت بعض هذه السات في ورقة عمل بعض المشاركين في مؤتمر اتحاد الاطباء النفسانيين العرب في الأردن العام الماضي حول «أسلمة المعرفة وطرق العلاج النفسي» انطلاقا من ضرورة وجود نواة لاتحاد الطب النفسي الاسلامي وكان السؤال المطروح . . . هل حسم الطب النفسي عامة والعربي خاصة قضية وجوده وتحقيق ذاته حتى يبحث في أزمة تعدد الهوية الفكرية . . . وهل عاد هناك وجود للافراض الخاطيء القديم بوجود تعارض بين علم النفس والدين! واذا كان هناك مجال للحوار حول بعض حقائق علم النفس فإن الطب النفسي خاصة قد أكد حقيقة «العلم والايان» لأن التفسير العلمي والنفسي لكثير من هذه الظواهر يعترف بوجود أشياء غائبة عنا وهذا هولب الايمان بالغيب والذي يدعوله الدين في قوله تعالى ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ سورة البقرة . . . وفي التراث العربي كتاب «الرعاية لحقوق الله» للحارث المحاسبي أو «إحياء علوم الدين» للامام الغزالي أو «أحوال النفس» و«الاشارات والتنبيهات» لابن سينا نجد محاولات جادة لتفسير بعض وظائف النفس أمثال «الحس المشترك» و«الادراك الحسي» و«المخيلة» و«التصور» .

إن الطب النفسي أصبح أحد ضرورات العصر في الحياة . . كالمالح في الطعام في هذا العصر الحديد أو الطبق الطائر الذي يعلق على صدر لوحته الالكترونية عبارة (سترة النجاة تحت مقعدك) وتؤكد حقائق الحياة في وضوح ان (علم النفس طوق نجاتك) وفي تناول يدك لابد أن يقتنيه أي انسان مثل قطعة الاثاث في البيت الحديث بالداخل ولا بد أن يتعامل معه كإشارات المرور في الخارج .

اللغة . . جسر العبور النفسي

في مختار الصحاح اللغة أصلها لُغِيٌّ أو لُغُوٌّ جمعها لُغِيٌّ ولُغَاتٌ . والنسبة إليها لُغَوِيٌّ ولا تقل لُغَوِيٌّ بفتح اللام لأن اللغوي يعني القول الباطل . قال تعالى ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ .

وفي تفسير علماء سيكولوجية اللغة ، فان اللغة مفهوما عاما وخاصة . فاللغة في مفهومها العام تمثل جسور التواصل وقنوات التخاطب المتاحة بين الناس أو بين الكائنات الحية الأخرى . وفي مفهومها الخاص ، تشكل اللغة في الصور اللفظية المتداولة كما تتكون من الكلمات الموحية والجمل المعبرة ، وبذلك تمثل أبرز سمات السلوك الانساني الراقي المحكوم بالحركة الارادية المنظمة للجهاز العصبي المركزي في المخ ، مركز التخيل والتذكر والتفكير وكل ما يميز الانسان عن الحيوان ، مما جعل بعض علماء الاجتماع السلوكي يطلقون المقولة الشهيرة «ان الانسان حيوان اجتماعي ناطق» .

ان اللغة سلوك انساني ينمو ويكتسب بالتقليد والتعليم بنتيجة تفاعل الاستعداد الوراثي والظروف البيئية المحيطة المثيرة للحواس والمنشطة لأجهزة الكلام بالتدريب والممارسة ، حتى تصبح اللغة حصيلة أنشطة الحواس والقدرات الادراكية والذكائية والاستعداد النفسي للكلام والكتابة وفهم الرموز وربط اللفظ بالمعنى . . معنى نبرات الصوت وتعبيرات الوجه واشارات اليد وحركات الجسم ، فلذلك يكون للغة مظهران : في الاشارات أو الصور اللفظية . . والاشارات أما أن تكون عادية كاشارات المرور وزي الشرطي والطبيب وأعلام الدول وشعارات الهيئات الدولية . أو اشارات خاصة بين الافراد والقبائل والشعوب كحركة اليدين في السلام المميزة لمختلف الشعوب ، أو حركة الاكتاف ورفع حواجب العيون الدالة للتعبير عن الرفض والقبول . . والصورة اللفظية تتمثل في دلالة الكلمات أو الصور الذهنية في الرمز الداخلي ، والتي تعكس أرقى وسيلة استخدام الصورة

العقلية في التفكير الرمزي لدى الفرد السويّ العاقل حيث قال تعالى : اقرأ باسم ربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ﴿ فاللغة احدى ركائز العلم الأساسية في تحصيل المعرفة ، ولا خير في علم لا ينتفع به ، ولا خير فيمن تعلم علماً ولم يعلمه ، لأن العلم زكاة ، وفي الطاعة والامثال لهذا الأمر تتأكد خصوصية اللغة كأحد وجوه تمييز الانسان على الحيوان من منظور رباني .

تشتق اللغة نوعيتها من الحواس التي تستعمل فيها . . كالسمع في اللغة المنطوقة ، والبصر في اللغة المكتوبة أو المرئية ، الى جانب كفاءة بقية الحواس الأخرى .

وضرورة اللغة في العلم والتعلم واكتساب الخبرة تتجسد في وظيفتها الأساسية في عدة وسائل : كوسيلة تعبير عن حاجتنا ورغباتنا وأفكارنا للآخرين ، ووسيلة اتصال ننقل بها معنى للناس لتعاش معهم ، ووسيلة تحكم في سلوكهم بالسيطرة عليه عن طريق التأثير عليهم ، ووسيلة ترويح نفسي أو تفريغ عقلي لشحنات انفعالية في الغناء والايقاع أو الحديث وحسن الاستماع . . كل هذه الاشكال الوظيفية للغة تؤكد أهميتها كجسور عبور معلقة تختصر الطريق بين نقطتين حين يعني العبور كسر الحاجز النفسي بين طرفين .

وفي مجال الترويح النفسي أو التفريغ العقلي تبدو أهمية اللغة في الرغبة القهرية لكسر حاجز الصمت قبل مرحلة الانفجار . ونلاحظ هذه الضرورة الحياتية أشبه بحاجة الانسان للماء والهواء عندما نتابع تعبير الانسان عن هذه الحاجة في مراحل المختلفة ، من الميلاد الى المات . فاذا شاهدنا الطفل وهو يحاول أن يتكلم ويعبر عن نفسه ، يتململ وترتعش كل مفاصله ، كالغريق الذي يتنفس داخل الماء . . واذا شاهدنا المتلعثم (التأتأة) وأنفاسه تتقطع وصوته يتهدج وعضلات وجهه تتقلص بحثاً عن مخارج الكلمات ، أو المريض المشلول في مركز الكلام في المخ يسمع ما يقال ويعي ما يدور ويعبر بدموعه الحزينة عن عجزه عن التعبير بكلماته الرصينة . أو المحتضر الذي يسأل من أعماق رثيته كلمات الشهادة

عند حشجة الموت . . ان كل هذه الصور القلمية ترسم شكل اللغة . . جسر العبور الى الطرف الآخر. وبدون اللغة لا نستطيع قطع المسافات الخرافية والابعاد الشاسعة التي تفصل بين الافراد والجماعات والدول. بل على النقيض، تتسع وتمدد صحاري ومحيطات، وهذه بعض الحواجز النفسية القائمة بين الناس منذ القدم، والتي تتجدد أشكالها وتتعدد أبعادها. وكلما اختزل العلم الحديث حجمها الجغرافي، كلما عجز عن عبور حواجزها النفسية. وتظل الرغبة في الخروج من هذه العزلة مفتاح أزمة اللغة المتمثلة في هذه الحاجة الملحة للحوار واللقاءات واقامة المؤتمرات. وكل هذه الاشكال المتنوعة والانماط السلوكية المختلفة ما هي إلا أحد وجوه الاستغلال الأمثل لعنصر اللغة في خلق التلاحم والتقارب، ولا يتم كل هذا إلا من خلال دبلوماسية فن صناعة جسور العبور النفسي . . صناعة اللغة.

واللغة هي مفتاح الشخصية. فقد قيل أن رجلا دخل على اعرابي في حضرة القوم، وجلس صامتا، فقال له الاعرابي: تكلم أيها الرجل حتى نعرفك . . يقصد أفصح عن هويتك من خلال كلامك الينا، مما يعبر عن أهمية «الكلام» في تحديد ملامح الشخصية، لأن الكلام لا يعكس فقط اهتمامات الانسان (وكل اناء بما فيه ينضح) بل طريقة تفكيره، وخريطة عقله الداخلي، مما جعل البعض يبالغون في استقبال الانسان بمظهره، ويفرطون في وداعه بمخبره بعد خلق جسر العبور. وعندما يقال «اذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب» فهذا لا يلغي دور اللغة، لأن اللغة حركة وسكون . . فالسكوت قد يكون أكثر افصاحا من الكلام، ولذلك قيل «ان في الصمت كلاما» ويقال: «لكل مقام مقال».

واللغة احدى وسائل التمييز بين الشعوب والأمم . . فلذلك أصبحت اللغة من مظاهر التعبير عن صدق الحس الوطني في الانسياق لها، والاعتزاز بها، والاعتماد عليها في نقل المعرفة الى الاجيال عن طريق نقل الاخبار من الرواة، أو التراجم المنقولة من الشعوب المتقدمة، حيث يظهر فضل اللغة في كتابة التاريخ وتأسيس المعرفة واختصار المسافة بين القديم والحديث، حين يكون الانتقال من الماضي الى الحاضر هو أ فراغ الاشكال الصورية في الوعاء الجديد.

وتظهر أصالة الشعوب في مدى احترامها للغتها، حتى ان بعض الشعوب تكتسب سماتها لدى شعوب أخرى من لغتها . . فيقال أن هذا الشعب هادىء قليل الكلام وذاك اندفاعي كثير الكلام والأخر عصابي يعبر بالاشارات الكثيرة والحركات الجسمانية، والأخر سليط اللسان جارح الالفاظ . . وبعض الشعوب تحيد الاصغاء، وأخرى تحترف الحديث . . وظاهرة الاصغاء تؤكد اننا نفكر بسرعة أكثر مما نتحدث . ولذلك في لحظات الاصغاء، يصيبنا الملل من فرط سباقنا للمتكلم في محاولة اللحاق بتحليل الشعور الشخصي لدى المتكلم تجاه الموضوع وانشغاله به، حيث تخفي الدوافع وراء الكلمات .

اننا من خلال الاستماع نسرع في تكوين فكرة عن شخصية المتكلم . . صورة تخلق حالة نفسية خاصة تحدد شكل الاستجابة للمستمع ورد الفعل . ويبدو هذا أكثر وضوحا في الحملات الانتخابية والمناظرات السياسية والمناسبات الخطابية، حيث لا ينقل الكلام نفس المعنى لكل الناس، ولذلك تتباين ردود الفعل وتختلف الاستجابات، لأن الناس يختلفون في درجة الاصغاء وحب الحديث، وكلما طغى جانب على آخر، كلما حدث تشوش داخلي برز في نماذج «كلام» خارجي لا يعبر عن الواقع، ويعكس طول المسافة في جسر العبور النفسي الى الطرف الآخر .

اننا نعيش عصر الاصغاء . . في التليفون والراديو والتليفزيون وكل المثيرات السمعية والبصرية التي تفرض علينا الاصغاء، وتحرمنا متعة الحديث . وقد أصبح من سمات هذا العصر أن يجلس الانسان بمفرده في غرفة مغلقة، ساعات، يحاور الاجهزة الالكترونية، ينتقل عبر موجات الاثير ويتجول بين القارات، ولا يتحدث الا من خلال «مونولوج» داخلي مع نفسه . وهذه أحد أنواع العزلة النفسية التي يفرضها غياب اللغة (الكلام) . . جسر العبور النفسي الى الطرف الآخر .

يقولون أن المرأة أسعد المخلوقات في عالم اليوم لأنها تملك قدرة التفوق اللغوي على الرجل، فهي منذ طفولتها تبدأ الكلام مبكرا، وتزداد حصيلتها اللغوية، وتتمتع بالنطق الصحيح وقوة البيان . وأن ما يطلق عليه «ثرثرة المرأة» هو القدرة المميزة على التعبير عن نفسها بأسلوبها الخاص، وهو نتيجة الفضول

الفطري للتساؤل والسرعة الغريزية للاجابة فكثرة غالبه من النساء لا تجيد الاصغاء لأنها يستوعبها الموقف المشكل بصورة عاطفية شديدة تحد من قدرتها على السيطرة نتيجة قوة الانفعال . ولذلك قال أحد الحكماء «ان عقل المرأة في لسانها، وعقل الرجل في أذنيه» .

ويبدو أن الاطفال الذين يرمون العدو بالحجارة، يفرضون عليه كسر الحاجز النفسي بعد أن فشلت كل وسائل اللغة في التعبير والاتصال والتحكم والتفريغ العقلي . وفي غياب البديل المناسب، قرروا قطع جسر العبور باستحداث وسيلة جديدة . . لغة خاصة للحوار والتخاطب . . لغة الحجارة . . وهذه ظاهرة نفسية يحتاج تفسيرها الى الحديث عن دور اللغة في الطب النفسي . .

اللغة . . والطب النفسي

قال الزعيم والقائد البريطاني المشهور ونستون تشرشل : «كلما أطلت بصرك امعانا في الماضي ، ازدادت بصيرتك خبرة بالمستقبل» اشارة الى أن الفكرة التاريخية ضرورة هامة في كل بحث علمي . وفي مجال الطب النفسي . فإن اللغة هي أساس الفكرة وأداة التشخيص والعلاج والبحث . وقد وصف أبو الحسن أحمد بن محمد الطبري في القرن الرابع الهجري في كتابه المسمى «المعالجات الابدقراطية» نوعية من الاطباء «الطبيب الذي بفيلسوف» و «الطبيب الذي ليس بفيلسوف» ، فقال : ان الطبيب الذي ليس بفيلسوف هو الذي يقتصر عمله وهفته على علاج الداء مع قلة المعرفة والبعد عن الفلسفة ، وانه يأخذ المعرفة عن طريق التقليد . أما الطبيب الذي بفيلسوف ، فهو الذي يرتفع بعمله وادراكه الى طلب الغاية ، ولم يقتصر من كل صناعة على أقل ما يمكن .

وقد قال القفطي في كتابه «أخبار العلماء بأخبار الحكماء» عام ١٢٢٧م : ينبغي للاطباء أن يتفلسفوا ، فانها (أي المهنة) لا يجب تعاطيها إلا لمن كان على سيرة اسقليبيوس إله الطب عند اليونان والذي كان أبوه الها للشفاء وطيبيا لألهة الأولمب .

ومهنة الطب تقتضي قدرا معقولا من المعرفة الموسوعية بأصول اللغة الأم منذ عهد أبوقراط والطبري والرازي وابن سينا حتى عصر المتصوف الفارسي أخلاقي جلالي لجلال الدين محمد بن أسعد المشهور بكتابه التاريخي عن تعريف الطب والصحة العقلية والعلاقة بينهما ، حيث أوضح أن العلاقة بين الطبيب والمريض هي علاقة مقدسة رقيقة المستوى . سامية الهدف ، متميزة الأركان : الحب . . الصدق . . التضحية . . الأمانة . وأول دعامة تقوم عليها نبتة الحب بين طرفين هي اللغة . . اللغة الواحدة المشتركة والخاصة ، فلذلك كان ولا يزال مجال الطب

البشري بصفة عامة، ومجال الطب النفسي بصفة خاصة، يقوم على قداسة العروة الوثقى الموثقة بالرباط اللغوي بين الطبيب والمريض. وعندما يقال «ان الطب كالقدر يجري في مسالك خفية» فلأن أول هذه المسالك هو طريق اللغة. . الطريق الذي يختصر رحلة الطبيب من تشخيص علاج الأمراض الجسدية والنفسية، مما جعل العرب يعتبرون ويسمون كل حاذق في هذا المجال طبيباً.

وفي هذا يقول الأديب الاستاذ الدكتور يحيى الرخاوي أستاذ الطب النفسي بجامعة القاهرة: «على العلوم الانسانية - والنفسية خاصة - أن تعيد ترتيب اهتماماتها بحيث تكون منطلقاتها من أساسين: الخبرة المباشرة واللغة الأم، ثم يستعين بعد ذلك - لا قبله - بمسيرة المعرفة الموازية من كل حذب وصوب، وبكل لغة أخرى ومنهج». وأسوق هذه العبارة، ليس امتداداً للجدل حول سوق العمالة الوافدة، وليس محاولاً لإدارة الحوار من الابواب الخلفية من مناقب علمية، وإنما محاولة تقنين لحقائق موضوعية تؤكد دور اللغة الحيوي في كل المجتمعات، ودور اللغة العربية خاصة في مجال الطب النفسي العربي، حيث يمثل في العلاقة بين الطبيب والمريض رابطة تكوينية وأساسية بنائية في نمو الصلة الوليدة. وأول ما يؤكد هذه الحقيقة محتوى تقرير حديث لمنظمة الصحة العالمية بجنيف يقول: «يصاب ما لا يقل عن مائة مليون شخص سنوياً في العالم بالاكتئاب الذي يمكن تمييزه سريريا». وقد نسب التقرير هذه المشكلة الى زيادة متوسط عمر الفرد في أغلب بلدان العالم، مع سرعة تغيير أسلوب الحياة والبنية الاجتماعية، مع ازدياد حجم الأمراض الناتجة عن الحالات المزمنة كأمراض القلب والمعدة والاضطرابات العصبية وانتشار الاستخدام الشديد والمتزايد للكحول والعقاقير والمهدئات والمسكنات ومضادات ارتفاع ضغط الدم وشتى المستحضرات الهرمونية المتنوعة. وعلى الرغم من ثبوت هذه الحقيقة المفزعة، فإن التقرير يشير الى أن الجزء غير المعروف من حالات مرض الاكتئاب بسبب عدم استشارة الطبيب للعلاج يشكل ٩٨٪ من جميع الحالات. ويعتقد أن هذه الأرقام سوف تراجع نسبة لازدياد عدد الأطباء النفسانيين واستعدادهم للتشخيص المبكر والعلاج المؤثر.

وفي دراستين هامتين متميزتين في مجال الطب النفسي ، وأساسيتين في التدليل على أهمية اللغة في هذا المضمار، الأولى حول «الاضطرابات الاكتئابية في الثقافات المختلفة والثانية «الدراسة الرائدة الدولية للفصام» ، تؤكد المنظمة أن هناك شرطا أساسيا لتكامل هذه الدراسات على نحو فعال ، هو توفر «اللغة المشتركة» التي تمثل حجر الزاوية في هيكل البحث في وصف الحالات الاكتئابية والفصامية عن طريق المصطلحات العلمية ، باستخدام العبارات التقديرية للأعراض المرضية .

واللغة المشتركة اما أن تكون في شكل مصطلحات علمية نفسية للاستخدام في ثقافات الأمم المختلفة ، أو اللغة في شكلها الخاص (لسان الأمة) . وقد كان من النتائج البارزة في الدراسات أن الأمراض النفسية موجودة في كل المجتمعات بشتى أشكالها المعروفة ، ولكن ما يعطيها الطابع المميز لها والخاص بها هو الثقافة (اللغة) . وقد أثبتت الدراسة التي اشترك فيها علماء من أمريكا الشمالية واليابان ونيجيريا وشرق البحر المتوسط وأمريكا اللاتينية أن الثقافة اللغوية تلعب دورا بارزا في تشكيل وتلوين وخلق الاطار العام للحالة النفسية المرضية ، وأن عنصر اللغة والدلالات اللفظية والرموز العقلية والصور الذهنية تمثل أهم مفاتيح التشخيص وأول وسائل العلاج وأدق أدوات البحث في الطب النفسي ، وفي دراسة أخرى تبين أن المرضى الذين يلتمسون العلاج النفساني من مرض اكتئابي في مناطق الدراسة الخمس (سويسرا - كندا - إيران - اليابان - ناجازاجي وطوكيو) متشابهون على نحو بالغ الوضوح في جوانب كثيرة . وعلى الرغم من أن النتائج تؤيد صحة التمييز بين الاضطرابات الاكتئابية الداخلية المنشأ ، والاضطرابات الاكتئابية النفسية المنشأ ، فإن هناك أدلة على وجوب أن تعتبر المتلازمتان مجموعتين متداخلتين ، أو طرف سلسلة متصلة من الاضطرابات ، لا أن تعتبرا فئتين متنافيتين . كما أظهر استخدام التقنيات العيادية أن مرضى الاكتئاب الذين تم تحديدهم في تسع ثقافات شديدة التباين ، كانت لهم خصائص مشتركة كثيرة ، وكانوا يشكلون مجموعة يمكن تمييزها عن مجموعة مرضى الفصام باستخدام

وصف الاعراض والتنبؤ بتطور المرض . وهذا لا يتم إلا من خلال «اللغة المشتركة» . . نقطة الانطلاق الأولى في بداية دراسة الحالة النفسية في أي مجتمع في العالم .

كما أن أهمية اللغة تبدو أكثر وضوحا في تفسير المصطلحات وتصنيف الأعراض المرضية في الثقافات المختلفة . . وإذا أخذنا على سبيل المثال بعض الأعراض التي يتسم وجودها بدرجة عالية من المعولية في تقدير نسبة العجز المرضي الاكتيابي ، مثل أعراض الحزن ، أوهام الوسواس المرضية ، الاوهم الموحية بالفقر والعدمية ، فقدان القدرة على التركيز ، الاوهم الموحية بالشعور بالذنب لدرجة الانتحار . . نجد أن هذه الأعراض الخمسة قد تتشكل بالتعبير اللغوي الى درجات متفاوتة في التقدير ، متأثرة بالحالة النفسية للفرد ونسبة الذكاء ودرجة القدرة التعبيرية ومعيار الثقة بالطبيب وصدق الرغبة في العلاج وقوة الوازع الديني في مواجهة الانتحار . فالتعبير عن الحزن لا يختلف من شعب لآخر فقط ، بل يتفاوت من فرد لآخر أيضا . ويتغير في الفرد ذاته من وقت لآخر ، دائما كتقلبات المزاج بين الصباح والمساء .

فالحنن ليس نقيض الفرح ، وإنما أحد صور التعبير عن الشوق اليه أو الرغبة فيه أو عدم الاستمتاع به في حالة وجوده . . كل هذه الانفعالات قد تصور حالة الحزن ، ولا تعكس بالضرورة فقدان الفرح . ومثلما نستعمل اللغة في مفهومها الخاص فنصف الجنسيات المختلفة والثقافات المتعددة في اطار نمطي خاص ، فنطلق كلمة رجل باللغة المميزة المعبرة بالرمز فنقول «ريال» و«زول» . . و«رفيق» و«زلمة» و«وريا» فان الوجه الآخر من اللغة يعطينا الصورة المغايرة في خصوصيتها في اختزال الشعور الانفعالي عن هذه الانماط البشرية ، فيقول البعض في تعبيره عن الحزن؟ «ضارباني ضيقة خلق» ويقول ثان «متضايق على طول وزهبان» ، ويقول ثالث «ضايح روحي طاجة» ، ويقول رابع «قرفان ودمى فاير» ، ويقول آخر: «نفسى محبوس داخل» ، تعبيرا عن حبس المشاعر ، أما الوسواس المرضية فهي موجودة في كل الثقافات الانسانية ، ولكن التعبير عنها يرتبط بدرجة الوعي الصحي والقدرة التعبيرية اللغوية . . فالذي يعبر عن حزنه (بضيق الخلق) ، يعبر عن وساوسه بالخوف من الموت . والذي يعبر عن حزنه (بالكآبة والملل) . لا بد من

أن يرقى بدرجة وساوسه الى الخوف من السرطان و«الايذز» . . تطور عقلائي مشروع .

ان الطب النفسي يعتبر اللغة الوعاء الوحيد والامثل الذي يستوعب كل مشاعر الفرد، ولا يجبس انفعالاته في عبارات جامدة، أو يسجن الفاظه في تعاريف مصطلحية ساكنة، تختزل تجربته الانسانية، وتشده صورة الافصاح عن مشاعره .

ومن أجل ذلك، يهدف الطب النفسي الى تطوير أدوات التعبير من خلال الحفاظ على التراث اللغوي . مثال ذلك، عندما طالبت منظمة الصحة العالمية باستبدال كلمة (الادمان) بكلمة (الاعتماد) على العقاقير، وهي مصطلح أكثر دقة رأته جمعية الأطباء النفسانيين العرب ان امكانيات اللغة العربية قادرة على استيعاب كل سلبيات التعريفات المتداولة، لأن الخطأ الشائع أفضل من الصواب المجهول، خاصة وسط الشعب العربي الذي يجب أن تستغرق لغته كل خطاياه، بحيث يتغير الفرد من الداخل، لا أن تتغير اللغة من الخارج، وتصبح مجرد لافتة كبيرة على ظهر أمة لم تتبين معالم أصالتها بعد، وهذه بعض مظاهر أزمة اللغة العربية الآن . .

وصدق القائل: « ما لا يدرك جُله، لا يترك كله» .

طب الحواس

يقولون أن الطب حرفة أصحاب الفراسة، فلا بد أن يكونوا ذوي نفوس تستدل بالأحوال الظاهرة على الأمور الباطنة، ويستدلون على صحة هذا الرأي بقوله تعالى: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ وقد روى البخاري في الطب «ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء» صدق رسول الله الكريم . .

ويقول أهل الحرفة ان الطب (علم وفن)، فاصطلاحاً الطب علم يبحث في بدن الانسان من حيث الصحة والمرض، ويدرس وظائف بلياتر الخلايا المكونة لنسيج أعضاء الجسم، وموضوعاً فالطب فن لا من حيث عنايته بالنفس والجسم معاً بل من حيث قوة البحث في تفسير علاقة اضطراب الوظائف العضوية باعتلال الصحة النفسية والربط بين الموضوعين . . والطب فن من حيث ضرورة المعرفة بفن التعامل مع حقائق المختبر ولغة الأرقام في الوصول الى صورة حقيقية عن سبب الآلام ومصدر الأوهام . . والطب فن في تعلم ترتيب الأولويات في تصنيف المعلومات حسب أهميتها في كل حالة على حدة . وكالجدل القديم الموروث بين أنصار الوراثة والبيئة في الدراسات البيولوجية الأخرى فقد نشأ حوار جديد ومدارس فكرية معاصرة بين أنصار الطب كعلم يعنى برصد وتسجيل وتفسير العائد البيولوجي (BIOFEED BACK) من محصلة العلامات المرضية والفحوصات المختبرية وبين أنصار الطب كفن يعتمد على نظرة فلسفية ذاتية في ترتيب الحقائق في شكل دائرة ضوء تسلط من عدة جوانب على المريض كنفس وجسم ومحاوله الوصول الى أكثر العوامل تأثيراً بالحقائق العلمية الموجودة، ورغم أن الازدواجية في التطبيق تبدو غير منطقية إلا أن هناك فئة من كبار الأطباء يرون ان الفحوصات والتحليل الطبية هي العامل الموضوعي الحاسم في تشخيص

الحالة، بينما يرى فريق آخر في نفس المكانة العلمية الرفيعة ان حصيلة الفحوصات ما هي إلا مجرد مؤشرات لاحتمال وجود خلل عضوي أو وظيفي في الجسد أو النفس أو كليهما، وأن الوصول الى التشخيص المناسب لا يعني بالضرورة السير في اتجاه بوصلة الكمبيوتر باعتباره المؤشر الأساسي في رحلة العلاج.

ان التقدم التقني المتمثل في (مكينة) الحياة جعل الطب في بعض مجالاته يتعامل مع المريض كالسيارة التي تدخل ورشة المصنع للفحص والصيانة تمر على عدة أجهزة قياسية مثبتة على لوحات الكتر ونية ودوائر تلفزيونية مغلقة وأجهزة رسم وتخطيط ابتداء من تسجيل الاسم والرقم للمريض مروراً بفحص أعضاء الجسم واحداً تلو الآخر حتى نهاية السير المتحرك في خطوط الاختبارات حيث يعطي الحاسب الآلي صورة متكاملة عما يدور بداخل الجسم وقد يعطي التشخيص النهائي قبل أن يضع الطبيب يده على المريض . . وهذا الجانب التقني في مقابل المعاينة الاكلينيكية . . صورة الطب كعلم وفن .

أما صورة الطب كفن فهي لغة الحوار الداخلي (DIALOGUE) بين حواس الطبيب وإحساس المريض، وهي أهم مرحلة الاختبار التي توضح ماذا يعني المرض لصاحبه؟ ما قيمة الألم عنده وما كمية الأمل لديه؟ ولماذا جاء في هذا الوقت بالذات بهذه الشكوى بالذات لهذا الطبيب بالذات؟ لماذا تدور نبرات صوته وتعابير وجهه وجملة انفعالاته حول جانب لا تنعكس أهميته في تصنيفات الكمبيوتر بينما يصرف النظر عن وعي وارادة عن شكوى تحتل الصدارة في فحوصات المختبر؟ لماذا يطيل الشكوى عن آلامه القاسية من الصداع رغم علمه المسبق لسلبية الاختبارات في هذا الاتجاه، بينما يصرف ذهنه ووعي الطبيب عن أوجاع مزمنة تطل رأسها في قائمة كل الفحوصات . . لماذا؟

ان قدرة الطب كفن تتجلى في اطار الفحص السريري والذي يتطلب استخدام كل الحواس الخمس كوسيلة اتصال ذات قيمة مادية ومعنوية كبيرة . . والطب في بداياته الأبوقراطية وقبل التقدم التقني الحديث كان يعتمد أساساً على

حاسة البصر والبصيرة (حسي ومعنوي) ولذلك كان يُطلقُ على الطبيب الحاذق لفظ (البصير) أمثال (البصيرة أم حمد) والتي اكتسبت من شفافية الحس ونفاذ البصيرة ما جعلها قادرة على التطبيب دون أجهزة من جبر الكسور ومداواة الجروح وشتى الأوجاع الباطنية من خلال استغلال الحواس! وتأتي قدرة السمع الحسية في الاستماع الى انتظام ضربات القلب والتقاط المهمة واللغظ والحفيف ذوات الدلالة المرضية الهامة والسماع الى الجهاز التنفسي في حشجة الصدر وخرير الحويصلات الهوائية وصرير حركة الامعاء . أما قدرة السمع المعنوية فهي فن الاصغاء واجادة الانصات الى المريض وقد يكون مجرد الاستماع الى الشكوى واقتناع المريض بتفهم معاناته أكبر مدخل الى طريق العلاج كما أن حاسة اللمس المادية تبدأ منذ لحظة مصافحة المريض صاحب اليد المبتلة بالعرق أو المرتجفة أو الساخنة أو الباردة ولمس الاعضاء لتحديد درجة التضخم أو الضمور مع تحديد موقع الالم وشدته وعلاقته بالاعضاء الاخرى وحركة الجسم وهذه أحد الأعراض المرضية الأساسية التي لا تخضع للتصوير أو التحليل وفي الجانب المعنوي فان حرارة الملاقاة في المصافحة تزرع الثقة وتجعل من اللمس لغة تخاطب بين الطبيب والمريض أشبه بحروف الشفرة تأخذ معناها من ترجمة الأحاسيس خلال العلاقة الحميمة التي تتم بين الطبيب والمريض على مدى رحلة الكشف والمعالجة وفيها قمة الترويح النفسي .

هذه مجرد خطوط عريضة لمواصفات الطبيب . . طبيب الحواس . . الذي يسمونه النطاسي البارع الذي عندما ينتهي من رحلة استكشاف عالم المريض بحواسه الخمس يكون قد وصل الى نوع من التشخيص ورسم من خلاله خطة عمل للفحوصات المخبرية والاختبارات الاشعاعية التي ينبغي أن يقوم بها ليصل الى نتيجة نهائية قاطعة، وكما يبدو واضحاً أن دور طب الحواس وطب المكننة يجب أن يلتقيا في حالة توحد وروح تقمص في نظرة متكاملة يمثل الأول البداية الأساسية الهامة في علاقة المريض بالطبيب ويمثل الثاني النهاية المنطقية والضرورية لتقنين هذه العلاقة من خلال تطابق القول بالفعل وتثبيت القناعة الذاتية بالدليل العلمي ، وهكذا تكتمل صورة الطب كعلم وفن .

ومع التقدم المذهل في التكنولوجيا الطبية بدأ دور الطبيب يتضاءل في استخدام حواسه، وبالضرورة اتسعت الفجوة بين الطبيب والمريض، لأن المريض قد يصل الى الطبيب بعد أن يكون قد قطع شوطاً طويلاً في (ماراثون) الاختبارات ووصل الى الطبيب يحمل رقماً وتشخيصاً على الطبيب أن يؤكد أو يعدله أو يلغيه. . وهذا أشبه بالسير الصحيح في الاتجاه الخاطئ حيث تصبح العلاقة بين الطبيب والمريض علاقة شد وجذب في محاولة لتغيير واقع فرضته ظروف الاختبارات خاصة في المجتمعات التي تقدر الكميوتوتوقراً الأجهزة الالكترونية كالأشعة ورسم القلب والمخ وكل أعضاء الانسان فإن أي خطأ في يرصده جهاز الرسم لا يمكن أن تصححه نصائح عشرات الاطباء بأنه لا يشكل خطورة على حياة المريض وقد يكون نهاية صلة المريض بالطبيب أو علاقته بالمؤسسة العلاجية كلها.

ليست هذه دعوة الى العودة الى الوراء أو محاولة للتقليل من دور التقنية الطبية وهي احدى الركائز الأساسية في تطوير وتحديث العلوم الانسانية، ولكنها أمنية أن لا يكون الطبيب التقني البديل للنطاسي البارع الذي يبدأ باستخدام حواسه الخمس من شعرة رأس المريض الى أخمص قدميه، وأن لا يكون البداية لظهور الطبيب الآلي (الروبوت) الذي يعمل بالتغذية الاسترجاعية والاشارات السلوكية واللاسلكية.

ان في حقل الطب النفسي تسمو العلاقة بين المريض والطبيب الى مرحلة الاحلال الايجابي للمشاعر الوجدانية الأولية المكونة في العقل الباطن لذوي العلاقة الى شخصية الطبيب المعالج (POSITIVE TRANSFERENCE) ويصبح الرباط المقدس بينهما نسيجاً من ظلال الكلمة الوارفة الظلال والمقابلة المشحونة بالمشاعر والانفعال وفيض كل الحواس النابضة في أعماق الجانبين. . المنقولة في خاصية اللغة المشتركة وحلاوة اللسان الواحد المتدفقة في قنوات التفريغ العقلي لدفء الشحنة العاطفية المتميزة بخصوصية العلاقة بين المريض والطبيب العام بصفة عامة والطبيب النفسي بصفة خاصة.

ان على الطبيب أن يقوم برحلة علمية انسانية استكشافية في جسم ونفس

المريض يستغل فيها كل قدراته الخاصة والعامة ويستعمل فيها كل فنون المهنة من
إيجاء واسترخاء وثقة وطمأنينة تؤكد لها حصيلة الفحوصات التي يجب أن تكون
مختصرة الى أبعد الحدود قصيرة الى أقصر مدى محصورة في أضيق نطاق . . . وعلينا
أن نلغي من ذاكرتنا ونشط من قاموسنا الطبي عبارة (فحوصات روتينية) لأن
الانسان لم يعد حقل تجارب أو حيوان مختبر أو أنبوبة اختبار . . . ولكنه مريض ضالته
الصحة يبحث عنها بأسرع الطرق وأفضل السبل وأقل التكاليف .

مدخل الى دهليز

النفس البشرية دهليز واسع له عدة مداخل ، ولكل مدخل مفتاح خاص ، وفي داخل الدهليز توجد عدة طرقات أشبه بخطوط المتاهة ، وهي أحد أشكال أنواع اختبارات ذكاء الفرد في الوصول الى نقطة معينة باختيار أفضل وأسلم وأقصر الطرق للوصول الى الأعماق .

فإذا كانت نفسية الفرد أشبه بالدهليز فإن دور الباحث أشبه بالمصباح المضيء أمام المدخل المناسب الى أغوار الدهليز ومهمة اختيار بوابة الدخول من وجهة نظر ديناميكية ومنظور عقلائي ، تجعل التجول في داخل المتاهة رحلة ممتعة داخل العقل .

والفرد الوحيد الذي وصل الى أعماق دهليز ذاته هو الذي عانى حدوث شرخ في جدار هذه الذات ، فلذلك كثيرا ما تكون رسومات بعض المرضى تصورا لما يجرى داخل هذا الدهليز . فهي نظرة ديناميكية خاصة بالفرد المعتل ، خاضعة لتصويراته الخاطئة واعتقاداته المرضية وبصيرته الضبابية لحظة الاقدام على الرسم أو النحت أو الكتابة . ولكن أي فعل يصدر من الفرد في هذا الاتجاه يمثل أحد المداخل المتعددة لأغوار الدهليز السحيقة .

والذين يملكون أحد أو بعض مفاتيح هذه المداخل . قد يصلون الى أعماق الدهليز من عدة طرق . ووصولهم لا يعني أنهم استكشفوا أوسر و الأغوار من خلال عبورهم دروب المتاهة ، لأنهم لم يجربوا كل الطرق ، بل دليل أن محاولتهم العودة بطريق آخر ، قد يقودهم الى نقطة مغايرة ، وقد يضل كثيرون داخل الدهليز دون معرفة حقيقية بطبيعة المدخل الذي قادهم الى الداخل . وهذا يفسر طبيعة الاختلاف في وسائل البحث في علم النفس ، والصراع الفكري المتجدد بين

أكثر من نظرية حول تفسير سلوك الانسان والحيوان من خلال التقديرات الاستقرائية للدراسة المقارنة في المجالين .

تبقى هناك حقيقة علمية افتراضية تقرر أن الذين وصلوا الى أعماق الدهليز قد ملكوا بعض المفاتيح، وعرفوا بعض المداخل، ولكنهم لم يترقوا كل الابواب المؤدية الى الأغوار عبر خطوط المتاهة . ولاتزال بعض أسرار المفاتيح ومواقع المداخل جنينا في رحم الغيب . . فالخلاف غير العقلاني، والصراع غير المؤطر، والتطرف غير المنضبط، حول حقائق علم النفس، نظريا وتطبيقيا، وحول دور الطب النفسي وقائيا وعلاجيا . ينم عن قصور في الادراك، ومغالاة في فهم حقائق مازالت خارج دائرة علمنا المحدودة، وفوق كل ذي علم عليم .

حقيقة أن العلماء ورثة الأنبياء، وهؤلاء هم المنوط بهم خشية الله في سبيل طلب العلم للوصول الى حقائق الوجود، مع تسليم مسبق بأن الاجتهاد العقلي الفردي والجماعي في محاولة فهم الحقائق الغيبية يجب أن ينطلق من ايمان مطلق بأن العلم لا يسعى ولن يقوى على طمس دور الايمان في البحث عن مفتاح المدخل، أو الدخول في خطوط المتاهة، للوصول الى أعماق الدهليز كالبحث في الخاصة الغيبية «للماء» في قوله تعالى : ﴿وينزل من السماء ماء ليظهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ . . صدق الله العظيم .

ومن حياتنا اليومية نختار أحد المداخل التي تمثل رحلة داخل عقل الانسان والحيوان في مستوى واحد . . ومستوى البحث حول مصطلح العدوان . . السلوك المتمثل في محاولة تدمير الذات أو الغير وممتلكاته، سواء كان عدوانا مباشرا نحو مصدر الاثارة، أو تحويليا نحو شيء بديل .

تتناقل الأخبار من قصص الحيوان حكاية «أسد السيرك» الذي التهم مروّضه بعد سنوات من الألفة المتبادلة والمودة الموصولة، وقصة البعير الذي سلخ فروة رأس صاحبه بعد سنوات من العواطف النبيلة والأخذ والعطاء، وتوسع دائرة العدوان الى صورة الانتحار الجماعي لحيتان البحر في خروجها من البحر بصورة جماعية انتحارية، تعبيرا عما يدور في داخل الدهليز .

وتتناقل الاخبار عن قصص الانسان، الوجه الآخر للظاهرة . . قصة الرجل الذي قتل صديقه في ليلة أنس، أو ذبح زوجته بعد تناول الوجبة، أو قتل زوجته وأطفاله ونفسه، أو الذي خرج في قارعة الطريق يطلق النار على مئات الأبرياء العابرين شارع الحياة في مشوارهم الطويل، يبحثون عن مداخل خاصة بهم للدلهيز، وتتسع الدائرة الى صورة الانتحار الجماعي في مجموعات بشرية تتجرع سماً، وتتكدس في غرفة مغلقة، تعبيراً عما يدور داخل الدلهيز.

إذا كان الفارق بين الانسان والحيوان هو العقل المفكر المتمثل في الادراك السليم والبصيرة الكاملة، نجد في «مختار الصحاح» العقل: الحجر والنهي، وهو كما يقول سيبويه صفة . . رجل عاقل وعقول . . وعقل البعير أي ثني وظيفة مع ذراعه فشدما في وسط الذراع، وذلك الحبل هو العقال .

إذا كان العقل يلجم الانسان، ويضبط انفعالاته اراديا ولا اراديا، فانه يكسبه سلوكا وظيفيا نابعا من سمو القدرات العقلية العليا وتربطها وتنظيم تركيباتها الداخلية، بحيث تتألف وتتكامل في نسق رباني يجعل الحركة والسكون تدور في اطار الوعي والارادة. اذن أين يحدث الخلل الذي يؤدي الى التطابق النوعي بين السلوك الانساني والحيواني، رغم الاختلاف الموضوعي في المدركات العقلية؟ .

ماذا حدث للبعير الذي التهم رأس صاحبه حين حاول أن (يعقله) وهو غير العاقل . . نقول: ذهب عقله، وهو لا يملك العقل بمفهوم الادراك . . ونقول أصابته «لوثة عقلية» وفاقد الشيء لا يعطيه . . فإذا انتفى وجود عقل كامل يمثل أعلى مظاهر التجريد في التفكير، فلا يمكن أن يكون هناك سبق اصرار وترصد لذات السبب .

لماذا تنتحر حيتان البحر جماعيا، وماذا تريد أن تقول لنا؟ هل هو فقدان القدرة على التعبير عن مكنونات الدلهيز، أم ضعف النفس وهي من بعض وظائف العقل، أم دليل اضطرابات وجدانية، خاصة واننا لا نستطيع أن ننفي وجود مشاعر عاطفية لدى الحيوانات الأليفة المدجنة مع الانسان، موروثه أو

مكتسبة . فكيف تذوب هذه العواطف في حالة الهياج ، وتتحول الى «لوثة» أو ثورة قتل وتدمير للذات أو الغير؟

ما هو الفارق بين حيوان السيرك الذي يمزق جسم مروضه ، وسلوك الانسان الذي يقتل زوجته وأطفاله وعشرات الأبرياء ثم ينتحر؟؟ هل هو ذهاب العقل . . وإذا ذهب العقل فجأة . فهل يعود فجأة؟ فإذا عاد هل يمكن أن يذهب مرة أخرى فجأة ويعود . . وهل يخرج هذا من نفس المدخل في كل مرة ، أم من مداخل مختلفة في مرات مختلفة وأوقات مختلفة؟

وفي هذا يقول سيدنا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - عندما سئل : ما منعك من شرب الخمر في الجاهلية؟ أجاب : «اني رأيتها تذهب العقل جُملة . . وما رأيت شيئاً يذهب جُملة ويعود جملة» . . فإذا نظرنا من خلال هذا المدخل ، فإن حدوث «اللوثة العقلية» يعني ذهاب العقل فجأة . فاذا ثبت أنها حالة مؤقتة يعود بعدها العقل ، فهل يعني هذا حدوث حالات يذهب فيها العقل فجأة ولكن جزئياً ومؤقتاً ، ويعود بنفس الدرجة ، تبقى حالة الخمر هي أقصى حالات فقدان العقل جملة ، فلذلك سميت «أم الكبائر»؟

ومن هذه المداخل المتداخلة ، نتساءل : هل هو العقل أم الروح أم النفس؟ فاذا كان العقل الذي حرم الله الحيوان من نعمة الاستمتاع به ، فهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ أم هي الروح أم هي النفس؟ . . ان الروح دائماً تنتسب الى الله في قوله تعالى : ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ . . صدق الله العظيم . وتوصف الروح دائماً بصفات ربانية . فيقول الله عن مريم ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾ . . (مريم ، ١٧) أما النفس ، فهي التي تحيا وتموت في قوله تعالى ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ . . (آل عمران ، ١٨) وتوصف النفس دائماً بالصفات البشرية ، كالنفس الأمارة بالسوء في قوله ﴿وما ابرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء﴾ . . (يوسف ، ٥٣) والنفس المطمئنة في قوله : ﴿ياأيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ . .

(الفجر، ٢٧)، ثم النفس اللوامة، ثم النفس التي توسوس في قوله تعالى :
﴿ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ . . (ق ، ١٦) .

ان هذه مجرد محاولة جادة في البحث عن مدخل الى دهليز النفس البشرية
وأغوارها الخفية ، وفي الاتجاه الآخر دعوة للخروج من دوامة الحلقة المفرغة التي
يدور فيها الصراع غير العقلاني حول مفاهيم معقدة تحتاج الى امعان الفكر
وترويض العقل وفتح القلوب الصماء ، مع توفر أقصى درجات الوعي العلمي
للبحث في أصول المسلمات القديمة والمستحدثة التي أفضت بالعلماء الى فرقة في
الرأي وشتات في الجهد والفكر حول حقيقة وظيفة السلوك الانساني بدراسات
مقارنة للسلوك الحيواني في ظروف مماثلة .

الأخذ . . والعطاء

يقال (الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى) وعلى سبيل اليقين يمكن أن نقول أن العافية كنزٌ محبوب في أعماق الانسان لا يكشفه إلا المرضى وللأولى دلالة سلبية عند البعض وللثانية دلالة ايجابية عند البعض الآخر. والدلالة السالبة في الأولى وهي مصدر تعاسة الكثيرين تتمثل في ضعف القدرة على استيعاب العبرة والاستفادة من الموقف الدرامي منها اذ تكون رؤية الفرد المريض للتاج الرمزي على هامة الانسان الصحيح مجرد عاطفة عابرة تثير الشفقة ولا تدفع للتأمل . . ففي ذات الوقت الذي تتصاعد فيه عناصر الدراما لتصل الذروة مخاطبة الفرد المعافي «حذار أن تأخذ بلا مقابل فانت تملك أغلى شيء فانتبه الى اختلال معادلة الأخذ والعطاء في تعاملك مع الحياة قبل أن تصبح في هذا الموقف» نجد الفرد السلبي يفكر في همومه الآنية العاجلة . . كيف وصل؟ . . وكيف يعود؟ . . وكيف يتجاوز العقبات في رحلة العودة؟ .

وعندما يداهمه الاحساس بالمرض فجأة في عتبة الباب تدور عقارب ساعته بسرعة خرافية تختصر سنوات طويلة من العمر ويبدأ العودة الى نقطة الصفر من الطريق المعاكس للسير في الاتجاه الآخر . . لأن قلقه المفاجيء وحالته الطارئة لا تسمحان له بالوقوف في مكانه وناموس الحياة لا يقبل السير في اتجاهين متضادين في وقت واحد ولو لغاية واحدة وقانون المرور يحظر السير في الاتجاه المعاكس . . وفجأة يكشف الدلالة الايجابية في حدوث المرض عنده وكيف انه كان قبل لحظات يتمتع بأعلى درجات العافية التي ما كان يحس بها عندما كانت محبوبه في أعماقه ولكن فجأة تكشف تحت أظافر المرض فانتقل فجأة من السلبية الى الايجابية والتأمل في مفهوم الصحة والمرض والأخذ والعطاء .

إذا نظر الإنسان للحياة من منظور الصحة والمرض لوجد انه في رحلة حياته يأخذ أكثر مما يعطي وقليلون هم التعساء الذين ينفقون أكثر سنوات حياتهم مرضى مقارنة بالذين يقضون أعلى سنوات عمرهم أصحاء ولكن في زمان العافية يطفئ الإنسان الكيل في ميزان الأخذ والعطاء بينما في أوقات المرض يشعر بثقل مديونية الأخذ بلا حساب .

ان القدرة على العطاء في المفهوم العام تتطلب أعلى درجات النضج العقلي والتكيف النفسي والعطاء ليس بالضرورة نشاطا ماديا ملحوظا وان كان هذا أفضل أنواع العطاء لأنه يرتبط بفضيلة العمل المقترن بشرف العبادة . . لأن العطاء ليس فرض كفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقي فهو فرض عين في حدود التكليف الوظيفي المباشر لكل انسان يعيش على هذه الأرض . . وعندما يصبح العطاء فرض كفاية فلن تكون هناك حياة جديدة بقدر الانسان فيها .

فألزواج نوع من العطاء لأن الفرد ترفع الى مستوى التكليف المسئول والسلوك السوي الذي يفرض قدراً من التنازل عن الحرية الشخصية والمخدرات المالية والضمان الاجتماعي في سياق التضحية الذاتية للاقتران بفرد آخر تعطيه بعضاً من عمره أو ترهن له نصف حياتك طواعية واختياراً من أجل الهدف الأكبر وهو استمرارية الحياة بالتناسل والتكاثر وحفظ النوع في الحياة في وظيفتها البيولوجية وبإضافة لبنة جديدة بالجهد الذاتي لخلق كيانات اجتماعية متجددة تتحمل مسئولية البناء والتعمير في كل موقع ينتمي اليه الانسان .

وانجاب الاطفال والسهر على راحتهم وتنشئتهم نشأة سليمة نوع من العطاء وأداء الوظيفة في أمانة، وإتقان العمل في إخلاص أحد أعظم مظاهر العطاء . . ولنقل بالمقابل إن عنصر الأزواج المشروع في فضيلة العمل يقوم على شرعية الأخذ والعطاء لأن العقد شريعة المتعاقدين (اعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه) والمساهمة في مؤسسات خيرية وهيئات تطوعية وأنشطة اجتماعية خارج دائرة العمل نوع من العطاء في مجالات إنتاج ثري الوجدان الاجتماعي للأمة وتوسع رقعة المشاركة الوجدانية داخل المجتمع الإنساني في إطار نهج قومي ينبذ المصلحة

الذاتية التي تنادي بالمقابل لأن المقابل هو المرادف الموضوعي للأخذ في نشاطات فروض الكفاية التي اذا قام بها البعض سقطت عن الباقيين ولذلك نجد أعظم الرجال والنساء الذين انخرطوا في مسيرة العمل الاجتماعي وسجلوا بطولات تاريخية وشُيدت لهم نصبٌ تذكارية بلا أسماء في مجالات ابداعية خارج نطاق مسمياتهم الوظيفية وكان هذا المقابل الوحيد والذي غالبا ما يتم بعد وفاتهم بعد ان عاشوا حياة حافلة بالعطاء غير مدفوع الأجر ومؤجل السداد في حساب العمل العام .

أن الانسان بطبعه لا ينتهي له طلب ولا يلهيه غلب حتى وان ملك الدنيا سلعة في متجره أو خاتما في خنصره . . . والعاقل من ترك بصماته على وجه الحياة حتى اذا فارق الحياة الدنيا ذهب كل شيء وبقي عمله يشفع له في صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له . . . وهذه أروع نماذج العطاء وأكثرها نفعاً علم ينتفع به . . . فاذا تجرد الانسان من كل هذه المحسنات الوجودية فيقيني انه ذهب كما جاء بل أصل سبيلا .

ويحضرني في هذا المناسبة حوار قرأته في أحد الصحف العربية عن طالبة طب وأساتذتها في علم التشريح حيث قالت «لقد أجمع علماء التشريح على (أن كل العناصر المعدنية) الموجودة في جسم الانسان تكفي فقط لصناعة ثلاثين صابونة وثلاثة مسامير وقلم رصاص واحد» وتضيف الطالبة : ان علماء التشريح توصلوا أيضا الى عدة حقائق أولها أن الكلى الواحدة تحتوى على ما بين ٢ - ٣ مليون وحدة عاملة وأن العين تستطيع أن تلتقط ٢ مليون لون وأن الأذن تستطيع أن تفرق بين ١٦ الى ٢٠ الف ذبذبة صوتية وان الرئة تبلغ مساحتها ٧٠ مترا مربعا وان الكلى الواحدة تقوم بتنقية ١٨٠ لتر دم يوميا وان القلب يقوم بعمل ما يوازي رفع ١٢, ٦ كيلوجرام مسافة متر كل دقيقة وان قدرة العقل على تخزين المعلومات قدرة لا نهائية وان العصب يقوم بتوصيل الاشارة العصبية بسرعة ١٢٠ الف مترا في الثانية وأضيف للقائمة أن العصب البصري الواحد في كل عين يحوي أكثر من عشرة ملايين خلية فلعلهم يبصرون . !

هل هناك أكثر دلالة على النظرة السلبية والايجابية في تعامل الانسان مع معطيات الحياة من هاتين المعادلتين الحسابيتين في (تثمين) الانسان . . كم نعطي الطبيب الذي يستبدل الضرس التالف؟: وكم نعطي الجراح الذي يستبدل الكلية المعطلة؟ وأهم من ذلك. كم نعطي الخالق الذي وهب العقل الذي لا يستبدل إذا تلف ولا تعوضه كل أموال العالم اذا ضاع؟! .

وهمسة أخيرة: ماذا نعطي الطبيب النفسي الذي يقوم بأعمال الصيانة واصلاح الاعطال الطارئة في هذا الجهاز الحساس؟ من تجربتي في أغلب الاحيان ان من يملك الاجابة لن يعطي اجابة فهذا قدر الغلابة!!

الفصل الثاني

(بين الحقيقة والخرافة)

- بين الحقيقة والخرافة
- العقل الغائب
- الفردوس الضائع
- القيمة .. والتمن
- الميزان
- سلطان الوعي

بين الحقيقة والخرافة

أخاف أن أكذب الف مرة أن قلت ان الكلمات الرقيقة والعبارات المؤثرة التي سطرها يراع الكاتب الكبير الاستاذ عزيز التوم منصور في «واحة الاتحاد» الظليلة الفيحاء لم تؤثر فيّ وأخشى أن أخطىء مرة أخرى ان قلت ان دعوته لي للعودة الى الكتابة في واحة الاتحاد لم تهزني وأتهيب سبب الإثم ان غمضته حقه في الرد عليه حيث قال أبو الطيب المتنبي :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

أقول أن خوفي وخشيتي ومهابتي كلها أن يظن أن كلماته العطرة لم تهزني وتحرك وجداني ، وان دعوته لم تجد صدى في نفسي وهوى في قلبي ، وان كتابته عني لم تصبح يدا سلفت ودينا يسترد . . لقد قال الكاتب العربي الكبير توفيق الحكيم «ان الكاتب السعيد الحظ هو الذي يجد قلما يمجد كتاباته في حياته قبل مماته في زمان أصبح المدح المقصود به الذم في حد ذاته سلعة نادرة يبخل بها الخل الوفي» وقال الأديب العربي الدكتور طه حسين «قد تعيش عمرك ألف مرة دون كلمة ثناء وتموت مرة واحدة وتتبعك ألف قصيدة رثاء تقول عنك ما لم يخطر لك على بال ولم يعبر عندك ذاكرة ولم يدخل فيك قلبا» .

وحتى لا يصدق فينا قول أبي الطيب المتنبي الذي كان نموذجاً حياً للشاعر الفذ الذي عاش تجربة «لا كرامة لنبي في وطنه» وعاش حياته حرباً نفسية متصلة مع نفسه وغيره حتى رحل وترك المداد يجري في كل الأقلام . . والأقلام تسود بياض كل الصفحات مصدقا نبوءته في حياته حين قال :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

أعود ثانية وأقول للاستاذ الكبير والشاعر المبدع عزيز التوم : معذرة اذا تأخرت في الكتابة اليك أوتقاعست في تلبية الدعوة ورد التحية بأجل منها ، فهناك ما هو ظاهر . . قد تكون رغبة لا شعورية في التلذذ باجترار العبارات والتأمل في حلاوة الكلمات . . تأملات وجدانية صرفة خشيت أن ينقطع حبل وصلها بعدما امتدت حبال المودة وجسور المحبة خلال سنوات طويلة من حسن المعاشرة وصدق المعاصرة وخصوصية المصاهرة الفكرية والشعورية في جلسات صفاء ولقاءات وفاء تحت ظلال «واحة الاتحاد» شحذت همتي في تجويد الكتابة وقدحت ذهني في الانكباب على القراءة وحفزتني للمشاركة الشريفة مع أقلام عملاقة تملأ رحاب الواحة بأجل افكار وأطيب الشمار التي تغوص جذورها في أعماق النفس وتمتد فروعها في افاق العقل ، وربطتني وشيخة العروة الوثقى مع مجموعة من القراء يتابعونني ويتعاملون معي ويعلمونني الصواب والخطأ . . ويلهموني الامل بعد اليأس في مواصلة المسيرة الطويلة في رحلة الكتابة العلمية والادبية .

أما الباطن - والله أعلم - من تأخير الرد وهو ظني أقرب الى الحقيقة ، هو احساسى المتزايد وشعوري المتعاطف بثقل المسؤولية . . مسئولية العمل . . ومسئولية الكتابة . لقد أصبح العمل يطفئ جذوة الحماس ويستنفد وقود الصبر . . ويحرق مخزون الطاقة التي تزودنا بقدرة الابداع في مجال العمل . . وحقل التعامل . أما مسئولية الكتابة فتفرض علينا أن نوفر لأنفسنا الحد الأدنى من الزمن الذي يستوعب الحديد في مجال الطب ودنيا الأدب حتى تكون حصيلة الكتابة معبرة عن شىء ذي قيمة ارتبط بمعيار ثابت في ذهن القارئ الفطن الذي يقيس الكلام بمعيار الذهب . . ويميز بوضوح بين الغث والسمين والكلام الصادق والقول المفتعل .

وأمام هذه المعادلة الصعبة ، كان لابد من التوفيق في الميزان والتوقف للموازنة والقياس والتقويم حتى لا يدفع القارئ ثمن الرأي المتسرع أو البحث المرتجل وأحب أن أطمئن الكاتب الكبير بأنني قد فرغت من كتاب بعنوان «مقالات مختارة

من الطب والادب» أتمنى أن يحقق رغبته في «المزوجة بين العلم والادب» التي أشار إليها واعدده بنسخة منه باذن الله ، كما أود أن أعبر عن غبطني بملاحظاته القيمة وسعادتي بفراسته النابعة من تجربة الحكم الذي أثرى الزمان عقله وصقل وجدانه حين استبان من خلال كتاباتي مشاركته لي في بعض المفاهيم العلمية وتفسيراتها النفسية من خلال الخرافة والاسطورة واعدده أيضا بنسخة أخرى من كتاب «الدلالة النفسية للأمثال العامة» وهي محاولة لتحليل الظواهر الطبيعية من منظور «سيكولوجي» في اطار الطب النفسي ويجرى طبع هذا الكتاب الآن في بيروت . . المدينة الصامدة رمز التحدي المحترقة بنيران الفتنة وهيب المحنة وهي تحمل في بطونها أجنة الكتب وتخبئ في أرحامها ملحمة الاقلام المبشرة بالخير والحب .

لقد عز علي أن يمر مقال الاستاذ الكبير المقدم بالثناء الشخصي والوفاء الصحفي بجنود الكلمة المقاتلين في خندق واحد رغم تباين التخصصات واختلاف الهويات دون أن تجد الصدى المائل الآتي من الشط الآخر .
ونأتي الى الجزء الأخير من مقالته والذي يطلب مني فيه أن أقول «كلمة علم النفس» في الحقيقة والخرافة عن الغول والعنقاء والسعالى .

لقد أعجبتني مقارنته العلمية لدور العدسة أو «كاميرا» العين في نقل الصورة الحسية الواقعية عبر الممرات العصبية الى داخل العقل وترجمتها ونوع الاستجابة . . مع دور نقل الصورة الخيالية العقلية أو «الخيال العقلي» الى الخارج وشكل الاستجابة . . مقارنة شكلين من الابداع . . احدهما خارجي ملموس يخلق استجابة داخلية غير محسوسة والآخر داخلي غامض يحدث استجابة خارجية ملموسة فالى أي مدى تتطابق صورتان أو مختلفان وما هي نسبة الحقيقة ومدى الخرافة في الموقفين؟!!

من هنا نستطيع أن نبدأ الحديث عن الغول والعنقاء والسعالى من منظور «سيكولوجي» في اطار الطب النفسي . . تبدأ بدور الثقافة في تشكيل عناصر الفكر

الانساني الذي تتكون منه تصنيفات الاعراض المرضية والمسميات الخرافية أو الاسطورية والامثال العامية والحكاية الشعبية في مفهوم «الطب الشعبي البيئي» في مقابل دلالة الهذيان أو الضلالات المرضية الخارجة عن منظومة الثقافة البيئية والتي تشكل الاعراض المرضية في الطب النفسي مثل الهلاوس السمعية حين يسمع الفرد أصواتا لا وجود لها من الواقع أو البصرية حيث يرى موجودات غير مرئية أو شمعية أو لمسية، فأين تبدأ الحقيقة وتنتهي الخرافة .

والى أن نلتقي في حديث مفصل حول هذه المواضيع أرجو أن يكون فيما تقدم استجابة مبدئية تليق بالدعوة الكريمة التي وجهها الكاتب بجهد أدبي مقدر وردا متواضعا للجميل الذي طوق به عنقي وأن تكون هذه مجرد رءوس أقلام للقضايا التي طرحها في انتظار النقاش سأتناولها بالقدر الذي تسمح به مساحة «الواحة» واترك التفاصيل في بطون الكتب التي أشرت إليها . . ولكل مقام مقال .

العقل الغائب

بادىء ذي بدء أود أن أستحضر في ذهن القارئ الخلفية التي أتناول بها موضوعي اليوم فهي امتداد لمقالة كتبها الأستاذ عزيز التوم منصور في (واحة الاتحاد) تحدث فيها عن الجن والخيالات والتهويل والشعراء والأطباء وانتهى في ختام مقالته يناشدني أن أدلي بدلوي حول اسطورة السعالي والغول والعنقاء من وجهة نظر علم النفس وقد وعدته كتابة بأن أفعل ذلك وشاءت ظروف سفر مفاجيء أن ينقطع الحديث ولسان حالي يقول: ان وعد الحردين عليه . .

ولا أحسبني أفضل من يتناول بالكتابة أو يتوجه بالخطابة في هذه الموضوعات إلا في حدود التكليف المشروط واطار المهنة المحددة كطبيب نفسي يقع علم النفس كأحد روافد تخصصه وليس مجال ابداعاته بأكثر مما شاهد داخل المختبر العلمي أوقراً في النظريات الفلسفية أو مارس المعالجات النفسية ولا تروق لي فكرة استحضار الجن والملائكة ورؤية الغيب شهوداً كما يدعى البعض أو وصف طريقة الوصول الى فتح باب المجهول والرجم بالغيب كما يتصور البعض الآخر أو تفسير ظواهر الخرافة والرؤى وللأطيف دون تقديم أدلة علمية بوجودها أو عقاير طبية لعلاجها أو طرح تفسيرات عقلانية يحكمها المنطق المقترن بالسنن الثابتة في الحياة الكونية مما حمل كثيراً من أهل العلم على الانزواء بعيداً عن ساحة المشاركة طلباً للنجاة وإيثارا للسلامة .

على أن الثابت والمعروف أن المناظرة القديمة والخلاف المفتعل بين العقل والدين وموقفهما من البدع والتأويلات والخرافة والتهويمات وتلوث العقل والوجدان باسم العلم والايان ، هذه المناظرات الفجة والمجادلات العقيمة قد حسمت نهائياً والى غير رجعة من خلال موقف الاسلام الصحيح النابع من

القرآن الكريم والحديث النبوي حين جاء الاعتبار الشرعي بالعقل في الاحكام منظورا فيه الى أن العقل آية الرشد فلا مسئولية على غير عاقل : القاصر حتى يبلغ سن الرشد والسفيه حتى يبرأ من سفهه والمجنون حتى يشفى ويعقل وسقوط التبعة «في مثل هذه الاحوال ليس تعطيلاً لأصل الحكم بحمل الأمانة وتبعتها كل نفس بما كسبت رهينة» بل تنتقل التبعة والمسئولية الى الولي أو الوصي . ففقدان العقل يعني مسخ الأدمية في قوله تعالى ﴿ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ وفي فضل العلم قوله ﴿وانما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وفي الحديث «ان الله لا يقبض العلم انتزاعاً من صدور العلماء ولكن يقبض العلم بقبض العلماء وحتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رءوساً جهالاً ففسلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» متفق عليه ، و«من قال لا أعلم فقد أفتى» .

كان لا بد من هذه المقدمة الطويلة وأنا أتطرق في حذر شديد الى وجوب التفريق بين الظواهر الكونية المجهولة في الحياة والتي يسعى العلم بكل اكتشافاته العصرية للوصول الى فك رموزها وبين حقيقة الطلاسم وسر الغيب الذي اختص الله به ذاته العليا وحجبه عن غيرها علماً وعقلاً .

وقد جاء في (الصحيحين) عن رسول الله ﷺ انه قال «يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا! ومن خلق كذا! حتى يقول من خلق ربك ، فاذا بلغه فليستعذ بالله» بيان الحدود في مجارة أوهام الوسوسة ومفهوم الهلوسة التي ينبغي التوقف عندها والاستجلاء فيها بنور العقل ويقين العلم بين من يزعمون رؤية الجن والملائكة حضوراً ويرون الغيب شهوداً وبين من تأخذهم الفتنة بالشيء مما يضلل الرؤية نتيجة لانفعال الوجداني أو التوتر فيتصورون الأشباح والأطياف والخيالات وهؤلاء غير سادرين في غي أو سائرين في ضلالة عن وعي ولكنهم أسرى حالة نفسية اما عرضة طبيعية أو مستعصية مرضية أشبه بالجنون .

يقول علماء التفسير (ليس من الضروري قصر دلالة الجن على ما ألفنا من اطلاقه على الأشباح والخيالات في تهاويل الظلمة وتصورات الوهم بل يتسع لفظ الجن بدلالته اللغوية والقرآنية لأي جنس غير أنسي في عوالم غير مدركة

ولا تخضع لنواميس حياتنا) ومن هذا يبدو واضحا ان الاكتشافات العلمية الحديثة لا تنكر احتمال وجود عوالم أخرى خفية ذات مخلوقات مختلفة في الكواكب والبحار نجهلها ولكننا لا نكف عن اكتشافات خفاياها وبذلك نخرج من دائرة المحظور الديني والعلمي في الرجم بالغيب ونسقط تهمة الزندقة عن العلم وشبهة الخرافة عن العقل ونقصر تصديقنا بالسمعيات والمرثيات الغيبية على ما جاء في القرآن والحديث دون الاعتقاد بمخالطة الجن والملائكة ومشاهدة الشياطين التي يدعيها البعض من السحرة والدجالين والمشعوذين بأنهم يستحضرونها بفضل الله تعالى ويرونها شهودا بما عندهم من مفاتيح الغيب .

قال الامام الشافعي رضي الله عنه (ان من زعم أنه يرى الجن شهودا لم تقبل شهادته) لأن شروط الشهادة في الاسلام تنص على سلامة العقل فإذا زعم أحد الناس رؤية الجن فاما أن يكون صادقا في شهادته فيصبح مريضا في عقله واما أن يكون كاذبا في شهادته فيكون مجرما في خلقه وفي الطب الشرعي تسقط المسئولية الجنائية عن كل مجنون يدعي النبوة كما قال فيكتور هيجو .

لقد قال الله تعالى ﴿وما خلقت الانس والجن إلا ليعبدون﴾ فإذا كان من معجزات النبوة وخوارق العادة التي نصدق بها ما جاء به سحرة فرعون الى موسى عليه السلام حين ألقى عصاه فأراها تهتز كالجان . . ولكن شياطين الانس هو التعبير المجازي الغالب الاستعمال في حياتنا عندما نقول (جن جنون الرجل) (وربّه عفريت) وكما روى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال لرجل (هل تعوذت من شياطين الانس؟) فالجن فيهم صالحون راشدون ومنهم عصاة مضللون . . وللحديث بقية .

الفردوس الضائع

جاء في تفسير (الكشاف) عن دلالة الشيطان والملائكة في الكون تشبيه الشيء بوجه الشيطان على شدة القبح وتناهي الكراهية لأن الشيطان مستقبح مكروه في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير فيقولون في القبيح الصورة (كأنه وجه شيطان) وإذا صوّره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يكون وأهوله كما أنهم اعتقدوا في الملك (بفتح اللام) انه خير محض لا شرف فيه فشبّهوا به الصورة الحسنة، وقد اشطط خيال الكتاب والشعراء في الأسطورة والحكايا الشعبية في تجسيد المفارقة وبعد المقارنة بين صفات الشيطان والملاك بحيث يتمثل الشيطان في الاستعمال المجازي لشياطين الانس في هيئة أشباح وخيالات مخيفة بينما يصور الملاك في هيئة وجه ناصع أو ضوء ساطع أو ألوان ضاحكة ووجه مشرقة فيقال (وجوه الملائكة أو ملائكة الرحمة) فتقترن الصورة في الأذهان بالطمأنينة والأمن النفسي والهروب من دنيا الشيطان في جحيم النار الى الفردوس الضائع في جنة الملائكة .

هذه الرغبة في الهروب من النار الى الجنة أو من الشر الى الخير تسيطر على الانسان منذ بدء الخليقة مستترة في ولع مستمر باكتشاف ذلك المجهول واقتحام الدهاليز المكهفة من خلال رحلة النمو التي تتفتح فيها غريزة الفضول الفطري للاكتشاف عند الطفل وتحرك روح المغامرة عند الشباب حتى تنضج دافعية الراشد في تطوير معارفه الذاتية من خلال تفكيك رموز بيئية وتحويل أسرار شفرتها الى رموز خاصة به لها دلالات شتى تصب في نهر المعرفة الواحد في عقلية . منذ ذلك الوقت والحياة أصبحت مجموعة رموز تحتاج الى استجلاء وتحليل في عدة معاجم وفهارس نظرية وعملية . . لفظية وحركية هي موسوعة المعرفة التي يتعامل

بها مع الغير ويفهم من خلالها سلوك الآخرين . . هذا التكوين النفسي أفرز النسق الاستطلاعي والزخم الفضولي والنهم الاستكشافي الذي يتشكل في سلوكيات ثابتة ومتغيرة تهدف الى اشباع نهم الانسان للمعرفة وأخذت عدة مسميات علمية ومظلات وهمية كالسحر والتنجيم والتنويم المغناطيسي واستحضار الارواح وقراءة الكف الى آخره .

المعرفة نوعان : نوع متصل بالحياة الخاصة وآخر مرتبط بالوجود العام ومن خلال الربط بين النوعين يحاول الانسان أن يكتسب مقومات وجوده ومواصفات كينونته ومعطيات توازنه النفسي وتكيفه الاجتماعي .

يكفي أن تقرأ القصص المستوحاة من فنون الأساطير والميثولوجيات الاغريقية منذ عهود قدماء اليونان حتى بداية القرن الحديث وازدهار العلوم الانسانية وأكثرها علم النفس الذي بدأ يدرس سلوك الانسان ويحاول تحليله ويجاد الوسائل المناسبة للتعديل والتمويل من خلال التأمل في الأعماق الداخلية للنفس البشرية والبحث في البيئة الخارجية في اطار العلاقة السببية بين ما يحدث بالداخل دائرة على ما يجري بالخارج والعكس صحيح .

من هذا المنظور أصبح سلوك الانسان الغامض تحكمه عدة معادلات تطبيقية مختبرية ثابتة ومتغيرة . . فالثابتة يتفرع منها ما يدخل في نطاق الغيبيات الذي تحدثنا عن وجوب اليقظة فيه إلا ما وقع في نطاق نشاط النفس اللوامة والنفس المطمئنة والنفس الأمانة بالسوء في حدوث الوسوسة والمس والايحاء والفتنة والاستهواء أما العوامل المتغيرة فيندرج تحتها أحداث الزلزلة الداخلية والبراكين الخارجية التي يتسبب فيها أوينجم عنها هذا النزوع الخرافي للتصديق بالسمعيات المرئية الغيبية اما عن وعي كحالات الانفعال والخوف وشدة الحزن وفرط الكآبة أو عن غير وعي كحالات الهذيان والخلط الذهني والمرض العقلي الشديد .

ان الانسان قد يرى ويسمع ويشم ويتذوق ويلمس أشياء لا وجود لها وهو في حالة وعي ظاهري ولكنه في حالة غياب عقل باطني وانقطاع عن الواقع أي مرض ذهاني كالإكتئاب العقلي الشديد أو فصام الشخصية المزمن ويكون الأصل

في حالة الوعي هو وجود الآخرين في دائرة الواقع الذي تنقطع صلة المريض به عندما يصبح معتلاً عقلياً أما في حالات اتصاله بالواقع والتعامل معه حتى في حالات شديدة ونادرة كمرض العصاب الحاد يكون مريضاً نفسياً فقط وكمثال لذلك حدوث اختلال الأنية (الأنا) حين يمتلك الفرد شعور زائف بالألفة والتعود الكاذب لمكان يدخله لأول مرة ولكنه يجزم انه سبق وعاش هذه التجربة بكل أبعادها وما يدور حوله مجرد إعادة شريط (REPLAY) لاهداث قديمة رغم خطأ الاعتقاد أو العكس كأن يفقد احساسه بالمعاشة للمكان الذي يعيش فيه وتفصل عاطفته من مجارة معارفه واخوته وهذا أكثر خطورة اذ يحدث في حالات المرض العقلي الشديد كفصام الشخصية فيأتي من الأقوال ويرتكب من الأفعال ما يتناقض تماما مع الواقع تحت تأثير هذه (الاعتقادات الخاطئة) أو (الضلالات المرضية) نتيجة فقدان البصيرة كما يسميه علماء الطب النفسي .

أما في حالات رؤية الاشباح والخيالات في حالة ضبابية اليقظة أن انخفاض درجة الوعي في اصابات الدماغ كارتجاج المخ أو الحميات العالية الشديدة أو حالات التسمم العقلي الحاد أو المزمن كأضرار الكحول والمخدرات فتكون المرثيات والسمعيات نتيجة الخلط الذهني والهديان الذي يصور أشباحاً غريبة مخيفة تتحرك ووجوها قبيحة كالشياطين لارتباطها بدلالة الشر في اللاشعور كما ذكرنا فقد يصرخ المريض أو يهرب أو يهاجم دفاعاً عن نفسه من خطر مجهول لأنه يستحيل أن تكون هذه التجارب سارة أو مطمئنة في مثل هذه الظروف بل هي أشبه ما تكون بشريط سينائي من أفلام هيتشكوك . . وللحديث صلة .

القيمة . . والتمن

عودا على بدء أعود لأقول ان رؤية الأشباح والأجسام الغريبة مرتبطة بالحقيقة في حدود ما فصلناه من حديث سابق . . ومتصلة بالخرافة في سياق ما أوردناه من تأثير الشحنات العاطفية والمواقف النفسية الطبيعية كحالة الأم الغارقة في الحلم تصحومذعورة على صوت رضيعها في الغرفة المجاورة فتهرع اليه لتجده يغض في نوم عميق لأن خوفها عليه كان متغلغل في مساحات اللاشعور قبل أن تذهب للنوم وعندما غفا (الرقيب) الذي يتحكم في تصرفاتها في حالة (الصحوه واليقظة) طفا الى السطح ذلك الاحساس الداخلي بالخوف . . وكالأب الذي ينتظر وصول ابنه المسافر يقطع نومه مسرعا الى الهاتف استجابة للرنين المتصل أو صدى القادم من بعيد حتى إذا خرج وجد الهاتف يقبع في هدوء والأبواب موصدة في صمت . . والمقابلة بين الطفل النائم في غرفة مجاورة والولد القادم من مكان بعيد محاولة لتذويب عنصر الزمان والمكان في الرؤى السمعية والبصرية في المواقف المشحونة عاطفيا والمغمورة في العقل الباطن .

الى جانب هذا هناك المواقف الواعية والمصحوبة بسلوكيات غير منطقية ومرتبطة بمواقف نفسية عاطفية ثابتة أو متغيرة كقول أبي الطيب المتنبي :
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

وهكذا يعكس شاعر الحكمة في شفافية متناهية علاقة مفهوم (الاسقاط) في علم النفس والعقدة الاضطهادية(بارانويا) واضطرابات الشخصية غير السوية . . وهنا يوجد خيط رفيع أو حائط قصير بين المرض والعافية والحقيقة والخيال والخطأ والصواب . . مجرد قوة دافعة طفيفة أو أخرى جاذبة خفيفة تطغي في أي اتجاه تستطيع أن ترجح كفة الميزان لجانب المرض أو العافية وهذه القوة تتمثل في البيئة

المحيطة المشجعة في هذا الاتجاه أو المثبطة في الاتجاه الآخر.

كلنا يعرف أن الذين يسيئون الظن بالآخرين هم أكثر الناس توهمًا وتصديقًا للاوهام وضحاياًا للتفسيرات الخاطئة تجاه سلوك الآخرين فالذي يتربص بأحد ليؤذيه يدفعه في هذا الاتجاه إعتقاد خاطيء بان الآخر يسعى لا يذائه ومن هذا المنطلق يرى في كل حركاته وسكناته تبريرا يخدم هذه الغاية مما يدفعه الى الوقوع في مصيدة الظنون مهما يقال له: ان بعض الظن إثم ولا يجيق المكر السيء إلا بأهله .

فالمرض كنفيز للصحة وأخطرها اعتلال العقل والنفس والأفكار المرضية كنفيز للبصيرة الواعية وأهمها سلامة الجوارح والجهل كنفيز للعلم وأفضله الارتفاع بالوعي وإثارة الادراك، كل هذه درجات متفاوتة من صقل استجابة الانسان للظواهر الغيبية أو مدى تصديقه لها أو تحقيقه فيها أو بحثه عنها . فالمرض البدني أو العقلي كما أوضحنا له أنماط معينة من الأشباح والاهام والخيالات المنسوجة من درجة ذكاء الانسان ونتاج بيئته وحصيلة ثقافته التي تشكل طبقات الوعي والشعور والاشعور والأفكار المرضية تخرج من اطار المنطلق السوي الى عالم اللامعقول فتعيش في عالم السحر والأشباح في أقصى درجات اليقظة والانتباه مشدودة برغبة داخلية في الوصول بأقصر الطرق الى نتيجة غير منطقية في ظروف إجباطية معينة . . أما الجهل فهو آفة الانسان . . ذلك الكهف المظلم الذي تخرج منه كل عفاريت الدنيا وشياطين الآخرة . . ذلك المحيط العميق الذي تعيش فيه الديناصورات والحيوانات الاسطورية وتلك الغابة الموحشة التي تتجول فيها الغيلان والسعالى . .

ان الخرافة في حد ذاتها تعبر عن مدلول الخرف أو عتة الشيخوخة وهي في مرحلة متقدمة من العمر عند بعض الناس تتميز بتدهور القدرات العقلية العليا أي المحصلة النهائية للذكاء عند الانسان وتتمثل في نكوص سلوكياته الى مرحلة طفولية مبكرة نتيجة تلف خلايا الدماغ (الخلايا النبيلة) مما يؤدي الى هبوط الذكاء وضعف الادراك وبما أن الخلايا الميتة لا تتكلم فيكون الانسان قد تعطلت

فيه أنبل القدرات العقلية المميزة له عن الحيوان فتعجز عن أداء وظيفتها ولذلك يطلق على أفكار وتصرفات الانسان في هذه الحالة (تخريفات) أي ترهات وليدة خيال مريض وشطحات لا وجود لها في الواقع نتيجة ضعف الذكاء وانهيار البناء الفكري يرسخ من هذا السلوك استغلال الخرف كحيلة نفس دفاعية تساعد المسن على الاحتفاظ بتوازنه حين تتسع الفجوة في ضعف الذاكرة فيخلق الأحداث ليملأ هذه الفجوات المتناثرة بأشياء يتصورها لاشعوريا لمواجهة العجز الواضح في ادراكه للمواقف والتعامل معها وتصبح ضالة كخيال الطفل المجنح الذي يملأ الفراغات المبعثرة في أحاديثه بشطحات حول الحيوانات التي لم يرها أو السعالي التي لم يشهدها وشتى أشكال الأشباح كالغول والعنقاء وجميع المفردات اللغوية التي شكلت حصيلة ثقافته من تراث بيئته وحكايا جدته واخوته وعندما تعود الحيلة أو ينجح به الخيال أو يصيبه الاحباط يلجأ الى الكنز المفقود . . يبحث عن تفسيرات معقولة لأشياء غير منطقية يحاول أن يراها أو يسمعها وينبش في أعماق القطع الأثرية ليعثر على تحفة أسطورية تبرر سلوكه الخرافي أو يشد بها انتباه الآخرين . .

هكذا يفعل الطفل في حالة العافية بحكم صغر سنه وقدرته العقلية المحدودة ومتطلبات نموه الذهني وهكذا يفعل العجوز في حالة الخرف بحكم تقدم سنه وتدهور قدراته العقلية وخياله المضطرب وهكذا يفعل الجاهل في اليقظة والنوم بحكم قصر نظره وضيق أفقه وعقله القاصر وخياله السجين في زنازاة الجهل وقد قال تعالى ﴿وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ . . صدق الله العظيم .

وقال أحد الحكماء: العقل نعمة وأغلبنا يعرف قيمته ولكن بعضنا يجهل قدره ولكننا جميعا نعرف ثمنه عندما نفقده وعندئذ فقط نعرف انه لا يقدر بثمن . .

فما أعظم الثمن والقيمة !

الميزان

دعونا نتساءل كيف يستطيع الانسان في وقت واحد وموقف واحد أن يجمع بين مغزى القول المأثور (الساكت عن الحق شيطان أخرس) وبين مدلول الحكمة القائلة (إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب) والسكوت معناه العام ضد الكلام كما ان السكون نقيض الحركة إلا إذا أخذنا بالتفسير الفلسفي لدلالة السكوت الحسية والمعنوية وان النقيض المعنوي للمتكلم هم الصامت وان الصامت ليس الأخرس .

دفعني الى هذا التفكير ملاحظة عابرة هي وليدة انطباع أكلينيكي وليست حصيلة بحث علمي حول تأثير بعض الهزات النفسية المعينة والتي يكون فيها الفرد ضحية الأزمة فريسة الصراع بين فضيلة الصمت ومشروعية الكلام : هل كان ينبغي أن أسكت أم أتكلم؟ هل كان كلامي صحيحا؟ ماذا كان يحدث لو لم أتكلم؟ ألم يكن من الافضل أن أسكت؟ حتى اذا فرغ من اجابة كل هذه الاسئلة ووصل الى نتيجة موجبة تحكم له بمشروعية الكلام بدأ يقلب مواقع المسألة من الوجه الآخر . لماذا التزمت الصمت في وقت الكلام؟ ولماذا لم أتكلم في الوقت المناسب؟ ولماذا لم أقل كذا وكذا؟ وعندما يصل الى نتيجة سالبة تحكم له بفضيلة الصمت وتؤكد له أنه فعل خيرا عندما صمت يبدأ الدخول في دائرة الشك واليقين والوسواس من جديد .

ان أغلب الناس يرغبون في الكلام . . ويحسون بحاجة ورغبة ملحة داخلية صارخة في التعبير عن مكنونات أنفسهم بأي وسيلة وأي أسلوب حتى لو كانت الوسيلة لغة الاشارة وكان الاسلوب بالايحاء والاياء والغمز واللمز . هذه الرغبة الغريزية عند الانسان ظلت وسوف تظل أحد الحوافز القوية التي تحرك الفرد تجاه

الجماعة وتقرب المسافات بين الناس يحدّ من اندفاعهم فيها الحديث الشريف «وهل أكبّ الناس على وجوههم في النار إلاّ حصاد ألسنتهم» وهذا الحصاد السالب أو الموجب هو ثمرة العلاقات الانسانية التي هي القوة المحركة عند الكلام أو المقيدة عند الصمت .

وطبيعة الانسان انه جنس ناطق . . فقد ميزه الله عن الحيوان باقتران الحواس والجوارح بالعقل والقلب وحمله أمانة سمعه وبصره ولسانه وسائر جوارحه ونبهه الى ضرورة عدم تعطيل العقل والحواس والجوارح عن وظائفها الانسانية في قوله تعالى ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفقتين وهديناه النجدين ﴾ وترك له حرية الخيار في أن يضل أو يهتدي . إذن فالانسان مجبول على استعمال جوارحه وحتى نفرق بين الانسان والحيوان علينا ان نعلم أن هناك حيوانات أحدّ بصرأ وأكبر أذناً وأضخم أنوفأ وأطول لساناً من الانسان ولكنها لا تنطق ولن تتكلم وبهذا يصبح حقيقة أن (الساكت عن الحق شيطان أخرس) بصفة عامة إلاّ ما كان في حالات يجب التفصيل عنها في وقت لاحق إذ يقول تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ، أولئك هم الغافلون ﴾ . .

وفي مجال الطب النفسي لقد كانت أول البدايات في المعالجة النفسية ما يسمى (العلاج بالكلام) Talking Cure ثم تطورت أساليب وممارسات المعالجة لوسائل الاسترخاء بـ (التداعي الحر) Free Association لايجاد المناخ النفسي الملائم للمريض لكي ينطلق من قمم الصمت الفولاذي الذي سوّرت به ظروف الاعتلال النفسي وضعف التكيف لكي يفرغ ما بداخله وسمى (بالترويح النفسي) Abreaction وفي الحالات التي يصعب فيها ايصال المريض الى هذه المرحلة من الاسترخاء أو يستحيل فيها فتح منافذ ضوئية داخل هذا القمم يلجأ المعالج الى تكسير هذه القوقعة بالتنويم المغناطيسي Hypnosis وقد يستعمل العقاقير الكيماوية لكي يحدث قسراً فتحات يتدفق منها مخزون الطاقة النفسية المحبوسة ويسمى (التفريغ العقلي) يحل بها عقدة لسان المريض ويفتح بوابة

الدخول الى قلبه فيصبح الكلام في حد ذاته مدخلا الى العلاج وأسلوباً في المعالجة .

ولذلك لاحظ الاطباء النفسانيون في وصف الأعراض المرضية ان فقدان القدرة على الكلام في غياب تعطيل عضوي حقيقي للوظيفة الفسيولوجية لأجهزة الكلام كاللسان والشفاه والفجوات الهوائية الى آخر بل فقدان اللذة في الكلام وفق المشاركة في الحديث والرغبة في الاستماع الى الآخرين قد تكون من أهم الأعراض الدالة على حالة المرض النفسي أو العقلي وللتفريق بين الاثنين يأتي ضرورة تحليل الشكل والمضمون للكلام لتحديد مدى ارتباطه بسلامة الحواس ورجاحة العقل والقلب .

ان الطبيعي والفطري والمميز للانسان هو الكلام لا الصمت . . هو الايجابية وليست السلبية تجاه البيئة المحيطة به . . ولكن كيف يتصرف الفرد الذي يقول ان حكمته التي يؤمن ويعمل بها في الحياة تقول (اذا كان الكلام من فضة فان السكوت من ذهب) وقد أثبت له التجربة الخاصة والملاحظة العامة صدق حكمته . ان السكوت خشية الوقوع في اثم الكلام عصمة أما الصمت خوفاً من رفع الظلم معصية قال تعالى ﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم﴾ . . وهذا تحذير من عقاب الكذب وليس من مطلق الكلام . . والموقفان موزونان بميزانين مختلفين . .

والميزان هو في عقل الفرد ذاته . . داخل دماغه وما الحواس إلا مترجم لما يصدر من اشارات وتنبهات من هذا الجهاز الحساس المعبر . . مترجم في غاية الصدق ومنتهى الأمانة وتعطيل هذه الحواس افساد متعمد لوظيفة هذا الجهاز المتميز وفيه اخلال بالتركيب الانساني للبشر إذ جعلت هذه الأجهزة أداة وعي ورشد ونصر وإدراك وشاهدة على الانسان بالعمى عن رؤية الحق . . والصمم عن صوت الهدى والغفلة عن كف الأذى عن الناس .

وميزان الانسان الخاص به هو مفتاح شخصيته . . ميزانه الذي يقيس به الأمور كالمخلوق والصواب ويُصنف به الناس في الخير والشر . . والمخلوقات في

القبح والجمال والمبادئ في الحق والباطل .

فإذا اختل ميزان الفرد عن وعي فقد ظلم نفسه كثيرا بغير حق وظلم
الآخرين أكثر بلا مبرر وإذا اضطرب ميزانه بغير وعي فقد انطمس عقله فضل
طريقه بدون إرادة وهذه أحد الحالات التي يجب التفصيل فيها .

سلطان الوعي

روي عن علي رضي الله عنه قوله «ان هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها» وأصل الكلمة في اللغة من «الوعاء» واحد الاوعية و«أوعى» الزاد والمتاع جعله في السوعاء و«وَعَى» الحديث يعيه «وعيا» حفظه . . وأذن «واعية» ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ أي يضمرون في قلوبهم من التكذيب . . أما (السلطان) فهو الحجة أو البرهان فلا يجمع لأن مجراه مجرى المصدر و(السلطان) هو الوالي ومصدره فعلان، يُذكَر ويؤنث، والجمع السلاطين.

ان أقرب صورة قلمية تصور سلطان الوعي قرأتها في قصيدة للقاضي الجرجاني، أحد أئمة الفقه والأدب واللغة وصاحب كتاب (الوساطة بين المتنبئ وخصومه) . . مطولة توضح حق العلم على العالم وسلطان الوعي على الانسان في ضرورة التسامي وفضيلة الترفع وعزة النفس يقول فيها:

يقولون لي فيك انقباض وانما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
أرى الناس من دانا هم هان عندهم ومن أكرمه عزة النفس أكرماً
اذا قيل هذا مشرب قلت قد رأى ولكن نفس الحر تحتمل الظماً
وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل أهل الأرض أرضاه مغنماً

وروي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ) قوله: «ان من اجلال الله تعالى اكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير المغالي فيه ولا الجافي عنه واکرام ذي السلطان المقسط» . . وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب أعظم نموذج للسلطان المقسط، وقد كانت خطبة ولايته أروع مثال للتكوين النفسي لسلطان الوعي في أبسط صورة في الممارسة الحياتية اليومية حيث قال: (ان الله عز وجل قد ولاني أمرکم وقد علمت أنفع ما بحضرتکم لکم واني أسأل الله أن

يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمرني به وأني امرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ما أعان الله عز وجل ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئاً إن شاء الله انما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شيء فلا يقولن أحد منكم ان عمر قد تغير منذ ولى . . .) .

ان سلطان الوعي تبدو قسماته في مفهوم عمر بن الخطاب للعلاقة بين الحاكم والمحكوم وبين أفراد الرعية وبين الحاكم وربه وبين العبد وخالقه في اطار دنيوي قابل للخطأ في غياب مبدأ العصمة التي لم يرثها الخلفاء . . . وأيضا سلطان الوعي لا يتحقق من خلال تطبيق مفهوم الوعي عند القاضي الجرجاني الذي ضيق دائرته في مواصفات مثالية محدودة في سبيل الوصول الى غايته الى حد اختيار (العزلة) والاعتكاف حين وجد أن منهجه الحياتي لا يساير فكر الآخرين فأثر الوحدة على الاختلاط والعزلة على الاجتماع حفاظا على فضائله الخاصة به ولكن سلطان الوعي من مفهوم مغاير هو ذلك الهاجس الذي يمثل المحصلة الموضوعية ونتاج امتزاج فضائل العلم . . . وقوة الضمير وسلامة المكونات النفسية وامتلاك القدرات الخاصة المتميزة التي تعوز المتحدث في حجته والفاعل في حركته والصامت في تجربته . . . هي نبض ارادة أشبه بالنفخ المنبعث من الروح الأعلى في عقول البشر . . . تلك القوة الخفية التي تعين على قوة المنطق وديناميكية الحركة ودلالة الصمت . . . كالريح تهب من أبواب سرية . . . كالإلهام الخارجي الذي يحدث في شكل معجزة في ظروف الطوارئ يقول فيه الامام الغزالي (ان الانسان مخير فيما يعلم مسير فيما لا يعلم أي انه تزداد خبرته كلما إزداد علما) .

اذن فالعلم احد أهم أركان الوعي ولكنه وحده لا يكفي لقيام هذا الكيان النفسي ، فالعلم قد يهدي الى التي هي أقوم وقد يضل عن سواء السبيل خاصة في غياب الايمان ومكوناته الخاصة به حيث يقول الامام على رضي الله عنه «الناس ثلاثة : عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق» فالهدى الرباني والقدرة على اتباع القدوة الحسنة والاستعانة بنور العلم واللجوء الى ركن وثيق

هي مرادفات مجتمعة لمفهوم سلطان الوعي . . فاذا كان للارادة الانسانية علو على التاريخ فذلك يعني تحقيق وجود الفكر الانساني (سلطان الوعي) على الحياة المادية والتي هي مجموعة خيارات تقتضي وجود فكر مسبق يقوى على تصنيف الخيارات واتخاذ القرارات .

وسلطان الوعي هو أعلى درجات القدرة على تحقيق الذات الحقيقية في قوله تعالى ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾ . . ٤ , ٥ سورة التين ، ولذلك عندما تتصارع المبادئ الفلسفية كالمادية والوجودية والعبثية فلأن مفهوم (سلطان الوعي) يكتسب معاني متعارضة متصارعة تبدأ من نقطة الاختلاف حول تحديد الرؤية الفلسفية وتنتهي بالاختلاف حول تحقيق الذات .

يقول عالم النفس «ماسلو» بعد أن يسرد اختلافاته الجوهرية مع تفسيرات فرويد خاصة في تحليل شخصية المبدع والمبتكر «ان تحقيق التراث يتم باشباع ما ساه بالحاجات الأساسية ، ويقول ان هناك تنظيماً دافعياً يتدرج من الحاجات ، قاعدته الحاجات البيولوجية كالمأكل والمسكن والملبس ، وافترض ان اشباع هذه الحاجات من شأنه أن يرتفع بالانسان من مملكة الحيوان الى مملكة الانسان» .

وهناك عدة نظريات نفسية تناولت الانسان من أنحاء شتى ومن زوايا متعددة بضرورة فهم متطلبات الثراء الانساني عن طريق شرح تكوين سلطان الوعي . . فبعضها يفترض وجود الشكل الهرمي للتنظيم الدافعي للحاجات . . قاعدته الحاجات البيولوجية وقيمتها الحاجة الى تحقيق الذات ، وقد افترضت تدرج الحاجات على نسق خاص كالحاجة العضوية ، الحاجة الى الأمن ، الحاجة الى الانتماء والحب ، الحاجة الى تقدير الذات ثم الحاجة الى تحقيق الذات ، وان الافراد في صراعهم المستمر من أجل تحقيق هذه الغاية الحيوية النبيلة يتحركون بهاجس داخلي قهري يدفعهم لاستثمار أقصى قدراتهم «الكامنة» ومواهبهم الدفينة لتحقيق الوحدة والتكامل في الحياة وان سلطان الوعي هو المايسترو الذي يقود فرقة الاوركسترا للدوافع الداخلية فيخرج بها من دائرة تناقض النشاط الى رحابة هارمونية الايقاع الذي يرتبط بالشعور المتين لسمو الهوية Identity Transcendence

أوسمو الذات الذي يجعل الفرد يتقبل نفسه بما تنطوي عليه من مظاهر القوة أو سمات الضعف وتعزز لديه الشعور بأهميته وسط الجماعة وتأكيد فعاليته في العالم حيث يرى نفسه على نحو واقعي جزءاً من العالم المتفاعل المتكامل الشخصية، فلا ينشق عن نفسه ولا ينسلخ من واقعه صادقاً مع نفسه والآخرين متسامياً عن مطالبه الغريزية طواعية .

هذه الحالة من التلقائية الذاتية والاستقلالية النفسية تتم عبر مراحل نمو (سلطان الوعي) وبهذا يتحول ضد المفهوم الهلامي الى حقيقة ديناميكية تتبلور في شرائح سلوكية ذات حلقات متصلة بتوصيلات خاصة ذات مواصفات محددة بحيث لا تحل واحدة مكان الأخرى وإلاً تعقدت الحلقات أو صعب تركيبها أو استحال تفكيكها .

ان هذا المنحى يفسر لنا حقيقة الاختلاف حول شبه البديهيات مثل من هو المثقف ومن هو العارف ومن هو العالم وما مواصفات وسمات الجميع !

ان الفرد الواعي يدفع ضريبة استهلاكية عالية لامتلاك هذه الصفة في حياته اليومية باستمرار . . يظل واقفاً على قمة جبل طوال حياته يخشى من السقوط الى الهاوية في عالم يعترف بأن السقوط ليس له قاع . . فحتى يحقق طموحات القاضي الجرجاني عليه أن يتحمل ضغطاً عالية لا تعرف نقطة الانكسار ولا مبدأ الانحسار ولا ضرورة المد والجزر إلاً بمقدار وأن يجيد في الاختيار ويحسن اتخاذ القرار في كل المواقف بدافع ذلك النداء الداخلي الذي لا يستجيب لكل الأصوات ولا يدخل كل الأذان . . فهو يتفاعل بصورة انتقائية لذبذبات صوتية خاصة بصفة سلوكية معينة في ظروف نفسية محدودة . . وقلة قليلة من الناس يمتلكون هذه البوصلة الاسطورية والقدرة «الصميمة» والتي هي أقرب الى الهبة الإلهية . . وصدق القائل :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأى امرئ لم يحى بالعلم ميت وليس له حتى النشور نشور

الفصل الثالث

(أزمة الهوية)

- الطبع .. والتطبع
- رحلة البحث عن الذات
- الشيخوخة بين الدار والديرة
- الصحة النفسية للجميع

الطبع . . والتطبع

يقولون « ان الطبع يغلب التطبع » وقد غلبت هذه المقولة على تفكير عامة الناس ردحا من الزمن ومازالت تحتل حيزا مرموقا في أدب الحديث، والواقع أن هذه النظرية ظلت تشغل العلماء والمفكرين منذ بداية الدراسات النفسية حول دور الوراثة، والبيئة منذ قرون، وبعدها وضح ان عاملي الوراثة والبيئة يعملان منذ لحظة تخلق الأجنة في بطون أمهاتها بأقدار متفاوتة، قد صار الجدل حول الموروث والمكتسب من الطبع يأخذ بعدا آخر تجسده العملية التربوية ونظرياتها الجديدة في سبيل تطوير أو احلال أو تعديل الطباع الموروثة بأخرى مكتسبة من خلال جهود التربويين في شتى المجالات . . ولكن كيف يتم ذلك؟

لقد أصبح التعليم يهدف الى تعديل السلوك نتيجة الخبرة والممارسة وليس نتيجة عمليات النضج أو نتيجة التأثير المؤقت للعقاقير أو الارهاق .

ان عملية التربية تهدف الى ترجمة أهداف المجتمع الى مقومات سلوكية لدى النشء حتى يكون مواطنا صالحا في مجتمع صالح يتعامل من خلال الأهداف العامة والخاصة التي ترسمها الدولة ويتبناها الأفراد والجماعات .

● المقومات الأساسية : ان العادات والسلوك الفكري والاجتماعي والاقتصادي الذي يكتسبه الانسان في مجتمع تكنولوجيا القرن العشرين يستوجب أن تكون الأهداف هادفة الى تطور انسان القرن العشرين وتحدهه في صياغة طموحاته الى سلوكيات بناءة ومؤكدة لشعارات تربوية مثل : المواطن الصالح . . التربية من أجل الجميع . . الفرد في خدمة الجماعة « الحضارة نتاج عقول . . والعمل من أجل السلام » ان هذه الشعارات المكتسبة يطرحها المجتمع من خلال

المؤسسات التربوية كالمدرسة ويحتاج تنفيذها الى بعض المقومات الأساسية حتى يكتب لها النجاح. . وبعض هذه المقومات تتمثل في الآتي :

أولاً : بناء الشخصية السوية للنشء وهذا يتم من خلال مراعاة متطلبات عمليات النمو النفسي والبدني والتربوي للفرد .

ثانياً : تحقيق الثبات النفسي والتنظيم العقلي للفرد . . لأن الفرد يتكون من مجموعة قدرات عقلية تحتاج الى تنظيم في أطر معينة ينتج عنها سلوك منضبط يخضع للقياس والتقويم ، وهذه القدرات العقلية تخضع للفروق الفردية التي تميز بين فرد وآخر . . وتؤكد أن الأفراد رغم التشابه الشديد فهم مختلفون تماما في عدة معايير أخلاقية وسلوكية وانفعالية ، كما تخضع للمتطلبات المختلفة التي تتطلبها كل مرحلة من حاجات غريزية ومتطلبات بيئية .

وثالثاً : تطوير قضية التعليم لأن التعليم عملية ايجابية نتيجة تفاعل حي بين الطالب والمعلم يهدف الى اكتساب عادات سلوكية صحيحة ومهارات فكرية وحياتية واجتماعية ، والمقصود بالتعلم هو تحريك قدرات النشء حتى تخرج الى الوجود بصورة متطورة متجددة نامية لا عفوية عشوائية جامدة ، ولذلك فمن الأهمية بمكان دراسة العوامل المؤثرة في عملية التعلم . . ما هي شروط التعلم السليمة؟ ما هي الظروف المطلوبة لتوفر المناخ المناسب والملائم نفسيا للتعلم؟

رابعاً : العمل على تأكيد أن التعليم تربية اجتماعية وان من مهام التربية خلق علاقة ايجابية بين المتعلم وغيره من المتعلمين على الصعيد الثقافي وبين المتعلم والمعلمين على الصعيد التربوي وبين المتعلم والنظم الاجتماعية على الصعيد الوطني داخل وخارج المدرسة من حيث أنها الاطار الاجتماعي للعلاقات التربوية .

خامساً : ربط التربية بالأهداف التربوية القومية لأن الأهداف القومية للمجتمع تنبع في الأصل من عقيدته ونهج التوجه القومي للأمة والتربية السليمة تسعى لايجاد توافق ذاتي بين الفرد ونفسه يستطيع من خلالها أن يروض نفسه

على الرضا عن النفس بلا أنانية أو تبرم بالواجبات وإيجاد توافق اجتماعي بين الطالب وغيره من خلال تطوير روح الأخذ والعطاء وتقديم التنازلات الشخصية في سبيل المصلحة الجماعية وإيجاد سلوك توافقي عام بين الطالب والأهداف القومية حتى لا تظل الأهداف معلقة بين سماء الخيال وأرض الأمنيات . . بل تظل ملتصقة بوجوده كالنبض الذي ينبعث من الداخل من القلب . . والأنفاس التي تصعد من الرئة . . والأوجاع التي تتحرك في الأحشاء فينام عليها ويصحو معها بحيث يشعر انه أمين على رسالته وعقيدته ودور الأمة التي يعيش فيها . . ان يتعلم كيف يحمل هموم الوطن ويحمل هذه القيم ويدافع عنها فكراً وعقيدة . . حياة وسلوكاً . . تراباً على أرض أو اسماً بخريطة أو علماً على سارية .

سادساً : العمل على أن تظل التربية عملية قياس وتقويم مستمرة . . لأن عالم اليوم يمر بمراحل تطور وطفرة علمية مذهلة وتكنولوجية هائلة مما يجعل المنهاج المدرسي والأطر العلمية القائمة عرضة للتغيير ، ولا يمكن للقائمين على حماية هذه المناهج والأطر مقاومة هذا التغيير من منظور الدخول في خندق دفاعي عنها بل بالانفتاح بعقولهم وقلوبهم لاستقبال رياح التغيير المستمرة والاستفادة منها بالقدر الذي جعل الجديد والمثمر من هذه المتغيرات يتحول بصورة واعية الى سلوكيات هادفة وازدادت كثرة تدفع الحياة في شريان العملية التربوية، وما لم يكن هناك نشاط تربوي دائم في مجال القياس والتقويم فستظل التربية قاصرة على أداء بعض الطقوس اليومية التي يمارسها المعلم والطالب داخل المؤسسات التربوية تصبح عاجزة عن تلبية احتياجات المجتمع والدولة .

● أساليب القياس : ان وسائل القياس والتقويم المستمرة تكون على أربعة أصعدة :

أولاً : قياس نمو الطالب وهذه القياسات تهدف الى الوصول الى بضعة معدلات نستطيع من خلالها معرفة مدى نجاح العملية التربوية في الوصول بالطالب الى تحقيق الأهداف المرصودة من خلال الاختبارات التحصيلية

لاختبارات القدرات والاستعدادات العقلية والميول المهنية واختبارات التكيف وهذا يعطي مؤشرا الى مدى الحاجة الى مراعاة الفروق الفردية وأهميتها في تشكيل اهتمامات الطالب ومستوى أدائه كما تساعد بصورة مباشرة في عملية دراسة المتغيرات في الانضباط الوراثي والانضباط البيئي .

ثانياً : قياس تطور المعلم وغالبا ما يتم هذا من خلال الحلقات التدريبية والدورات التنشيطية والمتابعة الفصلية لنشاط المعلم في المادة وفي متابعة المفاهيم التربوية وما يطرأ عليها من تغيير ومدى قدرته على استيعاب الجديد من مفاهيم التربية . . ان قلة من المعلمين مازالوا في أعماقهم يشعرون ويتعاملون في نطاق مقولة «الطبع يغلب التطبع» ويرون في الميول العدوانية طباعا موروثه من الأب والأم ، وان هذه الطباع تجري في دم الطالب ، ولهذا ينطلقون من قناعة ثابتة في التعامل مع سلوك غير قابل للتغيير فلا يجهدون أنفسهم كثيرا في اجراء التعديل المطلوب لهذا الوضع المقلوب . . وما لم يكن هؤلاء التربويون في معاشة مستمرة وانفتاح متصل على الاكتشافات المتجددة والنظريات الحديثة في مجال التربية حول المفاهيم الموروثة تكون احدى ركائز العملية التربوية قد تعرضت لهزة أرضية أو زلزلة تربوية تعصف بالأهداف القومية للتربية .

ثالثاً : قياس جدوى التعليم ان التعليم الجيد يعني اضاءة مستمرة في كهوف قديمة مظلمة . . يعني اضافة متصلة تجدد وتطور متابعة ومراجعة المناهج ان ثبات المنهاج الدراسي أمام المتغيرات العملية يعني تجميد الحياة في دماغ الأطفال . . فيتجاوزون فترة النمو والمعرفة يلزمهم القصور المكتسب في استيعاب المفاهيم الصحيحة في المرحلة المناسبة . . ويتم قياس التعليم أيضا بقياس الأداء بحصيلة المتعلمين في شتى المجالات ومدى نجاح التعليم في غرس الأهداف القومية الكبرى في فكر الطالب ونظراته للحياة متمثلة في سلوكه العام الملحوظ .

رابعاً : قياس اتجاهات المجتمع . . ان من أكبر الأهداف التربوية تحقيق شعار التربية في خدمة المجتمع وهذا لا يعني فقط نزول الطلاب الى ساحة المجتمع والتفاعل معه أو خروج الاساتذة من ابراجهم العاجية الى أرض

الواقع - كما يحلو لعامة الناس اختيار هذا التعبير في سخرية حاقدة - وإنما يعني في مفهومه العام التصاق وجدان المؤسسات العلمية بهوم الانسان من شتى الزوايا ومختلف الأساليب وأكثر الأساليب فعالية هي استطلاع الرأي والاستبيانات حول هل حققت التربية شعار التربية من أجل الجميع، والتربية في خدمة المجتمع . هل تحقق التوافق بين الأهداف المطروحة والغايات المنشودة من خلال عمل المؤسسات التربوية بأفضل الوسائل وأقصر الوقت وأقل التكاليف؟ هل جاءت حصيلة الطالب معبرة عن ارادة المجتمع الذي تعلم فيه؟ هل نجحت وسائل التعلم في خدمة غايات التربية؟ وهل نجح المعلم في تنمية وتنقية عقل الجيل الجديد لاستيعاب كل ما هو جديد بصورة لا تتعارض مع معتقداته ولا تتعارض مع رغباته في الوصول الى أبعد مدى ممكن في خدمة الأهداف القومية العامة والخاصة؟

إذن فالتربية عملية متكاملة بنائية فكرية نفسية تثقيفية لا تعمل من أجل حشو المعلومات وإنما من أجل اكتشاف القدرات التي تمكن الفرد من معرفة نفسه في البداية، ثم التعامل مع الآخرين في حدود هذه المعرفة، ثم توظيف جهده مع الآخرين في سبيل خدمة المجتمع، وهذه قمة المعرفة وأول مبادئ التربية وأكبر دليل على قدرة الانسان المتسلح بالعلم والتكنولوجيا لتغيير مساره من البداية الى الحاضر. . من الظلمات الى النور. . تؤكد قدرته على «تطبيع» طفل الغابة ليصبح رجل المدينة كما فعل العالم الفرنسي «بينيه» أحد علماء القياس النفسي عندما أثبت دور البيئة في مقولته المشهورة عن الطفل «المتوحش» ودور التعليم في تطوير قدراته العقلية الموروثة .

رحلة البحث عن الذات

يقول عالم النفس الامريكي الشهير أريك أركسون حول «الهوية ودورة الحياة» ان صورة الذات عند الانسان تبدأ في التكوين من خلال صورة العالم المحيط به . . الصورة الوالدية للأم والأب التي تنشأ في الطفولة والمراهقة، والنماذج البشرية القدوة المؤثرة في البناء النفسي له في مراحل نموه الأولى ويكون الفرد اطاره الخاص من خلال مراحل نهائية انتقالية متدرجة تطورا ونضجا حتى يتخذ شكل هوية واضحة محددة لذاته . .

والهوية أو الذاتية تكتمل بتحقيق العمليات التي تمكن الطفل من التقمص أو التوحد مع الاشخاص «ذوي العلاقة بالموضوع» من حوله داخل أسرته ومدرسته ومجتمعه . . وتكوين الهوية خطوة هامة في تماسك ووحدة شخصية الفرد لكي يتمكن من بلوغ درجة النضج التي تحصنه ضد اضطرابات السلوك واعتلال الشخصية في حياته اللاحقة .

وأزمة الهوية لا تحدث فقط في مرحلة المراهقة المتميزة بهذه التحولات النفسية والاجتماعية حيث تتضارب أدوار التقمص بعمق وشدة يؤثران في تحديد صورة ثابتة، لشخصية الفرد، وانما تحدث في كل حالات التغيير المفاجيء أو التحول السريع نحو الأفضل أو الأسوأ في حياة الفرد أو المجتمعات أو الشعوب .

ان أزمة الهوية في المراهقة تحدث عند فشل الدفاعات النفسية في تنمية الشعور بالانتماء والحاجة للتقدير والرغبة في القبول واشباع الرغبات في مرحلة عبور نفسي وطفرة نهائية وتحول بيولوجي جذري في حياة الانسان ولكنها ليست وقفا عليها بدليل حدوثها في مواقف أخرى، كما انها ليست ضرورة لازمة لها بشهادة خروج الكثيرين منها دون مضاعفات .

ان من طبيعة مرحلة المراهقة البحث عن الذات الحقيقية بصورة تجعل التناقض في السلوك الاستقلالي الاتكالي الملتزم المتمرد والمندفع المتردد، وهذه الأدوار المتعارضة المركبة من الصور المنسوخة لأشخاص آخرين نتيجة التقمص لا بد أن تستبدل أو تتوحد في دور واحد يكون ذاته الثابتة، وهويته الواضحة، ورغم اختلاف وسائل التغيير تظل أزمة الهوية أشبه بمرحلة العمل القصصي أو المسرحي الذي تتضارب فيه العوامل المتعارضة أكثر ما يكون التضارب لتبرز عمق الازمة أو نقطة التشكل في العمل الدرامي . . وأزمة الهوية تعني فيما تهدف اليه الحاجة الى وسائل تحقيق الذات كالحصول على شهادة أو الانخراط في عمل أو الاحتراف لهواية أو اكتساب مهارة فكرية أو لغوية أو يدوية تجعل الفرد مقبولاً في كل الأطر الاجتماعية القائمة.

يقول بعض علماء الاجتماع ان انحراف الاحداث يمثل أكبر مظاهر أزمة الهوية . . وفي نظري أنها أحد مؤشرات فشل المجتمع في اكتشاف «عوامل العلة» في المرحلة الحرجة من حياة الحدث في الطفولة أو المراهقة وعوامل العلة تتلخص في العوامل «المعللة» اي التي يتكون منها البناء النفسي لشخصية الحدث والعوامل «المكاملة» أي التي تساعد سلباً أو إيجاباً في دفع الحدث في طريق الجنوح، وهي اما مترسبة في قاع العلاقات الاسرية أو الخلل التربوي المدرسي والعوامل « المعطلة» وتمثل في رفقاء السوء وشلة الأصدقاء التي تمارس الشد والجذب تجاه الانحراف والطرده والدفع عن الاصلاح، وبالتالي تشل قدرة الحدث على استنفار الحفزات الأولية السليمة لديه والدفاعات النفسية التي تمكنه من التكيف والملاءمة والعوامل «المضللة» وهي الاشارات الخاطئة التي يعطيها المجتمع كتفسير لسلوك الحدث في منعطف الأزمة واصطدام المفهوم الذاتي الخاطيء للفرد بالتناول والتصدي التعسفي لجهة الاصلاح للمواقف المشككة المسببة للانحراف، وبذلك تكون محصلة هذه الممارسات «عوامل العلة» التي تمثل حجر الزاوية في تحويل أزمة الهوية في المراهقة أو الفرد أو المجتمع الى قضية انحراف الأحداث أو الأمراض النفسية للأفراد أو فقدان الاصاله للمجتمع أو تفجير أزمة الهوية عند الشعوب .

ان أزمة الهوية لدى الفرد في مجال العمل أو محيط العلاقات الاجتماعية يوجدتها فقدان الانتباه في رحلة البحث عن الذات الضائعة وسط خليط من البشر أسهموا في تكوين هويته بصورة ما ولم يحققوا اشباع رغبته بصورة أخرى ففقد دوره بينهم أو فقدوا دورهم لديه، ان تعاون الفرد مع الجماعة ينعكس في الرضا عن النفس من خلال العمل المشترك والهدف الواحد الذي يولد هذا الشعور الداخلي بالتوافق الذاتي ثم التوافق الاجتماعي ومن خلال الارتباط بوظيفة تحقق طموحات الفرد يستطيع أن ينوع اهتماماته في الحياة فلا يكرس جهده في جمع المال فقط لأنه لا يفتقر الى الشعور بالطمأنينة والاستقرار الوظيفي والمهني من خلال حبه للعمل واخلاصه فيه ولا يشعر بما يهدد ذاته، وقد أثبتت مدرسة العلاقة بالموضوع ان الحاجة الغريزية عند الانسان للانتباه لجماعة يشعر من خلالها بالأمن في محيط العمل تجعله يسعى الى خلق علاقات انسانية معافاة تملأ الفراغ النفسي الذي ينشأ من الخواء العاطفي الداخلي الممتلىء بالمشاعر السلبية تجاه الآخرين كالحقد والأنانية والكراهية . . ويؤكد علماء النفس ان فقدان هذه العلاقة يدفع الفرد للبحث عن «العلاقة البديلة» اما في وظيفة أخرى حتى في غياب المبرر المعقول أو الجزاء المادي وهذا ينعكس في التغيير المستمر للعمل بحثا عن علاقة صحية ترتبط بهدف يحقق ذاته .

كما ان أزمة الهوية لدى الفرد في المجتمع تنبع من نفس العوامل اضافة الى الاحساس بالنبذ أو عدم القبول لأن أقسى ما يؤرق ضمير الفرد السوي أن يشعر انه يعيش وسط مجموعة لا تعترف بانتهاه اليها اما لسبب لونه أو جنسه أو عرقه أو دينه أو لغته أو أي صفة من خصائصه الانسانية المميزة له بأي شكل يجعل دوره هامشيا أو وجوده مرفوضا تلميحا أو تصريحيا ولا يهم ان كانت هذه النظرة معلنة في شكل سلوك أو مبطن في شبه قناعات لأن شدة الایحاء الذاتي الذي يتميز به هذا الفرد في احساسه بهذا النوع من الغبن الفردي والظلم الاجتماعي يجعل وجوده رهينا بالبحث عن أصدقاء أو رفقاء أو أوصياء، أو الانخراط في أي محور يدور في فلك علاقاته الاجتماعية، وهذا شعور الغربية خارج البلاد أو الاغتراب

وسط الجماعة أو العزلة داخل الذات .

ان أزمة الهوية تحدث في المجتمعات في مرحلة الانتقال من تكوين البنية الأساسية الى الهياكل الاجتماعية في صراع تحقيق الذات، وتحدث عند الشعوب عندما تتعرض لحالات التحول المفاجيء أو السريع نتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كدول العالم النامية حيث تغطي غريزة حب البقاء على قضية شكل الانتماء فتحدث أزمة الاصاله والمعاصرة وهي انعكاس لأزمة العالم ذاته . . أزمة الكيان الانساني التي برزت في العقد الأخير من هذا القرن حيث أفرز التقدم التكنولوجي والتقني نموذج المجتمع الحديث الذي أفرز الثراء فيه أقلية مضطهدة من المعوزين والمنبوذين الذين خسروا السباق وراء المال والثروة بشتى الاساليب فلجأوا الى صنع عالم مزيف يشبع حاجتهم لقبول واقعهم المترع بشعور الفقر والعدمية، واجتمع الضدان في بؤرة واحدة تمثل أزمة الهوية أو الوجه الآخر للعملة الواحدة في التماثل والتطابق والوحدة أو المعادلة المتطابقة، فاختلفت معادلة الحقوق والواجبات وأدى هذا التضارب الى صراع دموي أخذ كافة أشكال التعبير عن جذور الأزمة، حيث أصبحت الجريمة في حد ذاتها هدفا في حياة عاطل بلا هدف، والانضمام الى جماعة المنبوذين أفضل صيغة للتعيش بالشكل اللامتتمي للمنبوذين وسط الاسوياء .

أما أزمة الهوية الفكرية فتبدو في قضايا الابداع الفني وأول مظاهرها محاولة الفرد تحقيق ذاته من خلال التعبير عن ثقافته الخاصة في أحد أشكال التعبير الأدبي الشعر . . القصة . . المسرح . . التشكيل أو ما يسميه الادباء أزمة المثقف والثقافة وهي في الواقع «أزمة هوية» لأن أسباب الأزمة تكمن في مكونات الهوية . . فكلما تعرضت الهوية لهزة كيان أو ارتجاج مخ في فترات التحول المفاجيء برزت أزمة الثقافة والمثقفين لأنهم يمثلون سمات الوجود الحضاري للانسان الذي يعيش أزمة الأصالة والمعاصرة .

سأل طبيب نفسي أحد مرضاه قائلا: ان الزواج يمثل قمة النضج النفسي فلماذا لم تتزوج؟ أجابه المريض! لأننى لا أعرف حتى الآن هل أبحث عن شريكة

أم صديقة أم خادمة؟

فقال له الطبيب: لماذا؟

قال المريض «لأنني ما زلت أبحث عن نفسي».

أليس ذلك أحد أعراض «أزمة الهوية»؟.

الشيخوخة . . بين الدار والديرة

يقول سفر التكوين : انه ليس من الخير أن يكون الانسان بمفرده ولكن ذلك في بعض الأحيان راحة كبرى .

ذلك لأن علاقات الفرد الاجتماعية تعتبر احدى الصفات الاساسية للسلوك السوي ، ولكن قدرته الشخصية في توقيت العزلة الضرورية لتحقيق الراحة الكبرى تعكس بعض وجوه الذكاء واحد معايير النضج النفسي . . والانسان في رحلته الطويلة من الطفولة الى الشيخوخة ومن المهدي الى اللحد يمر بثتى مراحل الاختبار وأشكال الاختيار بين الاختلاط والعزلة والانطواء والانبساط بدرجات متفاوتة يميزها وجود مرحلتين من «العجز الطبيعي» ، الاولى في الطفولة والثانية في «الشيخوخة» . . بقول الله تعالى في الاولى : ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ . . ويقول تعالى في الثانية : ﴿والله خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾ . . صدق الله العظيم .

وتؤكد هذه الحقيقة الأبحاث العلمية الحديثة في سيكولوجية النمو باسم مبدأ (فرض النضج والانتكاس) ويعني أن مرحلة الطفولة تتميز بغلبة عوامل البناء على عوامل الهدم ، ومرحلة النضج تتميز بتعادل قوة العاملين ، أما مرحلة الشيخوخة فتغلب فيها عوامل الهدم على عوامل البناء ، كما ان نمو الطفل يبدأ من أعلى الى أسفل ، فالرأس قبل القدمين . ومن الداخل الى الخارج فالقلب قبل الاطراف ، أما مرحلة الشيخوخة فيحدث العكس في فرض الانتكاس حيث يبدأ العجز من أسفل الى أعلى فالاقدام قبل الرأس . ومن الخارج الى الداخل . فالاطراف

والوجه قبل الاحشاء والقلب كما يقول الشاعر:

تقول العاذلات علاك شيبٌ أهذا الشيب يمنعني مراحي؟

وقد شغلت الشيخوخة اهتمام الدول المتقدمة قبل نصف قرن والدول النامية قبل عقدين حيث أصبحت إحدى المشكلات الاجتماعية التي أعادت صياغة اهتمامات المخططين والباحثين والعلماء في شتى مجالات الحياة . . وخطفت الاضواء من الاهتمام المكثف بمشاكل الطفولة وهذا مؤشر جديد عن التغيرات الجذرية في نمط الحياة والشكل الحضاري الذي أحدثه التقدم التكنولوجي والتطور الصناعي والانتقال الطوفاني من الريف الى المدينة، في كل أنحاء العالم . . وبينما كان الاهتمام بالطفل يصدر عن التفكير العفوي والنزوع الغريزي الى حفظ النسل وثروة المستقبل ورجال الحياة المقبلة، فإن الشيخوخة أطلت بواقع جديد وفرضته من موقع (مكرهاً أخاك لا بطل) فالمجتمع لا يتعامل مع الشيخوخة من موقع الاختيار أو تحقيق شعارات (اليونسيف) أو كرنفالات الفرح بفلذات أكبادنا تمشي على الأرض والتي هي السمة المميزة لنشاط الهيئات الحكومية والتطوعية، في البلدان النامية حيث يكون الاطفال أكبر شريحة في المجتمع بينما تمثل الشيخوخة أقل من خمسة بالمائة من السكان كما جاء في تقرير (منظمة صندوق الأمم المتحدة للاسكان - الايكوا) والتي تشير الى أن نهاية هذا القرن سوف تشهد تضاعف عدد المسنين فيكونون ربع السكان في الدول المتقدمة وقد يصل الى أكثر من العشر في الدول النامية . . ومن هنا كان الاهتمام .

ويسود أوساط العلماء والباحثين خاصة في مجال الطب النفسي شعور بالاحباط نتيجة تهشم البنية الاجتماعية والنفسية في المجتمعات الحديثة نتيجة الاتجاه الشرائحي في تقسيم الرعاية النفسية الشاملة للمجتمع المتكامل مما يشير الى عجز المجتمع في مواجهة مشكلاته الواحدة في إطار شامل ولجأ الى الاهتمام ببناء (الدار) على حساب الاهتمام (بالديرة) فأنشأ دور رعاية اللقطاء والأيتام والمعوقين والأحداث الجانحين ثم العجزة والمسنين، في كل الدول المتقدمة، بينما هجرت الاسرة (الديرة) بداية بخروج الاطفال الكبار الى الدراسة أو العمل أو

تكوين الأسرة نهاية بخروج المسنين الى دور العجزة والمسنين في وقت يتصدى فيه رجال الطب النفسي بروح المقاومة ضد بناء مصحات عقلية ويشنون حملة فكرية للتوعية ضد الآثار الباقية ويهدفون الى قيام وحدات علاجية وسط التجمعات السكانية وداخل المستشفيات العامة مع تطوير الخدمات النفسية المنزلية من خلال توظيف طب المجتمع النفسي وقنوات برامج الرعاية الصحية الأولية .

أذكر عندما سافرت للدراسة في لندن في بداية السبعينات وقد تم توزيع الاطباء القادمين من وراء البحار على مستشفيات جامعة لندن انهم وضعوني في وحدة قسم الشيخوخة PSYCHOGERIATRIC UNIT وذهبت الى العنبر فوجدت سيدات تجاوزن الثمانين، وبعد قضاء أسبوع واحد رجعت الى عميد معهد الدراسات النفسية « البر وفيسور كوبر» الذي زار دولة الامارات مؤخرا وقلت له : (انني لم أعرف هذا التخصص ولا أعرف ماذا يمكن أن نقدم للعواجز في هذا العمر في بلادي لاننا نحتفظ بهم في المنزل ولا نرسلهم للمستشفى) فقال لي سوف أحولك الى فريق علاج مرض الادمان لأنه حقيقة انكم لا تعانون من هذه المشكلة ولكن (في بريطانيا فان نسبة العجزة فوق الستين عاما ١٥٪ من مجموع السكان)، وأتصور انكم في خلال عقدين من الزمان سوف تواجهون مشكلة مماثلة في ارتفاع شريحة المسنين .

والآن وقبل نهاية عقدين من الزمان التقيت به وحدثته عن مشاريع دور رعاية المسنين في الدولة وقال لي : « أرجو أن تستفيدوا من أخطائنا» . وعندما ذهبت لحضور المؤتمر الدولي للطب النفسي بالقاهرة مؤخرا كانت هناك جلسة خاصة حول (علم الشيخوخة) للاستاذ الدكتور عبد المنعم عاشور من كلية طب عين شمس ورئيس وحدة المسنين وقد أصبح علم الشيخوخة تخصصا منفردا مثل طب الاطفال يهدف الى توحيد مفهوم الرعاية الجسمية والنفسية والاجتماعية للمسنين في اطار متكامل لشريحة خاصة لها مشكلات معينة من عصاب وذهان ومخاوف مرضية ومثلما يكون الوعي المبكر يأتي الخرف المبكر .

ان سيكولوجية الشيخوخة تتمثل في الشعور بالفقد . . الفقد الحسي

العضوي المتمثل في ضعف الحواس أو القدرة الحركية والعقلية، والفقد النفسي المتمثل في الشعور بالخوف من العزلة والوحدة وفقدان الأمن النفسي والخوف من الموت نتيجة الأمراض المزمنة كتصلب شرايين القلب والدماغ التي تؤدي الى ضعف الذاكرة والتركيز والانتباه مع الاحساس الداخلي بضعف القدرة على الادراك والتعرف والتعلم والشعور الخاص بتدهور القدرات ثم الفقد الاجتماعي المتمثل في فقدان المكانة الاجتماعية مع التقاعد الاجباري . أو المعاش الاختياري . وترك العمل الذي كان يمثل الدور الاجتماعي المقبول اضافة الى امكانية فقدان الأصدقاء نتيجة الوفاة أو وفاة شريكة الحياة أو فقدان السلطة في المنزل والاسرة وخروج الابناء بعد تكوين أسرهم المستقلة .

ان كل هذه الحصيلة من الفقد الوجداني تمثل نوعا من الاعاقة النفسية والاجتماعية والجسدية تجعل الشيخوخة مرحلة خصبة لنمو الاضطرابات النفسية ما لم تحدث التهيئة الخاصة للفرد . . ان سيكولوجية التقاعد تعني ضرورة قراءة ثانية متأنية في العلاقة بين العمر الزمني والانجاز العقلي والبدني في مختلف مستويات القدرة على العطاء بدليل الكثرة من المسنين المنخرطين في أعمال تطوعية يحققون من خلالها ذواتهم، كما أن الفهم الخاطيء لمصطلح (سن اليأس) MENOPAUSE يعني حدوث تغيرات فيزيولوجية طبيعية لدى المرأة والرجل في هذه السن . . ويحدث مبكرا عند المرأة لارتباطه بانقطاع الطمث بينما يظل الرجل يتمتع ببعض القدرة لفترة متأخرة من العمر . . واليأس هنا صعد أحد مظاهر الفقد . . فقدان القدرة على الانجاب وليس اليأس من الحياة أو التخلي عنها بل قد تكون في بعض الأحيان أكثر الفترات تشبها بالحياة وتعلقا بها .

ومن أجل هذا كانت أهم توصيات هيئة الأمم المتحدة الاخيرة ضرورة توفير الخدمات المنزلية والتقليل من بناء دور المسنين إلا في حالات الضرورة الصحية القصوى وفي أضيق إطار ولأجل محدود .

ان علم الشيخوخة يفتح عيوننا على حقيقة مهمة . . وهي أن البيت أفضل بيئة لرعاية الطفل والمسن في كل زمان ومكان وتحت كل ظروف الاختيار بين (الدار) و (الديرة) . .

الصحة النفسية . . للجميع

تحت هذا الشعار انعقد مؤتمر القاهرة العالمي للصحة النفسية في منتصف أكتوبر من عام ١٩٨٨ الماضي وقد قام بتنظيم المؤتمر الاتحاد العالمي للصحة النفسية والجمعية المصرية للصحة النفسية والجمعية العالمية الاسلامية للصحة النفسية . وقد شارك في المؤتمر خمسمائة مندوب من قادة الفكر النفسي يمثلون سبعا وثلاثين دولة من جميع المدارس العلمية من مختلف البلاد في الشرق والغرب .

وقد كان المؤتمر علامة بارزة في تاريخ الطب النفسي المعاصر حيث عقد ثلاث ندوات تذكارية تاريخية خاصة حول «الدين والصحة النفسية» و«التصوف والصحة النفسية» و«أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحة النفسية» للأستاذ خالد محمد خالد وعلماء الطب النفسي الاسلامي والمسيحي .

وقد التقيت على صعيد المؤتمر برواد أوائل في الطب النفسي في الشرق والغرب بينهم أساتذتي الذين كان لهم فضل تعليمي وزملائي الذين كان بهم حسن تقويم وتلاميذتي الذين أوقدوا جذوة تصميمي على مواصلة المسيرة المضنية في دهاeliz النفس البشرية لأكثر من عقدين من الزمان هي حصيلة عملي في هذا المضمار . . فكانت لقاءات معبرة حقا عن تلاقي الثقافات بين الأجيال .

الآفاق المتعددة . . المتجددة

لقد كان هذا المؤتمر في الاطار العام متعدد الاهتمامات حيث غطى أكبر مساحة فكرية في موضوعات الصحة النفسية وعقد أكثر من خمسين جلسة علمية استغرق فترة زمنية قياسية في عمر المؤتمرات العلمية وطرح بدقة متناهية قضايا أبرزت كمية الآفاق المتعددة ونوعية القضايا المتجددة مثل مشاكل تعاطي

المخدرات في عالمنا المعاصر والمشاكل النفسية التعليمية الجديدة ووسائل الاعلام النفسية وتوقعات مشاكل القرن الواحد والعشرين النفسية وقضية التطرف الديني أسبابه وعلاجه ومشكلة المرضى المزمنين ووسائل العلاج والمتابعة في المجتمع ومستقبل مستشفيات الأمراض العقلية وحاجة المعوقين وماذا أعددنا لهم؟ والمشاكل النفسية للهجرة والعناية الصحية النفسية الشاملة في الريف والاضطرابات النفسية والانحرافات الجنسية أسبابها وعلاجها ودور المرضى القدامى في الخدمة النفسية والمشاكل النفسية وهلع الكوارث وسوء استخدام العقاقير النفسية والدور الجديد للتمريض في العلاج النفسي ، بالاضافة الى الندوات التي عقدت حول مشاكل المسنين والمشاكل المتعلقة بالطفل بين البيت والمدرسة وقضايا الشباب في عالم متطور واستخدامات الحاسبات الاليكترونية في مجالات الصحة النفسية .

كما خصص المؤتمر في جلساته المسائية مناقشة حرة للقضايا الحيوية مثل فن الأمومة والأبوة ورعاية المسنين ، ثم المسنون وقضايا التنمية ومشاكل ما قبل وما بعد سن التقاعد والآثار النفسية المترتبة على الفرد والمجتمع ودور الثقافة الجماهيرية في نشر ثقافة الصحة النفسية خاصة في مجال الجريمة والادمان ودور علماء الدين في الوقاية والعلاج من المخدرات ودور المرأة في عالم متغير .

لغة العصر

وكانت من السهات البارزة في البحوث المطروحة دراسة تحليلية للأستاذ الدكتور محمد شعلان أستاذ الطب النفسي بكلية طب الأزهر حول «دور الصحة النفسية في حل التوتر العالمي» ، فقد أكد على ضرورة إيجاد وسيلة بديلة جديدة لحل مشاكل العالم الحديثة حيث أصبحت القوة في مفهوم العصر الحديث أشبه بضعف المقتدر في تحريك العاجز حيث أصبح مصطلح الشلل والحركة متداخلين في وحدة نفسية واحدة لا تفك رموزها إلا من خلال فهم نفسية العالم . . وقد عقبته الدكتورة يوجين برودي من الولايات المتحدة حول ضرورة أن يعيش الناس في عالم واحد في سلام حقيقي وهذا لا يتم إلا من خلال استحداث أو صياغة لغة

جديدة، لغة تخاطب مشترك تسقط من قاموسها عنصر القوة في حل الصراعات حيث أصبحت درجة التوتر النفسي أعلى من قدرة الفرد على تحملها، وقدرة الفرد الواحد على دمار العالم كله أكبر من قوة العالم على السيطرة عليها، مثال المدمن والمغامر والمنتحر والمختطف والمتطرف والمتأزم نفسياً.

وقد دلى الدكتور هانز فايزمان من الدانمرك على أن العالم أصبح مضطراً للدخول في دائرة الصحة النفسية حيث قدم دراسة احصائية للخطب التي ألقيت في أروقة الأمم المتحدة في العقدين الأخيرين ووجد حسابيا ان عبارة «الصحة النفسية» قد وردت في قاموس الدبلوماسية لمشاهير الخطباء المؤثرين في اتخاذ القرار السياسي قرابة مائة مرة في العقد الأول، بينما وجد أن في السنوات العشر الأخيرة وردت عبارة «الصحة النفسية» أكثر من عشرين الف مرة في مجموعة الخطب الكاملة التي قيلت في مجموعة الجلسات العلنية للمؤسسة الدولية، مما يدل على اهتمام قادة الفكر السياسي على احتواء مشاكل الدبلوماسية واستنباط الحلول البديلة للمشاكل القديمة المتجددة، فكأن عالم اليوم طائفة مختطفة وكأنها اللوحة التي تقول «سترة النجاة تحت مقعدك» تؤكد أن الصحة النفسية هي أبواب النجاة.

الضرورات العشر

وكانت ضيفة الشرف في المؤتمر السيدة روزالين كارتر حرم الرئيس الامريكى السابق جيمي كارتر وقد حضرت وشاركت في جلسات المؤتمر كعضو عامل في احدى المؤسسات التطوعية في مجال الصحة النفسية في أمريكا حيث بدأ اهتمامها بالمشاكل النفسية في زياراتها المتعددة في صحبة زوجها خلال رحلاته الكثيرة في مختلف البلدان في العالم، وقد أدركت حينذاك دور المؤسسات الاهلية الخيرية التطوعية في الوقاية والعلاج في مجال الصحة النفسية، وأكدت على ضرورة دور المواطن العادي في تطوير خدمات الرعاية الصحية الاولية حيث تنص الوثيقة الاساسية لانشاء الاتحاد العالمى للصحة النفسية في جلسته التأسيسية في أغسطس ١٩٤٨ على ضرورة تأكيد حق المواطنة «بفتح الطاء» العالمية في استقطاب الافراد

والجماعات والهيئات والمؤسسات التطوعية للمشاركة في تحقيق شعار الصحة النفسية للجميع ، وقد وزعت وثيقة مرشد أودليل للعاملين في حقل الصحة النفسية الذين يتصدون للعمل العام وللأعمال الخيرية بوجه خاص ، وبالتحديد لرواد العمل التطوعي في مجال الرعاية النفسية ويحدد المرشد الضرورات العشر التالية :

أولاً : ضرورة وجود قوة احتمال ومثابرة لأن أي تجديد لا بد أن يقابل بنوع من المقاومة في البداية .

ثانياً : ضرورة وجود هدف ورؤية واضحة تساعد على تصنيف الأولويات والالتزام بها .

ثالثاً : ضرورة وجود دراية ومعرفة تامة بكيفية استخدام نظام متكامل وعلم وإلمام بسلبياته وإيجابياته لأن النوايا الطيبة فقط لا تنجز العمل الجيد .

رابعاً : ضرورة وجود مصدر تمويل ثابت ، فالمؤسسات لا تعيش فقط بالأعمال التي تؤديها ولكنها تحتاج الى جهد ووقت ومقدرة خاصة في توفير المال اللازم للانفاق عليها .

خامساً : ضرورة وجود مصداقية في العمل ، فالحقائق والاحصائيات والادعاءات يجب أن تكون قادرة على الصمود أمام الاختبار من قبل الاعلام والجمهور .

سادساً : ضرورة وجود اخيلة مجنحة ومنظور واضح لتطير في سماء صحوبلا ضباب مما يجعل العلاقة الطيبة مع الآخرين تأتي قبل اثاره التحديات وتبادل الاتهامات .

سابعاً : ضرورة وجود القدرة على العمل مع الآخرين فالتحالفات تضاعف القوة الواهية وتشحذ روح المشاركة المتبادلة النفع .

ثامناً : ضرورة وجود الاستعداد الشخصي للمحاسبة والمساءلة فالمجتمع والهيئات والأفراد والمرضى والأسر ومصادر التمويل تتوقع تقارير دقيقة في طرح المناشط .

تاسعاً : ضرورة الارتفاع الى أعلى مستوى بخدمات المتطوعين ، فإذا كان

وجود العاملين المتخصصين ضرورة فإن المتطوعين المخلصين لا غنى عنهم في العمل .

عاشراً : ضرورة وجود الحوافز والتقدير والشكر والثناء فهي مكافآت نفسية تحتاج الى كثير من التعزيز والتدعيم المتكرر لكي تؤتى ثمارها .

ولعلنا بقليل من التأمل والقراءة المتأنية في هذه الضرورات العشر نجد أن مضمونها أشبه بالوصفة الطبية التي تعالج بصدق ودقة علمية على درجة كبيرة من الاقتدار كثيرا من الخلل الواضح في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية نتيجة اعتلال الصحة النفسية . . وهي دعوة مفتوحة لقراءة جديدة في صفحات قديمة لكتاب موجود في مكتبة كل منزل ومكتب ومؤسسة . .

وأخيرا نختم انجازات المؤتمر العالمي بوصية العالم الفيلسوف رالف دالدو ايمرسون قائلا :

لكي تكون ناجحا . .

عليك أن تضحك كثيرا وفي أغلب الأحوال . .

وأن تكسب احترام الأذكىاء وحب الأطفال . .

وأن تنال تقدير النقاد المخلصين وتحمل الأصدقاء المزيين وأن تقدر الجمال . .

وأن تبحث عن الافضل في حياة الآخرين . .

وأن تجعل العالم أفضل مما هو عليه . . بتنشئة طفل صالح . . أوزراعة رقعة خضراء أو اصلاح حالة فاسدة .

وأن تعمل لكي يكون مجرد وجودك في الحياة عاملا هاما في سعادة شخص آخر . .

وبعد هذا تحقق النجاح من أجل الصحة النفسية للجميع كلما تقدم بهم العمر، وانما لدى كثيرين يحاولون أن يطردوا من أذهانهم كل ما يدخل فكرة الموت فيها .

الفصل الرابع

(الأصل والصورة)

- الوجوه المَقْنَعَة
- زهور عباد الشمس
- الكاميرا الخفية
- الأمل

الوجوه المُنقَّعة

قال تعالى ﴿ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ . .
صدق الله العظيم ، ويقول النحاة : ان الجن ضد الانسان الواحد (جني) قيل
سميت بذلك لأنها تُتقى ولا تُرى وجن عليه الليل أظلم وجنه الليل يُجنه بالضم
(جنونا) وأجنه الله فهو مجنون ويقال (أجنت) المرأة ولداً (والجنين) الولد مادام في
بطن أمه وجمعه (أجنّة) والجنّة بالكسر أيضاً الجنون ومنه قوله تعالى ﴿من الجنة
والناس أجمعين﴾ والجنّه بالضم تعني السُّرّة أي ما استترت به من سلاح .

والاطباء النفسانيون لا يسبرون أغوار الغيب ولكنهم يبحثون في الأعراض
الظاهرة والخفية للاستدلال على العلة التي (تتقى ولا ترى) أما عامة الناس فقد
اكتفوا برؤية واحدة للفرد المختل العقل الواقف كتمثال الشمع في أحد الأركان
يحادث نفسه أو المتحرك في خطى مخيفة وهيئة رثة يمشي بين الناس وكأنه قادم من
كوكب آخر لا ينتمي لعالم البشر أو الآخر الهائج في حالة اختلاط ذهني يرغي ويزبد
دون وعي أو ادراك وكل هذه الأبعاد الثلاثة مجرد صورة واحدة من صور المرض
العقلي الشديد (فصام الشخصية) أي تفكك القدرات العقلية العليا وهو الذي
يطلق عليه عامة الناس (جنون) ورغم انه وجه واحد من الوجوه المنقعة من مرض
واحد من عشرات الأمراض إلا انه ارتبط في ذهن العامة بأن أي مرض نفسي أو
عقلي هو في النهاية هذه الصور الكاركتورية التي ارتسمت في أذهاننا منذ الطفولة
في شوارع الحارة والمسرحيات الفكاهية في المدرسة والافلام السينمائية المرتجلة يعزز
هذا الانطباع كتاب المجلات والدوريات الانطباعيين حتى وصل المجتمع مرحلة
يصعب عليه تغيير هذه الصورة دون مشاهدة البعد الآخر داخل مستشفيات

الطب النفسي الذي يعنى بدراسة الظواهر المادية الملموسة البيولوجية والفسولوجية الى جانب النظريات الميتافيزيقية دون انكار لوجود الارواح الشريرة من الجنة والناس . . ذات الوجوه المقنعة .

لقد أصبح هذا الرسم الكاريكاتوري هو الهاجس الساكن في مخيلة عامة الناس عن المرض النفسي ولا يمكن أن يصدق أن المرض العقلي يمكن أن يتخذ صورة تبدو في غاية الوقار والاتزان ولا يمكن للفرد العادي قبول تفسير أي نوع من سلوكه على أساس رد فعل نفسي لأن كلمة نفسي في القاموس الطبي العام تعني (جنون) والجنون لا يعني إلاّ وجهاً واحداً بين الوجوه الكثيرة والمقنعة ولكن تغيير هذه المفاهيم يحتاج الى حكمة لقمان وصبر الأنبياء وأصحاب الرسالات ﴿وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً﴾ . . صدق الله العظيم .

لقد قال الكاتب الفرنسي فيكتور هوجو (كم في العالم من مجنون يدعي النبوة) وفئة كبيرة من هؤلاء الادعياء لهم أتباع يدافعون عن مبادئهم ويبشرون برسالاتهم ويموتون دفاعاً عنهم دون أن تجرؤ على القول (إن صاحبكم بمجنون). ان هناك حالات من الاضطرابات العقلية يكون فيها الفرد متمتعاً بقدرات عقلية خارقة ومظهر اجتماعي مرموق وسلوك حضاري متقدم ولكنه يحمل في عقله أفكاراً (جنونية) هي عين الضلالات والاعتقادات الخاطئة التي يتميز بها المرضى العقليون داخل المصححات، ولأن الجنون ارتبط بشكل تعبيرى خاص فإن المجتمع يحاول أن يجد التفسيرات المنطقية لاشكال التعبير السلوكي الأخر غير السوي في قوالب وأخرى كالحاسة السادسة أو طقوس الزار أو جنون العبقرية أو التصوف الكاذب أو التطرف الاعمى أو (الجنون فنون) وغيره من المسميات الغيبية التي يختفي تحتها ركام الشخصية المرضية المتفككة لفترة طويلة حتى تتمكن من التأثير على جماعة كبيرة من الناس وتقودهم الى السلوك غير المنطقي حتى حدوث كارثة أو وقوع مأساة تقود الى القضاء أو الشرطة فيعيد هؤلاء الكرة الى ملعب الطب النفسي بحكمة (الحقيقة ضالة المؤمن) فتسقط الأقنعة المستعارة من الوجوه المقنعة .

لا يتداول الاطباء النفسانيون كلمة (جنون) كثيرا خشية الدخول في المتاهة التي تثير الفزع في نفوس الناس وتقيم جدارا نفسيا بين المريض بحالة نفسية بسيطة أشبه بالانفلونزا والمصاب بعلة عقلية خطيرة أشبه بالسرطان وحتى يصل الوعي في مجال الصحة النفسية درجة تميز بين الامراض العقلية مثلما يصنف في حالات الباطنية بين أعراض غيبوبة السكر وغيبوبة الفشل الكلوي فإنه من الضروري للطب النفسي ان يتناول المسميات التي تلامس القلوب بلا ألم وتدخل العقول بلا صدمة .

هنالك حالات مرضية تسمى بالجنون الجماعي أو (الذهان الارتباطي) يكون فيها أحد الافراد يعاني من اعتقادات وهمية مرضية اما متعلقة بسلوكه أو شخصيته أو مجموعة ضلالات خاطئة مترابطة ومتناسكة بصورة مؤثرة في الجماعة المحيطة بالفرد فيشاركونه فيها ويتحمسون لها ويدافعون عنها ضد أي دعوة بشذوذها ويتمتع المريض بها ببصيرة لها كل جوانب الحياة ما عدا الجانب المرضي المتعلق بشخصيته فيها (بارانويا) وقد يظل المريض في المجتمع يخاطب الناس ويجارهم ويقودهم الى التهلكة دون وعي منه أو ادراك منهم ويلبسون معه تلك الوجوه المستعارة .

لقد كان أول من كتب عن الأصل العلمي لهذا المرض العالم الفرنسي لاسيج مارليت عام ١٨٧٧م وسميت الظاهرة بالجنون المزدوج (Folie à deux) واطلق عليها بالانجليزية الذهان الارتباطي وتوصف بحدوث رباط ضلالي مشترك بين شخصين أو أكثر يعيشون في مكان واحد ويرتبطون بصلة وثيقة . إذن فهي حالة مرضية تظهر بصورة جماعية وأقل صورة لها شخصان وفي كل الحالات يكون هناك شخص واحد مسئول عن ظهور تلك الجماعة وهو مريض بحالة تكثر فيها الاعتقادات الوهمية الخاطئة بصورة راسخة في تفكيره بدرجة اليقين وفي ظل ظروف المعيشة في الاسرة الواحدة أو الاشتراك في هدف واحد . . . عدو مشترك أو آلام حقيقية أو احباطات متبادلة وفي وجود هذه الاسباب مجتمعة أو بعضها بين

جماعات يسهل التأثير عليها كالشخصيات الهستيرية السريعة الانحياز أو أشخاص من نفس ثقافة وبيئة المريض يعيشون معه فيؤمنون بأفكاره ومعتقداته فينتج عنه أصابتهم ظاهرياً بالمرض ولكن في الواقع هي عدوى منتقلة اليهم وأن أصل المرض هو في المسئول الاول ولكنه يحدث في الجماعة بالتأثير عليهم فيكونون ضحية (جنون الاضطهاد السلبي) اما لطبيعة شخصيتهم غير السوية أو ظروفهم الحياتية وتكون ضلالات المريض بمثابة الكوة التي ينظرون منها للامل لتحقيق أمانيهم المشتركة أو محاربة عدوهم الواحد ويأخذ المريض صورة المبشر أو الزعيم (جنون العظمة) الذي تتميز شخصيته بقوة التأثير والحجة التي يكفي أن تتأثر بأول جملة فيها حتى تجد نفسك منساقاً بالتسلسل في كل قول يأتي بعده في نسيج المبادئ لدرجة أن أحدا لا يفكر في علاج المريض وإذا وصل الى الطب النفسي عن طريق الصدفة فقد يرفض العلاج وقد يتصدى الآخرون للدفاع عنه ضد تهمة الأطباء، وكما قيل هكذا (تصنع الشعوب الصنم) وترى وجهها واحداً من الوجوه المستعارة .

قد يحدث هذا الجنون المزدوج في ثلاث حالات، أولاً حدوث المرض في وقت واحد في شخصين يعيشان سوياً في عائلة واحدة أي لا ينتقل بتأثير أحد على الآخر وثانياً قد يحدث المرض بالاتصال بين شخصين ذي صلة وثيقة واستعداد وراثي للمرض العقلي ويأخذ كل منهما اعتقاداً وهمياً من رفيقه ويحتفظ به رغم انفصالهما كل واحد بعيداً عن الآخر وثالثاً جنون مفروض على شخص آخر سليم شكلاً فيتأثر بنفس درجة المريض الاول ويظل كل منهما بلا معاناة طالما كانا متواجدين سوياً وتظهر المأساة عند الانفصال خاصة في المريض الاول المسئول عن المرض فيصل درجة من الفصام الحاد تستوجب العلاج أولاً بالانفصال التام والفوري عن الآخر وبالعقاقير المهدئة والعلاج الكهربائي بينما قد يحتاج الشخص الضحية لعلاج نفسي آخر ومن أبرز هذه الامثلة حالة الغيرة الزوجية المرضية لدى الزوج فيتجانن ويتجنن ويجن زوجته .

أما البعد فيبدو في الهستيريا الجماعية (MASS HYSTERIA) والتي تحدث عندما يظهر اضطراب سلوكي أو عاطفي عند الفرد فينهار فتنتقل العدوى للجماعة بالتأثير في المسيرات والمظاهرات وخاصة التجمعات النسائية فيكفي أن تسقط واحدة مغمى عليها فتصاب العشرات بالاغماء والذهول . . وفي حفلات الزار حيث يذوب عقل الفرد في غوغائية طقوس الجماعة ويكثر الإيحاء وتضعف السيطرة على الأنا ويحدث ما يشبه الجنون الجماعي في عدة ظواهر سلوكية لا يمكن للفرد أن يأتي بها منفردا أو يقوى على تكرارها بصورتها الأصلية في غياب التأثير المباشر لروح الجماعة مما يدل على وجود صلة خاصة وعلاقة متميزة بانفصال مؤقت للقدرات العقلية (DISSOCIATION) وفي طقوس اليوجا . . في حالات الاستغراق التأملي والتفكير العميق يستطيع الفرد أن يسيطر على عقل الجماعة ويسلبهم إرادتهم ويفقدهم مقاومتهم فيفعلون أشياء بلا إرادة وينفذون أوامر دون وعي ويتحملون آلاماً جسدية ونفسية تصل الى درجة احتمال المشي على الجمر والقطع بالسكين والكي بالنار والوخز بالابر . . والله في خلقه شئون .

زهور عباد الشمس

جاء في الاخبار ان احدى صالات المزادات قد باعت لوحة «زهور السوسن» للرسام العالمي الشهير «فنست فان جوخ» بمبلغ ثلاثة وخمسين مليون دولار كما اشترت قبل فترة احدى الشركات اليابانية لوحته «زهور عباد الشمس» بمبلغ تسعة وأربعين مليون دولار، وهما رقمان قياسيان عالميان لبيع أي عمل فني في مزاد . . واللوحة عبارة عن رسومات زيتية تجريدية تصور الزهور البيضاء والزرقاء في حوض ماء بشكل تعبيرى ينطق بالحركة ويتحرك باللون ويعقب بالعير .

ومن المفارقات المحزنة ان الفنان العالمي الهولندي المولود عام ١٨٥٣ عن أب قسيس في كنيسة مدينة زوندورث في هولندا قد توفي في السابعة والثلاثين من عمره منتحرا في مصحة عقلية بفرنسا بعد عام واحد من رسم لوحته الشهيرة وهو يعاني الفقر والبطالة نتيجة مرض الصرع والاحباط النفسي حيث تنكر له المجتمع ورفض الاعتراف بموهبته ولم يتمكن من بيع لوحاته وكان آخرها «زهور عباد الشمس» .

قد يكون من سوء حظ فان جوخ انه عاش في عصر «مصحات الصرع» حيث كان يودع هؤلاء المرضى في مصحات عقلية لحظة اكتشاف المرض مثل «مصحات الجذام» ويتركون دون علاج تحت رحمة اجتهادات المداواة بخلاصة الاعشاب والكي بالنار والضرب بالسياط أثناء النوم مما يؤدي الى مضاعفات نفسية وعقلية وعاطفية وسلوكية أبرزها النوبة التي قطع فيها فان جوخ احدى أذنيه وقدمها هدية لحبيبته كما تقول الروايات المعاصرة، ولا أدري ان كانت صرخة استغاثة أم نوبة احتجاج أم تعبيراً عن جنون العبقرية كما يقول الرواة، ويكفي ان نقارن في قراءات أخرى في تاريخ بعض العظماء الذين كانوا يعانون من أمراض

الصرع أمثال يوليوس قيصر الرجل الاسطورة الذي سار ذكره على كل لسان ، و نابليون بوناپرت الذي غير خريطة أوروبا في أكثر من موقع ، والملك جورج الثامن الذي كان يعاني من مرض «البورفريا» ونوبات تشنجية ، وأخيرا وليس آخرا الكاتب الروسي الشهير «ديستوفسكي» الذي كتب رائعته «الأخوة كارامازوف» بعد خمسين عاما من المعاناة من مرض الصرع .

وقد يكون من سوء حظ فان جوخ أيضا ، انه قبل اكتشافات العالم الالماني هانزبرجر الذي تمكن عام ١٩٢٤ من تسجيل تموجات كهربائية تلقائية في مخ الانسان حتى اذا جاء عام ١٩٣٤ أثبت العالمان البريطانين ادريان وماثيوز في كمبردج ان مرض الصرع هو اضطراب دوري في الايقاع الاساسي لنشاط الدماغ الكهربائي له أسبابه العضوية والبيولوجية ويوجد منه عدة أنواع يمكن تصنيفها أكلينيكيًا وتشخيصها كهربائيا مثل تخطيط القلب الكهربائي . . ويحتفل جهاز رسم الدماغ الكهربائي في نهاية الثمانينات بدخوله مجال الحاسب الاليكتروني بتطورات مذهلة من رصد وتسجيل وتحليل . . وتحديد واختزان المعلومات في الذاكرة الاليكترونية للمقارنة والمتابعة في نسبة ٩٠٪ من حالات الصرع كما ان من سوء حظ فان جوخ انه لم يشهد عصر الصناعات الكيماوية والعقاقير المضادة للتشنجات والتي بلغت أصنافها ما لا تستوعبه الذاكرة كل عام وتستطيع السيطرة على نسبة ٧٠٪ من المرض تحت ظروف التشخيص المبكر والعقار المناسب والعلاج المنتظم . وقد ثبت أن الاضطرابات العقلية المصاحبة هي في أغلب الحالات نتيجة مضاعفات تكرار النوبات التشنجية المصحوبة بنقص الاكسجين في الانسجة وضمور الخلايا وتلف الدماغ .

عقريتان في لوحة

أذكر أن من ضمن بحوث التخرج المطروحة في قسم علم النفس بكلية التربية بجامعة الامارات موضوع «الابداع الفني لدى الذهانين» وقد بعث لي قبل سنوات زميلي الاستاذ الدكتور محمود الزيايدي أستاذ علم النفس الاكلينيكي «العيادي» مجموعة من الطلاب لدراسة أعمال بعض المرضى الذين يعانون من

مرض عقلي يؤثر على صلتهم بالواقع «الذهان» وهي إحدى السمات السلوكية التي قد تحدث نتيجة مضاعفات مرض الصرع المزمن كحالة فان جوخ، فعرضت عليهم فيما عرضت لوحات زيتية من رسومات سيدة نزيلة بالقسم تعيش حياتها شبه طبيعية في المجتمع وتراجع في زيارات متباعدة للمعاينة والمقارنة والقياس والتقويم المستمر للحالة الاكلينيكية مع جرعة العقاقير، والعودة الى الحياة الطبيعية وهو المسمى العلمي الحديث «عيادة مرضى الصرع» مثل «عيادة مرضى السكري» والبديل الجديد للجاهلية الاولى «مصحات الصرع» التي مات فيها فان جوخ، وقد قدمت لهم اللوحة الزيتية قائلا «هذه اللوحة أقرب في ذهني الى لوحة زهرة عباد الشمس للفنان العالمي فان جوخ» فارتسمت دهشة على وجوه جميع الطلاب الذين يعرفون فان جوخ رساما عالميا وعبقرية أوروبية لن تتكرر ولا يعرفون انه كان مصابا بمرض الصرع ولا يتصورون مقارنة أعماله الابداعية بأى رسومات أو لوحات هي من هذات مريض عقلي في مستشفى معاصر في الوطن العربي، وما زالت اللوحة موجودة في معرضنا تحكي ظلم الانسان لأخيه الانسان، وعندما سردت لهم قصة فان جوخ دخلنا في نقاش حول الجنون والعبقرية من منظور فلسفي أشبه بجدار أهل بيزنطة.

لقد كان واضحا ان هناك خللا في فهم العلاقة والنتيجة بين الابداع والجنون وذلك نتيجة النهاية المأساوية التي انتهى اليها كثير من المبدعين في العالم المعاصر مثل انتحار فان جوخ وأرنست همنجواي وغيرهما مما أدى الى ترسيخ الفهم الخاطيء بين الابداع والجنون وهل الابداع نتيجة الجنون أم أحد مسبباته، وهل الشخص المبدع فيه بذرة من الجنون أم ان الافراط في الابداع يقود الى الجنون، فالواقع ان هذه القضية في غاية التعقيد ومحاوله الاجابة عليها بصورة قاطعة من خلال هذه السطور فيه تبسيط مخل بصعوبة المعادلة.

اللون والخطوط

لقد وجد الطلاب في اللوحات الفنية للمرضى النفسيين عدة وسائل تعبيرية في الشكل واللون والخطوط تعطي اشباعا نفسيا للمريض وانطبعا خاصا للمشاهد ومعنى محدد وأكثر خصوصية للطبيب النفسي الذي يعيش أبعاد الحالة

وقد تكون احدى وسائل التشخيص أو العلاج أو وسائل المتابعة والقياس ، ومثلها تضعف صلة المريض بالواقع حسب شدة مرضه وتقوى حسب درجة شفائه نلاحظ هذا التدرج في رسوماته ونحته ورؤيته للأشياء ، فقد يرسم شجرة بلا أوراق تعبيرا عن الفراغ النفسي ، أو وجهها بلا عيون دلالة على فقدان البصيرة وضبابية الرؤية ، أو بحرا بلا أمواج تجسيدا لشعوره بجمود الحياة وفقدان الحركة ، أو طائرا على قمة شجرة تأكيدا لشعوره بالعزلة عن هذا العالم ، وقد يرى الشخص المبدع السوي في نظرنا الآن تفسيراً مغايراً أو تعبيراً مغلوفاً أو معنى جديداً ، أو قد يرى نفس المعنى ويميل الى ذات التصور الفني الذي سجله المريض ، فأين الفارق الموضوعي بين السوي وغير السوي؟ وكم حجم المساحة العقلية بين الابداع والجنون؟

لقد ورث الطب النفسي كأحد فروع العلوم الطبيعية تركة مثقلة بالصراعات الفلسفية نتاج الفكر الانساني القديم المتمثل في انسلاخ علم النفس من صلب الفلسفة بنظرياتها الميتافيزيقية ومساجلاتها غير العقلانية في التنظير والتأطير لمعنى الروح والنفس ومفهوم العقل والقلب، وبعد انحسار تيار الفلسفة وميلاد علم النفس الحديث بدأ جدل آخر يفتقر الى العلم والايهان .

ان الطب النفسي يحاول جاهدا أن يسלט الضوء الكاشف على منطقة الظل بين مفهوم النفس ومدلول الروح والخروج بهذا الصراع التقليدي غير العقلاني خارج دائرة المحاور الثلاثة المكونة من علماء الدين وعلماء النفس والاطباء النفسانيين ليشمل كل قطاعات المجتمع التي تهتم بالصحة النفسية للانسان حتى يستوعب كل فرد فيه حدودا مكانياته وطبيعة اسهاماته، ويعطي كل ذي حق حقه .

ان الطبيب النفسي المعاصر يرى أن «الروح» قدرة ربانية في قوله تعالى ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ . . سورة الاسراء آية ٨٥ ، ويرى أن «النفس» مجموعة وظائف فيسيولوجية نتيجة نشاط خلايا الدماغ في منطقة اللحاء أو القشرة مركز القدرات العقلية العليا . . وأن مرض الصرع يحدث نتيجة وجود ذبذبات كهربائية غير

سوية في نشاط المخ نتيجة اضطرابات فيسيولوجية وعندما يتم تصنيف هذه الذبذبات يمكن تشخيص النوبات الصرعية .

لقد كنا قبل عشرين عاما في السودان ومع الشيخ «المكاشفي» في قرية الشكينية، نزور قريته ونقوم بتصنيف الحالات . ويقوم هو بالاقناع وتناول المريض للدواء والمتابعة والتأهيل ، وهذه التجربة مازالت ماثرا اهتمام أوساط علمية ، وكان صداها واسعا في المؤتمر الدولي الأخير بالقاهرة في تحديد العلاقة بين الطب النفسي وعلماء الدين ودورهم في زيادة جرعة الايمان في نفسية المريض وتقوية ايمانه بربه وإعادة ثقته الى نفسه وتوطيد صلته بطبيبه وتناول العلاج والاستجابة للارشادات بالآيات القرآنية الكريمة والاذكار النبوية الصحيحة .

وإذا كنا نريد أن نعيش حقا في عصر «العلم والايان» فلنتحاور عن هدى شعارنا ﴿وقل رب زدني علما﴾ تحت مظلة النوايا الطيبة نتجاوز العقم في التفكير والتشنج في المجادلة لأن فوق كل ذي علم عليم . . والعلماء ورثة الأنبياء .

انه ما من أحد يحاول أن يلغي دور الآخر أو يستأثر به إلا فقد دوره أولاً وفضل بالدور الآخر ثانياً «لأن من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه» صدق رسول الله ﷺ . . هذه هي الحقيقة ولا خير فينا ان لم نقلها .

الكاميرا الخفية

لا بد أن القارئ الكريم قد شاهد البرنامج التلفزيوني الشهير (الكاميرا الخفية) الذي يستمد فكرته من البرنامج الاجنبي CANDID CAMERA وينطوي على دراسة سلوك الفرد في مواقف مقننة ومنضبطة تهدف الى الوصول الى رد فعل الفرد عند مواجهة هذه المواقف، وغالبا ما يكون هذا السلوك استجابة غريزية لارادية تحت الشعور والايحاء بغياب الرقيب الخارجي، وقد يأتي رد الفعل بعد تفكير حذر عندما يحس الفرد بأن الموقف ينم عن غرابة أو ينطوي على خدعة، ولكن في ظل الظروف المنضبطة للملاحظة لا يكون أمام الفرد خيار غير الاستجابة الفورية بلا وعي كامل بظروف الموقف، وتتكامل جزئيات الصورة عندما يتعرف الفرد على حقيقة الموقف فيصبح رد الفعل اللاحق محاولة لاضفاء الموضوعية والمنطق على الاستجابة الاولى . .

فالشخص الذي يتعرض لقطعة ذهبية ملقاة على الأرض في غياب رقابة خارجية تتنازعه صراعات نفسية مختلفة مطابقة للتي تحدث في الحياة اليومية، فيتأمل ويستوعب الموقف خلال عملية التقويم والتحديد والموازنة بين دوافع الاقبال والاحجام قبل أن يلتقط القطعة أو يتركها أو يحاول الافادة عنها . . وعندما تنتهي اللقطة وتتكشف الحقيقة تكون استجابته اللاحقة تكملة لسيناريو الفكرة بالتعبير عن الذنب في حالة الامتلاك أو التبرير في حالة الترك أو الاحساس بالرضا في حالة الافادة عنها .

وهذا لا يعني انه سوف يستجيب دائما بنفس الصورة للمواقف المشابهة ولكنه قطعاً سيعي الدرس وقد ترسب في أعماقه فكرة ان كل المواقف المستجدة مستقبلا تكرار لاحداث الكاميرا الخفية .

ان فكرة الكاميرا الخفية تحمل بعض التطبيقات للقياس النفسي . .
كالملاحظة في دراسة نمو الاطفال حيث يتركون في صالة زجاجية كمجموعة في
ظروف ملاحظة مقيدة أو غير مقيدة وتسجيل ودراسة سلوكهم على الطبيعة من
خلال اللعب للوصول الى متطلبات النمو في مواقف معينة وطريقة تعاملهم مع
تلك المواقف دون معرفة الطفل بما يجري حوله . . كما ان دراسة حالات النوم
والاحلام تعطي فكرة أيضا عن هموم الانسان ورغباته ومصادر قلقه ومن ضرورات
النوم حدوث الاحلام لأنها تمثل صمام الامان في التنفيس عن الاحباط . . كما ان
المحتوى الظاهر والباطن للنوم يحمل دلالة كبيرة عن المعاناة النفسية التي يعيش
فيها الفرد . فالمحتوى الظاهر في الاحلام يأخذ صورة الاحداث في سلوك
لا شعوري أثناء النوم (المحتوى الظاهر) ، ولكن هذا المحتوى يتعرض للتحوير
والتبديل في الرغبات ثم التكثيف في التفاصيل باختصار عشرات السنوات من
العمر في لحظة من الحلم في شريط سينمائي قصير ، كما يلجأ للرمز في الاستدلال
على المعنى غير الظاهر للاشياء (المحتوى الباطن) ، ولذلك كان تفسير الأحلام
احدى وسائل دراسة نفسية الانسان من تحليل اللاشعور ، وحيث يتفاوت رد فعل
الانسان من النسيان الكامل للحلم أو ذكر بعض التفاصيل أو سرد الحلم شبه
كامل ، وهذا له دلالة كبرى فتذكر الحلم مشوها ومبتورا يدفع للبحث عن التفسير
ولكن حتى في ظل التفسير الواضح قد ينكره الانسان لأنه يمثل الحقيقة التي تستتر
في اللاشعور .

وفي معالجات التنويم المغناطيسي يحاول المعالج الوصول الى العقل الباطن
باحداث ثغرة للدخول في عالم اللاشعور عن طريق الايجاء المباشر أو غير المباشر أو
الحوار التلقائي تحت التنويم ، حيث يحاول المعالج سبر أغوار اللاوعي مباشرة بعد
كسر حاجز المقاومة وتخطي الدفاعات النفسية . . وقد يلجأ الطبيب الى أسلوب
التفريغ العقلي . أو التفريغ النفسي تحت تأثير العقاقير المهدئة الخافضة للتوتر
والتي تفتح بوابة الدخول الى عالم اللاشعور ، حيث يجد المريض نفسه تحت درجة
من انخفاض الوعي وزوال التوتر بحيث يتحدث بطلاقة عن مكنون ضميره دون

مقاومة ويسترسل في عملية التداعي الحر مع المعالج فيدخل في مرحلة تفرغ الشحنة العاطفية والترجيع من الازمة النفسية حسب المحتوى وعمق المضمون اما عن طريق البكاء أو النهجان أو مجرد التلذذ بالرغبة في الحديث دون توقف أو الاسترسال في الكتابة دون اعياء . ويلجأ بعض الاطباء لتسجيل هذه الافكار المشتتة والمواقف المفككة بحيث يمكن اعادة ترتيبها في نسق تاريخ حياة حافل بالاحداث الهامة والمتراطة والتي توضح العلاقة بين السبب والنتيجة في الحالة النفسية، ويزيد قناعة المريض بمساعدته في تجديد النظرة من زاوية جديدة الى هذه الاحداث ومحاولة الربط بين الاجزاء المبعثرة ونظمها في تسلسل منطقي ، ويتم هذا بمساعدة المعالج الذي ينبغي عليه ان يعرف دلالة المعلومات وقيمة الايحاءات وربط العلاقات بحيث يرى المريض لأول مرة العلاقة بين شكواه النفسية وحادثة عابرة في حياته وردت في سياق الحديث ومثلما يحدث في الكاميرا الخفية تتعاون ردود الفعل بين الانكار والتبرير والرضا، بعد التفرغ العقلي الذي سجل في الشريط العلاجي حيث يصبح التسجيل احدى أدوات المريض في أسلوب العلاج الذاتي بالصورة التي تساعد في استعادة التوازن النفسي في جلسة تأمل أو خلوة نفسية أو دراسة متأنية مع المعالج للمحتوى الظاهر والباطن لابعاد المشكلة كما سردها المريض بلسانه في التسجيل لا كما يقرأها المعالج من مفكرته أو يسردها من ذاكرته .

ومن أساليب المعالجة (السايكودراما) أو التمثيل التلقائي للدور المنوط القيام به في هذا العلاج الجماعي يتقمص الفرد الدور الطبيعي الذي ينبغي ان يقوم به حتى يتخلص من حالة التوتر المرضي من خلال التنفيس السوي عن المشاعر الضارة.

يقودنا كل هذا الى وجود رغبة خفية ذاتية لدى كل انسان ليعرف مكنون ذاته وأسرار نفسه ولكنه يخاف خوض التجربة، لان الانسان في حالة الوعي يرفض أو يخاف أن يكشف دوافعه أو يعري نفسه حتى أمام نفسه خشية أن يعرف ما لا يريد معرفته ناهيك عن التعري الارادي امام الآخرين حتى وان كانوا اعز واقرب

واحب الناس الى قلبه وعقله . ولذلك يظل السلوك الواعي مجرد مؤشر لوظائف النفس الظاهرية وما خفي اعظم . وأغلب الناس يعيشون في حالة صراع بين الرغبة في المعرفة والخوف من النتيجة ولذلك كان عامل الوعي (الثقافة) ونضج الشخصية من المتطلبات الاساسية للقدره على الاقدام لمواجهة (الكاميرا الخفية) في شتى اشكالها بداية بالتحليل النفسي أو التنويم المغناطيسي أو التفريغ العقلي أو السايكودراما أو مجرد مقابلة الطبيب النفسي في ظل الاختيار الحر .

ان الخوف من مقابلة أي طبيب غريزة طبيعية عند بعض الناس لانها مرتبطة بفكرة المرض والموت ، بينما مقابلة المطوع والمنجم والعراف مرتبطة بفكرة الشفاء من المرض ، وبعض هؤلاء يفضل المعاناة من المرض المجهول حتى الموت بدل العيش تحت رحمة المرض المعروف حتى أرذل العمر . ولا يحدث هذا فقط لدى المسنين الذين يفتقرون الى الوعي والثقافة أو يزدادون تشبثا بالحياة كلما تقدم بهم العمر ، وإنما لدى كثيرين يحاولون أن يطردوا من أذهانهم كل ما يدخل فكرة الموت فيها .

وبعض الناس يخافون مقابلة مخفر الشرطة خوفهم من الطبيب النفسي ، لأن كلا الطرفين يخرجان به من دائرة البحث عن داء الجسد الى محيط البحث عن داء النفوس ، الاول في علم النفس الجنائي يدخل منطقة الشبهات والمحرمات والثاني بالتحليل النفسي يدخل محيط الاسرار العائلية والعلاقات الشخصية والهوايات والنشاطات ، وهذا مصدر الخوف والقلق .

والاطباء الذي يعملون في مجال الاختبارات العقلية والنفسية ويبحثون عن الحقيقة داخل أعماق الذات باستعمال أدوات القياس واضاءة الجوانب الخفية يذكرون المواقف الحرجة من الرفض والمقاومة والامتناع التي تحدث خلال المعاينة الاكلينيكية .

ان المنجم أو العراف أو قارئ الكف لا يتطلب من المريض أي درجة من الوعي أو الثقافة بل قد يلزمه بالتخلي عن هذه القدرات حتى يكون العلاج نافذ المفعول ، وثانيا انه يعفي المريض من كل مسئولية ودور في الحالة المرضية ويشعره

بأنه مجرد ضحية قوى خارقة قادته الى الحالة المرضية اما أرواح خبيثة أو عين حاقدة أو نفس حاسدة تتر بص به وما عليه إلا أن يستسلم للعلاج بصورة سلبية لا تتطلب منه جهد المشاركة وتسقط عنه حق المساءلة فهو مظلوم منذ البداية حتى النهاية، وحل المشكلة في يد المنجم أو العراف والآخرين، ويكفيه مؤونة البحث والحديث عن خفاياه والكشف عن نواياه . . . وبما أن أعراض المرضى النفسي أصلا تقوم على هذه الصيغ المضطربة فإن الفرد لا يشعر بأنه أمام الكاميرا الخفية ولكنه تحت عملية جراحية تحت التخدير يفتق منها معافي وان لم يتم الشفاء فلا بأس من تكرار العملية مرات ومرات والمجتمع يقبل له هذا الدور، دور الفرد الضحية .

أما الطبيب النفسي فانه يبدأ في تخطي الحواجز والمماريس واجتياح شتى أشكال الدفاعات النفسية التي يقيمها المريض ويستتر خلفها من الاضواء الكاشفة، والطبيب المتمرس يستطيع أن يتعامل مع هذه المواقف بدبلوماسية عندما يجعل المريض يحس بمشاعر الود والألفة ويشعر بالثقة والطمأنينة وان المقابلة ليست جلسة محاكمة أو اجراء تحقيق أو تسجيل اعتراف، وانما مجرد فتح حوار حول حقائق الحياة العامة دون أن يشعر المريض بمرحلة الاستدراج في دخول المتاهة التي يحاول فيها شتى الطرق ولا يخرج إلا من بوابة واحدة تفضي الى الافصاح عن كل الأسرار دون وعي وأسباب المحنة دون حرج، ومن خلال هذه العلاقات المزدوجة تذوب المواقف السلبية بأخرى ايجابية اتكالية تجعل الطبيب رمز الخلاص ومحطة الراحة النفسية، وعندما يذهب بعيدا ويجلس وحيدا ويفكر يجد انه كان أمام الكاميرا الخفية أخذ كثيرا وأعطى أكثر وما بقي إلا نفايات يحاول دفنها في صحراء العلاقات بينه وبين الطبيب النفسي، وهذا أحد مسببات الجفاف وسر الجفوة مع الطبيب النفسي والتعامل عليه والخوف من التعامل معه لأنه متهم بأنه دائما ينظر بعين الشك ويبحث عن الاشياء الخفية وهذه نظرة ظالمة .

الأمل

قال الشاعر العربي الكبير أبو الطيب المتنبي :
وما صباية مشتاق على أمل من اللقاء كمشتاق بلا أمل

وهو يعني ان من فارق محبوبه وهو يأمل لقاءه يتعلل بذلك الأمل فيكون أخف اشتياقا ممن لا أمل له في اللقاء . فالأمل هو وقود الحياة وزاد المسافر وتعلت الغائب ورجاء المريض ولوعة المشتاق ولهفة المنتظر . فلولا الأمل في شروق الفجر لما صبر الانسان على طول الليل ولولا الأمل في حلول الليل لما احتمل الانسان هجير النهار ولولا الأمل ما عاش الانسان حياة الأمل متطلعا الى حاضر اليوم مشتاقا الى مستقبل الغد . . الأفضل منه والأجمل فيه .. المختبئ خلف سدوف ظلام المجهول الذي يقول فيه الشاعر: (ما أقصر العمر لولا فسحة الأمل).

لا أحد يستطيع أن يتصور حال مريض يرقد على سرير الموت لا يحرص على أصابعه محطات الأمل الباقية ولا مسافر في هزيع الليل أوراثة النهار لا يستشرف رؤية الحلم القابع خلف ساعة الوصول ولا طالب علم يقلب صفحات كتابه يمتطي أجنحة الأمل الى آفاق لم يحلم بالوصول اليها أحد . . ولا امرأة حبلت توقفت عند محطة الولادة الأخيرة ووصلت (سن اليأس) ولسان حالها يقول (لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس) ولا رجل ألقى عصا الترحال في نهاية عقد من العمر ما كان يحلم بالوصول اليه إلا وتأهب من جديد يتوكأ على عصا الأمل يقطع رحلة العقد الجديد مع علمه المسبق بأن ما تبقى من العمر لا يحتمل هذا الزخم الطفولي والطلق المتعسر في ولادة الأمل الجديد هذه الطاقة الجديدة التي يهددها طوفان الخوف القديم المحبوس في دهليز الاعماق وفي هذا يقول العالم النفساني جيسيل (الخوف والبأس نقيضان ولكن كليهما ضروري لنمو الشخصية

وأن نمو البأس نموا تاما كاملا يتوقف على تجربة الخوف والتغلب عليه . والخوف السليم المفيد يولد ترياقه العقلي الخاص . والخوف ألم مستبق ترياقه البأس والقدرة على احتمال الألم والتكافؤ معه ومن يملك القدرة على احتمال الألم عندما يفقد الأمل وهل الفارق النوعي والموضوعي بين الصمود والهروب والشجاعة والجبن والحركة والجمود إلاً خيط الأمل الذي ينسج منه الانسان حبل الصبر . . وجسر الصبر وحائط الصبر ليلمسك به ويعبر عليه ويقفز فوقه الى عالم المجهول . . الى الرقم الصعب الذي ظل يحلم بالوصول اليه حتى يكون سيد نفسه .

لقد كتب الشاعر الانجليزي رديارد كبلنغ في قصيدته الشهيرة «إذا» يقول في وصاياه الى ابنه :

«إذا كنت تستطيع أن تحلم ولا تجعل من أحلامك سيدا عليك . .
«إذا كنت بوسعك أن تملأ الدقيقة التي لا ترحم بما قيمته ستون ثانية من العدو والركض . .

«فستكون لك الأرض ، وكل ما فيها ، وما عليها . .
وستكون أكثر من ذلك . . رجلاً يابني» .

وقد ظلت سيدة الغناء العربي أم كلثوم تغني «خليني أحلم» طيلة حياتها حتى آخر رمق فهات وتحققت أكبر أحلامها في أرض الكنانة . . فعاشت تغني من جديد! وقد ظل المطرب الكويتي المشهور رحمه الله (الدوخي) يردد أغنية (الأمل) وهو يصارع أقسى آلام المرض العضال خلال سنوات طوال وهو يغني للأمل حتى عاجله الأجل .

أقول هذا . . وأجمل من هذا فاتي قوله . . وأكثر منه لا يسع المجال له . . وأكتفي بما دفعني الى الدخول فيه والحديث عنه والوقوف تحت ظلال دوحه الأمل الوارفة . . حاجتنا جميعا اليه . . ومحبتنا كلنا له . . وتعلقنا دواما به ومن فرط فقداننا له توقفنا عن البحث عنه . . والسعي اليه . . فأصبح في بعض الأحيان كالبضاعة الضائعة في رفوف الحوانيت القديمة تسأل عنها فيقال عنها نفذت أو فقدت الصلاحية دون أن يكلف البائع نفسه مشقة البحث عنها وسط الركام الهائل من

روح اليأس المستوطنة كخيوط العنكبوت تغطي كل الأشياء الجميلة خلف الغبار الكثيف والظلام المخيف في البيوت والطرقات والدواوين والمؤسسات . . وحتى لا يقع أحد في خطيئة ظلم الآخرين فليبدأ كل امرئ بنفسه .

لقد قال أبو قراط (ان أكبر خطأ يرتكبه الطبيب ان يحاول علاج الجسد ويترك النفس ولا تصدق مريضاً يطلب منك علاج جسده دون أن يعطيك عصارة نفسه) وهذا تلخيص رائع للعلاقة بين الطبيب والمريض ودور كل منهما . . وفي قناعتي الشخصية ان أهم دور للطبيب أن يعطي المريض الأمل في الشفاء مهما كانت ضراوة الداء . . اننا جميعاً نؤمن أن الشفاء بيد الله ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ . . وكلنا يصدق تماماً بأن لكل أجل كتاب ولكن القسم الذي بين أيدينا يكلفنا بأن نبذل قصارى جهدنا في تخفيف آلام الآخرين وليس هناك أسهل أو أفضل من أن نعطيهم جرعة الأمل . . والأمل لا يكتب في الوصفة الطبية ولا يصرف من الصيدليات ولا يشتري من المحلات التجارية ولكنه يوجد في عذوبة الكلمة وروح الألفة وسحر الثقة الممغنطة الجاذبة التي تجعل المريض لا يخرج من المجال المغناطيسي الذي تربطه به خيوط الأمل المتداخلة مثل طوق النجاة وتبعث الحياة في أوصال النفس الميتة من فرط القنوط ولا تياسوا من رحمة الله .

ان هذا العقار السحري موجود لدى كل طبيب في بداية السلم أو نهاية المطاف. حدثني سيدة أنها ذهبت بطفلها الوليد المعاق منذ الولادة الى الطبيب تسأله المشورة عن حالة طفلها وهي تعلم سلفاً أن حالته المرضية مستعصية فقال لها - والعهددة على الراوي - ليس هناك أمل في شفاء طفلك من هذه العلة الخلقية المعروفة والتي لا يوجد لها علاج في الوقت الحاضر وسألته ان كان يستطيع أن يدها على طريق ينجيها من عذاب أليم في الداخل أو الخارج فقال لها: لا أعلم فقلت لها مواسياً: حقا لقد صدق القائل: من قال (لا أعرف فقد أفتى) . . وكنت أحاول التخفيف عنها ورفع الحرج عن موقف الطبيب فليس أقسى على نفسية المريض وشرف المهنة من تجريح روح الزمالة بالكبرياء والهوى كما يقول المتنبي:

وظلم ذوي القربى أشدّ مرارة على النفس من وقع الحسام المهند
ولكنني شعرت في قرارة نفسي بحسرة وأسى وأنا أتصور نفسي في موقف هذه
السيدة الذي لا تحسد عليه حيال مأساة الولد الواحد بعد خمس بنات . . . وقلت
لنفسى لقد كانت زراعة الاعضاء قبل عقدين من الزمان أشبه بالأساطير العلمية
وحلما لا يراود عقول أكبر الجراحين وفيهم من كان يوصف بالمجنون الذي يدعي
النبوة واليوم أصبحت جراحة نقل الاعضاء وافتتاح بنك الاعضاء البشرية . . .
كالقلب . . . والكلى والكبد والقرنية حلما اقترن بالواقع في أروع صور اللقاء من
العلم والاعجاز الالهي وأعظم مفخرة طبية في مجالات الطب في كل أنحاء العالم .

ان المريض عندما يأتي للطبيب فانه يبدأ رحلة البحث عن الأمل ولا يقرر
مهمة الوصول الى الشفاء ولا يحدد نقطة اللقاء مع العافية فماذا يضير الطبيب ان
يشارك بجهد المقل وأجر المناولة حين يعطي المريض جرعة الأمل وهي قطرة من
بحيرة العطاء اللامتهى وأمنية خارج دائرة الواقع لدى الطبيب والمريض وتقع في
منطقة الظل . . . وزاوية الحلم . . . والطبيب الذي يعطي الأمل لا يندع المريض
فقد تحدث المعجزة وما أكثر حدوثها ولا يبخس المهنة حقها فرحم الطب غير عقيم
وما أعجب خصوبته ولا يظلم نفسه فرحم الله إمرأ عرف قدر نفسه ليعرف فوق
كل ذي علم عليم .

فالتبيب يقدم أولا خدمة جلييلة للمهنة حين يفتح باب الأمل على مصراعيه
لذوي الطموحات الذين يصنعون المعجزات من عجز الآخرين مرضى وأطباء
على السواء والطبيب يقدم ثانيا خدمة انسانية كبرى للمريض حين يتجدد لديه
الأمل في مواصلة المشوار الذي كاد ينقطع قبل خطوات من نهايته السعيدة وحين
يمتلئ بالاصرار على التزود بالوقود حتى آخر مرحلة في رحلة العلاج وقد كادت
تتوقف محركات مركبته التي تنقل كل حلم العالم معه في مسيرة الشفاء .

وبعد خمس سنوات شهدت عوامل الشد والجذب واليأس والرجاء والأخذ
والعطاء والمجىء والرواح والمد والجزر جاءني تلك السيدة تحمل طفلها الولد
الواحد بعد خمس بنات وأنزلته على الارض ليمشي على عكازين وقد اغرورقت

عيناها بالدموع . . ثم جلست على الارض تبكي طويلا . . وبعد لحظات طويلة
من الصمت سألتها لماذا تبكين هكذا قالت : فرحة بالذي بدأ يمشي . . وبالذي
بدأ يتحرك في بطني فقد قررنا أن ننجب (ولدا) آخر . . ولن نياس من رحمة الله . .
ولن نفقد الأمل فقلت في نفسي صدق القائل :
«ما أقصر العمر لولا فسحة الأمل» . .

الفصل الخامس

(اليقظة والنوم)

- اليقظة أعظم أسرار النوم
- الأحلام بين اليقظة والنوم
- التنويم المغناطيسي
- الرسم بالموجات

اليقظة . . أعظم أسرار النوم!

ان أعظم سر من أسرار النوم هو سر اليقظة . . فإذا عرفنا ماذا يحدث لنا في حالة اليقظة أدركنا على الفور ماذا يوقعنا في شرك النوم . وبالبحث في جذور الحالة الاولى نستطيع الوصول الى حل لغز المشكلة الثانية ولكن الأمر ليس بهذه البساطة .

مفتاح السر: ان من أكبر الاسرار في حياة الانسان ان تجيب بصورة قاطعة على السؤال البسيط هل هونائم؟ ما من أحد يستطيع أن ينفي أو يؤكد ان الشخص الآخر نائم أم مستيقظ إلا الشخص ذاته وبعد فوات الأوان، فالزوجة التي تؤكد أنها لا تنام ليلا في وجه الزوج الذي يجزم بأنها تنام غارقة مستغرقة في شبه غيبوبة، والأم التي تؤكد ان طفلها لا ينام مطلقا لا تستطيع بكل المقاييس المعروفة ان تؤكد انه كان مستيقظا طوال هذا الوقت .

فالنوم أنواع مختلفة . . ودرجات متفاوتة وحالات متباعدة . . وساعات متبادلة ونشاط دوري مستمر . . ليس اختياريا بحثا في أفضل حالات الصحة وليس اجباريا صرفا في أشد حالات المرض، وانما هو مزيج من النوم اليقظ واليقظة النائمة . .

فالنوم حالة تغيير في درجة الوعي . . لحظة توقف مؤقتة عن التفاعل مع البيئة . . حالة نشاط عقلي دوري مستمر . . صفة موروثه منذ لحظة الولادة حالة اليقظة الأولى الى الوفاة حالة النوم الأخير، لذلك نجده يشغل معظم ساعات اليوم في الطفولة بينما يتناقص تدريجيا وتحتمل اليقظة معظم ساعات اليوم في الشيخوخة، اذن فهو نشاط مرتبط بالخلايا العصبية في المخ عند الانسان حيث

تكون في الطفولة في حالة نمو وتطور وتحتاج الى النوم كوظيفة أساسية كالغذاء والتنفس ، بينما تكون في حالة الشيخوخة في حالة ضمور وتساقط ولا تحتاج الى هذه الوظيفة وهذا النشاط الحيوي للخلايا يمكن رصده وتصنيفه برسم المخ الكهربائي لتحديد درجة اليقظة وبداية النوم ومراحله ولحظة الحلم .

وظيفة النوم : يقول العالم الروسي المشهور بافلوف صاحب نظرية التعلم الشرطي : ان النوم معادلة لحالة الكف عن العمل . . كف مركز النوم الموجود في المخ الوسط وتحدث حالة الكف عندما تقل المنبهات الخارجية كالمثيرات الحسية . . الصوت . . الضوء . . الشم . . اللمس . . أو المنبهات الداخلية كالأحاساس بالجوع أو الألم أو التوتر الذهني والتشتت الفكري أو عندما تزداد درجة الحرمان الحسي كالرتابة المفرطة والفراغ الممل والهدوء المثبط والارهاق النفسي أو المرض الجسدي وفقر الدم . . فالنوم يخدم وظيفة أساسية بناءة في حياة الانسان تبدأ بالراحة الجسدية التي تعطي الجسم فرصة التخلص من السموم والحوامض المترسبة في عضلات الجسم بعد جهد بدني وقدرة تفريغ الطاقة النفسية المتمثلة في التوتر والانفعال المؤدي الى تفجير الشحنات الوجدانية ، كما ان النوم يساعد على تجديد الحفظ وصقل التعلم ويؤدي الى تقوية الذاكرة وتجميع الأحداث الصغيرة المشتتة كأرقام التليفونات وأسماء الشوارع وعناوين الأفراد لأن النشاط الانتقائي للمخ يعمل على ترشيح المعلومات وتخزينها واسترجاعها من الذاكرة طويلة المدى الى الذاكرة قصيرة المدى فتطفو الى السطح وتكون في متناول اليد ، كما ثبت علميا ان بعض الحوامض الامينية التي تحمل خصائص الذاكرة تنشط وتتغذى من خلال عملية النوم وهذا يحدث كثيرا عند الطفل ويكتسب أهمية في عملية التعلم .

كما ان النوم يخدم وظيفة سيكولوجية كبيرة حيث تحدث فيه الأحلام ، وحدوث الحلم يؤدي الى تفريغ عقلي لشحنات عاطفية محبوسة في داخل الانسان لا تجد وسيلة للتعبير عنها في وضح النهار أو أثناء اليقظة .

وقد أجريت تجارب عملية مختبرية على الحيوانات وأخرى مماثلة على متطوعين، وقد ثبت أن هناك مراكز عليا في الدماغ مسئولة عن اليقظة والنوم كقشرة لحاء المخ والتكوين الشبكي في المخ، وحرمان الانسان من النوم يؤدي الى خداعات بصرية واضطرابات ادراكية تقود الى أمراض نفسية وعقلية ومن فرط الانهاك قد تؤدي الى الوفاة.

أنواع النوم: يقول الله تعالى ﴿وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا﴾ . . . صدق الله العظيم، وفيه اشارة واضحة الى التبادل الدوري بين اليقظة والنوم، بين الحركة والسكون . . ان نتائج احتراقات الطاقات المختلفة من مواد في الجسم تؤدي الى تراكمات سامة وشبه سامة تجعل الانسان بحاجة للاسترخاء والنوم، ولكننا نستطيع أن نقاوم النعاس ونعمل اذا دفعتنا الحاجة الى ذلك، وكذلك فالنوم ليس رد فعل منعكس شرطي فقط كالغفوة، لأننا نستطيع أن نرد الفعل بفعل مضاد وعكسي ونصل الى أعلى درجات اليقظة اجباريا . كما ان النوم ليس حالة غياب وعي تماما لأننا نتذكر أحلامنا ونسترجع تفاصيل معلوماتنا بعد النوم . والنوم ليس شللا حركيا للجسم لأن كثيرا من الناس يمشون مسافات طويلة في أشد حالات النوم العميق (كالتجوال الليلي) كما انه ليس انقطاعا حسيا عن البيئة لأن الأم التي تنام تحت هدير الشاحنات الثقيلة والضوضاء الشديدة تقفز مفزعة لسماع صوت طفلها النائم في الغرفة المجاورة . كما ان النوم ليس نشاطا عفويا عشوائيا بدون تخطيط لأننا نستطيع أن نستيقظ اذا كان لدينا مواعيد مسبقة كدوام مسائي أو مواعيد سفر وكأنها الساعة البيولوجية المثبتة على جدران الدماغ تعمل بتوقيت آلي يدق جرس الانذار في الوقت المناسب .

ان النوم ليس رحلة قصيرة خارج دائرة الوعي يعود بعدها الفرد الى ممارسة طقوس اليقظة كما يتصوره البعض، أو انه انقطاع مؤقت عن العالم، له بداية ونهاية مؤقتة لساعات النوم . . فالنوم أنواع: ومراحل . . وهناك اختلاف نوعي وكمي في النوع والمرحلة . . فهناك نوعان مختلفان . . النوع الاول ويسمى النوم

الطبيعي أو الكلاسيكي أو السوي ، والنوع الثاني يسمى النوم النقيضي أو المفارق أو النوم الحالم .

فالنوع الأول الطبيعي والمعروف يتدرج الى أربع مراحل تبدأ من خلود الفرد الى الراحة وقطع المثيرات الحسية والتدرج من حالة اليقظة الى مرحلة النعاس ثم الغفوة ثم النوم الخفيف ثم النوم العميق ويتميز بحدوث تغيرات فسيولوجية مثل انخفاض سرعة التنفس وسرعة دقات القلب وانخفاض ضغط الدم وهبوط درجات الحرارة وانخفاض سرعة الاحتراق فكل هذه التغيرات تقود الى الاسترخاء الجسدي والعقلي .

أما النوم الثاني أو النقيضي أو النوم الحالم فيصحبه نشاط في كل الأجهزة وتزداد حركة التنفس وسرعة القلب وضغط الدم وافراز المعدة وحركات العيون وتحث فيه الاحلام (النوم الحالم) كأنها النائم يتابع مسلسلا متحركا هي مشاهد الحلم وهذا أكبر وجوه التناقض بين الاثنين .

وكما ان اليقظة والنوم نشاطان متلازمان لصحة الانسان فكذلك النوم النقيضي والطبيعي يتعاقبان في دورات ثابتة تقريبا لكل فرد بحيث يقضي النائم حوالي ٢٥٪ من فترة نومه في النوم النقيضي حيث يكثر الحلم ويكون أكثر حدوثا في الساعات الاخيرة من الليل فيما يحدث النوم الطبيعي في أول الليل والنوم يكون درجات متفاوتة في الصحة والمرض في العمق والسطحية وفي الاستمرار والتقطع وفي حدوته مليئا بالاحلام أو خاليا منها .

الحلم .. والمختبر

يتصور كثير من الناس أن النوم وجبة زمنية تقاس بالساعات والدقائق ولعل هذا مأخوذ من ترتيبنا لنمط حياتنا الموزعة على ثلاثة نشاطات . . العمل . . الحياة الاجتماعية ثم النوم وبذلك يكون نصيب كل نشاط ثماني ساعات واذا سألت أي شخص سوف يجيبك بأن الساعات المطلوبة للنوم هي ثماني ساعات وهذا ما قلته للبر وفيسر (بريست) في مختبر النوم في مستشفى (وست لندن) في عام ١٩٧١

عندما سألتني عن عدد ساعات النوم للشخص العادي؟ فأجابني بأن بروفيسر (بوندي) والذي يدير هذا المختبر وبلغ من الكبر عتياً لم ينم في حياته الطويلة أكثر من أربع ساعات في اليوم ومازال يتمتع بذاكرة جيدة وعقلية جبارة وان تجارب هذا المختبر خلال السنوات العشر الاخيرة قد أكدت ان معدل ساعات النوم الطبيعي من ٤ - ١٠ ساعات والذين ينامون أقل يكونون أكثر قدرة على النجاح والمثابرة والذين ينامون أكثر يكونون عرضة للعصاب والاكتئاب وقد وضع لنا هذا من خلال التخطيط المستمر للمرضى والمتطوعين في حالات النوم والاحلام . . . ووظيفة الاحلام مرتبطة بوظيفة النوم وهي تحدث في الاطوار النقيضة واذا أيقظت أي انسان في فترة النوم الحالم سوف يؤكد لك ٨٠٪ انه كان يحلم وانه يرغب في الاستمرار في النوم وانه منزعج ولن يستيقظ بسهولة بعكس النوم الطبيعي الذي يحدث في الجزء الاول من الليل وبدون أحلام غالباً ويكون خفيفاً في الاستجابة .

وفي كتاب (الطب المنصوري) للطبيب العربي الكبير (أبوبكر الرازي) نجد شرحاً لفائدة الاحلام في تشخيص وعلاج الأمراض ، وفي مجلدات (فرويد) «تفسير الاحلام» نجد التأكيد على ضرورة الاحلام التي تؤدي الى اشباع رمزي لرغبات مكبوتة تمثل صمام الامان من حدوث اضطرابات نفسية للانسان .

الأحلام . . بين اليقظة والنوم

ذكرنا في حلقة سابقة أن النوم يخدم وظيفة سيكولوجية هامة حيث تحدث فيه الأحلام وحدوث الأحلام يؤدي الى تفريغ عقلي لشحنات عاطفية محبوسة داخل الانسان لا تجد وسيلة مقبولة للتعبير عنها أثناء اليقظة . وإلا أصبحت أحلام يقظة ، وهذه ظاهرة نفسية أخرى لها وظائف مختلفة .

ان حرمان الانسان من النوم يؤدي الى اضطرابات ادراكية وخداعات بصرية وهلاوس قد تؤدي الى حدوث أمراض نفسية وعقلية حسب الشدة والمدى الزمني ومن فرط الانهك قد تؤدي الى الوفاة .

ووظيفة الأحلام مرتبطة بوظيفة النوم ، وهي تحدث في النوم النقيضي أو المفارق وفي الاطوار النقيضية . اذن فالانسان لا يحتاج فقط الى النوم الطبيعي ولكن يحتاج كذلك الى النوم غير الطبيعي والى الاطوار النقيضية فيه حيث يحدث الحلم . . فسيكولوجيا يعتقد الانسان ان النوم غاية مهما كانت وسيلته . . وفسولوجيا يتضح أن النوم وسيلة للوصول الى غاية الحلم الذي يحدث التوازن النفسي بدليل ان الذي يفتقد الحلم من خلال النوم الطبيعي يلجأ اليه في حالات أحلام اليقظة .

وأحلام اليقظة ظاهرة طبيعية ورغبة عارضة في الهروب من دائرة الاحباط النفسي من خلال تخطي الحواجز والعوائق الحقيقية والوهمية التي تحول دون تحقق رغبات الفرد . . فيتصور نفسه وقد حقق ذاته من خلال الانفلات اللا ارادي لحظات قليلة من قيود الواقع المحيط فيتنفس الصعداء ويتجدد الأمل وتبرق العيون وتمتد آفاق المستقبل حتى اذا ما أفاق من هذه الغفلة عاد الى الواقع المرير، وهو هذه الصورة انفلات عشوائي ولا شعوري يخدم هدفا نفسيا يؤدي

الى الترويح العقلي ولكنه عندما يصبح نمطا سلوكيا ثابتا في التعامل مع حقائق الحياة باللجوء اليه كلما تجمعت سحائب الأزمة وضائق دائرة المحنة . . هنا يصبح نوعا من المرض النفسي . . والاسلوب الطفولي في مواجهة الحياة وتكراره يقود الى فقدان البصيرة وامكانية التأمل من عدة زوايا والنظر من مختلف الاتجاهات للمشكلة الواحدة .

ولذلك تكون أحلام اليقظة أكثر حدوثا عند الاطفال الاسوياء بدرجات كبيرة ومتفاوتة بنسب معقولة نتيجة عدم النضج الانفعالي وسرعة الاثارة، وتقل عند الكبار إلا في حالات الاحباط النفسي أو عدم القدرة على التكيف بمواصلة الحلم الذي لم يتحقق من خلال النوم الطبيعي .

ويرى المحللون النفسيون ان الحلم يحدث في صورة تعبيرية خاصة . . تختلف بين اليقظة والنوم . . ففي اليقظة يتحقق قدر من الحلم السطحي . . الذي يفرغ الشحنة العاطفية الآنية المسببة للانفعال المباشر الذي يعيش فيه الفرد . . فيتصور انه كسب المباراة . . وصعد الى المنصة وتسلم الكأس بين تصفيق الجمهور . . هذه هي المهمة الاساسية . . الخطوة الاولى في رحلة الميل في لحظة الغفلة قبل صفارة البداية .

أما في النوم فالحلم قد يختزل الزمن من الطفولة الى الرشد في دقائق هي جزء من أطوار النوم النقيضي الذي يمثل نسبة ضئيلة من النوم الطبيعي في الليل أو النهار، فإذا كان على الحلم أن يحقق للفرد العيش في الماضي والحاضر والمستقبل بكل هذه الابعاد السحيقة في هذه اللحظات القليلة ويغوص في الشعور واللاشعور، فلا بد من وجود وسائل خاصة تقوم بهذه المهمة وتستخدم ثلاث وسائل: الأولى . . التكثيف وهي اختزال فترة زمنية طويلة في دقائق قليلة وأحداث تاريخية في ثوان عابرة وتلخيص الحياة في كلمات، والثانية التحوير أو الاحلال، وهي أن تحل الأشياء محل بعضها البعض ويحور الوقائع بحيث تتخذ عدة صور لا تجسد الواقع مباشرة . . هي لغة جديدة تعبر بصورة غير مباشرة عن مضمون اللاشعور ولذلك يكون هذا الغموض في تفسير الأحلام ومحاولة ربط

الاشياء ببعضها، وأخيرا الوسيلة الثالثة هي الرمز. . ان الاحلام لا تستعمل اللفظ مباشرة ولكنها تعبر عنه بالرمز في لغة الحلم حتى أصبح هناك قاموس خاص بالاحلام. . فالاشياء الحادة لها دلالة رمزية خاصة، واللون الاسود له معنى تعبيري محدد والحيوان له مفهوم تفسيري معين ويتخذ الرمز في بعض الأحيان صورة مغايرة نقيضة مما جعل بعض المفسرين للحلم وشاع بين عامة الناس ان الحلم يعني عكسه. . فالحالم بالسعادة قد تمر به أزمة وهكذا ولذلك دائما ما يحتتم النائم حلمه أو يبدأ يقظته قائلا: اللهم أجعله خيرا. . خوفا من سوء العاقبة.

ومن الناحية الفسيولوجية لقد أجريت تجارب عملية تحت رصد جهاز تخطيط الدماغ في حالات النوم والاحلام اتضح منها ان حرمان الفرد من الاحلام في المختبر أو عن طريق عقاقير الهلوسة أو التنبه أو المهدئة أو المنومة يؤدي الى حدوث اضطرابات عنيفة وهلاوس مخيفة يؤدي الى المرض العقلي أو الانتحار أو الوفاة ويبدو هذا عمليا عند مدمني الكحول والمخدرات عندما يتوقفون جريا عن التعاطي فتصيبهم أعراض الانسحاب وأكثر ما يميزها فقدان النوم الذي يؤدي الى فقدان الاحلام فيعانون من اضطرابات ادراكية وتخيالات وهذات تنتهي بالاجهاد النفسي والبدني والوفاة وهو من أخطر مراحل علاج مضاعفات حالات التوقف عن المخدرات. اذن فالانسان لا يحتاج فقط الى النوم ولكنه يحتاج أكثر الى الحلم وكل انسان يحلم ولكن ما كل انسان يتذكر الحلم وهذا هو الفارق بين شخص وآخر في الاحساس بمتعة النوم.

وفي مجال الأدب نجد الأدباء والشعراء يجأرون بالشكوى والبكاء من الحرمان العاطفي، وفي مقدمة مظاهر الحرمان يشكون من عدم النوم، فهم من الناحية السيكولوجية يطالبون بالنوم، ومن الناحية الفسيولوجية يبحثون عن الحلم تعبيرا عن حجم معاناتهم التي قد تقودهم الى الارهاق النفسي والبدني ويبقى حديثهم عن الموت من فرط الشوق ولوعة الفراق المقرون بعدم النوم وفقدان الحلم تصويرا دقيقا له دلالاته الفنية وال نفسية. . معبرين عن نتاج حرمانهم الحسي من النوم في الموالم المتكرر (يالليل. . ياعين) مطالبين بحقهم الطبيعي في النوم وجنوحهم

الفطري للحلم في الاغاني المشهورة (خليني أحلم) لأم كلثوم، أو (أحلم بيك أنا بحلم بيك) لعبدالحليم حافظ. . انهم يطرحون مشكلتهم للعلماء ليحددوا المنطقة الدماغية في المخ التي تضبط عملية الاحلام في النوم وتحديد العوامل الكيماوية التي تؤثر في حدوث أو كف نشاط هذه المنطقة والبحث عن امكانية حدوث تفاعلات فسيولوجية - بيولوجية في حالات الانفعال كالحب والكراهية يمكن أن تؤثر في هذه المتطلبات كما يطالبون العلماء باختيار الشروط الفسيولوجية والعوامل السيكلوجية المؤثرة في ظاهرة حدوث الأحلام وكيفية تفسيرها .

لعل تطور العلم الحديث في مجال نشاط المخ ووظائفه الفسيولوجية المختلفة وانتشار مختبرات النوم في السنوات الأخيرة ودراسة ظاهرة الاحلام وأثار العقاقير المنبهة والمهدئة والمنومة في تنوع النوم ودرجته ومراحله يساعد في الوصول الى الحقيقة المفقودة. . ما هو القدر المطلوب من النوم لكل انسان بحيث يكون كل فرد خاليا من التوترات العصبية وما هو نوع الحلم المناسب لكل فرد حتى يعيش حياة صحية آمنة في سلام مع نفسه والآخرين خالية من الاوهام الطافحة من بقايا حلمه المتقطع في شكل كابوس ليلي أو أرق نفسي. . لقد أصبح (الأرق) بأشكاله المختلفة أكثر الاعراض شيوعا في حياتنا النفسية في عالم اليوم. . وأصبحت اضطرابات النوم تدفع بالكبار والصغار. . بالرجال والنساء الى تناول شتى أنواع الملطفات والمنومات في سبيل البحث عن النوم الطبيعي .

فإذا استطعنا أن نوفر هذا القدر من متطلبات الحياة العصرية للناس فإننا قد نتمكن من تطويق الالوجاع الصغيرة التي تنتشر كالأوبئة الفتاكة من الأرق الى القلق والاكتئاب والأدمان والانتحار وحوادث الطريق. . وعندما نعرف ما هو النوم الطبيعي وغير الطبيعي ، أنواعه درجاته وساعاته وما هو دور الحلم المباشر في حياة الانسان دون تفسيرات ميتافيزيقية تخلط بين الحلم والرؤية والخيال والواقع نصبح قادرين على كتابة وصفة طبية بعدد ساعات النوم وطريقة تعاطيها وفترة استعملها ومدة سريانها ولكل أجل كتاب .

التنويم المغناطيسي

التنويم المغناطيسي يعني احداث حالة تنويم شبيهة بالنوم نتيجة اطفاء جذوة مقاومة الوعي بالايحاء النفسي وايجاد مرحلة من انخفاض درجة الوعي نتيجة المؤثرات النفسية الرتبية والمنظمة بصورة خاصة ذات علاقة وثيقة بين العقل والجسم وهي ليست نوما طبيعيا يمر بمراحل التدرج المعروفة، فهي اذن حالة فسيولوجية متميزة تحت ظروف خاصة «قابلة للمغنطة» أي مشتقة أصلا من قوة جذب حجر المغناطيس في علم الظواهر المغناطيسية والاستدلال فيها بصفات الجذب والسحر والفتنة وهي عناصر مرتبطة بالعلاقة بين قابلية الشخص للتنويم و«جاذبية» المعالج في الايحاء اضافة للمحرك الداخلي الاحترق المولد للطاقة النفسية بين الطرفين، وفي ظل المعالجة الحديثة يستبدل بعض الاطباء النفسانيين التنويم المغناطيسي بالتنويم الكيميائي باستعمال العقاقير الكيميائية الخافضة للقلق والتوتر والتي تدخل بالمريض مباشرة في نوم عميق دون مقاومة أو ارهاق .

ان البدايات العلمية للتنويم كانت على يد عالم الاعصاب الفرنسي الشهير شاركوت في عام ١٨٨٥م عندما حاول اثبات دور الايحاء تحت التنويم المغناطيسي في حدوث أو إزالة أعراض جسدية كشلل الاطراف أو فقدان الحواس . . وقد أكد تلاميذ شاركوت على العلاقة الوثيقة بين ظاهرة التنويم المغناطيسي ومرض الهستيريا التحولية وهو المرض النفسي الذي تتحول فيه الالام النفسية الى أعراض جسدية كالشلل والصمم والبكم والتي يمكن معالجتها عن طريق الايحاء تحت التنويم .

وقد اختلف العلماء في دور التنويم المغناطيسي في علاج الظواهر النفسية ، خاصة وان بعض العلماء يرى أن بعض الناس غير قابلين للتنويم بالايحاء مطلقا

بينما يرى فريق آخر أن أي شخص سليم سوي يمكن أن ينوم مغنطيسيا حسب قدرة المعالج ، بينما يرى فريق آخر ان الخلاف ليس في حدوث التنويم ولكن في درجته المتفاوتة في السطحية والعمق والمتأثرة بانخفاض القلق وتهيئة الجو المناسب من غرفة هادئة وقدرة النوم على الايحاء وقدرة المريض على التركيز الى الدرجة المطلوبة منه .

ونجاح التنويم يعتمد على طرق الايحاء المختلفة : الايحاء المباشر . . الايحاء غير المباشر أو الايحاء بعد التنويم . . ولكل نوع من الايحاء ظواهر نفسية وأخرى فسيولوجية وعلى المعالج منذ البداية ان يدقق في تشخيص الحالة واختيار الشخص ونوع الايحاء حتى يستطيع ان يقيس مدى نجاح أو فشل التنويم من خلال الظواهر التلقائية أو ما يسمى SPONTANEOUS PHENOMENA أو الظواهر الناتجة عن الايحاء HYPNOTIC SUGGESTIONS ومن أكبر مظاهر التنويم شعور الود والالفة بين المنوم (بفتح الواو) والمنوم (بكسر الواو) والتي جعلت فرويد أحد تلاميذ شاركوت يشبهها بحالة الالفة التي تنشأ بين المريض والطبيب في التحليل النفسي مما جعله يترك التنويم ويلجأ الى أسلوب التداعي الحر FREE ASSOCIATION بعدما وضح ان من الظواهر النفسية المصاحبة للتنويم زيادة القابلية للايحاء وزيادة الالفة مع المعالج والقدرة على الاتصال بالعقل الباطن مع حدوث فقدان الذاكرة المصاحب للتنويم العميق ، أما الجوانب النفسية المصاحبة للتنويم ذاته فهي التغيرات الادراكية كحدوث الهلوس والتغيرات الوجدانية من قلق وخوف وفرح وفقدان الذاكرة المحيطي الذي يجعل الفرد ينسى بعض الاحداث ويتذكر غيرها تحت تأثير الايحاء ، ورغم ان له جانبا علاجيا في حالات الاكتئاب والقلق النفسي الا انه دفع فرويد لهجر فكرة التنويم بحجة ان الكبت والنسيان عاملان أساسيان في أسباب الأمراض النفسية ، فإذا استطعنا أن نجعل الفرد ينسى أو يكبت فنكون قد سلبناه قدراته الدفاعية الحافظة لتوليد الطاقة النفسية لمقاومة المرض .

ان تفسير ظاهرة التنويم المغناطيسي في نظرية واحدة تمثل أحد التحديات

التي تواجه علم النفس المعاصر لأسباب كثيرة، ولكن الواضح ان ظاهرة التنويم المغناطيسي تختلف نفسياً وفسولوجياً عن حالة النوم الطبيعي، ولذلك كثرت النظريات، وبين كل هذه هناك عشر نظريات ثابتة في شرح الظاهرة تلقي ضوءاً على جانب منها، وهذا يعود الى أن كل نظرية تحاول تفسير جانب واحد أو تصف ملاحظاتها فيه دون تفسير كيفية حدوث هذه الملاحظات . . وأكثرها أهمية في نظر الباحثين حسب الاحاطة والشمول أولاً نظرية الاستجابة الشرطية لبافلوف، وثانياً نظرية العقل الالكتروني، وثالثاً نظرية النوم، ورابعاً نظرية زيادة الايحاءية التي تقول ان الشخص القابل للتنويم هو شخص يتمتع بزيادة قابليته للاستهواء والايحاء، وخامساً نظرية المستيريا لشاركوت، وسادساً نظرية الاستجابة التأسلية أي العودة الى صفات الاسلاف لاتقاء شر الخطر في احدى مراحل التطور، وسابعاً نظرية النكوص التي تقول ان التنويم حالة نكوص للطفولة الاولى يأخذ فيها المنوم دور الوالد المفضل، وثامناً نظرية تمثيل الدور أي الشخص في هذه الحالة يقوم بالدور كما يتوقعه، وتاسعاً نظرية الانشقاق وترى ان الشخصية تتركب من مجموعة ملكات مستقلة يمكنها الانفصال والعمل باستقلال، وأخيراً نظرية الادراك الحسي .

وتعد نظرية الاستجابة الشرطية لبافلوف الرائدة في مجال تفسير الظاهرة، كما ان نظرية العقل الالكتروني وهي نظرية حديثة تنظر الى المخ نظرتها الى العقل الالكتروني أو الحاسب الآلي حيث توجد ثلاث نقاط هامة . . أولها المعلومات الداخلة وثانيها مرورها على المخزون من المعلومات وثالثها المعلومات الخارجة، ومن المعروف في هذه النظرية ان المعلومات التي تفهم وتثبت داخل المخ لا بد وأن تتناسب أو تتفق مع المخزون من المعلومات وإلا فإن المعلومات الداخلة ستلفظ ولا تحتزن، وتقول النظرية ان حالة التنويم هي حالة تثبيط دائرة المخزون حتى يمكن للمعلومات الداخلة عن طريق الايحاء أن تبقى دون مقاومة ودون رفض حتى وان كانت لا تتناسب مع المخزون، وبذلك استطاعت النظرية تفسير لماذا

يتقبل المخ المعلومات التي تدخله بالايحاء رغم تعارضها مع شخصية الفرد وهي أقرب الى نظرية الادراك الحسي الاخيرة والتي تفترض وجود مجال نفسي حركي نتيجة حدوث عائق بين قشرة المخ وبين المخ المتوسط حيث يكون الانسان على غير دراية بالمدركات العادية . . وتتصل كل هذه النظريات وتفسر كل نظرية جانبا أو أكثر دون الالمام ، بكل الجوانب مما يدل على وحدة وتكامل ظاهرة التنويم التي لا تقبل التجزئة ، وشأنها شأن النظريات العملية الاخرى في مجال الطب النفسي التي تحتاج الى دراسة تجريبية تخضع لأدوات قياس غير متوفرة الآن ، ولا يقلل من شأن النظرية قصور العاملين في مجال الصحة النفسية في تأصيل البحث قبل الممارسة .

وإذا أردنا تبسيط ظاهرة التنويم المغناطيسي حسب نظرية الاستجابة الشرطية لبافلوف نقول ان الطفل في أيامه الاولى يبدأ في تكوين أول منعكس شرطي عن طريق الاهتزازات الرتيبة في حضن أمه حتى ينام ، ثم يبدأ - اشراطيا - ينام في ظل حدوث هذه الاهتزازات حتى في حالة عدم وجود الرغبة في النوم ، ومن هنا جاءت طريقة التنويم عن طريق الأفعال المنعكسة الشرطية التي تأصلت في الانسان منذ أن كان طفلا حيث يرقد على سرير ناعم ووسادة وثيرة في غرفة هادئة واضاءة خافتة بعد التهيئة النفسية اللازمة الخالية من أعراض القلق والتوتر والاطمئنان الى شخصية المنوم ثم التركيز على أي شيء له صفة الرتابة في الحركة والايقاع المنتظم مع استرخاء الاطراف وأغماض العيون ثم يبدأ الايحاء حتى يدخل الفرد في مرحلة التنويم بكل التغيرات النفسية المذكورة . . بنظرة متأنية الى هذه التفاصيل نجد أن هناك شعاعا من كل نظرية يصب في دائرة الضوء وسط هذه النظرية .

ان من أهم التغيرات في التنويم القدرة على الاتصال بالعقل الباطن فإذا اعتبرنا ان كثيرا من الدوافع والرغبات الشعورية يكون مصدرها لاشعوريا فإنه يمكننا توجيه دفة اللاشعور من خلال عمليات الايحاء المختلفة وبالتالي التحكم

في الدوافع والرغبات اللاشعورية وهذه القابلية قد ساعدت في علاج كثير من الاضطرابات النفسية كالشلل والعمى في المهستيريا التحولية واضطرابات الدورة الشهرية وحالات الضعف الجنسي والامراض الجلدية والربو الشعبي في الامراض النفسجسدية التي تحدث كنتيجة اضطراب الجهاز العصبي اللاارادي .

ان اقبال الكثيرين غير المتخصصين على اقتحام مجال التنويم المغناطيسي وممارسته بصورة استغلالية في غير مجالاته في الافلام والمسلسلات أفقد الظاهرة كثيرا من مصداقيتها العلمية مما جعل الاطباء النفسانيين يلجأون الى التنويم الكيميائي الذي لا تمتد اليه يد المتاجرين بأحزان « الغلابة » أو المسترزين من الجانب المأساوي في حياة التعساء الذين جعلوا من التنويم (منجم ذهب) يدر ثروات طائلة خاصة في أمريكا وفي مدينة النجوم هوليوود كما تقول صحافة المنجمين والعرفانين وقارئى الفنجان في بداية كل مقال ونهاية كل اعلان .

الرسم . . بالموجات

قد يتذكر القارئ الكريم ديوان الشعر المشهور للشاعر العربي الكبير نزار قباني بعنوان (الرسم . . بالكلمات) وهو وصف شعري لوظيفة الكلمة كأداة وصل . . وطريقة رسم ووسيلة نقل مشاعر ولغة وجدان . . إلا ان المضمون الأدبي يجعل من الرسم بالكلمات تعبيراً عن أشكال الابداع الشعري الذي يجعل الشاعر يوظف الكلمة في رسم لوحة شعرية معبرة عن الحالة الوجدانية السارة أو الحزينة، بحيث يكون التعبير بالكلمات أشبه بالرسم بالخطوط في الفن التشكيلي وكلاهما نماذج من الابداع الانساني الراقى . . ومدرسة الواقعية في الأدب (أنصار الفن للحياة) والتي كانت تنادي بنقل الواقع وتصويره ورسم أبعاده المأساوية اصطدمت بموجة عاتية من النقد تقوم على أساس أن دور الشاعر ليس كاميرا ناقلة للصورة الفوتوغرافية للواقع لأن الواقع موجود والاصل أفضل من الصورة، ولكن مهمة الشاعر أن يضيف من ذاته المبدعة الملتزمة بتغيير صورة الواقع بالنماذج الجديدة المبتكرة بما يتجاوز نقل الشكل الى تغيير المضمون . . وهكذا حصرت (الواقعية) دعاة الرومانسية (أنصار الفن للفن) في تبني شعارات جديدة تنادي بأن على الفنان أن يتعدى دور الكاميرا الناقلة للواقع بالكلمة والخطوات والنحت الى دور صنع القوالب الأدبية أو أبتكار الاشكال الفنية المتطورة المعبرة . والرسم بالكلمات عبارة عن مجموعة لوحات شعرية متحركة نابضة بالحياة قد يختلف الناس في مضمونها ولكنها تعبر عن مرحلة متقدمة في تناول القضايا الفنية كالشعر.

أسوق هذه المقدمة تمهيدا للانتقال من الرسم بالكلمات في مجال الأدب الى الرسم بالموجات في مجال الطب، حيث تطور رسم الكلمات الصوتية والمرئية الى رسم الموجات المرئية والصوتية في تصوير أعضاء الانسان . . وفي الرسم الكهربائي

لنشاط الخلايا العصبية للقلب والمخ والعضلات . ان الكلمات الصوتية تتحول فيزيولوجيا الى طاقة ميكانيكية تحرك عظام الأذن الوسطى التي تتحول الى طاقة كهرومغناطيسية تصل الى العصب السمعي وتسجل في ذاكرة الانسان وتسترجع في تخطيط السمع كما تتحول الموجات الصوتية الى تصوير أعضاء الجسم كالمعدة والقلب والكبد وتعكس النشاط الداخلي لأعضاء الجسم من رسم القلب الكهربائي . . ورسم العضلات الكهربائي . . ورسم المخ الكهربائي . . في الرسم بالموجات وكل هذه الرسومات بالموجات الكهربائية تعطي مؤشرات لنشاط عضلات القلب ودورته الدموية وتحديد الخلل وطبيعته ومداه ، كما تحدد في رسم العضلات طبيعة وحجم ومكان الاصابة أو التلف الذي لحق بالسيالات العصبية وأدى الى ضمور أو تلف العضلات نتيجة اصابة العصب الحسي أو الحركي الذي يغذي العضلة موضع الدراسة كما يساعد في المتابعة وتحديد مدى الاستجابة للعلاج الطبيعي الفيزيائي .

ورغم صعوبة الاحاطة بكل مجالات الرسم بالموجات الكهربائية في حقل الطب ، إلا أن تطورا خاصا قد حدث في مجال رسم المخ الكهربائي بعد فترة من اليأس والقنوط في بداية السبعينات نتيجة الانتظار لأن يكون أحد الوسائل العلمية في تحديد وظائف مناطق في المخ مازالت مجهولة الخصائص ، وكذلك في تصنيف حالات مرضية نفسية وعصبية وعقلية وفي مجال دراسات النوم واليقظة وفي تفسير ظاهرة الاحلام وهذه اتجاهات تتطور في مطلع كل عقد من الزمان .

لقد بدأت أول دراسة لرسم الدماغ الكهربائي في عام ١٨٧٥ م . بعد اكتشاف العالم (كانون بارد) لوجود موجات كهربائية في مخ بعض الحيوانات ، وبعدها قام الطبيب النفسي الالماني هانزبرجر بأول تسجيل دقيق لهذه الموجات من مخ الانسان بوضع اقطاب كهربائية في ثقب الجمجمة عام ١٩٢٩ ، ثم تبعه العالمان البريطانان ادريان وماثيوز من جامعة كامبردج في بريطانيا عام ١٩٣٤ بالتقاط هذه الموجات من فروة الرأس الخارجية وكانت البداية .

ويسجل رسم الدماغ الكهربائي النشاط التلقائي لخلايا القشرة أو لحاء المخ

وليس المخ كله ، لأن مساحة المخ واسعة تتكون من أربعة عشر بليون خلية عصبية ذات نشاط كهربائي متصل طيلة حياتها في اليقظة والنوم وتنتقل هذه الطاقة من خلية الى أخرى في شكل موجات تتراوح قوتها بين ١ - ٢ ميكروفولت بذبذات من ١ - ٥٠ في الثانية ويتميز الرسام بأربعة أنواع من الذبذبات تتولد في مناطق معينة في المخ وفي حالات محددة من النشاط ومراحل خاصة من العمر . . ومن خلال هذه المعطيات يتحدد التخطيط الطبيعي وغير الطبيعي .

ومن المهم أن نعلم أن التجارب الاكلينيكية أثبتت أن ١٠ - ١٥٪ من الاشخاص الأسوياء يسجلون رسام دماغ كهربائي غير سوي ، بينما نجد أن ١٠ - ١٥٪ من الاشخاص المرضى يسجلون رسام دماغ بايقاع أساسي سوي مما يدل على أن أهمية رسم المخ تكون أكثر دقة وأهمية في متابعة الحالة أكثر من التشخيص ، أي التغيرات التي تطرأ في سلسلة اختبارات في أوقات متباعدة لنفس الحالة . . كما انه من المعروف أن وزن دماغ الانسان السوي الراشد يعادل ثلاثة أربال ، وفي حالة الطفل الصغير والمسن يتناقص بنسبة ٤٠٪ نسبة لتساقط خلايا المخ بعد منتصف العمر ، ولذلك نجد رسومات الموجات في الطفل والمسن متشابهة مما يفسر العلاقة بين نشاط المخ والسلوك الانفعالي ، والطفولي عند المقارنة بين المرحلتين في العمر ولماذا يكون سلوك المخرف مثل الطفل من حيث العصبية والانفعالات .

ان من أهم مجالات الاستخدامات الطبية لرسم المخ الكهربائي والتي أثبتت ثورة تشخيصية عالية هي في حالات الصرع أو التشنجات الصرعية وأنواعها وأسبابها ، ومدى تأثير العلاج عليها وكذلك تشخيص أورام المخ وتحديد مكانها وطبيعتها وارتجاج المخ والتهابات الدماغ التي تؤدي الى تلف الخلايا وحالات عتة ما قبل الشيخوخة أو الخرف المبكر ، كما يمكن أن يساعد في اكتشاف الاضطرابات عند الاطفال مثل مشكلة الحركة المفرطة وعيوب النطق والكلام والتبول الليلي اللاإرادي ، كما أن من الميزات الخاصة تصنيف حالات (الغيبوبة) . . الغيبوبة العضوية نتيجة اصابة الدماغ أو هبوط الكلى وداء السكري والغيبوبة النفسية

نتيجة الاكتئاب النفسي أو الهستيريا التحولية والغيوبة العقلية نتيجة الانفصام التخشيبي (الكتاتوني)، كما يساعد في التمييز بين حالة العمى الهستيرى (المتعامى) والعمى العضوي (الأعمى) أي الفارق بين المحروم من الرؤية وبين القادر عليها ولكنه لا يريد أن يراها، كما ان في مجال الطب النفسي الجنائي يساعد في التمييز بين الشخصيات المرضية حين وضح ان ٦٠٪ من الشخصيات العدوانية السايكوباتية تتميز برسام دماغ كهربائي غير سوي كما أن بين ٥٠ - ٦٠٪ من الاطفال المصابين باضطرابات سلوكية شاذة يعانون من وجود ذبذبات مرضية معينة في رسوم الموجات الكهربائية . . ومع التقدم المذهل في انتشار جراحة القلب وزراعة الاعضاء حسم الرسام الكهربائي مشكلة تشخيص الوفاة . . هل يكون المقياس توقف ضربات القلب أم توقف نشاط الخلايا الدماغية والمسافة الزمنية بين انتقال القلب الجديد وزراعته في الجسم واستئصال القلب المريض كيف نعرف أن المريض مازال حياً؟ .

نعود الى الرسم بالموجات الكهربائية لنشاط المخ .

ان هذه التطورات فتحت آفاقاً جديدة في دراسة حالات النوم حيث توجد أربع مراحل وهي النعاس ثم الغفوة . ثم النوم الخفيف، ثم النوم العميق ولكل مرحلة موجاتها المميزة لها، وان الاحلام تكثُر في مرحلة النوم النقيضي، وهذا النوع يمثل ٢٠٪ من مجموع ساعات النوم ويكثر في الجزء الأخير من الليل ويتميز بكثرة الاحلام، وصعوبة اليقظة، كما يمكن تفسير كثير من الاحلام من خلال دراسة النشاط الكهربائي في حالة حدوثها (حالة اللاوعي) .

والحرمان الحسي . . في النوم العميق وحالة الوعي الفيزيولوجي المتمثل في نشاط المخ الكهربائي في موجاته المختلفة والتي تعطي أشكالاً هندسية مختلفة . . كالموجات المغزلية والتي هي المؤشر الثابت والمؤكد لحدوث النوم الطبيعي . . أو حركات العيون . . المعبرة عن حدوث الحلم وكأن النائم يرى الأشياء تتحرك أمامه ويتابعها بعيونه في شريط سينمائي متحرك .

ان من أكبر أحلام الطب النفسي ان يتمكن رسام المخ الكهربائي من تقديم

اجابات علمية لأسباب الامراض النفسية والعقلية بحيث يمكن تصنيفها بدقة ومعرفة أسبابها وقد تقدم الاستاذ الدكتور أحمد عكاشة أستاذ الطب النفسي بجامعة عين شمس في المؤتمر العالمي للطباء النفسانيين الذي عقد بالقاهرة العام الماضي بحثا قيما عن الجديد في اسهامات رسام الدماغ الكهربائي والتشخيص الخرائطي للمخ بالكمبيوتر في مجال الأمراض النفسية وقدم تحليلا لرسومات الموجات الكهربائية . . والذبذبات المختلفة في محاولة لتصنيف حالات الفصام والهوس والاكتئاب والهستيريا والوسواس القهري . . وقد كانت محاولة مباشرة ورائدة تحقق الحلم وتعيد الثقة المفقودة في هذا الاكتشاف منذ سنوات في مجال الانطلاق بالطب النفسي لايجاد وحدة قياس نفسي دقيقة تميز بين العضوي والوظيفي بين الاعمى والمتعمى . . والمريض والمتمارض والسوي وغير السوي .

ومن أهم انجازات الرسم بالموجات دراسة تأثير العقاقير ودورها في علاج الادمان عبر طريق ملاحظة أثرها على النوم النقيضي والاحلام . . وهل تقل أو تزيد الاحلام بتناول العقاقير المختلفة وما هو السبب والنتيجة في العلاقة بين الادمان والنوم والاحلام هذا المثلث الذهبي الذي يدور داخل حلقاته المفرغة الملايين من البشر في حيرة وضياح فهل يكون في الاشكال الهندسية المختلفة لرسم الموجات أحد الزوايا التي تكسر هذه الحلقة وتفتح بداية الخروج الى عالم الصحة والعافية . . نأمل ذلك .

الفصل السادس

(الأمراض النفسية والعقلية)

- الصرع بين العلم والخرافة
- المرأة المهشمة
- الوادي الظليل
- الوسواس
- صرخة الاستغاثة
- الادمان وحوار الطرشان
- السلوك الانتحاري

الصرع . . بين العلم والخرافة

انعقد قبل عامين مؤتمر الاطباء النفسانيين العرب في الاردن حيث حضرت أحد الجلسات الخاصة بعنوان (أسلمة الطب النفسي) وقد ترأس الجلسة علماء مسلمون وغير مسلمين وأدارها الزميل الأكبر الدكتور جمال ماضي أبوالعزائم وقد دار نقاش جانبي حول كيفية التطبيق في حالة وجود طب نفسي اسلامي وطب نفسي مسيحي في بلد واحد . . وقد ذكر بعض المشتركين موضوع (الصرع) وتساءلوا: كيف ومتى يمكن للطبيب المسلم المؤمن أن يقول للمريض ان هناك نوعا من الصرع نتيجة للارواح الخبيثة وقد لا يتعالج مما تجوز فيه ترك المعالجة والتداوي (ان علاج الأرواح بالدعوات والتوجه الى الله يفعل ما لايناله علاج الأطباء) ثم ماذا يقول الطبيب غير المسلم عندئذ؟

ودار نقاش حول فصل علاج الصرع في كتاب (الطب النبوي) لابن قيم الجوزية المتوفي سنة ٧٥١هـ حيث قال: الصرع صرعان: صرع من الارواح الخبيثة الأرضية والثاني هو الذي يتكلم فيه الاطباء وسببه وعلاجه اما صرع الارواح فعلاجه مقابلة الارواح الشريفة الخيرة العلوية لتلك الارواح الشريرة الخبيثة لتعارض وتفسد أفعالها واستشهد بقول أبقراط وقدماء الاطباء الذي سموا هذا الصرع (المرض الالهي) وقالوا إنه من الارواح أما جالينوس وغيره فقد قالوا: انها سموه بالمرض الالهي لكون هذه العلة تحدث في الرأس فتضر الالهي الظاهر الذي مسكنه الدماغ وعلاج هذا الصرع باقتران العقل الصحيح الى الايمان كما جاءت به الرسل .

واتفق المجتمعون على أن قضية أسلمة المعرفة كنهج عقائدي تتجاوز كل فروع المعرفة والطب عامة والطب النفسي خاصة وأن موضوع الصرع كأحد

الامراض العقلية مجرد أحد النماذج التي تؤكد على ضرورة وضع القضية في اطارها الصحيح : ما هو موقف المريض تجاه الطبيب المسلم وغير المسلم وما هو موقف الطبيب المسلم تجاه المريض المسلم وغير المسلم في اطار أسلمة المعرفة عامة والطب النفسي خاصة !!

ان طرح قضايا معينة في اطار اعلامي مشوش يؤدي الى نتائج عكسية بالتوعية والتجزئة الضارة بمجمل القضايا الواحدة . وكان أول تطبيق عملي يقابلني عندما كتب أحد القراء يقول (ان مرض الصرع قد حير الاطباء نتيجة انعدام وسائل التشخيص وتشابه النوبات الصرعية والتي تمر بأربع مراحل وأن أنواع الصرع ثلاثة هي : أولا نوبات صرعية منشؤها نفسيا وثانيها نوبات صرعية منشؤها عضوي وثالثا نوبات صرعية منشؤها اعتقادي روحي) وأضاف الكاتب نفسه يقول (ان النوع الاخير هو الذي حير الاطباء على اختلاف تخصصاتهم وخاصة النوبات الصرعية الروحية مما جعل الأطباء يتركون مرضاهم عرضة للدجالين والمشعوذين) وما يزال صدى نقاش المؤتمرين في أذني كتبت قائلا : ان قناعاتي الشخصية عن تجربة أليمة في علاج مرضى الصرع انه من أكثر الأمراض التي حظيت بقدر كبير من الاعلام وحظ ضئيل من التعليم مما جعله أشبه بالأسطورة والخرافة برغم أن العلم الحديث يؤكد مع مطلع كل عقد من الزمان انه من أكثر الأمراض استجابة للعلاج بعد التشخيص المبكر والعلاج المناسب وبعيدا كل البعد عن الافكار الخاطئة الموروثة والمعتقدات المكتسبة فالثابت علميا ان مرض الصرع يحدث نتيجة اضطراب دوري في الايقاع الأساسي للمخ لأسباب عضوية وبيولوجية وأن هذا النشاط الكهربائي غير السوي يمكن رصده بجهاز رسم الدماغ الكهربائي بنسبة ٩٠٪ من الحالات المرضية وعلى أساس دراسة هذا الرسم يمكن تصنيف الصرع الى ثلاثة أنواع أولا : النوبات الصرعية الكبرى وهي التي تحدث فيها المراحل الاربع من صرخة مفاجئة ثم تشنج وانقباض عضلي ثم اختلاج ورعشة شديدة وحول في العيون ورغاوي في الفم قد يصحبه فقدان الذاكرة وهذا هو النمط الكلاسيكي لمرض الصرع المعروف لدى عامة الناس تحت مسميات مختلفة وقد تصحبه غيبوبة تستمر لفترة قصيرة يعقبها

نوم عميق أو تنتهي بصداع شديد وفقدان الذاكرة للأحداث السابقة . . والواقع ان هذا نوع واحد فقط من عدة أنواع للصرع فهناك أنواع أخرى لا تعكس هذه الصورة ولا تمر بكل هذه المراحل ولا يمكن ملاحظتها إلا بملازمة الأم لطفلها أو معايشة المرأة لزوجها وفي أكثر من ٥٠٪ من الحالات تظهر موجات كهربائية متميزة وقاطعة في التشخيص . وثانيا النوبات الصرعية الخفيفة وهذه تتميز بفقدان الوعي لثوان قليلة ينقطع فيها الكلام فجأة ثم يتصل أو يسقط القلم من اليد ثم يلتقط أو تنزل القدم في المشي ثم تعتدل ولا يحدث سقوط على الأرض بالصورة الأولى أو فقدان للوعي بالكامل ويتميز رسام المخ بموجات كهربائية خاصة لها أهمية تشخيصية .

وثالثا : النوبات الصرعية النفسية الحركية وهذا يتخذ مظهر الغرابة في السلوك كالشروذ الذهني أو الذهول أو التجوال مع فقدان الذاكرة الزمانية والمكانية والابتيان بحركات لا ارادية وتصرفات غير منطقية وقد تحدث حالات صياح أو كلام غير مترابط دون ظهور أي أعراض للصرع الكبير كما أن الصورة الاكلينيكية قد تعطي انطبعا خاطئا يساعد على الخلط بين هذه الحالة والامراض العقلية والنفسية الأخرى كالفصام والهستيريا ولكن رسم المخ يعطي موجات كهربائية خاصة معينة متميزة تساعد في تشخيص هذه النوبات الصرعية وقد أوردت النص الكريم ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم﴾ وأضفت ان هذا التصنيف العلمي المقتن بالملاحظة الاكلينيكية والتخطيط الكهربائي يؤكد أن كل النوبات لا تتشابه ولا تمر كلها بالمراحل الأربع وليس هناك نوبات صرعية أو روحية لا تظهر في التخطيط وهناك فارق بين الدلالة على المرض وبين السببية أو العلية فيه ولكن ينبغي التمييز بين الصرع العضوي والصرع الوظيفي الذي ليست له أسباب واضحة كالهستيريا أو (الزار) أو بعض نوبات الغيبوبة النفسية اللا شعورية ذات المنشأ النفسي وقلت : أتمنى أن يكون القارئ قد قصد هذا النوع حين ذكر ثلاثة أشكال وهي تعني شيئا واحدا (نفسية - اعتقادي - روحي) والاصل والهام اما نفسي أو عضوي . والصرع اما أن يكون وراثيا أو مكتسبا من حُمي عالية في

الطفولة أو إصابة أو التهاب في الدماغ ولكن الواضح والثابت ان الصرع مرض عضوي غير معدي على الاطلاق لا بالمعاشرة بين الزملاء في المكتب أو بين الأزواج في البيت طيلة العمر إلا انه يورث .

وبعد فترة وجيزة عَقِبَ أحد القراء قائلاً . . ومصدقا لما قلناه وخشينا منه ونحن في هذه المرحلة من الحديث عن أسلمة المعرفة قال الكاتب (ان الصرع الروحي ورد في الكتاب والسنة واننا لا نستطيع انكار هذا النوع لان هذا يخالف تعاليم الاسلام) وقد صرفت النظر بالطبع عن الاجابة في ذلك الوقت لأن لكل مقام مقال وكما قال المتنبي :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلمي مُضْرُكُوضِ السيف في موضع الندى

وحتى لا تكون فتنة أثرت المجادلة والتي هي أحسن فيما بعد مؤكدا ان العلم الحقيقي ينبع من الايمان الصادق وان هناك فئة تحاول أن ترسخ مفهوم فرضية وجود تعارض بين العلم والايمان وتعتقد أن مسئوليتها متابعة الاكتشافات العلمية الحديثة ووجود نصوص قرآنية تستند عليها في تفسير الظواهر العلمية والا خرجت بالاكتشافات من نطاق الايمان وجعلت من هذا العلم زندقة كما يقول فضيلة مولانا الشيخ الشعراوي وهنا يكمن الخطر في تناول قضايا علمية من منظور غير موضوعي ولا عقلائي فسبحان الذي علم بالقلم وعلم الانسان ما لم يعلم وهو الذي علم الطبيب النفسي تصنيف أنواع الصرع وأوحى لعقله المحدود باكتشاف جهاز التخطيط ليشاهد مكان العلة وطبيعة المرض ولهذا يقول: (العلماء ورثة الانبياء).

ان مرض الصرع يستجيب للعلاج وصعوبته تكمن في تأخر الحالة حيث أن العقاقير الحديثة وفي حالات نادرة جراحة المخ الدقيقة تساعد في شفاء ٧٥ - ٨٠٪ من الحالات كما تساعد البقية في ممارسة حياة شبه طبيعية مثمرة.

ان مرضى الصرع أذكياء موهوبون ومظلومون وضحايا الجهل والاعلام

القاصر، أما وقوعهم في (شباك الدجالين والمشعوذين) على حد قول الكاتب فهذه مسؤولية المجتمع الذي يسمح لهذه الفئة باستدراجهم واستغلال ايمانهم بالقضاء والقدر في حجب الحقيقة عنهم بينما يُشَلون حركة الطبيب حين يطلبون منه أن يقول للمريض (انك تعاني من صرع روحي لا يمكن علاجه الا بمقابلة الأرواح الخبيثة للارواح الشريفة الخيرة لتفسد أفعالها) ماذا يقول المريض . . في مجتمع تصل فيه نسبة الأمية معدلا يصعب معه على الكثيرين من المعلمين والمتقنين التمييز بين الأرواح العلوية والأرواح السفلية . . والله أعلم .

المرأة المهشمة

لقد وجدت في مكتبة الفيديو في جامعة لندن فيلما وثائقيا من جامعة انديانا الامريكية حول مرض الفصام العقلي بعنوان (الفصام . . المرأة المهشمة) وهي ترجمته (The Shattered Mirror: Schizophrenia) وقد استوقفني هذا الوصف فهو تعبير أدبي فني وتشكيلي رائع للصورة التي تحدث في حالة مرضى الفصام المزمن حيث تتفكك الشخصية (وتنشط) مثل زجاج المرأة بحيث يصعب استعادة روعة وصفاء الوجه الأصل للمرأة القديمة ولكنه من الناحية العلمية لا يعكس روح البحث العلمي مع التحول المذهل الذي حدث في تطور الأساليب العلاجية بحيث يمكن لمريض الفصام ان يستعيد قدراته العقلية بدرجة تعيد اليه القدر المناسب من التوازن العقلي ليمارس دورا مقبولا في الحياة وليس هذه محاولة للتقليل من شأن الفيلم بقدر ما هو تعبير عن الدهشة لاستعمال المصطلح كعنوان يعطي انطبعا خاطئا عن خلاصة الفيلم وأهدافه لأن هذه الصورة القائمة يمكن أن تنطبق عمليا على كل الأمراض الأخرى. ففي حالات كسور الجمجمة ونقل الاعضاء لا يمكن لجراحة الزراعة بالأساليب التقويمية ان تستعيد تماسك وترابط الأنسجة في قوة وصفاء وجه المرأة المهشمة رغم امكانية استعادة القدرة على أداء الوظيفة الحيوية بكفاءة وهذا ما يسعى اليه الطب النفسي في المستقبل خاصة وأن أبحاث مرض الفصام مازالت في البدايات العلمية في مجال التعريف والتصنيف والعلة والأساليب العلاجية .

ويبدو أن أول من وصف الصورة الاكلينيكية لما يعرف حاليا بالفصام هو الطبيب البلجيكي موري MOREL عام ١٨٦٠م عندما وصف حالة صبي في الرابعة عشر يعاني من تدهور عقلي مضطرب التطور وأطلق عليه لفظ (الخلل المبكر)

ولكن الدراسة العقلية المنظمة للفصام لم تبدأ في الواقع إلا بفضل جهود العالم النفسي الالماني كربلن في عام ١٨٨٧م حيث أوضح ان استخدام لفظ (الخبل المبكر) هو المرادف لما يسمى حاليا (بالفصام الطفلي) وان أنماط الفصام الاخرى لها أعراضها المميزة كما كان أول من ميز بين (الخبل المبكر) الذي ينتهي بتدهور وبين ذهان هوس - الاكتئاب الذي لا ينتهي بتدهور.

وقد نادى كربلن بضرورة قيام دراسات فيسيولوجية تستهدف البحث عن مواد ضارة في العقل عندما وجد أن تشريح المخ ودراسة الكيمياء الحيوية لا تساعد في التعرف على العلة أو السببية في الفصام وبعده قام العالم السويسري بلوير بالترجمة الحرفية لكلمة انفصام التي يرجع أصلها الى الكلمة اليونانية (SCHIZ) أي انقسام أو انشطار أو انفصال و (PHRENIA) أي شخصية وبما ان الوظائف العقلية المختلفة توجد في العقل فأطلق عليه انفصال الشخصية أو انقسام العقل ولا يعني بحال من الاحوال انقسام الفرد الى شخصين كما في الروايات والمسلسلات أمثال دكتور جيكل ومستر هايد أو (ذات القناعين) وان كانت هذه الشخصيات ترمز الى شكل من أشكال الاختلاف عن الاسوياء المفروض فيهم وجود نوع من الانسجام ما بين الفكر والشعور والاتصال بالواقع الخارجي ، أما في مرض الفصام فيعتقد المريض وحدة الشخصية وتتمثل الاعراض الفصامية في اضطراب السلوك والوجدان والتفكير والارادة مما يجعل من غير الممكن التنبؤ بالسلوك والذي قد يكون غريبا وشاذا نتيجة الانفصال الواضح في الوظائف النفسية وقد أضاف بلوير نمطا رابعا هو (الفصام البسيط) . وقد أصبح من المعروف في التصنيفات الجوهرية للفصام أربعة أنماط رغم وجود خليط آخر ليس هنا مجال الحديث عنه أولا (الفصام البسيط) والذي يبدأ في سن مبكرة ويتميز بتدهور في السلوك والقدرات العقلية كالتركيز والانتباه والتصرفات الشاذة غير المنطقية والانطواء والعزلة حتى مرحلة التدهور العام الذي يحطم البنية الاساسية للشخصية . ثانيا الفصام الهيفريني (الطفلي) ويرجع اللفظ الى الكلمة اليونانية ومعناها صبي أو طفل ويسمى فصام المراهقة وأعراضه غرابة السلوك وتبلد الحواس وضحالة الانفعال واهمال المظهر العام وقد اكتسبت (جماعة الهيبين) في أوروبا هذا الاسم من شذوذ

السلوك والانغماس في المخدرات . وثالثها (انفصام الخيلائي) أو الهذائي ويتميز بالشعور بالتيه والعظمة والضلالات كادعاء النبوة وحمل الرسالات مما يطلق عليه عامة الناس (جنون العظمة) ويميز بعض الاطباء بينه وبين مرض (البارانويا) أو الفصام الاضطهادي حيث يعتقدون انه وحدة نقية أو ظاهرة تتضمن أساسا أعراضا فصامية لم تتضح بعد وهذا جدل أكاديمي لم تتضح أبعاده بعد . رابعا (انفصام التخشبي) وأهم سماته الحركات اللارادية الاجترارية المثيرة التي يقوم بها المريض وهذا ما يعرفه عامة الناس (بالجنون) ويعتقدون عن جهل انه المرادف للمرض النفسي ! .

وهناك عدة نظريات في تفسير أسباب انفصال الشخصية ويرجع هذا الى السؤال الرئيسي هل الفصام مرض عقلي واحد ذو سبب واحد وسيرة مرضية واحدة أم هو عدة أمراض لها نواة أساسية تتفرع فيها بأعراض مختلفة؟ والفصام يعادل في قاموس الطب النفسي مرض (السرطان) في قاموس الطب الباطني فالأول ينخر في بناء الشخصية والثاني ينخر في خلايا الجسم وكلاهما يمثلان التحدي الأكبر الذي مازال تحت مجهر الابحاث الطبية في معامل الطب البشري والغريب في الامر ان العجز الكلي الذي يحدث نتيجة مرض الانفصام يعادل أضعاف العجز الكلي لمرض السرطان من حيث خسارة الثروة البشرية في الانتاج وفي الجريمة وفي الخلل الاجتماعي وفي عشرات ضحايا القتل العمد والجناي والانتحار الجماعي من مرض الفصام إلا أن الاموال المرصودة لمكافحة السرطان تعادل عشرة أضعاف ميزانية أبحاث مرض الفصام رغم ان أحد أكبر أسباب مرض (السرطان) كالتدخين بات لا يحتاج الى بحث ولا يحتاج الى موارد مالية حيث يمكن أن يدفع من ضريبة الشركات المنتجة للدخان التي تقبض ثمن الضحايا لمبيعاتها السرطانية وهذا يدل على خلل الاستراتيجية الصحية ويعكس ازدواجية نظرة المجتمع الذي يفضل الفرد فيه أن يموت بأعراض سرطانية لا أن يدخل في متاهات فصامية قد يكون علاجها في تناول اليد وهذا بدوره يعكس الوعي الصحي وضغط الرأي العام في اتخاذ القرار العلمي ويحتاج الى المزيد من التوعية الصحية .

ان من أسباب مرض الفصام الوراثية ما يشير الى حدوث اضطرابات كيميائية فسيولوجية في الجسم فقد وضع أن نسبة الفصام بين التوائم الضنوية تصل من ٢٠ - ٦٠٪ وفي حالة اصابة الوالدين تصل الى ٤٠٪ وفي حالة اصابة الوالد الواحد تصل الى ١٦٪ ثانيا لقد وضع ان اضطرابات الهورمونات تتسبب في بعض الحالات بدليل حدوث المرض في سن المراهقة وسن اليأس وبعد النفاس حيث تميز هذه الحالات باضطراب افرازات الغدد الصماء وثالثا الاضطرابات الفسيولوجية في الجهاز العصبي حيث دلت أبحاث رسام الدماغ الكهربائي ان الذبذبات الكهربائية التي توجد في مرضى الفصام يمكن أن تحدث في حالات الاشخاص العادين تحت تأثير المخدرات كعقاقير الهلوسة والامفتامين وما يصاحبهم من اضطراب في السلوك والتفكير والادراك والهلوس السمعية والبصرية وهناك اتجاه حديث يشير الى وجود شبه بين نشاط المخ وذبذباته الكهربائية في حالات النوم (النقيضي أو المفارق) الذي تحدث فيه الاحلام وحالات الفصام حيث تكثر الاحلام والهلوس والفرع الليلي . ورابعا توجد علاقة بين مرض الصرع المزمن وتلف الدماغ حيث لوحظ أن عددا من مرضى الصرع النفسي الحركي يعانون من أعراض مشابهة للفصام في نهاية المطاف خاصة في غياب العلاج المناسب .

وقد اتفق بلوير وكربلن على أن مرض الفصام يمتد على مدى واسع من اضطراب يمكن بالكاد ملاحظته (كالفصام البسيط) الى اضطراب عقلي حاد مثل (الفصام التخشيبي) وأن العمليات العضوية هي الاساس في الفصام مما جعل بلوير يخلص الى أن خلاا تشريحيا أو كيميائيا يحدث في المخ هو الاساس فيما يحدث من اضطراب فصامي . اما فرويد فقد اعتمد في هذا المجال على مفهوم النكوص (REGRESSION) الى صور بدائية من السلوك في الفصام ويعتبر مفهوم النكوص عنصرا أساسيا في كثير من النظريات المعاصرة حيث تشير تلك النظريات الى أن الفصام يستخدم ميكانيزمات عقلية بدائية تعود الى مستويات دنيا في التكامل النفسي .

أما علاج الفصام فيتمثل في أساليب عديدة كالعلاج بالعقاقير والعلاج الكهربائي والعلاج الجراحي والعلاج الاجتماعي النفسي والعلاج السلوكي والعلاج بالعمل كما انه منذ اكتشاف الادوية النفسية في عام ١٩٥٩ وفي أول حالة استعمال لها في فرنسا أدى الى تحسن ٨٠٪ من حالات المرضى المزمنين داخل المصحات والزنايات العقلية. ان تطور دور الرعاية الصحية الالوية وطب المجتمع ودور العلاج التأهيلي في تغيير الظروف الاجتماعية والاسرية والوحدات النفسية في المستشفيات العامة كالبديل الحديث للمصحات العقلية المنعزلة والمستشفيات النهارية ووحدات العلاج الطبيعي وتطور أساليب الخدمات المنزلية في المستشفى الصباحي ووحدات السكن الاسرية الصغيرة المرتبطة بورش العمل الوقائية داخل الاحياء السكنية وفي قلب المدينة قد شهد ازالة معظم المستشفيات العقلية الاثرية كما ان اسهامات الهيئات الخيرية والتطوعية وجمعيات النفع العام رفع مستوى الوعي الصحي لدى المجتمع وقد شهدت بنفسي في العام الماضي تحويل أحد أكبر المستشفيات العقلية في لندن الى دار لرعاية المعوقين تحت شعار هيئة الصحة العالمية (تحقيق الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠).

الوادي الظليل

يتداول الناس في أحاديثهم اليومية وبصورة متزايدة عبارة (ضغوط نفسية) حتى دخلت قاموس الحياة اليومية وأصبحت أكثر وفرة من الخبز والماء في أفواه الناس من بداية ونهاية الدوام اليومي من أجل تأمين احتياجات الحياة وأصبحت (الضغوط النفسية) كالبرشام الذي يتناوله الفرد اما ليزيل عنه الشعور بالألم أو يجلب له الاحساس بالراحة أو يعطيه بعض القوة والنشاط وعندما فشلت كل (البرشامات) المتداولة والمعروفة بأثرها في تغطية هذه الاحتياجات لجأ البعض يتحدث عن برشام السعادة الوهمية التي تعطي شعورا مؤقتا بلذة مزيفة في حالة وعي أو شكل غيبوبة في تناول المسكرات والمخدرات ولهذا أصبح مفهوم ضغوط نفسية عبارة مجنحة فضفاضة مستحدثة (ومعقلنة) الكثر ونيا بتجميع كل هذه الهوموم في كبسولة واحدة .

ان الضغوط قد تكون داخلية في الجسم أو خارجية في البيئة المحيطة والضغوط الداخلية قد تكون أمراضا عضوية أو تغيرات فسيولوجية أو عوامل طبيعية تتراوح بين حوادث الاصابات وتقلبات الطقس وتأثير السموم وأمراض المخ العضوية وبقايا العمليات الجراحية أما الضغوط الخارجية فتختلف من فرد لآخر فما يمثل لدى البعض ضغوطا نفسية عالية أو مواقف احباطية قاسية قد يرى فيه الآخر تجربة مثيرة أو تحديا يدعو لليقظة والحذر ويتوقف هذا على شخصية الفرد وعمره الزمني وتجربته الحياتية في محيطه الذاتي والاجتماعي .

وأنواع الضغوط الخارجية قد تتمثل في الفقد بكل أنواعه من فقد احد الوالدين الى فقد الوظيفة ومصدر الرزق أو الحرمان العاطفي أو الفشل الدراسي أو عدم الاستقرار المهني أو مرض الشيخوخة وفقدان المركز الاجتماعي كما ان

الازدحام السكاني الذي جعل المدينة الحديثة غابة (متحضرة) أدى الى سوء المسكن وتلوث المناخ وولادة شتى أنواع الاحباط المسببة للضعف والجريمة .

ومن أهم العوامل المؤثرة في مواجهة الضغوط النفسية عنصر الشخصية والشخصية هي كافة الخصائص والقدرات المختلفة التي تميز كل انسان عن غيره وهي مجموعة الانماط السلوكية أمام الاحداث والمواقف وهي الاتجاهات والميول الموروثة والمكتسبة لديه وبهذا فكل انسان له شخصيته أو صفاته المميزة الخاصة به ولكن الشخصية لا تعرف أو تحدد معالمها بالصفات كالقوة أو الضعف فهي ليست مجموعة عضلات أو جملة عظام أو حزمة أعصاب وانما تصنف الشخصية حسب الطباع الاساسية التي تميز شخصية عن أخرى طباع كالأنانية أو الايثار والتحدي أو الهروب والمواجهة أو الانسحاب وهكذا .

ولهذا يختلف مفهوم الصحة النفسية للفرد بتعدد انماط وصفات الشخصية والمواقف الاختيارية التي يعيش فيها الفرد في محيط حياته . فالصحة النفسية يقصد بها صحة الفرد السليمة من الامراض والاضطرابات . . أو حالة التكامل لطاقاته المختلفة بالصورة التي تؤدي الى الاستثمار الأمثل لها والتكيف الأفضل مع البيئة لتحقيق الوجود الانساني . . فالفرد يولد مزودا بطاقة نفسية أساسية يحتاج اليها مباشرة وظائفه النفسية المختلفة وتتمثل هذه الطاقة في القدرة العقلية المعرفية والطاقة الانفعالية والطاقة الدافعية ومن هنا فان كمال الصحة النفسية يعني تجميع هذه الطاقات في تنظيم كلي متكامل بحيث يمكن توظيفها نحو أهداف معينة في أوقات معينة لتحقيق أهداف الوجود الانساني الايجابي . والصحة النفسية لا تستلزم دائما ولا تعني بالضرورة وجوب الصحة البدنية المطلقة وان كان تعتمد عليها وتتكامل معها فكثير من ذوي العاهات الخلقية الجسدية أو ضعاف البنية يتمتعون بروح عالية ودرجة مذهلة من التكيف الذاتي والاجتماعي والتوافق النفسي مع العلة البدنية بروح واقعية بعيدة عن الوسواس والأوهام والتمتع بصحة نفسية سليمة ولهذا يصعب تحديد مفهوم الصحة النفسية في تعريف واحد بسيط او بعد ثابت مختصر وابرز دلالة على ضرر هذا التعريف وخلل هذا المفهوم

ازدياد نسبة الاكتئاب بين عامة الناس دون ملاحظة آثاره المدمرة على الصحة النفسية .

ان الاكتئاب النفسي مرض انفعالي يتميز باضطراب في المزاج يستدل عليه بالحزن الشديد المستمر مع بطء حركي عام في كل الوظائف البدنية والعقلية وقد أدى هذا الانطباع القاتم الذي يظلل وجه الحياة الى تسمية الاكتئاب بـ (الوادي الظليل) Depression: The Shadowed Valley اذ تبدو الحياة رمادية اللون قائمة الظلال سوداء المعالم وتتفاوت هذه الاعراض من بطء الحركة الى الشلل التام الذي يشبه الغيبوبة في أقسى درجاته المرضية . ويتنشر مرض الاكتئاب بنسبة ٣٪ من عامة السكان وبينما يكثر مرض الفصام في الطفولة والشباب فان مرض الاكتئاب يكون أكثر حدوثا في مرحلة الشيخوخة بسبب الضعف البدني والعزلة الاجتماعية وكثرة الامراض والخوف من الموت واليأس وفقدان الأمل في كثير من ملذات الحياة كما انه يحدث في منتصف العمر حيث يقارن المرء بين ما مضى من العمر بدون انجاز وما تبقى منه ينتظر استحالة الأمل أو حدوث الاعجاز في ظل الاحباطات المتواترة كما يحدث أيضا وبصورة مأساوية في فترة المراهقة مصحوبا بأفكار انتحارية ويحدث قطعاً عند الاطفال .

ان مرض الاكتئاب يكون أكثر حدوثا بين النساء ضعف الرجال ربما نتيجة ظروف الاحباط التي تعيش فيها المرأة مقارنة بالرجل ويكون أكثر حدوثا في مرحلة اضطرابات الطمث وخاصة بعد حالات الولادة وكثيرا في (سن اليأس) أو آخر محطة في رحلة الانوثة .

ومن المهم ان نعرف ان بعض حالات الاكتئاب قد تكون لأسباب غامضة لا ترتبط بالفقر والجوع والمرض كما اقترن في أذهان عامة الناس ويسمى هذا الاكتئاب التفاعلي . . أي نتيجة التفاعل مع أسباب بيئية ولكن نسبة كبيرة من الناس تعاني من اكتئاب رغم عدم وجود ضغوط بيئية أو شخصية واضحة ووسط طبقات ارسقراطية منعمة مترفة لا تعرف معنى الفاقة أو الحرمان ولذلك تعمل جاهدة في سبيل ايجاد صيغة تعايش سلمي مع الاكتئاب حتى يصل مرحلة

الخطورة خوفا من الوصمة الاجتماعية نتيجة الفهم المغلوط لأن ما يعتقد المريض انه سبب لمرضه ربما يكون نتيجة له . . فقد يفقد الفرد وظيفته ويعتقد ان ذلك سبب الاكتئاب بينما تكون الحقيقة ان حدوث الاكتئاب منذ فترة دون الالتفات اليه أو الاهتمام به حتى مرحلة ضعف الانتاج وتدهور العلاقات وسوء السلوك كان النتيجة الطبيعية لفقدان الوظيفة نتيجة وليس سببا في الاكتئاب .

والاكتئاب قد يتخذ عدة صور أبرزها الصورة الانبساطية الانفتاحية المتميزة بالافراط في التيه والخيلاء (الهوس) وأخطرها الأخرى الانقباضية الانطوائية المتميزة بالافراط في الحزن وبطء الحركة (الحزن) وبينهما خليط من نماذج أخرى كالاكتئاب المتكرر في شكل أعراض جسدية أو الاكتئاب الضاحك والذي كثيرا ما يحدث حتى يقدم المريض على الانتحار وتتساءل الناس لماذا فعل ذلك ومرض الاكتئاب يتخذ عدة أعراض انفعالية وذهنية وجسدية ولكن ما ينبغي الإشارة اليه ان مرض الاكتئاب قابل للشفاء تلقائيا للوسائل الأخرى من العلاج ومن رافة الله بعباده ان كان مرض الاكتئاب أكثر شيوعا وانتشارا وسط الناس إلا أنها أكثرها استجابة للشفاء التلقائي أو العلاجي - الكيميائي أو الفيزيائي أو النفسي وبصورة تحد من شدة الاعراض وطول المعاناة وحدوث النكسة وخطر المضاعفات وهذه المعالجات في تناول أكثر الأطباء النفسانيين رغم اختلاف وسائل التشخيص وطرق العلاج وسبل المتابعة ولكن الخطوة الأولى تبدأ من المريض والألف خطوة الباقية قدر الطبيب .

الوسواس

يقول علماء اللغة ان الوسوسة هي حديث النفس فيقال : وسوست اليه نفسه اي تحدثت اليه والوسواس بالفتح الاسم كالزلزال قوله تعالى ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ والوسواس أيضا اسم للشيطان في قوله تعالى ﴿الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾ فالوسوسة اما أن تصدر عن النفس أو الشيطان وهذا التحديد في غاية الاهمية في فهم ديناميكية الوسوسة وسايكوباتولوجية الوسواس العصابي لأن هناك فوارق بين سمة الشخصية ودلالة العرض وطبيعة المرض لأن الروح لا توسوس ولا تشتهي ولا ترغب وتسمو فوق كل طباع النفس ولان الشيطان لا يوسوس للروح التي لا تخضع للغرائز أو الدوافع وتنسب دائما الى الذات الالهية وتوصف بالروح القدس والروح الأمين بينما تؤكد الآية القرآنية حدوث الوسوسة للنفس في قوله ﴿لقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ . . ١٦ ق وقوله ﴿وما أبرئ نفسي أن النفس لأمارة بالسوء﴾ . . ٥٣ يوسف وسنرى ان صفة الاثم المقترن بفعل النفس الأمرة بالسوء هي المفسر للاعراض الوسواسية .

ان الوسواس القهري هو مرض نفسي عصابي كثير الحدوث يظهر في سن مبكرة من حياة الانسان في مرحلة المراهقة التي تتميز بصفات التردد في اتخاذ القرار والخوف من المجهول والشكوك في الكون والعالم وحقائق الوجود ولكن ربما يحدث في مرحلة لاحقة وغالبا ما يتلاشى في سن الرشد ويختفي ، أما في الشيخوخة حيث تكتسب النضج العقلي والانفعالي الذي يكبح جماح الوسواس ويقوي ايمان الفرد ويدخل دائرة الثبات في العقيدة والرأي والقدرة على اتخاذ القرار والسيطرة على الافكار الهامشية التي تقحم نفسها في دائرة الوعي .

والوسواس القهري يصعب تشخيصه رغم ظهور الامراض في سن مبكرة لأنه يحدث في ثلاثة مستويات - مستوى الشخصية ومستوى الاعراض ومستوى المرض ففي المستوى الاول نجد الشخصية الوسواسية تتمتع بدرجة عالية من الذكاء والفترة الحساسة ملتزمة بالنظام المفرطة في الترتيب المعروفة بتقديس الواجبات ويقظة الضمير مع التمسك الشديد بالحقوق والمعايير الخلقية والدفاع عنها والقدرة على كبح جماح الغضب رغم التوتر الداخلي والقلق الدائم الذي يغلي في قرارة النفس وبهذه الصفات يمثل الشخصية الوسواسية في مفهومها المعاصر أفضل عناصر الخدمة المدنية في الامثال للأوامر واحترام الحق العام وطاعة الرؤساء وفي المستوى الثاني للاعراض الوسواسية يقول التحليليون أنها نتيجة نكوص الفرد الى مرحلة طفولية مبكرة حيث نشاهد في حياتنا اليومية ولع الاطفال بالسلوك الوسواسي كالمشي على طرف الاصابع أو السير على حجارة الرصيف أو الدوران حول أعمدة الاضاءة بصورة تثير الحيرة والغضب عند الكبار . هذا السلوك يتكرر بصورة مغايرة مع كثير من التحوير في شكل قراءة الرسالة عشرات المرات والحركة طوال الليل للتأكد من اطفاء الاضواء وتأمين الابواب والنوافذ والوقوف طويلا في الصباح أمام دولااب الملابس رغم الشعور الداخلي بعدم جدوى وسخافة هذه المراجعة للتفاصيل اليومية .

وفي المستوى الثالث للوسواس المرضي تتم تراكمات شعورية ولاشعورية لدى الشخصية الوسواسية بالاعراض المذكورة فتتخذ عدة صور أو أفكار أو شعور أو دوافع أو رغبة طارئة أو حركة مشحونة بشعور قهري خارجي أو داخلي تفرض نفسها على فكر الفرد مع شعور اضطراري للتفكير فيها أو القيام بها وتكرارها ومن المهم والاساسي في هذا الصدد ان هذه الصورة للوسواس القهري تختلف تماما عن مرض فصام الشخصية (الشيذرفرينا) حيث ان الشخص الوسواسي يعلم تماما سخف الفكرة التي تسيطر عليه وعدم عقلانية الصورة الذهنية في مخيلته ولا جدوى الفعل الذي يقوم به مع فقدان نسبي للقدرة على المقاومة لما ينتج عنها من توتر واكتئاب بينما يقوم مريض الفصام بتنفيذ هذائه الخاطئة دون وعي أو بصيرة

مع فقدان تام للإرادة وهذا تمييز في غاية الأهمية دون دخول في تفاصيل الجدل الأكاديمي الذي لا يتسع له المجال حيث إن هذه الحقيقة تعتبر أكبر المعوقات في سبيل وصول مرض الوسواس إلى الاستشارة الطبية رغم سنوات العذاب الطويلة التي يقضيها في المعاناة.

والوسواس القهري ويسمى قهري عندما ترتبط الفكرة الحسية برغبة قهرية للقيام بالفعل ويزدوجان في صورة حسية أو حركية أو مزدوجة.

فالصورة الحسية هي التي تتمثل في الأفكار والصورة الذهنية التي يدركها من خلال المثيرات الحسية وهي دائما أفكار غير سارة مثيرة للقلق كالتساؤل في وجود الخالق وحقيقة الجنة والنار والوجود والحرام والحلال مع شعور مصاحب يتميز بالألم النفسي في وسط دوامة من الرغبة القهرية أما في القول أو الفعل لشيء غير مشروع أو غير منطقي مع محاولات لا تنقطع لطرد هذه الأفكار ومزاوجة بين النجاح المؤقت والفشل الدائم حتى مرحلة الشلل الفكري التام في وجود الإرادة والوعي بها مع عدم القدرة على الاستفادة منها أو تتخذ الصورة شكل رغبات أو دوافع غير منطقية كالقفز من مكان مرتفع أو السقوط أمام سيارة مسرعة أو الحاق الضرر بشخص عزيز كقتل طفل أو صديق ولكن وهذا أساسي وهام جدا يندر أن يقوم الوسواس بالاستجابة لهذه الأفكار أو الدوافع بعكس مريض الفصام الذي يقع ضحية ضلالاته واعتقاداته الخاطئة مع انعدام الإرادة وفقدان البصيرة فيقوم بالفعل بلا وعي منه.

أما الصورة الحركية فهي التعبير السلوكي عن هذه الأفكار والدوافع بصورة مختلفة وأبرزها الخوف. الخوف غالبا ما يكون مرتبطا بالنجاسة وعدم الطهارة والقاذورات والجراثيم وهذا ما يدفع به التحليليون في إرجاع المرض بالنكوص إلى مرحلة طفولية مبكرة (مرحلة شرجية) حيث الإفراط في تدريب الطفل على عمليتي التبول والتبرز في الأماكن المخصصة قبل امتلاك القدرة على ممارسة الفعل تحت ضغوط العقاب البدني والنفسي في جو أسري تتحكم فيه أم مهيمنة وأب سلبي فتترسب في أعماقه عقدة الخوف من النجاسة رغم أن مرضى الوسواس

يتميزون بخاصية النظافة الشخصية الملحوظة وأبرز الصور الحركية هي كثرة الاغتسال . . غسل اليدين عشرات المرات وربما يقضي الفرد وقتا في طقوس النظافة يفوت معه دوام العمل وارتباطاته مع شعور شديد بالتوتر والقلق .

ومن النماذج المرضية حالة شاب كانت تنطبق عليه الصورة المذكورة لمدة سنتين حتى أصبحت عادة مألوفة في المنزل تسبب حرجا شديدا للآخرين وآلاما نفسية قاسية للشخص والذي أصبح يكرر هذه الطقوس في مكان العمل وفي الاماكن العامة حتى وصل للطبيب . . وحالة شابة أخرى كانت تخاف من النجاسة في الصلاة فتصحو لصلاة الفجر فتبدأ طقوس النظافة الشخصية وما بين النهاية من فريضة الوضوء والبداية في أداء الصلاة يفوتها موعد الصلاة . . وتستمر في أداء الصلاة في غرفتها وكلما دخل شخص أو مر بجانبها أحد قامت واعادت كل هذه الطقوس مرة أخرى وفي بعض الاوقات يأتي وقت الظهرية قبل أن تؤدي صلاة الفجر ودون ذلك فهي تتمتع بخصال حميدة وحياة نشطة متميزة باحترام الجميع وقد ظلت تعاني بهذه الصورة من التوتر والقلق النفسي لأكثر من عامين قبل استشارة الطبيب .

وقد يزيد من حدة حالات الوسواس وجود حالة اكتئاب مصاحبة فهذه تزيد حدة الوسواس خاصة الوسواس المرضية كالخوف من مرض القلب والسرطان وكل الامراض الخبيثة الأخرى ولا ينفع كثيرا محاولات الاطمئنان لأن المريض يعلم سلفا سخافة هذه المخاوف ولكنه لا يملك القدرة على مقاومتها دون قدر كبير من التوتر والعذاب النفسي وعند علاج الاكتئاب تخفف حالة الوسواس والعكس صحيح .

ومرض الوسواس يستجيب للعلاج النفسي والعلاج السلوكي مع عقاقير خافضة للقلق والتوتر ومضادة للاكتئاب أو مزيج من هذه الأساليب حسب كل حالة على حده قال تعالى ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ . . آية ٨٠٧ الشمس .

صرخة الاستغاثة

قبل عقدين من الزمان نشر مركز الابحاث الطبية البريطاني دراسة حول محاولات ايداء النفس للبر وفيسور (جوليان لف) أستاذ الطب النفسي الاجتماعي بجامعة لندن، كما ظهرت دراسة أخرى مقارنة للدكتور كرايتمان من جامعة ادنبره حول (محاولات الانتحار والانتحار) كسلوك عدواني موجه نحو النفس، وقد أكدت الدراسات على خطورة ظاهرة الانتحار ووضعت تصنيفا وتعريفا ودراسة لتحديد الاسباب وأساليب الوقاية والعلاج.

وقد ورد في معرض الدراسة ان معدلات الانتحار في المجتمع الغربي بين الدول الاوربية والسكان البيض أعلى بكثير من مثيلاتها في المجتمع الشرقي بين الدول العربية والاسلامية والسكان غير البيض، وقد أرجع الباحث هذه الظاهرة الى عدة عوامل منها ارتفاع نسبة الوعي في الغرب حيث يندفع الفرد نحو توجيه العدوان الى نفسه بحكم قوة الانضباط، بينما يميل الفرد في الشرق للاسقاط وتحويل طاقة الاحباط في سلوك عنيف تجاه الآخرين وأبرزها القتل والتعدي على الآخرين.

وفي معهد الدراسات النفسية في جامعة لندن حيث كنا مجموعة مبعوثين من الدول العربية، قدم لنا الدكتور جوليان لف تفسيراً يتضمن عامل الوازع الديني والتعاليم الاسلامية، حيث يتعارض قتل النفس مع عقيدة المسلم تحت كل الظروف، وقد تلا علينا أحد الزملاء المعاصرين الآن قوله تعالى ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ . . صدق الله العظيم، وقد ساق الدكتور لف عدة عوامل أخرى تتعلق بظروف التنشئة الاسرية وتركيب الشخصية الى جانب عوامل أخرى تبرز الفوارق الديمغرافية بين الغرب والشرق.

والآن وبعد مرور عشرين عاما على هذه المحاضرة في جامعة لندن ، حضر الدكتور جوليان لف المؤتمر المصري الثاني للصحة النفسية بالقاهرة في مارس ١٩٨٨ لتقديم بحث عن (أثر العلاقات العائلية في تأهيل مرضى الفصام) ، وذكر على هامش النقاش ضرورة أن يعي الباحثون والعاملون في مجال الصحة النفسية في المنطقة خطورة ظاهرة الانتحار، خاصة بين صغار السن، والتي بدأت تنتقل عدواها الى المجتمعات الشرقية بمعدلات مثيرة للقلق رغم تسترها تحت شتى المسميات والمظلات الطبية .

وقد تساءل في سخرية لماذا تجلبون من مجتمعاتنا مشاكلنا التي نعاني منها ونعتقد أنكم سعداء بالبعد عنها مثل مشكلة التفكك الاسري ورعاية المسنين وقضايا المخدرات وأخيرا ظاهرة الانتحار؟ . . انه مجرد تساؤل للبحث في الاجابة عليه .

وقد أكد على أن الحالات التي تصل الى المستشفيات ودور الاستشارة لا تمثل إلا مجرد مؤشر صغير لحالات كثيرة يقلل من حجم احصائياتها عدم الابلاغ عنها أو محاولة احتوائها داخل الاسرة والمجتمع ، كما أكد على خطورة أن نتعامل مع الظاهرة في البداية على أساس أحكام اخلاقية وليس نظرة علمية باعتبار انها سلوك مرفوض اجتماعيا واخلاقيا ينبغي طي ملفه دون افاضة مما يقود الى انتشار الظاهرة بشكل وبائي حيث أثبتت آخر الدراسات في أمريكا ان أكثر أسباب الموت العنيف وسط الفترة العمرية ١٠ الى ٤٩ هي حوادث الانتحار والقتل تنصدر قائمة أسباب الوفيات مما يدل على انتشار الظاهرة من مرحلة الطفولة الى المراهقة والشيخوخة خاصة في سن التقاعد وفقدان المركز الاجتماعي والعزلة النفسية والامراض العضوية والحالة الاكتئابية ، وهي الوجه المفقود لسيكولوجية الشيخوخة في مجتمعاتنا والتي يخشى أن تهب عليها رياح التغيير الحضاري والاجتماعي بالتأثير والانفتاح فتضع المسن في نفس المكانة في المجتمع الغربي .

حقيقة ان ليس كل حالات الانتحار بالضرورة تحدث نتيجة مرض عقلي أو

نفسى ، فبعض الثقافات والمجتمعات تعتبره سلوكا اجتماعيا له مبرراته الموضوعية ويتم في حالة وعي . . ولكنه قطعاً في درجة من الوعي المشوش والتفكير المضطرب فقد تكون صرخة استغاثة لم تجد الأذن الصاغية فأخطأ الفاعل في التقدير محاولة ابصال رسالة الى من يهمهم الأمر وقد تكون نتيجة تخطيط مدروس للخروج من الدائرة المظلمة مع سبق الاصرار والترصد أو مجرد لفت الأنظار لوجود ضائع وسط الزحام .

ومن الناحية العلمية يبدو في التفريق بين حالات محاولة الانتحار وحالات الانتحار الفعلي ان ٤٥ الى ٧٥٪ من حالات الانتحار تكون نتيجة الاكتئاب النفسى و١٩ الى ٢٤٪ نتيجة محاولات سابقة متكررة، وبين هذه المحاولات المتكررة نجد أن نسبة ١٠٪ ينجحون في الانتحار خلال عشر سنوات، ويبدو أن الحالات النفسية التي تقود الى الانتحار حسب الاولوية هي ١٥٪ من مرضى الاكتئاب، و١٥٪ من مدمني المسكرات و١٠٪ من مرضى الفصام و٥٪ من الشخصيات المضطربة غير السوية بينما أكثر من ١٠٪ من مدمني المخدرات .

وتؤكد الدراسات ان الشعور باليأس يمثل الدافع الأساسي في مفتاح الدخول الى نفق الانتحار المظلم أو دوامة القنوط المستمر . لأن اليأس يضعف الرغبة في الحياة (لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة)، ويعزز الاحساس بالعدم والشعور بعدم جدوى الاستمرار فيها. وفي ملاحظة الفوارق بين الرجال والنساء، فالرجال يميلون الى الاساليب العنيفة كإطلاق الرصاص والشنق والسقوط من الاماكن المرتفعة وينجحون لأول مرة في أغلب المحاولات، بينما تميل النساء الى الاساليب السلبية الذرائعية كتناول الحبوب وقطع الأوردة ويكررن المحاولات حتى تنجح بالصدفة أو سوء التقدير أو التخطيط في بعض الحالات . . ولكن المؤسف أن الاساليب العنيفة بصفة عامة أصبحت أكثر شيوعاً بين الأثنين حيث تمثل ٧٥٪ بينما تمثل الاساليب الاستعراضية لشدة الانتباه ٢٥٪ فقط . ومن العوامل المؤثرة في زيادة خطر الانتحار كبر العمر وتكرار المحاولات وادمان السلوك المؤذي للنفس والشعور بالفقد أو الخوف منه واعتلال الصحة أو الخوف عليها أو

وجود خطة مدروسة للانتحار كترك رسالة تشير الى جدية المحاولة والظروف المحيطة وطبيعة التفكير والتنفيذ وعدم الرغبة في المساعدة أو رفض قبولها وعدم وجود سند اجتماعي . ومن أكبر المجالات في محاولات الانتحار استعمال الأدوية خاصة الأدوية النفسية (المؤثرات العقلية) في سن المراهقة والشباب ووسط السيدات ، وهذا أول مدخل لدراسة هذه الظاهرة .

ويتضح هنا بعدان في هيكل الظاهرة الاول النموذج الغربي للانتحار، وثانيا النموذج الشرقي ، والبناء الهرمي للظاهرة في اختلاف القاعدة، وتقارب الهرم . حقيقة اننا لم نصل مرحلة الانفجار البركاني لظاهرة الانتحار التي تحتاح الاسر والمجتمعات الغربية كالموت الجماعي للأسرة، كأن يطلق الأب النار على أفراد أسرته ثم ينتحر ليخلصهم من عذاب الحياة كما يتصورها نتيجة الاحساس القاتل بالحزن والكآبة ظاهرها الرحمة بهم وباطنها العذاب لهم ، ولم نصل مرحلة الانتحار الجماعي كالزلازل المتفجر من انحراف فلسفة أو انهيار عقيدة أو تبرير سلوك جماعي معقد كثقافات شرق آسيا .

لقد أثبتت الدراسات ان ٤٠٪ من الذين نجحوا في الانتحار كانوا قد أعلنوا بوضوح متفاوت في الايضاح عن رغبتهم في التخلص من الحياة، وبعضهم زار الطبيب قبل أيام من حدوث الانتحار، ولكن أحدا لم يأخذ صرخة الاستغاثة مأخذ الجد، لأن الافصاح عن هذا الشعور ينم عن الشعور بالنقص، وضعف الثقة بالنفس وفقدان الايمان، وهي احكام أخلاقية يخشى المريض منها أكثر من خشيته من الموت الذي يرى فيه الخلاص من كل هذا العذاب .

وأكدت الدراسات ان الوقائع الغامضة في حوادث المرور التي تجري في مسرح اللامعقول وانفجارات الاسطوانات الغازية والحرائق الدرامية وحوادث الغرق والموت داخل الشقق المغلقة، كلها تحتاج الى اعادة نظر ضمن اطار الايمان بالقضاء والقدر . هل هناك شبهة انتحار؟! ان عدم الابلاغ واحتواء الأزمة لا يخدم قضية مجتمعاتنا النامية التي تخاف من مواجهة الظواهر غير الطبيعية حتى تفرضها حقائق الحياة كطوفان المخدرات ومرض (الايدز) الذي داهم العالم

كالزلازل الارضية التي وقعت بين غمضة عين انتباهتها . . وكنا نعتقد أن العالم في مأمن من الانهيارات الارضية حسب الدراسات الجيولوجية التي أعطت شعورا خادعا بالطمأنينة .

وهناك حقيقة علمية يقدمها مركز الابحاث الطبية البريطاني ذاته تقول أن بعض الهرمونات العصبية مثل مادة (السير وتونين) ومثيلاتها الموجودة في مناطق الانفعال في المخ تتعرض للنقصان مما يؤدي الى حالة الاكتئاب النفسي ، كما أن تشريح المخ للحالات المنتحرة أثبت نقصان هذه المادة في جذع المخ مما يؤكد الصلة الوثيقة بين الاكتئاب النفسي والانتحار ويفتح أبواب العلاج بالعقاقير التي تزيد معدل هذه المادة في دماغ الانسان وقد بدأ هذا الاتجاه منذ مطلع الخمسينات .

ولكن السؤال الهام : كيف يصل الطب النفسي الى صاحب الحاجة قبل فوات الأوان؟ . . ومتى يقدم له يد العون قبل حدوث اليأس؟ وكيف تنظم برامج الوقاية والعلاج في غياب الوعي بالمشكلة التي تحتاج الى تقويم الحالة وملاحظة السلوك ودراسة الدوافع ودقة التشخيص وفعالية المتابعة لمنع التكرار القاتل!

ان الامراض النفسية خطر داهم . . ومهمة الطبيب النفسي التدخل قبل لحظة اليأس . لحظة الاختيار بين الحياة أو الموت . لحظة صرخة الاستغاثة فاما الميلاد أو الوفاة . . وكلما كانت استشارة الطبيب مبكرة كانت أساليب الوقاية مؤثرة .

الادمان . . وحوار الطرشان

حضرت بدعوة من برنامج الامم المتحدة الانمائي الحلقة الدراسية الاقليمية لتأهيل المدمنين على المخدرات والتي نظمتها وزارة الصحة الاردنية بالتعاون مع منظمة العمل الدولية وصندوق الامم المتحدة لمكافحة سوء استعمال العقاقير ، في الحادي عشر من نوفمبر عام ١٩٨٩ .

ونلاحظ في عنوان هذه الحلقة كلمة (لتأهيل) و(المدمنين) وعبارة (مكافحة سوء استعمال العقاقير) وقد يبدو لأول وهلة أننا ناقش عدة موضوعات في حلقة دراسية واحدة والواقع اننا ناقش موضوعا واحدا من زوايا متعددة في عدة أطر في وقت واحد .

ان عبارة سوء استعمال العقاقير (DRUG ABUSE) هي أحد طرق الادمان في مجال واحد والتأهيل (RE HABILITATION) يعني مساعدة الفرد ليعود فردا صالحا للمجتمع والترجمة الحرفية تعني اعادة التأهيل أي اعادة الفرد المؤهل لعمل ما الى الحالة الاولى قبل المرض وبصورة أفضل ولكن التأهيل لا يكون فقط في المجال المهني أو الوظيفي وانما اعادة صياغة الفرد بكل المهارات الجديدة المكتسبة والمناشط الحيوية الكامنة ببصيرة جديدة تفتح عيونه على جوانب القصور والضعف ومواطن الابداع والقوة فتخرج مواطنا صالحا للمجتمع .

ان كلمة (الادمان) أصبحت مظلة فضفاضة وعبارة مطاطية في جانب وقالب جاهز ضيق واطار محدود في جانب آخر . . هذا التعريف الذي يفتقر الى الدقة العلمية كان محور النقاش الذي دار في الحلقة الدراسية وشارك فيه الاستاذ الدكتور مصطفى سويف مستشار منظمة العمل الدولية عندما طرحت عليهم تحفظاتي على كلمة (الادمان) خاصة في مؤتمر علمي يخطط لاستراتيجية التأهيل .

ان كلمة الادمان (ADDICTION) أصبحت تلقي ظلالاتا قائمة على المؤتمرات واللقاءات العلمية وغيرها واكتسبت أبعادا طبية واجتماعية وأمنية وقانونية ودينية وثقافية يجب اعادة النظر فيها لأنها في حد ذاتها أكبر من أبعاد مشكلة المخدرات لأننا بدون أن نضع التعريف المناسب لكلمة (الادمان) يصعب علينا التصدي المناسب لمشكلة المخدرات .

فالتعريف الطبي للادمان يعني حالة تسمم دورية أو مزمنة تلحق الضرر بالفرد نتيجة التعاطي المستمر وخصائصه المميزة تتمثل في :

- (١) رغبة قهرية في الاستمرار في التعاطي .
- (٢) الميل الى زيادة جرعة المخدر.
- (٣) اعتماد جسدي ونفسي على آثار المخدر.

ويترتب على هذا التعريف مشاكل طبية كالاجابة على الفارق بين التعاطي والتعود والادمان . . هل هو فارق كمي في حجم التعاطي والمدى الزمني والاستمرارية أم هو فارق كيمي في نوعية المادة بحيث نجد مواداً مخدرة قد تقف عند حد التعود كالحشيش والقات وأخرى لا يمكن إلا أن تقود الى الادمان مثل الافيون والهيروين والكوكايين وأخرى ذات فارق نوعي وموضوعي كالمواد التخيلية والمواد المتطايرة والمؤثرات العقلية؟!!

وهناك مشكلة اجتماعية فكلمة (الادمان) في ذهن عامة الناس أصبحت مرتبطة بمعنى واحد . . هو الوصول الى نهاية المطاف في مسيرة التعاطي بكل مضاعفاتها والمجتمع ينظر الى الادمان كجريمة في حق المجتمع سواء كان الادمان على مادة مهدئة من الملطفات الصغرى في الادوية النفسية أو المخدرات الخطرة كالكوكايين ويترتب على هذا التعريف نظرة النبذ والكرهية للفرد بعد وضعه في هذه الخانة أو الزاوية الضيقة في زنازة الادمان وتجرد الفرد من أي فرصة في الشفاء .

ومن المشاكل الأمنية ان قضية التشريع وسن القوانين مرتبطة بتعريف الادمان . . فالمرشح عندما يتعامل مع تعريف واحد يضع القوانين على قدر

القصد الجنائي في التهمة فالادمان يمثل أقصى درجات التعاطي مع الغموض في تحديد نوع المادة المتعاطاة وشدة التعاطي ودرجة الاعتماد والاضرار الصحية والمضاعفات الاجتماعية المترتبة عليه كما أن رجال الأمن عندما يتعاملون مع حالة (ادمان) فهم يتصرفون بحق مجرم توفرت فيه عناصر الحياة والاتجار والتهريب الى أن يثبت القضاء عكس ذلك.(فالبينة على من ادعى واليمين على من أنكر) قد لا تكفي في سد ثغرات عدالة قانون المخدرات طالما ظلت كلمة (الادمان) تحكم العلاقة بين الاطراف المتنازعة وعندما يصل الفرد الى القضاء يكون قد خرج من الدائرة الطبية وفقد صفة المريض واكتسب صفة المجرم أو الصفتين معاً.

لقد تبيحت هيئة الصحة العالمية الى خطورة كلمة (الادمان) وذلك منذ عام ١٩٦٥ وقدمت توصية باستبدال كلمة الادمان ADDICTION بكلمة الاعتماد أو التعويل DRUG DEPENDENCE وهذا التعريف يلزم بالضرورة ان الكلمة لا تكتسب دلالتها العلمية إلا إذا جاءت مقترنة ومشروطة باسم ونوع المادة المستعملة التي تحدد طبيعة المشكلة . . فتم تصنيف الاعتماد على هذا الاساس وجاء فيه التالي :

- (١) الاعتماد على نوع المورفين ومشتقاته كالهير وين (المواد المهبطة) .
- (٢) الاعتماد على نوع الباربيتوريت ومشتقاته .
- (٣) الاعتماد على نوع الامفيتامين ومشتقاته (المواد المنشطة) .
- (٤) الاعتماد على نوع الحشيش ومشتقاته .
- (٥) الاعتماد على نوع القات .
- (٦) الاعتماد على نوع المواد المهلوسة (عقاقير الهلوسة) .
- (٧) الاعتماد على نوع المواد المتطايرة كالغراء والبتروول والاصباغ .
- (٨) الاعتماد على نوع التبغ أو الدخان . . كالسجائر .
- (٩) الاعتماد على نوع المواد التخليقية الاخرى .

وبهذا يصبح المجال مفتوحا الى اضافة أي مادة جديدة يكتشف أنها مؤثرة على العقل ويمكن أن تدرج تحت نوع الاعتماد أو التعويل .

وهناك مشكلة دينية في تعريف الادمان . لأن الادمان في مفهومه العام مازال عند عامة الناس يفرق بين الخمر والمخدرات وكأنها الادمان يعني الاعتماد على المخدرات ولا يدخل تحته المسكرات وبذلك يصبح قضية اخلاقية واجرامية تقع تحت طائلة الشرطة والسجون بينما المسكرات قضية دينية تدخل في باب المحرمات وهي علاقة بين الفرد وربّه ورغم ان التفريق صحيح في مفهوم كلمة (الاعتماد) العلمية إلا أنه في عمومياته يطرح التساؤل القديم : هل تتساوى جريمة تعاطي المخدرات مع جريمة تناول المسكرات حسب النصوص الشرعية واذا كان الخمر جريمة في حق العقيدة والمخدرات جريمة في حق النفس والمجتمع فهل تتساوى الجريمة في نظر المجتمع والقانون؟! وتطول المناظرة الفقهية بين القوانين الشرعية والاجتهادات الوضعية ويقفز سؤال آخر: لماذا نحاول (الحد) و(المكافحة) في جريمة المخدرات بينما الاصل في التشريع هو التحريم في حالة الخمر واذا كان الضرر يتساوى في المخدرات فكيف نحلل لأنفسنا حق الحد والمكافحة . . والنصوص واضحة في التحريم والعقوبة .

وهناك مشكلة التوعية . . اننا من فرط استعمال كلمة (ادمان) أصبحت حملات التوعية أشبه بحوار الطرشان . . فعندما يُطرح موضوع (الادمان) يقفز في ذهن كل مستمع أو مشاهد عدة تصورات لعدة نماذج للادمان بداية بالتعاطي للحبوب المنشطة ثم السكرير الذي يترنح في الشوارع نهاية بمدمن الهيروين والكوكايين الذي يتلوى حتى الموت وقلة بسيطة تعرف ان الحديث لا يتعدى مصطلحا لغويا أشبه بمصطلح المراهقة في مجال التوعية والتثقيف الصحي حيث نحاول تصحيح الموقف الخاطيء الذي يعتبر كلمة (المراهقة) مرادفة لاضطرابات سلوكية وعاطفية وهي ليست بالضرورة كذلك .

ومن مشاكل التوعية ان النظرة الراضية للمدمن قد تكون خطوة صحيحة في اتجاه الحُصّ على كراهية التعاطي للمخدرات والاحتفاظ بنقاء وطهارة المجتمع ولكن خطوة التوعية قد تمتد الى تعميم الكراهية للمخدروالخمر الى الأدوية النفسية وبذلك تحدث حالة هلع وفزع وسط المرضى وذويهم عندما يتناولون عقاقير طبية

لعلاج أمراض نفسية معروفة قابلة للشفاء بالدواء المساند وهذا تكون التوعية قد جاءت بنتيجة عكسية إذ حرمت الفئة المريضة من العلاج أو خلقت حالة جفوة بين المريض النفسي والبيئة المحيطة به والتي تخاف عليه من شبح (الادمان) فيضطر الى الانقطاع عن الدواء تضحية براحته وسعاداته النفسية من أجل ارضاء الآخرين وخوفا من النبذ فتفشل أولى خطوات التأهيل .

كما اننا في مجال التوعية وعندما نقرن ذكر الادمان بالسرطان والايذز فان المستمع يعرف ان الدخان يقود الى السرطان كما تؤكد العبارة الملتصقة بالعبوة ولكنه يريد أن يعرف كيف ولماذا؟ يعرف ان الادمان يقود الى مرض (الايذز) ولكن كيف ولماذا؟ فإذا كان (تعاطي) المؤثرات العقلية يقود الى الادمان فهل يقود الى الايذز مثلما يفعل مدمن الهيروين والكوكايين؟ فإذا كان نعم فكيف؟ واذا كان لا : فما هو الفارق بين الادمان هنا وهناك؟ أسئلة كثيرة وخلط مشوش ينبع أصلا من كلمة (الادمان) والتي انتشرت في الساحة بعبارة أن الخطأ الشائع أقرب الى الادراك من الصواب المجهول ولكنه فهم مغلوط وباهظ الثمن واذا ساعد في الوقاية في بعض الاحيان فسوف يعيق مسيرة العلاج تحت كل الظروف والى فترة طويلة من الزمن القادم .

لقد قامت هيئة الصحة العالمية مؤخرا بطبع منشور آخر بعنوان (القانون وعلاج المرضى المعولّين على المسكرات والمخدرات) «دراسة مقارنة للقوانين السارية» جنيف عام ١٩٨٦ وفي هذه الوثيقة العلمية الهامة والتي قام بترجمتها الى اللغة العربية المركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية بالكويت . . توضح هذه الدراسة بصفة قاطعة ضرورة استعمال كلمة (المعولّين) أو الاعتماد بدل كلمة (الادمان) وقد يكون هناك تلميح الى الفارق بين التعود كما يحدث في المسكرات والاعتماد كما تحدث في المخدرات وتركت لكل بلد حرية استصدار القوانين الخاصة به في التصدي للمشكلة فالبلاد التي يحرم فيها المسكرات لا بد وأن تختلف في التشريع عن البلاد التي تُباح فيها تلك المواد . . والمخدرات يختلف وجودها من بلد لآخر من بلاد تعتمد على الحشيش وأخرى تعتمد على القات وأخرى على الأفيون .

وتؤكد هذه الدراسة على ضرورة وجود قانون خاص بالمخدرات والمسكرات وقيام وحدات متخصصة لعلاج المرضى المعولين على هذه المواد داخل المستشفيات العلاجية والآن وبعد أن ورد تعريف (الادمان) و(الاعتماد) في مذكرة هيئة الصحة العالمية عام ١٩٦٥ كما ذكرنا في البداية وبعد ربع قرن نجد اننا مازلنا ندور داخل متاهة من هو المتعاطي ومن هو المتعود أو المدمن لأن مشكلة الادمان كانت أشبه بحوار الطرشان كلٌ يغني على ليلاه ويتحدث من منبر خاص به وفكر ملتزم به وقناعة متمسك بها . و(الادمان) يستفحل والنقاش يحدث ويطول حوار الطرشان . . الى متى ؟ لست أدري .

ولكن الثابت والمعروف الآن اننا في مرحلة انعدام الوزن في رحلة الادمان وما لم ينقطع حوار الطرشان ونبدأ التخاطب بلغة علمية مشتركة مستنيرة بتوصيات الهيئات العلمية المرموقة فسنتظل ندور في دوامة عاتية من البحر والى البحر.

السلوك الانتحاري*

محاولات الانتحار: سوء سلوك أم مؤشر مرض؟

لقد أعطى الباحثون في مجال دراسة محاولات الانتحار أهمية كبرى للعوامل الاجتماعية والثقافية كأسباب أساسية للسلوك الانتحاري في العالم العربي .

كما ان النظرة المعروفة بأن نسبة الانتحار أعلى في العالم الغربي من العالم الشرقي وتكاد تنعدم في هذا الجزء من العالم قد خلق جوا من الغفلة بين العاملين وسط هذه الفئة المعرضة للانتحار نتيجة شح البحوث الجادة في تقويم هذه الحقيقة وفق المستجدات الحديثة في التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في العالم العربي . في هذا البحث تقول الدراسة الوبائية التي أجريت عام ٨٥-١٩٨٨ على ١٥٥ حالة محاولات انتحار منهم ١٣٥ امرأة و٢٠ رجل في احدى المستشفيات ان هذه الارقام تمثل سطح جبل الجليد العائم تحت الماء، وقد دلت الاحصائيات على أن ١,١٪ من النساء و١٠٪ من الرجال كانوا يحملون تشخيصا لمرض نفسي وكانت حالات العصاب أكثر حدوثا بين النساء كما أن حالات الذهان أكثر حدوثا وسط الرجال .

كما ان انخفاض نسبة محاولات الانتحار وسط الرجال مقارنة بها وسط النساء تتفق مع استنتاجات العاملين في هذا المجال في الدراسات العالمية السابقة كما يوجد هناك مؤشر على أن عوامل الهجرة والعرقية الجنسية لم تكن عوامل ذات أثر كبير كما توضح نسبة السكان المحليين للوافدين في هذه الدراسة .

يستخلص من هذا أن الموقف الراض للسلوك الانتحاري في البيئة المحلية، والمتشدد في نظرتة اليه كسلوك مناهض للقيم الاجتماعية ومتعارض مع العقيدة الاسلامية أكثر منه لسلوك مرضي قد يشجع بعض الباحثين في المستقبل للسير في

* خلاصة مترجمة من بحث علمي عن (السلوك الانتحاري) قدم في المؤتمر الرابع للطب النفسي لاتحاد الأطباء النفسانيين العرب المنعقد في صنعاء بالجمهورية اليمنية في ديسمبر ١٩٨٩ .

هذا الاتجاه دون التدقيق العلمي المطلوب في التغييرات الاجتماعية والحضارية والاقتصادية وأثرها في هذا المجال الواسع للابحاث العلمية وبذلك تظل هذه الظاهرة خارج نطاق البحث العلمي المطلوب بكل ما ينطوي على ذلك من تخلف في مجال التطور العلمي المطلوب .

ان هذه الدراسة تؤكد الحاجة الى تحليل علمي وتقويم جديد للسلوك الانتحاري كنتيجة لسوء التنشئة والسلوك أو مؤشر للمرض النفسي والعقلي خاصة اذا اعترفنا ان هذه الظاهرة مرتبطة بالبيئة والثقافة والعقيدة .

مقدمة :

لقد أثبتت الدراسات الغربية القديمة ارتفاع نسبة (محاولات الانتحار) وحالات (الانتحار) الحقيقية بين الدول الغربية قياسا بالدول الشرقية وقد أثبتت دور العقيدة الاسلامية والوازع الديني والراذع النفسي في المجتمعات المسلمة حيث ينص القرآن الكريم صراحة على تحريم قتل النفس في قوله تعالى ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ . . (سورة الاسراء) وقوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾ . . صدق الله العظيم .

وهكذا شب الضمير المسلم على تحريم قتل النفس بأي صورة ووسيلة وتحت أي معاذير . وقد ذكرت أن الدكتور «جولبان ليفي» في إحدى الدورات الدراسية لطلاب الوافدين للدراسة في جامعة لندن قدم حلقة دراسية عن الانتحار وذكر أن هذه المشكلة لا توجد في المجتمعات الشرقية المحافظة حيث ترابط الاسرة ووجود سلطة الأب ونظرة المجتمع للتعامل والمتحر وكان ذلك في عام ١٩٧٠ في معهد الدراسات النفسية في جامعة لندن ولكنه أشار الى أن الدراسات الاجتماعية المتوفرة الآن في أقسام الطب النفسي في الدول العربية والأسبوية المتقدمة تشير الى حدوث بعض حالات الانتحار ولكن نظرة المجتمع المحافظ تعطي هذه الظاهرة مسميات مختلفة وبعضها لا يصل الى الاحصائيات الطبية لأنه يقع تحت طائلة القانون والمحاكم والشرطة مما يجعل الوصول الى الاحصائيات أمراً صعباً . . ولكنه أشار أيضا الى أن السلوك الانتحاري مرتبط

بالمريض النفسي والأخر مرتبط بالوعي الصحي والتطور العلمي والنهضة الاجتماعية وتنبأ أنه في خلال عقدين من الزمان قد تصبح هذه الظاهرة مشكلة صحية يجب التنبيه إليها في وقت مبكر وهذا ما يتضح من هذه الدراسة .

وفي المؤتمر الثاني لاتحاد الاطباء النفسانيين المصريين الذي عقد بالقاهرة قدمت دراسة حول ظاهرة الانتحار . . ووضح أن هناك حالات انتحارية ومحاولات انتحار مختلفة تحتاج الى دراسة وافية ومتأنية تضع في اعتبارها المتغيرات الحديثة الاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على تركيبة المجتمعات الشرقية العربية والاسلامية خاصة مع ارتفاع الوعي وارتباط المصالح وتداخل الثقافات الغربية والاجنبية وسهولة وسائل الاتصال والسفر والتجارة والسياحة والاقتصاد الحر الى جانب قضايا الانفتاح والتفكك الاسري وضعف الروابط الاجتماعية وخلل العلاقات الزوجية وخروج المرأة للعمل وضعف الرعاية والرقابة على الاطفال في سن مبكرة وازدياد حالات الطلاق والانفصال في المجتمع .

كما أن سرعة خطى العصر قد أضعفت قدرة الفرد على المقاومة في مواجهة نمط السلوك الاستهلاكي في المجتمع مما أضعف ايمانه بنفسه وعقيدته .

لقد قدم الدكتور «الموسوي» من المغرب دراسة حول العلاقة بين الدين والانتحار في المؤتمر العالمي الثامن للأطباء النفسانيين في أثينا هذا العام وقد أشار الى وجود ظاهرة الانتحار وأن يكون قد خلص الى نتيجة لا تتفق معه فيها إلا أن ما يستوجب دراسة هذه الظاهرة هو ألا تكون الاستنتاجات المبينة على فرضيات خاطئة حائلا دون الخوض في المسائل العلمية الخالصة بروح متجردة من أجل العلم والبحث الأصيل . . ان اختلافنا في النهج والرؤية والأسلوب يجب ألا يثينا عن البحث الجاد في ظواهر مختلف على جزئياتها حتى تطوقنا كلياتها في غفلة من هذا الجدل العقيم خارج دائرة العقل والقلب السليم .

مناقشة واستنتاجات :

لقد وضع من العينات المقدمة ان الطب النفسي حقيقة مرتبط بالثقافة والبيئة

والتقاليد المعاصرة أكثر من فروع الطب البشري الأخرى ولذلك ليس بالضرورة أن تكون الاستنتاجات والاستقرارات المأخوذة من الدراسات الغربية هي المحك الحقيقي لمصداقية البحث العلمي المقدم من مجتمع عربي أو إسلامي آخر لنفس الأسباب التي جعلت البلدان الغربية تسبقنا في ارتفاع معدلات الانتحار ومحاولات الانتحار. . . ولنفس الأسباب التي جعلت ديمقراطية الانتحار أو الدراسة الاحصائية لمحاولات الانتحار تختلف عن دراستنا المعاصرة.

ان التفريق بين وبائية «محاولات الانتحار» ATTEMPTED SUICIDE و«الانتحار» SUICIDE في المجتمعات الغربية في دراسات كريتمان في (أدنبهه) و(باراكلف) في برمنجهام توضح خريطة الطب النفسي والتركيبية الاجتماعية للمجتمعات الغربية حيث توجد سمات مميزة لحالات «محاولات الانتحار» من حيث العمر والحالة الاجتماعية والدوافع النفسية ووسائل «الانتحار» كما توجد سمات مميزة مغايرة لحالات الانتحار الناجحة.

وقد وضع من الدراسة المقدمة أن هذا التقسيم ليس بالضرورة صحيحا أو ضروريا لاجراء دراسة ميدانية مماثلة في المجتمعات العربية أو الاسلامية على هذا النمط أو النموذج الغربي الجاهز ولذلك تكون أي محاولة لفهم هذه الدراسة و استخراج نتائج منها من خلال الاطار الغربي فيه ظلم لنتائج هذه الدراسة أو احجام عن التأمل في فرضياتها.

لقد وضع لنا أن النظرة الاجتماعية النابعة من التنشئة الدينية والاساليب التربوية تحض على كراهية محاولات الانتحار مما يجعل التستر عليها أو التعامل معها كجريمة يمثل حجر الزاوية في دراسة هذه الظاهرة وينعكس هذا الأثر على محاولة فهم ديناميكية الانتحار بصورة دقيقة.

نجد أن محاولات الانتحار تتم في سن متقاربة بين النساء والرجال ٢٠ - ٣٠ سنة كما تكون أكثر حدوثا بين النساء المتزوجات والرجال غير المتزوجين وبين ربوات البيوت والعاملات من النساء أكثر من اللواتي لا يعملن وتحدث بين العاطلين من الرجال أكثر من العاملين.

أما وسيلة الانتحار فنجد أن النساء أكثر لجوءاً الى الاقراص المسكنة للألم بينما يكون استعمال الادوية النفسية أو المؤثرات العقلية متقاربا بين الجنسين ولكن الرجال يميلون الى استعمال الوسائل العنيفة أكثر من النساء كالشنق والحريق والآلات الحادة والقاطعة .

أما في مجال الاسباب فنجد أن محاولة الانتحار لسبب نفسي يمثل القاسم المشترك الأعظم بين النساء ٣، ٥٣٪ والرجال ٣، ٥٨٪ بينما نجد الادعاء عن طريق الخطأ أو الاعتراف بوجود مشاكل عائلية أكثر حدوثاً بين النساء من الرجال مما يدل على وجود الحالات العصابية بين النساء والذهانية بين الرجال .

ومن الناحية الاثنوغرافية أو الانثروبولوجيا والوصفية العرقية فنجد أن كل الجنسيات تلجأ الى محاولات الانتحار نتيجة المرض النفسي أو الضغوط النفسية وازدياد نسبة السكان الاسيويين قد تكون نتيجة الهجرة قياساً بالسكان العرب أو المحليين الى جانب عوامل الدين واللغة المشتركة .

خلاصة :

نخلص من هذه الدراسة الى أن ظاهرة محاولات الانتحار يجب أن تجد عناية خاصة في البحوث النفسية الحديثة وأن نتصدى لها بعقول مفتوحة وقلوب مؤمنة وأن لا يعيننا كعلماء أن مجتمعاتنا التي تتعرض لغزو المخدرات وأمراض الايدز والتفكك الاسري لا بد أن تجتاحها رياح الامراض الاجتماعية والنفسية الاخرى وأولها محاولات الانتحار التي انتشرت كالنار في الهشيم في المجتمعات الغربية وأصبحت تمثل السبب الثاني للوفيات بين الشباب بعد حوادث السيارات . . كما يجب علينا أن ندرك أن مجتمعاتنا التي ماتزال متحصنة خلف قلاعها الاسلامية لا يمكن أن تغض الطرف عن الظاهرة وهي تحدث نتيجة أمراض نفسية وليست فقط مؤشر للسلوك الاجتماعي السيء أو التفكير الاجرامي المنحرف وقد علمتنا التجارب ألاّ تنتظر وضوح الرؤية أو نتيجة الجدل بين الظاهرة والمشكلة . . فتعامل مع المشاكل النفسية كظاهرة عابرة حتى اذا فكرنا في الحل واعترفنا بها أصبحت مشكلة مستعصية .

كما يجب ألا تدفعنا حساسية المشكلة الى طي الملف والتزام الصمت وحجر حرية البحث في هذه الظاهرة. الوسيلة الوحيدة لأي تقدم علمي مرتقب في أي مجال من مجالات المعرفة الانسانية .

ان الغلو والمغالاة في أن نحذو حذو النموذج الغربي الى حد النقل الحرفي أو نتعد عنه الى حد مناصبة العدااء . . في كلا الحالتين يلحق الضرر البالغ باتجاهاتنا العلمية الصحيحة لايجاد نموذج يستند على احصائيات وبائية دقيقة ونظرة موضوعية جادة ويكون مرجعا علميا لدراسات مستقبلية في المجتمعات العربية والاسلامية على نمط النموذج الغربي الذي تم الوصول اليه بعد دراسات مقارنة وتقنين هذه الدراسات بدرجة عالية من الصدق والثبات في علم الاحصاء . . حجر الزاوية في الدراسات الوبائية .

وهدف هذه الدراسة هو التنبيه المبكر على حدوث حالات محاولات انتحار وليست نتيجة اضطرابات سلوك BEHAVIOUR DISORDER وانما نتيجة مرض نفسي PSYCHOLOGICAL DISEASE وأن هذه النسبة هل قد تمثل واحدا من عشرة لا يصلون الى علم الطبيب الي جانب نسبة أعلى من الحالات المنتحرة والتي قد لا تصل الى الشرطة وقطعا لا يعلم عنها الطبيب شيئا وهناك هدفان : الأول البحث العلمي في حجم الظاهرة قبل أن تصبح مشكلة مثل موضوع «الادمان» وثانيا أن لا نعتبر أن كل محاولة انتحار هي نتيجة تعبير عن خلل سلوكي وليست وسيلة اشهار لمرض نفسي ظل يحاصر الفرد حتى دفعه الى محاولة ايداء النفس .

وحتى نكون بعيدين عن الطرق الوعرة والمسالك الخطرة في تناول قضايانا العلمية بعيدا عن التجريح للمشاعر الذاتية فلننظر لمحاولات الانتحار نظرتنا لمشكلات الادمان ، فموقف الدين واضح من القضيتين ولا ينتقص من قدره أن ضعف ايها الناس وعدم تمسكهم به قد دفعهم للسقوط في هوة الهلاك بل يؤكد حاجتنا اليه أكثر من أي وقت مضى نتيجة التصدع والشروخ التي تصيب بنية المجتمع ونفسية الفرد .

الفصل السابع

(حول العلاقات الانسانية)

- عيون الرضا
- ترتيب العالم الخاص
- في دائرة الوعي
- أسرار الغيرة
- لمسة وفاء

عيون الرضا

يقول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا
إذا افترضنا ان المقابل الموضوعي للرضا هو السخط ، فان سر الحكمة وروعة
المعنى تكمن في مفهومنا للرضا وتفسيرنا للسخط وتعريفنا المجازي «للعيون» التي
ترضى وتسخط وادراكنا لدلالة العمى والابصار في السياق الشعري .

اننا بهذه النظرة التشريحية للصورة الشعرية نستطيع أن نسبر أغوار الشاعر
ونستبطن وجدانه العميق في عملية «الغوص» الجريئة التي تجيب على تساؤلات
الشاعر القائل :

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

ولكننا بهذه المحاولة الميكانيكية في تفكيك أوصال البيت وأمثاله نفقد متعة
الدفقة الشعورية السيالة والنبض العاطفي المبالغ الذي يبهر عيوننا كالضوء وهز
دخيلتنا كالزلزال ويتغلغل داخل أعماقنا يحفر كلماته في ذاكرتنا كالنقش الاسطوري
في وجه المغارة القديمة .

ولكن قد تكون هذه النظرة التشريحية أكثر قبولاً في محاولة فهم المعنى البعيد
القريب الباطن الظاهر والسهل الممتنع في قول أبي الطيب المتنبي :
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

فاذا كان المقابل الاول بين الرضا والسخط في «عين» الشاعر الاول هو نفس
المقابل الثاني بين النوم والسهر في «عين» الشاعر الثاني فهذا يؤكد لنا أن
«العيون» التي يتحدث عنها الشعراء . . ليست الحاسة الفسيولوجية المسئولة عن

الابصار فقط ، ولا العبارة المجازية المقصود بها البصيرة فقط ، ولا اللوحة الشعرية الرومانسية التي تقول :

ان العيون التي في طرفها حور . . قتلنا ثم لم يحين قتلانا .

ان المعنى الاجمالي في السياق الشعري يقرر في صدر البيت حقيقة حياتية واضحة وفي عجزه المقابل الموضوعي لهذه الحقيقة . فاذا كان الفارق بين أسباب الرضا والسخط يشابه الفارق بين النوم والسهر في الشكل أو المضمون فان هذا الفارق هو بيت القصيد وموضوع الحديث .

اننا ندرك من الناحية العلمية ان في التركيب الفسيولوجي للعين البشرية توجد «نقطة عمياء» Blind Spot في شبكية العين وان كل المثيرات الحسية والصور والاشياء التي تقع في هذه المنطقة تقع خارج احساسنا بها فلا نبصرها رضىنا أم أبينا . . خارجة عن ارادتنا بعيدة عن دائرة السخط والرضا ولا تؤرق مضاجعنا في النوم أو السهر لانها بعيدة عن منطقة الشعور واللاشعور . . وكفى الله المؤمنين شر القتال .

واننا نعرف عمليا ان هناك مساحات شاسعة في وجداننا لا تتأثر بعيوب أنفسنا وأهلنا وأحبابنا ولكن نفس هذه المساحات تطفح بالأسى والمرارة بعيوب غيرنا ومنافسينا واعدائنا وهذه المستنقعات الوجدانية هي منطقة الظل في وعينا وشعورنا ومنطقة الضوء في اللاشعور . «بوتيك» أحلام اليقظة وهذا ما يجعلنا نخطئ في رؤية عيب في حجم قرص الشمس وتنصيد عيبا آخر في حجم شعرة الحاجب .

لماذا نفعل ذلك؟

اننا شعوريا نجنّد كل طاقاتنا ونوظف كل قدراتنا من أجل حدوث توازن خارجي أمام طغيان عواطفنا الداخلية ، ولا شعوريا نريد أن نحدث توازنا آخر نفسيا دون جرح مشاعر الفرد العزيز لدينا والضحية فينا الفرد الذي يقع في دائرة العيون المبصرة في دورانها في اتجاه السخط والرضا ويصدق فينا قول الامام البوصيري في «نهج البردة» :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

وهذه حقيقة علمية أخرى ثابتة لا تتأثر بالمزاج . . فالعين المريضة لا تستطيع أن تحرق في وجه الشمس ، والفم اللليل لا ينعم بمذاق الماء العذب ، وإذا أضفنا حقيقة فلسفية أخرى فإن أسباب الاعتلال قد تكون نفسية فننكر أخطاء وعيوب أحببنا بدافع لا شعوري . . والعلة النفسية هي الفارق بين الرضا والسخط والنوم والسهو وشتان ما بين النقيضين في قول الشاعر:

وما كل ذي عينين بالفعل يبصر ولا كل ذي أذنين يصغي فيؤمر

اذن لا يكفي أن تكون لنا عيون فنبصر، أو تكون لنا آذان فنسمع اذا كنا لا نملك الدافعية للقيام بالفعل أو الرغبة للسير حتى آخر المشوار، ان شيئاً داخلنا وهاجسا خفيا يحركنا في هذا الاتجاه أو ذاك ، ولا يهم ان كانت عيوننا مفتوحة أو مغمضة طالما كانت مدفوعة بحالة الرضا أو مندفعة بعاطفة السخط . . هذا يحدث يوميا ولكننا لا نحس به من فرط الانسياق اليه بينما يراه الآخرون ملء السمع والبصر.

ومن بعض وجوه الحياة التي تعبر عن حالة الأزمة قول الشاعر:

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى عدوا له ما من صداقته بد

وهذا أحد مواقف الخلط بين الخطأ والصواب ، الحق والباطل والعدل والظلم في محاولة ترجيح كفة على أخرى من منظور الرضا أو موقف السخط . . وفي الحياة مواقف أكثر تعبيراً تتمثل في اسقاط مصائبنا على الآخرين لندفع عن أنفسنا الشعور بالذنب ونخرج من بين فكي الرحى أو مطرقة ارضاء النفس وسندان رضاء الآخرين لنعيش في حالة توافق ذاتي بينما تتجسد أمامنا بعدسات مجهرية مساوية غيرنا أو محاسنهم لنحدث حالة الرضا عن الآخرين أو التوافق الاجتماعي .

وقليلون هم الذين تتناغم فيهم رغبات النفس الأمانة بالسوء التي تدفع

للسخط والكرهية تجاه الذات والآخرين والنفس اللوامة التي تدفع الى قسوة المحاسبة ويقظة الضمير أو النفس المطمئنة التي تبحث عن اللغة الوسيطة أو الوسيلة المشتركة أو الصيغة المقبولة التي توفق بين كل هذه الصراعات .

في داخل البيت نغمض عيوننا لا شعوريا لأخطاء الطفل المدلل ونسقط شقاوته على «قسوة» اخوته لنحدث شعورا بالراحة ازاء هذا الموقف المتناقض .

وفي العمل ندور الف مرة في ترس الآلة المهنية لنغض البصر ونكف الاذى عن أنفسنا وأحبابنا، بينما نرفض أن نلتفت مرة واحدة في اتجاه اشباع رغبة الغير . . وهذا ما يفسر سر هذه الدوامة في الصراع الحياتي اليومي الدائر في شكل حرب غير معلنة بين دخيلتنا المستترة وسلوكنا الواضح بين الفرد ونفسه والفرد والمجتمع والفرد والعالم .

وفي المجتمع نرى عيوبنا لا تحصى اذا كان تياره الجارف يقاوم مسيرة قواربنا المبحرة الى شاطئ الامان، ونرى فيه محاسن لا وجود لها اذا كانت تركيبته تساعدنا في الوصول الى غاياتنا كما يتسلق الظل على جدران الحائط .

وفي العالم . . نتعامل معه وننظر اليه بعيون الرضا أو السخط بقدر التزامه بالحفاظ على كياننا أو منهجنا القومي والعقائدي . . فإذا كان عالم اليوم ممثلا في هيئاته ومؤسساته يخدم عقيدتنا وقوميتنا فانه ليس في الامكان افضل مما كان، واذا كان يصادم أو يقاوم تحقيق هذه الاهداف فعلي وعلى أعدائي يارب أو فليذهب الجميع الى الجحيم والحوت لا يخيف جثة الغريق .

ان مما يخفف من وطأة هذه الحرب النفسية المستمرة داخل الفرد انه في كثير وفي أغلب الاحيان لا يعي وعيا تاما الصراع الدائر بين عيون الرضا والسخط . . والخط الفاصل بين لذة النوم وآلام السهر والمسافة الواقعة بين الحلم والحقيقة وتتوارى دوافعه تحت مظلة كبيرة هي قدرته في أن يظهر ما لا يبطن أو ليقول ما لا يفعل .

وهذا سر استمرار أزمة عالمنا المعاصر افرادا وجماعات في البيت والمجتمع والعالم .
«ومن كان منكم بغير خطيئة فليرمها بحجر» .

ترتيب العالم الخاص

لكل انسان عالمه الخاص . . وهذا العالم ليس معزولا في داخله بل موصولا بعالم الآخرين . . وهذا العالم ليس دهليزا مغلقا يمشي فيه الفرد من البداية الى النهاية ولكنه جزيرة صغيرة في محيط العلاقات الاجتماعية مطلة على الخارج . . متصلة ومنفصلة . . متصلة بوجود الآخرين ومنفصلة بحاجاته الخاصة بعناصره المكونة له . . المميزة فيه والمعبرة عنه والمعتمدة عليه . . هذا العالم أشبه بعالم الثمار . . فالبرتقالة لها قشرة خارجية ونخاع داخلي فاذا كانت القشرة هي الوجه المألوف والرمز المعروف الذي يعطي البرتقالة اسمها ودلالاتها فان النخاع يحمل خصائص العصارة الكمية والكيفية في الحلاوة والمرارة والحموضة والملوحة وحجم وشكل البذرة .

فاذا كان الشكل الدائري هو الوجه الخارجي للعالم فان العناصر الخاصة هي الوجه الداخلي للعالم . . فلا يمكن لانسان عاقل أن يتفصل بعالمه تماما كما يستحيل عليه أن يتصل دواما دون أن يكون ذلك على حسابه أو حساب الآخرين وقدرة الفرد على احداث توازن دون خلل في هذه المعادلة الصعبة يكمن في الاساس في موهبته على ترتيب عالمه الخاص بالصورة التي تساعد على فهم الترتيبات التي يقوم بها الآخرون في عوالمهم الخاصة .

لقد قال الطبيب النفساني المعروف كارل رودجرز (ان فقدان الثقة بالنفس وانعدام الموهبة في ترتيب العالم الخاص يكمن وراء كل اختلال عاطفي وعقلي وأكثر ضحايا المشاكل العاطفية يفتقدون الثقة بالنفس) .

وترتيب العالم الخاص يتم في شتى مراحل الحياة وفي عدة مستويات . . فمنذ بداية الحياة وبعد خروج الطفل من العالم الخاص في بطن أمه . . كان يعيش

منفصلا ومتصلا بالعالم الخارجي . . منفصلا داخل رحم الام ومتصلا من خلال دور (المشيمة) التي تحمل اليه عناصر الحياة من ماء وهواء وغذاء . . حتى انفعالات الأم تصله مترجمة في شكل اضطرابات هرمونية تؤثر على نموه العقلي والبدني .

وعندما يخرج الى الحياة يواجه الصراع بين عالمه الخاص والعالم الأكبر . . فيبدأ بترتيب عالمه الخاص بتأمين حاجاته الضرورية الداخلية وتأكيد متطلباته الخارجية من أمه وأسرته واخوته بتكوين علاقات جديدة يتكيف معها ويتعامل من خلالها مع اللعبة فإما أن يحافظ عليها ويتحدث اليها ويشاركها رغبتة في ترتيب عالمه أو يعتدي عليها ويدمرها تعبيراً عن فشله في القيام بتلك المهمة .

وعندما يبلغ مرحلة الرجولة يلتحق بوظيفة . . وهذه إحدى محطات الاختبار . . لماذا يقبل الفرد على اختيار وظيفة لا تناسبه فيبدأ أول أخطائه أو خطواته في طمس معالم شخصيته الحقيقية؟ ان كثيرا من الناس يمتلكون قدرات عقلية نادرة ولكنهم يدمرون هذه القدرات ويحرقون هذه الطاقات في محرقة عمل وظيفي لا يناسبهم لأنهم في كثير من الحالات استجابوا لرغبات ذويهم أو طموح زوجاتهم أو نظرة مجتمعاتهم للانخراط في عملهم فأعطاهم أقل بكثير مما كان سوف يتحقق لهم من خلال قدراتهم الحقيقية في عمل آخر .

فالعالم لا يعني فقط انجاز الوظيفة بل يتطلب التقدم فيها وهذا له ثمن لا يتم إلا من خلال الارتقاء في السلم الوظيفي ، وهذا يعني ارتفاع عدد ساعات العمل ومضاعفة الجهد البدني والذهني ، وقد يكون من أبسط قواعد ترتيب العالم الخاص عند هؤلاء هجر هذه الوظيفة الى مجال آخر يفجر طاقاتهم الحبيسة ويطلق قدرتهم على الابداع ويعتق رقابهم من عبودية الرق المهني .

والرجل يختار زوجته بكل المعايير المعروفة والقيم الطيبة، ثم لا يلبث أن يرميها بكل رذائل العصر ويكون من أكبر عوامل فشل الزيجات انعدام الثقة (من) جانب الطرفين . . كل في عالمه الخاص يبحث عن البديل المناسب دون دراية بأن عالمه الذاتي يحتاج الى اعادة ترتيب، وأن هذا العزف المنفرد يفتقر الى اعادة

صياغة النوتة الموسيقية ليكون له توأم فتتكرر مأساة الزواج والطلاق .

وكل مجتمع له عالمه الخاص . . همومه وقضاياه العاجلة والآجلة وهذه تحتاج الى ترتيب أولويات . . فلا يمكن لمجتمع أن يسير بغير رؤية خاصة لقضاياه القومية العامة . . وخصوصية النظر تكمن في طريقة اعداد خطة عمل ووسائل تطبيقه لهذه الخطة وصولا للاستراتيجيات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المنشودة . . وحتى في هذا الاطار العام يظل الجانب الخاص يؤكد : (ما كل ما يعرف يقال) عن الهموم الذاتية التي تستوجب الاخلاص من النفس الى درجة العتاب الذاتي المشوب بالشعور بالذنب ثم الجانب الخارجي الذي يعني الانفتاح على ضوء الشمس . . نور الحقيقة من زاوية لا تُعرى المجتمع بشكل مأساوي يصدم نفسية الفرد العادي من غير ذوي الاستعداد النفسي والفكري لاستيعاب طبيعة الموقف المشكل .

ويقول رجال المجتمع اننا في مرحلة (ترتيب أمور البيت) قبل فتح جسر العبور الى عوالم الآخرين . . وهذه نظرة موضوعية متدرجة من أعماق الداخل الى رحاب الخارج بصورة تبعث الثقة في النفس والآخرين .

وعلى مستوى العالم الكبير يتم ترتيب العالم الخاص بين الدول في مجموعات اقتصادية أو سياسية أو جغرافية ويتم ترتيب هذه (البيوتات) وفق النظرة المسيطرة على عقل أو مصالح المجموعة وتكون هناك وحدة نفسية أو ما يسمى (بميكانزما العمليات العقلية) التي تجعل من وحدة العوامل الصغيرة الخاصة في شكلها الخارجي والداخلي نوعا من التنظيم الداخلي التلقائي الغريزي الذي يكون أشبه بجهاز (الثيرموستات) أو الاداة الاوتوماتيكية لتنظيم الحرارة لايجاد المعدل المطلوب الملائم بين الداخل والخارج .

ان فشل هذه (الميكانيزمات) يؤكد حقيقة هامة وهي ان بداخل كل فرد ومجتمع ودولة بوصلة تنظيم داخلي - ان صح التعبير - أو امداد بيولوجي يغذي عقولنا عفويا لنصحح مصابيح داخلية على زوايا نفس الفرد وتركيبه المجتمع وهيكل الدولة يعطي صورة حقيقة ناضجة لا تكشف المساوىء فقط بل تؤكد

المحاسن ولا تبرز السلبيات بل تجسد الايجابيات وتترك فرصة للتقويم السليم . .
ولكن القدرة على مواجهة النفس نادرة وكثيرا ما يلجأ الانسان الى تقمص
شخصيات الآخرين وأهدافهم والاقتداء بهم بدلا من اللجوء الى ذاته وهذا
ما يفسد المسعى ويحول دون تحقيق شخصيته الذاتية من خلال ترتيب عالمه
الخاص . . واذا عجز الفرد عن فهم نفسه فقد صار من المستحيل عليه فهم
الآخرين وهذا العجز في مصادقة الآخرين وكسب قلوبهم يعود في الاصل الى
عجز عن تكيف نفسه مع وجهة نظرهم ويقدر ما تعطي يعطي لك .

ان الرجل الذي يعرف كيف يرتب عالمه الخاص عن معرفة ذاتية موضوعية
ناضجة لا يعود لديه أي خوف من الحياة لأنه يكون قد تهيأ تماما لمواجهة كل
الاحتمالات وقبول كل الخيارات الحزينة والسارة على السواء . . على الانسان أن
يدرك أيضا انه لا يستطيع ترتيب عالم الآخرين أو إعادة صنعهم من جديد وعليهم
أن يفعلوا هذا بأنفسهم واذا لم يفعلوا اما تمسكا بقناعتهم أو زهدا في علاقتهم فلا
خيار أمامه غير قبول الامر الواقع بالمسايرة ومدارة الشر . . وهذا فصل كامل في
أدب المعاملات . . أو أن يُدير ظهره تماما ويعف عما عند الناس ويعتزل حياتهم
ايانا بأن رضاء الناس غاية لا تدرك . . والقابض على الجمر ليس كالذي يده في
الماء .

من المعروف والشائع (ان الابقاء على حسن الصلات لا يكون بكثرة التفاوضي
عن الهفوات) فاذا كانت الدبلوماسية الدولية (أم الصلات الحميدة) تحفظ في
قاموسها عبارات «سحب السفراء» وتجميد العلاقات، وحتى قطع العلاقات
وتسفير العائلات تعبيرا عن فشل محاولات ترتيب العالم الخاص بالداخل والخارج
وهي خطوة تلجأ اليها الدول ولسان حالها يردد (المضطر يركب الصعب وهو عالم
بركوبه) فقد يكون في هذا الموقف اتاحة الفرصة لاعادة ترتيب البيت بصورة تكون
أكثر قبولا وأصدق تعبيرا عن واقع الحال وكثيرا ما يحدث ان تعود الحياة ثانية أكثر
ترتبا وأفضل تصويبا في الغاية والهدف .

ان الموقف الودي تجاه الآخرين لا يكلفنا من الجهد الذهني والنفسي بقدر

ما يؤذينا الموقف المتحامل أضعاف المرات ، لأن الاول يتحقق بجهد المقل وفي غمضة عين ، أما الثاني فلا يتم الا من خلال تنمية مواقف خاطئة علينا متابعة ردود فعلها في تراكمات يصعب ازالة آثارها الضارة المترسبة في أعماق النفس . . ولما كان أكثر الناس يختلفون عن البعض في الفكر والتوجه فان أبسط وسيلة للاتفاق بين الناس هي احياء الاهتمامات المشتركة بينهم لايجاد لغة تخاطب متبادلة .

فاذا نجح الفرد في ترتيب عالمه الخاص فانه سيجد نفسه قادرا على أن يقيم الاساس الذي يريده في تعامله مع عوالم الآخرين بأنجح الوسائل وأخف الأضرار وأقل التكاليف وأجمل الديكورات !!
والعبد في التفكير . . والرب في التدبير . .

في دائرة الوعي

ان الوعي والتطور صفتان متلازمان تلازم الظل فالأول اكسير الحياة والثاني عصب الوجود ومن خلال التحام هذين العنصرين تتولد الطاقة التي تدفع الحياة خطوات الى الامام وتعطي الانسان قدرة على الاقتحام لكل دوائر المجهول لان الوعي هو خميرة الايمان وبغير الوعي يضعف الايمان بالنفس والآخرين وأهداف الحياة ومبدأ الانسان في التخبط بين ما يعرف وما يجمل والخلط بين ما يكره وما يريد والحيرة بين قدراته وعجزه أيسير أم يقف؟ أيتقدم أم يتقهقر خارج دائرة الوعي؟

لقد قال الامام الغزالي ان الانسان مُخَيَّرَ فيما يعلم مُسَيَّرَ فيما لا يعلم أي انه يزداد حرية كلما زاد علما ولذلك قال تعالى ﴿وقل رب زدني علما﴾ . . والعلم ليس مرادفا للوعي وان كان من أيجدياته وأول أدواته في القراءة والكتابة . . فالقراءة تفك طلاسم المعرفة والكتابة تجمع رموز الوعي ولكن الوعي قد يأتي بالفطرة دون قراءة أو كتابة ووعي العارف الذي يسبق العلم وهذه نعمة الوعي أحد مفاتيح الحكمة ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾ . . والوعي المكتسب هو وليد العلم بالقراءة والكتابة التي تقدح زناد الوعي الفطري وتغذي مخزونه وهو وعي مسبوق بجهل أشبه بضلال يأتي بعده هدى في قوله : ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ . . سورة الاسراء آية ١٥ .

والوعي هو كل الفارق بين عارف وجاهل والناس متفاوتون في درجة تفاوت علمهم وتفاوت مقاماتهم بعدا أو قربا من الله مصدر الوعي وملهم المعرفة ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ . . سورة محمد آية ١٧ .

هذه بعض الآفاق المشرقة في مفهوم الوعي في حياتنا، فالوعي أشبه بلحظات الصحو التي يتلذذ بها النائم بعد أن يفيق من غيبوبة النوم «اللاوعي» ليرى شعاع الشمس يدغدغ عينيه ويتراءى له نور الحقيقة قادما من خلف سراب والوعي يتخذ إحدى حالتين الوعي الظاهري والوعي الباطني أو ما يطلق عليه علماء النفس «الشعور» و«اللاشعور» وهذا مدخل آخر الى دهاليز المعرفة ينظر من زاوية مختلفة الى الجسور المعلقة والبوابات المفتوحة بين الوعي و«اللاوعي» ولا يعني الأخير فقدان الوعي وإنما يعني اللاشعور الذي يعمل بعيدا عن دائرة الضوء وخلف الكواليس يخلق قنوات اتصال سرية متفقا عليها ومسبوقه بعلم كحروف الشفرة السرية بعيدة عن منطقة الشعور التي تخدم نفس الغايات بوسائل مختلفة تتلاءم وطبيعة الظروف المحيطة بالفرد والجماعة .

ان هناك عدة مجالات في دائرة الوعي «الشعور» أو الواقع . . يظل الوعي يتكامل وينمو وينضج كلما تقدم الانسان الى الأمام فكل خطوة الى الامام تضع له لبنة جديدة في صرح التقدم والوعي عتبة أعلى في سلم التقدم وركيزة في بنيانه وساقه التي يقف عليها والوعي دائما يمشي الى اتساع الى تجسيد الرؤية ونضوج العقل وتكامل الشخصية مع تقدم العمر لأن الوعي نتاج العقل .

والوعي يتشعب في أصعدة فكرية واقتصادية وسياسية واجتماعية وصحية الى آخره . . فالوعي الفكري هو الذي يحفز الانسان لكي يبدع ويتفرد ويتميز في شكل الابداع المعبر عن شخصيته في أن يكون صوت نفسه وصدى ذاته وبنات أفكاره فالكتاب والادباء والرسامون قادة الوعي الفكري ليسوا فقط بما يحيطون به من معرفة بألوان الفنون وإنما بما يبدعونه من أشكال فنية تثري الفكر الانساني الحضاري وما يدخلون به مجتمعاتهم من الظلمات الى النور في دائرة الوعي والوعي الاقتصادي يتكامل من سلوك الفرد وأهداف الدولة فبث الوعي يبدأ بتنظيم فكر وحياة الفرد من خلال تعليمه احترام قيمة الملكية الفردية والخاصة والملكية الجماعية والعامية واحترام ممتلكات الغير فالطفل في البيت يجب أن يتعلم دلالة العملة الورقية والمعدنية واحترام أسلوب التعامل بها والمحافظة عليها وأن يكون

كينونة خاصة في الخانة الاقتصادية للأسرة فيتجنب الاسراف والتبذير ويتعلم الاقتصاد في الانفاق والاعتدال في المقايضة وكل مظاهر السلوك الاقتصادي في حدود دائرة وعيه حتى يجد نفسه عضوا داخل وحدة أسرية اقتصادية تكون مع الوحدات الاسرية الاخرى فلسفة الدولة الاقتصادية المتكافئة التي لا تثقل كاهلها الديون الخارجية ولا تعوق تقدمها الالتزامات المادية .

ان من سمات المجتمعات الغائبة عن الوعي الاقتصادي هذا السلوك الطفولي في الانفاق التفاخري فليس هناك حدود مما يجعل من الميزانية بندامفتوحا يمتثل كل التجاوزات والمصروفات المرئية وغير المرئية والنفقات بلا عائد ويظل رب الاسرة يدور خارج دائرة الوعي حتى حدوث كارثة تعيد الى الاسرة صوابها بعد فوات الاوان قال تعالى ﴿ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ . . . وكذلك نرى في الدولة المتقدمة ميزانية أسبوعية أو شهرية للأسرة أشبه بميزانية الدولة في جدول زمني محدد وسعر صرف ثابتة ومتنقلة لا تحتمل عشوائية التخطيط مثل «اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب» مصداقا لقوله تعالى ﴿ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا﴾ . . . وليست هذه دعوة للشح والبخل ولكن بطاقة دخول لدائرة الوعي .

والوعي السياسي يعني نضج الحس الوطني وشفافية الوعي حتى تتحقق أهداف البلاد العليا من خلال طموح الافراد فلا تعارض ولا تضارب بين حرية الفرد الشخصية ومصلحة بلاده الوطنية التي تعلق ولا يعلى عليها وهذه فضائل تعلم في الصغر وتزداد ثباتا وبقينا بالوعي والتقدم والممارسة في الكبر فلا يمكن لأي أمة أن تتطور إلا من خلال تطور أفرادها ولا يمكن لأي فرد أن يصل الى درجة التطور الفكري المطلوب في غياب الوعي الوطني المناسب . . . الوعي بهوم الوطن مواطن القوة لديه ونقاط الضعف فيه وضرورة التضحية من أجله والموت في سبيله وهذه مبادئ كبيرة لا يمكن بحال أن يقوى على أداء رسالتها إلا من يتمتع بدرجة عالية من الوعي الوطني فيطور بلاده لا كجزيرة منعزلة عن المنظومة العالمية وانما كجماعة انسانية تناضل من أجل المبادئ النبيلة كالمحبة والتعايش السلمي وكراهية الحروب .

والوعي الاجتماعي يعني بداية معرفة المرء بقدر نفسه بنفسه ومحاورها بصدق وبالجماعة ومجادلها بوعي وأن يجعل لنفسه هدفا في الحياة ويسعى اليه وفلسفة واعية يستنير بها ويعلم علم اليقين ان رضاء الناس غاية لا تدرك والحياة يومان يأخذ الأمور بقدر الجدية الذي يستحقه بلا زيادة أو نقصان ولا يحمل نفسه فوق طاقتها فيخسر نفسه والدنيا معا ومن لم يقنع بالقليل فلن يكفيه الكثير وفي غياب فلسفة الحياة تكون القناعة بالقليل قدر العاجز وعدم الاكتفاء بالكثير طمع الحاضر والوعي الاجتماعي القائم على فلسفة في الحياة بجعل ضرورة الانتهاء للمجتمع ولا يضره كثيرا ان كان هذا الموقف يغضب خصومه أو يرضي اتباعه وفي الحديث جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال «يارسول الله دلني على عمل اذا عملته أحبني الله وأحبني الناس . . فقال : ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» والزهدي ليس في اعتزال الحياة أو ترك الدنيا ولكن في فضيلة الصبر على فضول المعيشة .

أما الوعي الصحي وهذا بيت القصيد فيعني الاهتمام بالنفس والجسد وقاية وعلاجاً وهناك فارق نوعي بين الوعي والتوعية . . فالتوعية سلوك انساني يهدف الى تحقيق غاية محددة في وقت معلوم كالتوعية في مراكز الطفولة والامومة ومراكز تعليم الكبار وبرامج (سلامتك) الصحية والتوعية المرورية في (العين الساهرة) وشتى البرامج التعليمية والثقافية في كل وسائل الاعلام المقروءة والمرئية والمسموعة .

أما الوعي فهو الاستيعاب الاشمل والاستثمار الامثل للقدر المتاح من المعلومات في تحقيق كل هذه الاهداف مجتمعة . . أهداف الصحة الحقيقية كيف ومتى ولماذا نأكل ونشرب وننام؟ كيف ومتى ولماذا ننجب ونموت؟ لماذا نذهب الى الطبيب ولماذا نتعاطى الدواء؟ لماذا نذهب الى التطعيم؟ لماذا نمنع التدخين ونحارب المخدرات؟ .

أسرار الغيرة

في مختار الصحاح لأبي بكر الرازي (الغيرة) بالفتح مصدر قولك (غار) الرجل على أهله يغار (غيراً وغيرة) و(غاراً) ورجل (غيور) و(غيران) وامرأة (غيور) و(غيري). أما الحسد فهو أن تتمنى زوال نعمة المحسود اليك . وقال الأخفش يقولون : يحسده حسدا وحسده على الشيء أو حسده الشيء بمعنى (حساده) . . أي الحسد .

ويقول عالم النفس الامريكي ت . م . انكلز في دراسة الفارق بين الغيرة والحسد : ان الغيرة نوع خاص من أشكال القلق الذي ينطوي على عدم الشعور بالأمن والخوف من فقدان العاطفة لمنافس . . والغيرة لها صفات دافعية ايجابية بينما للحسد قوة حفز سلبية ، فالرجل الذي يغار على زوجته يعتقد ان اخر يسرق عاطفتها ، وحتى في غياب ذلك المنافس الوهمي يبقى الخوف على زوجته من ظهور هذا الشبح مجرد مصدر أرق يدفع الغيور لاحتمال حدوث الفقد وتحمل آلام نفسية قاسية في حماية الشيء الذي يخشى فقده . .

ان المشاعر البشرية المتشابهة كالغيرة والحسد يمكن التمييز بينهما بوضوح معقول بالنظر في الدافعية الايجابية لا الآثار السلبية المترتبة عليها ، فتحليل دوافع الغيرة يساعد على التمييز بين وجهي الظاهرة الصحي والمرضي ، والتمييز بين الغيرة كخوف من منافس أو الحسد كأمنية امتلاك شيء يمتلكه آخر ومحاولة وضع حد بين نهاية الغيرة وبداية الحسد . فالانسان قد يغار من الاخر على سيارته دون أي شعور عدواني تجاهه ، ولكن في الحسد يكون الشعور تجاه الآخر عدائياً ، بينما نجد في الغيرة المرضية في وجود منافس حقيقي قد يتسم رد فعل الشخص الغيور بالصورة العدوانية مما يدل على صعوبة التمييز بين المشاعر الانسانية كدوافع

إيجابية أو حالات عاطفية سلبية .

ان سيكولوجية الغيرة تؤكد انها ظاهرة صحية تدفع الى التنافس الشريف بين الافراد والجماعات ، ولكن عندما تزيد عن الحد المعقول تصبح ظاهرة مرضية ومصدر شقاء للانسان . فالغيرة ظاهرة نفسية انسانية عالمية في كل الأجناس والأديان والاعراق والسلالات في أرقى مستوياتها وغريزة بدائية حياتية موروثية ومكتسبة في كل مملكة الانسان والحيوان تخدم غريزة البقاء وتقف وراء الدوافع والحاجات الاولية الشعورية واللاشعورية ، وتشكل سلوك الانسان في درجاته المتفاوتة في تكوين المفاهيم والمعارف والاتجاهات ، وتكتسب أهميتها كمخزون وقود للعلاقات الانسانية ومصدر توليد طاقة نفسية دافعة لحركة الفرد داخل الاسرة والمجتمع داخل الدولة والشعب بين الأمة والأمة في محيط العالم .

والغيرة حالة انفعالية معقدة تتكون عناصرها في الطفولة الاولى من حب التملك والشعور بالخوف من فقدان شيء والشعور بالنقص والغضب نتيجة الاحباط ، وهي تعتبر أول تعبير عن الذات السوية وأول مظاهر التكيف النفسي والتوافق الاجتماعي ، وبما أنها احدى الغرائز الاولية التي تصاحب الانسان في مراحل نموه المختلفة فإن عناصر تكوينها النفسي ثابتة ولكنها تتغير في كل مرحلة حسب متطلبات النمو الانفعالي من الطفولة الى الشيخوخة . فالطفل يغار من المركز الاجتماعي والمكانة الأدبية والمادية للرجل . . والكبير يغار من نضارة الشباب وفورة الصبا ويقول تعبيراً عن حاله :

ألا ليت الشباب يعود يوماً
لأخبره بما فعل المشيب

والعلاقة بين الاب والابن والرئيس والمرءوس . . والصديق والعدو . . ترتكز على دعائم الغيرة وعلى بضعة معطيات : أولاً نتيجة الحرمان من العطف والحنان كأن يهتم الآباء بأحد الأبناء لأنه الوحيد بين البنات أو الوحيدة بين الاولاد أو لجمال الشكل أو وحدة الذكاء أو كثرة المرض . وثانياً المقارنة والمفاضلة الصريحة والمستترة في حسن الظن بأن هذا حافز للمنافسة والبذل دون مراعاة للفروق الفردية والتكوين النفسي . وثالثاً الشعور بالنقص داخل وسط يجد الفرد نفسه فيه عاجزاً

عن مجارة أفراد أكبر عمرا أو أقوى جسما أو أكثر ذكاء أو أفضل نسبا أو أعظم جاها . ورابعا مشاجرات الوالدين التي تهدد أمن الطفل ، أو اختلاف الرؤساء الذي يهدد أمن العامل بفقد أحد الطرفين ويكون الضحية الاولى لهما . وخامسا الغيرة وليدة الانانية في حالاتها المرضية فكلما زادت هذه الصفة تولدت تلقائيا . وأخيرا تعلق الطفل المريض بأبويه وتملكه لهما يغار منها وينفرد بهما مثل تعلق الموظف برؤسائه وافراطه في الولاء وطاعته العمياء بصورة انفرادية استحواذية في قول المتنبي في مدح سيف الدولة معبرا عن حبه وغيرته :

أزل حسد الحساد عني فإنني بحبك قد صيرتهم لي حسدا

وهكذا تتكون صورة الغيرة في حياة الانسان ولكن تختلف في شكل التعبير عنها بشتى الوسائل وفي الاطار المناسب حسب مقتضيات النمو الانفعالي للفرد وعمره الزمني ودرجته الاجتماعية . . يقولون : بدون ملح الغيرة في طعم الحياة يصاب الانسان بفقدان الشهية للمنافسة الشريفة والطموح المشروع . . فالفرد بدون الغيرة كالمحرك بلا طاقة والحركة ضرورية لدفع الدم في شريان الحياة ولكنها حركة موظفة لأهداف نبيلة يحددها الاطار الذي يولد هذه الطاقة . . مثل أولي الأمر . . والقادة . . والقادة في البيت والمدرسة والمجتمع والدولة .

ان الغيرة داخل البيت سر تماسك أفراد الاسرة في خوفهم من فقدان مركزها الاجتماعي في محيط الأسر الأخرى ، فتحدد لكل فرد دورا خاصا يقوم به أو ترفض منه سلوكا معينا يصدر عنه ، ومن خلال نشاط هذه الخلية الواحدة تتحدد هوية الأسرة بتقاليدها وسماتها المميزة . . والغيرة داخل محيط العمل سر ديناميكية حركة العمل وتحقيق المعجزات فهي الدافع الى اكتساب مهارات جديدة من خلال ممارسة متصلة للحصول على خبرات متميزة بين العاملين أهمها حب العمل ذاته وطاعة الرؤساء (ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) واذكاء روح الزمالة المهنية التي هي صهام الامان ، وتأكيد الصفات الحميدة كالاخلاص والصبر والثقة بالنفس والتضحية ، فنتقل كالعدوى من فرد لآخر بصورة تميز المؤسسة وتعطيها سمعتها في محيط العمل التي تحدد أسلوب التعامل معها . . والغيرة بين الشعوب

هي أرقى سمات التقدم ، فالشعب بلا غيرة على هوية دينه ووطنه وجنسه ولونه وعرقه يفقد مقومات الأصالة وعوامل الكينونة وروح البقاء ويتلاشى في خضم البحار العاتية المليئة بالمراكب الشراعية والبوارج الحربية . . كما أن الغيرة هي وقود العلاقات الدبلوماسية في المحافل الدولية في التنافس الشريف من أجل تسجيل مواقف انسانية تشهد بأصالة الأمة التي حجزت مكانتها تحت الشمس واحتلت مقعدها المتميز في الأمم المتحدة بين الدول المتقدمة والنامية .

ومن أبرز نماذج الغيرة التي قد تكون ايجابية صحية أو سلبية مرضية ، هي التي تدور في ثلاثة محاور في الحياة . . كالغيرة الزوجية والغيرة الوطنية والغيرة المهنية ومن أروع ما كتب في وصف الغيرة الزوجية المرضية دراسة عالم النفس البريطاني (مايكل شبرد) من جامعة لندن حيث صور كيف يمكن أن تتحول من حالة حب جارف الى شك قاتل يكون أفضل علاجه الانفصال الفوري وأخطر مضاعفاته القتل العمد مع سبق الاصرار .

والغيرة الوطنية المرضية هي التي تدفع الى امتلاك حقوق الآخرين الأدبية والمادية ، اما بمسوخ شخصية الدولة باثارة الكراهية نحوها أو تسميم العلاقات معها والآخرين بأسلوب الوشاية والتشهير والكذب الانتقائي ، وهو أسلوب نكوصي طفولي يحدث عند الاطفال في حالة الحرمان وعند الكبار في حالات الاحباط ، أو ماديا بشن عدوان أو اعلان حرب أو تدمير منشآت أو قطع علاقات الى اخر أشكال التخريب .

والغيرة المهنية أحد مظاهر الصحة في توطيد العلاقات وتنشيط الحوارات وتحديد المسارات بين أفراد المهنة الواحدة . . العامل والتاجر والزراع والطبيب والمهندس ورجل القانون . . فهي بداية الخروج من أحلام اليقظة الى ممارسة الواقع . . والارتفاع الى مستوى المنافسة الشريفة بالتسامي من مشاعر الدونية الى صنع الدفاعات النفسية السليمة الحافزة للاجتهد واليقظة وتطوير القدرات الخاصة والعامة واذكاء روح التحفز للقفز فوق حاجز العجز بحيث يصعد أصحاب المهنة الواحدة في نفس الدرج حتى اذا وصلوا الطابق الاعلى شعروا

بالحاجة للصعود الى أعلى الطوابق وارتفعوا بالمهنة والحرفة الى درجة الكمال .
والغيرة قد تكون معلنة من خلال واجبات يقوم بها الفرد بحثا عن ترقية أو
سلوكيات يتدعها وصولا الى غاية نبيلة، وأفضل الغايات فعل الخير . أو قد
تكون الغيرة مبطنة في سبيل تحقيق كل هذه الاهداف تحت شعار (واستعينوا على
قضاء حوائجكم بالكتمان)، ولكن عندما تتحول هذه الغيرة الى حسد تنهار كل
دوافع الابداع، فالحسد يأكل الفرد من الداخل كما تأكل النار الهشيم فتتداعى
نفسية الحاسد . . كما تتصدع شخصية العائن فإذا كان كل عائن حاسدا وليس
كل حاسد عائنا فإن كل حاسد غيور وليس كل غيور حاسدا يجب الاستعاذة
منه . . هكذا يقول العارفون بأسرار الغيرة!!

لمسة وفاء

لقد نشر أصل هذه المقالة في جريدة (الصحافة) السودانية بالخرطوم في حفل تأبين الفقيد الراحل البروفسير التجاني الماحي .
لم يعد في ذاكرتي إلا أشتات من الكلمات المتناثرة من الديقاجية ولكنني أنقل من أرشيف الانطباعات المحفورة في وجداني عن شخصيته التي ما غابت عن البال ولا رحلت عن الذاكرة .

في عام ١٩٦٨ وعندما كنت أستعد للسفر للخارج في بعثة دراسية الى جامعة لندن لدراسة الطب النفسي حدثت بعض الملابسات في ظروف البعثة وكادت أن تتوقف وكانت معرفتي بالاستاذ الجليل لا تتعدى عتبة الدخول الى قاعة المحاضرة وعادة الخروج خلفه في مسيرة مع الطلاب نتابع ما انقطع من حديثه السر الجذاب المتميز بأسلوبه الساحر في عرض أفكاره وطرح وجهة نظره وكنت أواظب على حضور محاضراته لطلبة السنة النهائية رغم اني كنت نائبا في قسم الطب النفسي في مستشفى الخرطوم بحري .

وقد سألتني ذات مرة عن موعد سفري للخارج فأخبرته أن بعثتي للمملكة المتحدة تعثرت بسبب خلافات بين المسؤولين الكبار، فقال لي : من هم الكبار الذين يختلفون حول شئون الصغار؟ فذكرت له بعض التفاصيل فقال لي : هل يمكنك أن تلتقي بي صباح الغد لمقابلة المسؤولين . . وذهبتنا اليهم وكان الموضوع أكبر من تصورنا ولكن مضمون الخلاف أصغر من قدره الكبير فخاطب المسئول قائلا : (أرجو أن ينتهي هذا الموضوع اليوم سلبا أم ايجابا . . فان الابقاء على حسن الصلات لا يكون بكثرة التغاضي عن الهفوات خاصة اذا كانت تضر بمصالح الاخرين وفي غمضة عين وانتباهتها يصبح القابض مقبوضا) وقال لي :

(لا تقلق يا ابني فلا يصح إلا الصحيح فاذا لم تنهياً لك الفرصة في الوزارة فأبواب الجامعة مفتوحة أمامك وما عليك إلا الحضور الى مكتبي غدا اذا لم تستلم أوراق البعثة من المسئول الذي قطع وعدا أمامك فالرائد لا يكذب أهله).

تشاء الاقدار ان لا تسير الامور في نفس المسار فحدث تغيير في الحكومة تغيرت معه الوجوه وأصبح القابض مقبوضا وتم الافراج عن الاوراق لتبدأ مرحلة أخرى من الولادة المتعسرة مع بقية القابضين على زمام الامور في الوزارة ولكن الحلقات المحكمة بدأت تتفكك الواحدة بعد الاخرى حتى تم اجراء البعثة وتجاوز التفاصيل التي قضى عليها الزمن وأصبح الخوض فيها أشبه بفتح الجراح الملتئمة ولكن العظة الكبرى التي خرجت بها تلخص في توضيحه «يجب أن يكون لك هدف في الحياة . . هدف يرسم لك الاطار الذي تتحرك فيه ومن خلال هذا الاطار تستطيع أن تتحرك بحرية ومسئولية وبلا تحبط وعشوائية . . وعليك التمسك بمبدأ مهما كلفك الثمن وطال بك الزمن . . فالنصر السهل أرخص من الهزيمة الصعبة وان ينصركم الله فلا غالب لكم».

لقد كان -رحمة الله عليه- قوي الشكيمة مع سعة الأفق واسع الصدر مع قوة المنطق، متفرد الرؤية مع وضوح الهدف فقد كان يشجعني على أن يكون للانسان موقف في كل قضية ورأي في كل مشكلة وكلمة في كل موضوع وان لا يترك الانسان أشرعه تسيرها رياح الصدف فيغرق المركب في بحر الحياة الصاحب.

وفي أحد الامسيات الثقافية عام ١٩٦٤ كان يلقي محاضرة علمية عن الطب النفسي باللغة الانجليزية بعد عودته من منصب مستشار هيئة الصحة العالمية في الاسكندرية ليتسلم كرسي الاستاذية في الطب النفسي في كلية الطب بجامعة الخرطوم وكانت أمسية خالدة . . لقد كان حديثا فذاً بلغة متميزة ونادرة في قاموس الطب والأدب . . ومازالت كلماته ترن في آذان حضور تلك الأمسية ونبرات صوته تلامس شغاف القلوب وأبصارهم شاخصة تتفحص هذا القادم من دنيا العلماء يمتطي صهوة جواد أسطوري يصم صدى حوافره أرجاء القاعة الممتلئة في كل

التخصصات الطبية .

كانت هذه المحاضرة وحدها . . بمثابة اعلان عن ميلاد الطب النفسي الحديث في أروقة الجامعة وبعدها جاء الطوفان . . كتبت الصحف والمجلات والدوريات عن دور الطب النفسي ذلك القادم الجديد من عالم آخريدق أبواب الجامعة وبيشر بميلاد عالم جديد كان يعيش في زاوية النسيان فلبس عباءة المعرفة الموسوعية التي يرتديها حملة الدكتوراة الفخرية في العلوم الاخرى ليعلنوا عن أنفسهم ولكنه هنا كان يعلن عن ميلاد عهد جديد من الطب النفسي الحديث .

وانخرطنا في تلك المسيرة وجاء آخرون . . وتتابعت الأجيال حتى يومنا هذا كلهم يترسمون خطى الراحل الكبير ومازالت صورته تحتل مكانا بارزا في قسم الطب النفسي بكلية الطب واسمه يجلي مدخل قاعته ذات الوقع الخاص في نفوس أبنائه من الطلبة والاساتذة .

وكان يندر أن تراه سائرا أو جالسا أو واقفا دون صحبة كتاب في يده يتأبطه كالعصا السحرية يجوب بها الطرقات المظلمة ويحلل بها العقد المؤلمة وكان أحب الأشياء الى نفسه أن تحدثه عن كتاب أو يتحدث اليك عن آخر .

وفي المحاضرة الأخيرة كان يتحدث الينا عن تصنيف الامراض العقلية في احدى المحاضرات الصباحية وكان يقطع المسافة بين السبورة والصف الاول جيئة وذهابا طيلة وقت المحاضرة وفي أثناء الشرح بدأنا نشعر بثقل كلماته وتعثر خطاه وبداية فقدان الاتزان وهرعنا جميعا اليه . . وكان يقاوم المساعدة ويرفض محاولة جلوسه على الكرسي . . وكان العارفون له يتصورون ما حدث بداية أعراض غيبوبة (مرض السكري) وما كان يخطر ببال الطلبة الموجودين انه يصارع حدوث جلطة دموية في الدماغ حتى استقرت تماما وجلس مستندا على أذرع أبنائه وكنت أقول في هدوء مضطرب (انتظروا أطلب الدكتور حسن حاج على لكي يقنعه بالذهاب الى المستشفى . . والدكتور حسن -رحمة الله عليه - كان تلميذه الاول والاستاذ المساعد والرجل الثاني في القسم وقد كانت المفاجأة الكبرى عندما رد علينا في صمت هامس بصوت متهدج قائلا : (اني بخير ولا أحتاج الى أحد

يقنعني بالذهاب الى المستشفى).

وبعد لحظات دخل علينا المرحوم الدكتور حسن حاج علي وكانت أعراض المرض قد زحفت على أطرافه وفقد القدرة على الحركة كما ينفذهم مسموم الى جسم عملاق فيشل عضلاته ويتهاذى فاقد الحركة فأخذه الى المستشفى الجنوبي (الانجليزي) وفي داخل الغرفة التي كانت أشبه بخلية النحل فالداخل مفقود والخارج مولود وكان كل أطباء وطلاب وممرضى ومرضى مستشفى الخرطوم قد تجمعوا أمام المبنى الرئيسي يتساءلون في دهشة ويتدافعون في استغراب . . في هذا الاثناء وصلت ابنته الكبرى الدكتورة سعاد التجاني الماحي وهي تبكي في ألم وحرقة وتسال في لهفة المفجوع ماذا بك يا ابي؟ ويسألها في صمت الموجه أين كتبي يا ابنتي؟ وقبل أن تقول له أين أنت من هذا الآن يا ابي؟ قال مرددا في عجل أين كتبي؟ فقلت له والدهشة عقدت لساني لحظات طويلة : هاهي معي يا أستاذي فقال : شكرا يا بني .

وخرجنا كلنا لنتركه مع الطبيب المعالج . وكأننا عدنا من معركة طويلة شاهدنا فيها صراع الجبابرة بين العملاق والمرضى وروح المقاومة وقوة الارادة وصلابة الشخصية في مواقف يبكي فيها الفرد على حياته كان ينادي فيها على كتابه . . صديقه الحميم الذي لازمه حتى آخر نبضة في قلبه وومضة في دماغه . .

وعندما خرج من المستشفى الى البيت كنت أعاوده من وقت لآخر وأشاهده في الصباح الباكر وأجده جالسا تحت ظل شجرة كبيرة يحاول الكتابة كتابة بعض المذكرات وتدوين بعض المخطوطات وكان العجز الحركي قد تمكن من يده فتارة يسقط كوب الماء وتارة يفلت القلم وتارة تتحرك الاوراق دون ارادة وعندها توقف . . ونظر الى وقال لي النصيحة التي حفرت في ذاكرتي كالصور الهير وغلوفية في جدران معبد ابي سمبل . . النصيحة التي ذكرتها في التقديم لهذا الكتاب وأمل أن أوفق في العمل بها . . تحقيقا لأمنيته وتبجيما لتوصيته وإحياء لأستاذه .

الفصل الثامن

(الحلم والحقيقة)

- وثيقة السفر
- هجير الحياة
- القارب والظوفان
- اطلالة على الجهات الأربع

وثيقة السفر

لقد كان الكاتب البريطاني الشهير جورج برناردشو يحلم بقيام دولة عالمية انسانية تضم كل شعوب العالم بلا حدود جغرافية أو حواجز سياسية أو صراعات عقائدية أو تفرقة عنصرية وكان حلمة صدى أشبه بدعوة افلاطون الى (المدينة الفاضلة) - يوتوبيا التي عاشت فكرة في وجدان الحالمين وعقول الفلاسفة ولكنها ظلت كالأطباق الطائرة تحلق في سماء الخيال بعيدا عن أرض الواقع .

وقد ظن بعض المتفائلين من فرط شوقهم لتحقيق أمنية الكاتب الايرلندي الاصل في قلب الجزر البريطانية والتي مازالت بلاده تحلم بالوحدة الوطنية الحقيقية داخل حدود المملكة المتحدة ظنوا - وبعض الظن اثم - ان قيام عصبة الأمم المتحدة هي كتابة الحروف الاولى في اعلان وثيقة قيام الدولة العالمية من أسرة واحدة تحت رعاية هيئة عالمية تشمل كل الدول الاعضاء المشاركة في شكل حكم مركزي تتمثل سلطته المركزية العليا في مجلس الأمن الدائم العضوية وبرلمانه العام في عضوية الهيئة الدولية وتكون الدول الاعضاء مجموعة ولايات تتمتع بالحكم الذاتي الاقليمي أو اللامركزي .

وبعد قيام محكمة العدل الدولية في (لاهاي) ازدادت قناعة الحالمين بأن هيئة الامم المتحدة في ظل الدولة العالمية ستمثل السلطة الدستورية والتشريعية بينها تمثل محكمة العدل الدولية السلطة القضائية في حل النزاعات وفض الصراعات وصيانة مبادئ الحرية بين شعوب العالم ولم يكن ذلك ممكنا في ظل هيمنة الامبراطورية البريطانية والتي كانت لا تغيب عنها الشمس آنذاك وتحكم أكثر من ثلثي شعوب العالم وتسلبهم أبسط حقوقهم المدنية داخل أراضيهم الوطنية وبعدها بدأ الاتحاد السوفيتي خلف الستار الحديدي يمارس أبشع أشكال حكم الفرد

الواحد والحزب الأوحده وظهت مشكلة المانيا كنموذج صارخ لاستحالة تحقيق وحدة عالمية في وجود (سوربرلين) الذي يفصل المدينة الواحدة الى شطرين . . شرقية وغربية . . لا تختلف فيها الولاءات والانتاءات العقائدية فقط وانما تنعدم فيها كل أشكال الحرية في أبسط صورها في الفاصل الوهمي الذي يقف عليه حرس الحدود كحد السكن القاطع بين نقيضين يفترشان نفس الارض ويلتحفان ذات السماء في وقت واحد وكانت أول نموذج يحتذى به في فلسفة (فرق تسد) في تقسيم البلد الواحد في ايرلندا وكوريا وفيتنام وأخيرا بيروت .

لقد وضح لاتباع الكاتب الشهير انه في غياب الحرية وتحت ظل وصاية الدول الكبرى على الصغرى وتحت ضغط حق القيتو(النقض) السيف المسلط على الرقاب لن تتحقق هذه الأمنية وتحول الحلم الى بقايا اسطورة في المثولوجيا الاغريقية خاصة مع شروق شمس أمريكا وبداية عصر القرصنة الدولية في كل بقاع العالم في الشمال والجنوب وفي دول أمريكا اللاتينية بلاد المستضعفين في الارض . . ضحايا الانقلابات ولعنة الجنرالات وحرب العصابات وسوق المخدرات . . وأصبح واضحاً للعيان أن قضية الحرية لا تتجزأ ومبادئ العدالة الاجتماعية لا تختلف من وطن لآخر . . فيستمر شكل التفرقة العنصرية بين البيض والسود في داخل البلد الواحد والديانة الواحدة وتحت واقع استغلال وسوء استعباد أقلية الأجانب البيض لأغلبية الوطنيين السود لا يمكن أن تقوم علاقات انسانية بأي شكل يربط الشوائج الداخلية ناهيك عن قيام كيان عالمي يضم شتات هذه المتناقضات . وفي ظل الحروب الأهلية بين أبناء الوطن يستوجب المنطق قيام وحدة وطنية في الداخل قبل الخروج بالهيكل السياسي الى الخارج ومازالت هذه مشكلات تنتظر الحل خاصة في ظل ظروف عالمية تغذي فيها الدول الكبرى نيران الفتنة والحروب الأهلية . وفي ظل الحوار المفتوح والصراع المكشوف بين الشمال الغني والجنوب الفقير تحت غطاء المسميات الدبلوماسية كالحوار بين الدول النامية والدول المتقدمة تتعثر كل مشاريع الوحدة العالمية لأنه لا فضيلة مع الجوع . . فالدول الغنية التي تحرق فائض المواد الغذائية للحفاظ على ميزان المدفوعات وسد العجز التجاري في الوقت الذي يموت فيه الملايين في الدول

النامية من الجوع والجفاف لا يمكن أن نتظر من العالم أن ينظر الى أي داعية لقيام دولة عالمية الا انه مجنون يدعي النبوءة .

وبعد فترة من التيه والضياع جاءت فكرة إعادة صياغة أحلام برنارد شوفي طموحات متواضعة جديدة خالية من شطحات الفكر المثالي والطموح الافلاطوني وذلك بخلق كيانات صغيرة في شكل وحدات اقتصادية أو سياسية مثل السوق الاوربية المشتركة لحل قضايا اقتصادية وسط المجموعة الاوربية أو قيام منظمة الوحدة الافريقية لتجسيد كيان قومي جديد له واقعه السياسي الخاص وقيام منظمة دول عدم الانحياز كتعبير جديد عن فكرة ثالثة تمتص لب الصراع الحار والبارد بين الكتلتين المتنازعين على سيادة العالم بقيادة الثلاثي العملاق زعماء الكتلة أمثال عبدالناصر ونهرو وتيتو حتى دخلت حروب المقاومة الخفية والمعلنة من أجل تثبيت مبدأ الحياذ وبعد وفاة القادة هبت رياح الخماسين على قيام المنظمة واقتلعت أوتادها وانفرط عقد المنظمة رغم الوجود الرمزي لها في الخريطة السياسية مما أحدث الفراغ وزاد اشتعال الجفوة واتساع الفجوة بين الاطراف ذات المصالح المشتركة والمصير الواحد فأكد أهمية وجود الكيانات الصغيرة لملء الفراغ في عالم لا يحترم حقوق الاقليات المتصارعة والكيانات المتنازعة .

هذه صورة العالم اليوم . . . يتتعد الحلم مع بداية كل عقد مسافة نصف قرن من عالم جورج برناردشو ويتقلص طموح الانسان في الحصول على تأشيرة دخول الى عالمه الخاص . . . أو وثيقة سفر تحمل عبارة الى (كل أقطار العالم) ولا تفرض عليه الدخول الى منطقة معينة وتحرم عليه الخروج من حدود أخرى . . . بطاقة حرية وجواز مرور ساري المفعول أصبح أشبه بالعملة الصعبة تدخل به الى الجنة المفقودة وتخرج به من النار الموعودة . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أذكر في عام ١٩٧٠ عندما كنت في فترة دراسية في لندن كان احد الاصدقاء القدامى الذين يحملون جنسية بريطانية يرغب في استخراج جنسية بريطانية لابنه المولود في لندن منذ عدة سنوات وكنا نعتقد انذاك ان في هذا المسلك اعتداءً على مشاعرنا الوطنية وخروجاً غير مقبول على التقاليد والقيم لاننا كنا نتعامل مع وثيقة

السفر كبطاقة هوية مقدسة ورمز انتماء وطني وليس مجرد وسيلة انتقال وسمة دخول وخروج من بلد لآخر وكان من أكبر جراح الكبرياء لكرامة الفرد شعوره بأنه مهدد بفقدان الجواز وهو أعلى من فقد عزيز لديه . . . لأنه يعني فقدان الانتماء للوطن وكانت الحكومات لا تملك من وسائل الوعيد والتهديد سلاحاً أقوى من سحب الجواز وهي أفسى درجات العقوبة رغم أنها أفضل وسيلة للحصول على جواز بريطاني خاصة في حالة فقدان الجواز الأصلي لأسباب تتعلق بالحرية الشخصية .

والآن أصبح جواز السفر متعدد الوجوه متفاوت المنافع والأضرار قد يكون مثل صكوك الغفران للدخول في محراب الاعتراف أو الوقوف أمام باب التوبة وقد يكون مثل لعنة الفراعنة يحمل معه سوء الطالع وشؤم الأبراج وقد يصبح البديل للهوية الأصلية دون أي قضية - فحامل الجواز البريطاني من جزر الهند الغربية قد يحصل على حصانة دبلوماسية لا يحلم بها زعيم المعارضة في حكومة (جامايكا) والمولود في أمريكا من أصل فلسطيني قد يمثل (بوش) في مفاوضات السلام مع إسرائيل بينما لا يستطيع أحد إخوته الخروج في مظاهرة في فلسطين المحتلة .

وفي ظل التكنولوجيا الحديثة التي اختزلت المسافات وجعلت العالم مدينة واحدة تحققت أمنية برناردشو بصورة مختلفة . . . فأصبحت وثيقة السفر هي المفتاح السحري لدخول الدهاليز المغلقة ومن هذا المنطلق أصبح البحث عن وثيقة سفر أشد حاجة من التمسك بقضية الانتفاء فأصبح الانتفاء فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقيين بينما يظل الحصول على الوثيقة فرض عين لا تستقيم الحياة إلا بها ومن خلال الاستمتاع بمزاياها لقد أصبحت مشكلة الحصول على الجواز بالميلاد أو التجنيس قضية الجيل المعاصر في هموم الهجرة والاغتراب وتداخلت الاوطان وتعددت الجنسيات حتى أصبح بعض أصحاب الحاجة يملكون أكثر من وثيقة وأصبح العالم بطريقة غير مباشرة دولة واحدة من خلال وجود وثيقة السفر وبرزت الى الوجود مشكلة الهوية وأزمة الانتفاء وقضية الجيل الذي يولد في قطر ويدرس في الثاني ويعمل في الثالث قبل أن يقرر الهجرة النهائية الى موقعه الأخير فالى أي بلد ينتسب والى أي جنسية ينتمي؟ وهل يكفي أن

يكون الرجوع الى وثيقة السفر البيّنة الوحيدة في مرافعة الاتهام أو الدفاع في قضية الانتهااء .

لقد قال أحمد شوقي :

وطني وإن شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي

فحتى ينتهي هذا الصراع النفسي الذي يعيشه الجيل المعاصر بين الولاء للوطن والالتزام بوثيقة السفر ستظل قضية الانتهااء مطروحة للبحث تنتظر الحل .

هجير الحياة

لقد أصبحت الحياة المعاصرة أشبه بالدوامة تحتاج الى قدر كبير من خواص الاتزان لكي يتمكن الفرد من ممارسة هواية المشي على الحبال في اللعبة الاكروباتية التي تجرى على مسرح الحياة. . أصبح الانسان يدور بين فكي رحى الحياة وهي تطحن ناعما فاكسب خواص العظام المطاطية والمفاصل البلاستيكية والارادة الفولاذية لكي يستمر متشبثا بدورة الحياة.

لقد قال الطبيب الكندي المعروف هانس شيلي في أثر (التكيف) على مصاعب الحياة (ان بداخل الانسان قدرات كامنة في طبقات متعددة لمواجهة الضغوط الخارجية والداخلية في البيئة وتحت التأثير المباشر لهذه الضغوط يستعمل ميكانيزمات هورمونية وعصبية مزدوجة تمكنه من (التكيف) بحيث يستطيع أن يعيش في أكثر البيئات تناقضا من البرودة القاتلة الى الحرارة المحرقة ومن الراحة التامة الى الارهاق البدني الشديد وعملية التكيف هذه تتم بصورة تلقائية ولا ارادية ولكنها تحتاج الى استعدادات وقدرات خاصة يقوى من فعاليتها الصفات المكتسبة وأهمها الارادة الواعية).

لقد أصبحت الارادة الواعية أحد الاهداف التي يسعى اليها الانسان الحديث و يبحث عنها في داخله وخارج ذاته إذ أنها موجودة بشكل أو آخر ولكنها تحتاج الى كثير من بعد النظر في معالجة الامور والتي تبدو صغيرة جدا ولكنها بتراكمت لاشعورية تصبح خطرا حقيقيا يهدد حياة الانسان.

ان الانسان يعرف من تجربته الخاصة ان الحياة لا تسير على وتيرة واحدة ويعلم مسبقا انها لو كانت على هذا النمط لكانت مملة وفقدت لذة البحث عنها. ان الحزن المستمر يمثل ضغوطا نفسية على أعصاب الانسان كما ان التيه المفرط

يمثل احتراقا داخليا لطاقة الانسان . . ولكن في طي النقلات المتواترة بين الحزن والتهيه يكمن احساس الانسان بلذة الحياة . . بالفارق في النوع والتنوع في الاختلاف ومعايشة تجربة تذوق طعم مرارة الألم وحلاوة اللذة . . ان هذه المفارقات هي وجهان لعملة واحدة . . وجه الحياة الانسانية بخيرها وشرها بأفراحها وأتراحها . . بكل ألوان قوس قزح الممتزجة في نظرة الحزن أو رؤية السعادة .

ان حياة اليوم لم تعد كحياة أمس . . وهذا سرديمومة الوجود . . هذا التعقيد الهائل في ديناميكية العلاقات الانسانية تقابله التبسيط المخل بمعادلات الأخذ والعطاء فيها . . الانتقال من العفوية المفرطة الى الانضباط الشديد . . ومن البساطة المرهفة الى التعقيد الجامد وأصبحت حرب الفرد الذاتية محدودة داخل مركبة كونية مذهلة السرعة وأصبحت خطواته وتحركاته أشبه بالسير داخل كبسولة فضائية في مرحلة انعدام الوزن .

أمام هذه الصورة الضبابية لا بد للانسان أن يصنع نظارته الخاصة به لرؤية الجانب الخفي أو البعد الثالث لهذا الشكل الهندسي المعقد التصميم ، لقد أصبح قدر الانسان أن يسير في هجير هذه الحياة . . هذا الهجير المتزايد من احتراق طبقة (الأوزون) في الغلاف الجوي بفضل احتراق المواد الكيماوية في التجارب النووية ورحلات الفضاء وفي ازدياد نسبة ثاني أكسيد الكربون الناتج من احتراق المشتقات البتر وكيماوية اضافة الى فضلات أنفاس البشر المتكدسين في مدن وشوارع العالم الذي وصلت كثافته السكانية خمسة مليار نسمة بصورة ساعدت في تضخم الانفجار السكاني الذي ولد أعنف صور العنف وأنهاط الجريمة في العالم الحديث اضافة الى الكوارث الطبيعية من الزلازل والبراكين والانبيارات الأرضية والفيضانات والسيول ثم الكوارث البشرية من حوادث الاغتتالات واختطاف الرهائن والحروب المعلنة والخفية بين الأفراد والجماعات والدول في عالم أصبح الحديث عن السلام في أحد مناطق العالم أشبه بأحلام شهرزاد وحكايات الاطفال وسندباد .

أمام هذا الواقع المؤسف يحاول كل عاقل الوقوف تحت مظلة الأمل الصامدة كالسحابة في نهار الهجير اللافح في شارع الحياة محاولاً بجدية أن يتأقلم أو يتكيف مع مشكلاته الحياتية اليومية في ارتفاع الاسعار الجنوني الذي دمر ميزانية الاسرة والقوانين والانظمة التي تشل حركته في زيادة دخله ومتطلبات تعليم أبنائه الذي أصبح مشكلة العصر منذ الولادة حتى استلام الشهادة وقضايا وطنه التي تهب مثل رياح الخماسين فتقتلع أوتار خيمته وتشرها كالريشة في مهب الرياح .

ان من أهم مقتضيات الحياة في هذا الهجير ان يصنع الانسان لنفسه قدرة خاصة على المرح في أحلك الظروف ليس مرحاً تهريجياً يغفل جذور المشكلة ولكنه قوة روح معنوية يواجه بها الاحداث المتلاحقة حتى لا يخبو وهج الأمل ولا يهبط نبض الحياة . . لقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة ان الانفعال يؤثر في نشاط القلب ففي حالة التوتر يعطي رسام القلب الكهربائي صورة مماثلة للاعراض المرضية التي تصاحب انسداد شريان القلب وفقر الدم في عضلات القلب وبعد تناول عقاقير مهدئة مانعة لادرار الادرينالين وخافضة للتوتر يعود رسام القلب الى صورته الطبيعية فيقدم أروع مثال علمي حيّ للعلاقة بين الانفعال ومرض القلب .

كما ان ترويض النفس على الصبر يعطي طاقة دافعة في مواجهة الضربات المتتالية بصورة توفر حماية نقطة الضعف وتحول دون اصابة نقطة الانكسار وأفضل من هذا محاولة تعويد النفس على قبول الرأي المعارض . . ان أسوأ ما يصيب الانسان شعور العزلة بالاثم والرغبة في اغماض عينيه عن رؤية الخطأ من وجهة نظره وغض الطرف عن الثغرة الواضحة في جدار حجته كما يقول الشاعر:

كناطح صخرة يوماً ليوهها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ومن أكبر عيوب الأفراد والجماعات والقادة والسياسيين عمى القلوب أو حجب الحقيقة عن أبصارهم وقلوبهم لأن القدرة على احتمال الرأي المعارض يفتح قنوات لتصريف الشحنة الانفعالية التي تغلي وتحرق الأحشاء وتدمر فسيولوجيا الاعضاء الحشوية، ان تحقيق هذه القدرة يعطي الفرد المرونة الكافية في كسب

معركة الرأي من خلال الاستبطان العاقل والفهم المتزن لنوايا الآخرين وهي أول الخطوات في نجاح الانسان في الادراك السليم لنوايا الطرف الآخر ولا يتم هذا إلا من خلال عملية امتصاص واستيعاب وتمثيل للجزئيات المتفرقة في وحدة فكرية متكاملة تعطي معنى واحدا بسيطا ومفهوما للمشكلة الكبيرة المتداخلة الاطراف . وعندما يصل الانسان هذه الدرجة من السمو في الفكر والبعد في النظر يجد نفسه قادرا على قول الحق له أو عليه ومواجهة الصدق مع نفسه والآخرين ، يقولون (الصدق أقصر طرق الاقناع) وعندما يستطيع الانسان أن يقنع نفسه وينطلق من قناعة ذاتية لا يجد صعوبة في اقناع الآخرين وعندما يفعل ذلك يخفض من حدة التوتر وحرارة الانفعال وتنخفض حدة الهجير تلقائيا بالجهاز المزروع في عقولنا الباطنية .

ليست هذه دعوة للاسترخاء والتواكل أو التخلي عن النضال من أجل الافضل ولكنه محاولة اثاره الدافعية باتجاه أكثر حيوية وواقعية كما قال العالم هانس سيلبي وينبغي أن يكون للانسان جهاز طوارئ في حالة تأهب واستنفار للمواقف الطارئة التي قد تنجم عن خلل مفاجيء في جهاز التكييف المركزي الذي يعمل بلا توقف ولا بد أن يكون عرضة للعطب أو التلف من فرط الاستخدام أو سوء الاستعمال أو عوامل خارجة عن ارادة الانسان .

ان نظرتنا للحياة يجب أن تتميز بالاتزان بين التشاؤم الحذر والتفاؤل المفرط وأن تتسم بالمرونة تجاه المواقف الصلبة حتى لا تتحول الى مواجهة كما يقول الشاعر :

اذا كنت في كل الامور معاتباً صديقك لن تلقي الذي لا تعاتبه
اذا أنت لم تشرب دواماً على الأذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وحتى لا يدفعنا هجير الحياة الى الزهد فيها والانسلاخ منها فيجب علينا أن نتعامل مع هذه الحياة نغير فيها ونتغير معها لنصل الى درجة من الوفاق النفسي لا يجرمنا منها ما يقوله أبو العلاء المعري في وصف الحياة :

اذا ما فعلت الخير فاجعله صالحا لريك وازجر عن مديحك ألسنا
فكونك في هذي الحياة مصيبة يعزيك فيها ان تُبرَّ وتحسنا
ولكن أفضل ما قيل في مواجهة قضايا الحياة بواقعية مقولة الحكيم الصيني
كونفوشيوس : (ان توقد شمعة خير من أن تلعن الظلام) ..

القارب . . والطوفان

يقال في عصرنا الحاضر، انقلب الهرم التقليدي في حياة الانسان ولعل الذين يتحدثون بشغف عن معجزة «برج بيزا المائل» يدركون عن وعي مماثل معنى الانقلاب العصري للهرم التقليدي، وهو انقلاب علائقي داخلي يعيش فيه كل انسان بطريقته الشخصية، ويفسره بفلسفته الخاصة، ويتكيف معه بوسائله الفردية. وما لم تكن لدى كل انسان فلسفة خاصة في التكيف مع هذه الثورة الداخلية، فسوف يجد صعوبة بالغة في التكيف مع المواقف الخارجية وسط هذا الخليط المتنافر بين الفلسفات والنظريات ومتطلبات الحياة الاساسية.

وعبارة الهرم التقليدي ترمز الى أن متطلبات الانسان في الحياة تبدأ كثيرة وعريضة من قاعدة الاعتماد الكلي على الآخرين في طفولته القاصرة. . متدرجة بالنضج في التناقص، حتى يصل قمة الاكتفاء الذاتي، حيث تتبلور الرؤية ويتحدد الهدف في شكل انجازات معينة يسعى لتحقيقها حتى يتوج دورة حياته بأعظم انجازاته أو آخر انتصاراته في معركة الحياة. . وتختلف طموحات الافراد في تحديد هذه الاستراتيجيات وبالتالي في نوعية التكتيك.

لقد كان من أولويات حاجة الفرد الأمن الغذائي وبعد أن تطور في توفير هذه الحاجة عمل على تأمين الأمن النفسي حتى لا تشغله هموم معدته أو غريزة بقائه عن تنويع أشكال اهتماماته الحياتية الأخرى، بحيث يثري حياته وحياة الآخرين فنا وابداعا. . وأصبحت حياة الانسان معرضة للخطر من الخوف من عدم الامن النفسي والامان الجماعي أكثر من الموت جوعا وعطشا.

وأصبحت صور الانقلاب تتمثل في ترويع الكبار للصغار. . حين أصبح الكبار، أفرادا أو جماعات أو دولا، أكثر تشبها بالحياة من الصغار، وفي كل

المستويات فالأفراد والدول الذين يعيشون مرحلة (سن اليأس) لوصح التعبير في كل مجالات النشاط الانساني، صاروا أكثر الفئات تعلقا بالحياة وعشقا للبقاء وضراوة في الصراع من أجل وجودهم من الاطفال في (عمر الزهور) - لوصح التعبير - والذين أصبح شعارهم في صراع البقاء (اطلبوا الموت تكتب لكم الحياة).

لقد كان من انجازات الحضارة المعاصرة اطالة عمر الفرد حتى ارتفعت نسبة فئة العجزة والمسنين في كل الدول المتقدمة الى أرقام مذهلة، بصورة تمثل أبرز أشكال الانقلاب الهرمي نتيجة التقدم التقني والرعاية الصحية للجميع، بينما نجد في المقابل أن موجة تحديد النسل وأمراض المخدرات و«الايدز» وحوادث الطريق وكثرة الطلاق والانفصال والميل المؤسف الى العزوف عن الحياة الزوجية والانغماس في ملذات العزوبية وضعف عاطفة الأمومة والأخوة، نتيجة الاتجاه القسري لخروج المرأة للمشاركة في المسئولية الاجتماعية على حساب الالتزامات الاسرية . . كل هذه العوامل، الى جوانب أخرى غير منظورة، جعلت نسبة الاطفال في الدول المتقدمة تنخفض تدريجيا، في الوقت الذي تتقدم فيه نسبة العجزة والمسنين . وهذا الازدياد الطردي يعني اننا سنصل مرحلة تكون فيها قاعدة المجتمع من المسنين، وقمته من الاطفال، وفي الوسط شريحة صغيرة منتجة تعاني كثيرا من العطالة نتيجة احلال الآلة مكان الانسان في مجالات العمل اليدوي . وهذا من أكبر مصادر القلق النفسي وفقدان الاستقرار الروحي والعقلي لدى الفرد الذي أصبح يواجه ضغوطا نفسية متزايدة في هذا العالم الذي كان مثل خلية النحل . . كل عضويه يلعب دورا معيناً في هذا النشاط الجماعي الدءوب، ويجني ثمار جهده، شعاره: لا بد دون الشهيد من إبر النحل - وعندما تحول العالم الى ورشة عمل، تفككت روابط التعاون الجماعي، وتأصلت روح الكفاح الفردي، وضعفت روح الاخلاص للعمل، والتي تمثل أقوى ركائز الهيكل الهرمي القائم في داخل الانسان، لأن الاخلاص في العمل كما يقول عنه العالم النفسي الامريكاني الشهير اريك اريكسون «القدرة على أن يعزز الفرد ولاءاته بحرية على الرغم من التناقضات الحتمية والغموض الذي يكتنف النظام القيمي في المجتمع» .

وهذا الوضع الانقلابي الجديد جعل الفرد متمركزا حول ذاته، تشغله هموم ذاتية صغيرة عن قضايا قومية كبيرة. ولأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولأن الفرد أصبح يفتقر الى الشعور بالأمن النفسي والضمان الاجتماعي والاستقرار الوظيفي في أكثر الاوقات، وبمختلف الدرجات، وعلى كل المستويات، أصبحت هناك صعوبة منطقية في قدرته على التصدي لمشاكل الآخرين خاصة اذا كان دخوله طرفا في هذه المعركة يعني هزيمة أهدافه، وبالتالي ضياع أهداف الآخرين.

وفي المنعطف الأخير للقرن العشرين، حيث توصل الانسان الى صناعة الثلاثجات العملاقة التي تحفظ أطنان المواد الغذائية لعشرات السنين، وبدأ العالم الصناعي المتقدم يطور فكرة المحرقة الالكترونية للتخلص من فائض هذا المخزون لحفظ مستوى الاسعار، وصل الى قمة الهرم، ثم بدأ في شبه انتكاسة، يطل عليه من جديد شبح الأمن الغذائي. وبعد ان ابتدع فكرة العد التنازلي في الخروج من أقطار السموات والأرض بشتى اشكال الصواريخ والمكوك، هبط ينش في التراب القديم بحثا عن القوت في زراعة الأرض، حيث الخبز والماء، وأصبح القمح أحدث أنواع التكتيك في صنع الاستراتيجيات.

لقد كانت القبيلة تحارب من أجل البقاء ضد الأوبئة الفتاكة كالسل الرئوي والجذري والحمى الصفراء والطاعون وأنواع الجنون، وخرج الانسان من دائرة التخلف، ودخلت هذه الامراض متحف التاريخ لتحتل أمراض القلب - مركز الثقل في هيكل الانسان - المرتبة الأولى نتيجة شدة الاستهلاك ومعدلات الضخ المستمر، مما استدعى تطوير جراحة القلب لاستبدال الأجهزة القديمة بأخرى جديدة. وهكذا أصبحت زراعة الاعضاء أكثر اثارا وتشويقا من غزو الفضاء. وعندما تخطى الانسان عقبة توفير قطع الغيار المطلوبة، وجد نفسه أمام أوبئة جديدة مثل المخدرات و«الأيدز» وحوادث الطريق التي تمثل أكبر هزيمة لحضارة القرن العشرين، صحيا واجتماعيا وأخلاقيا وسياسيا. وقبل أن يفيق الفرد من غيبوبة حوادث الطرق، التي تحتل المرتبة الثانية في معدل الوفيات وجد أن هذا الثالوث القاتل «المخدرات - الأيدز - حوادث الطريق» يحصد الآلاف من البشر

كالطاعون القديم، مشوها أجمل سمات الوجه الحضاري لانسان العصر الحديث، فأصبحت الدول الصناعية المتقدمة تستورد من الدول النامية المواد الخام والمواد الأولية لصناعة متطلبات الحياة، وتصدر اليها الشرور الاجتماعية لقلب الهرم التقليدي للحياة. ومن خلال هذا النفع المتبادل، يعيد العالم صياغة العلاقات الدولية من منظور اخلاقي، ويؤكد حقيقة انقلاب الهرم التقليدي حيث أصبحت الدول العظمى الراعية لحقوق الانسان، والساهرة على أمن العالم، تشكل أكبر مصادر الخطر على هذا الأمن الأعزل المعتل المضطرب.

ان الضغوط النفسية على الفرد أصبحت متعددة المصادر، متنوعة الأثر متواترة من أعلى كالمطرقة، متصلبة من أسفل كالسندان. والفرد أصبح أشبه بالقارب في الطوفان، يحاول أن يحرك مجاديفه ليتفادى الصخور العالية والأمواج العاتية، ولا يعرف الى أين سيجرفه التيار، ويظل - يجتر التعاويذ والمقولات، وأكثرها قناعة: «تتعدد الأسباب والموت واحد»، و«الشجاع يموت مرة والجبان يموت الف مرة»، ايماناً بأن هذا (الالف) جزء من (ملايين) الضغوط الأخرى التي يتعرض اليها ولا يموت فيها ولا يحيا.

فاذا كان الطوفان يمثل ظاهرة الكوارث الطبيعية التي لا تفرق بين الدول المتقدمة والنامية، فهي اشارات ربانية وزلزلة إلهية لكي يتذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يعتقد ان الحروب الذرية التي تفجرها الأزرار الالكترونية هي الرادع الوحيد أو الدرس البديل، خاصة وان الحروب أصبحت سلعة في يد القوى القادرة على شراء قدر العالم، رغم أن أصحاب هذه القدرة الوضعية ما عادوا القادة الحقيقيين للمعارك، يخوضون غمارها، مثل خالد بن الوليد أو عقبة بن نافع.

وانما شلة المتكئين على الأرائك ينظرون، يصدق فيهم قول الله تعالى ﴿واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾. . وهذا ما يحدث في عالم اليوم، في عصر انقلاب الهرم التقليدي، حين أصبح الطفل المتفتح في «عمر الزهور» يحمل الحجر الصامت، مثل بركان

الغضب، يتفجر في وجه القادة الكبار في «سن اليأس»، المزودين بأسرار القنابل
النوية والمفاعلات الذرية المخبوءة في أعماق الأرض أوجوف الفضاء. . وهذه
أروع صور الانقلاب. . ولله في خلقه شئون.

إطلالة على الجهات الأربع

عندما كان الكاتب الفرنسي الشهير فيكتور هوجو يعيش مريضاً في المنفى ، كان يجلس على حافة جرف من جزيرة في القنال الانجليزي يرمي بحجارة في المياه . ولما سئل : لماذا تفعل ذلك؟ قال : « ليست هذه حجارة ألقي بها في الماء . انني ألقي الرثاء الذاتي في البحر» .

والرثاء للنفس أحد المقصات وبعض المناشير التي تقلم أغصان شجرة الحياة بالداخل فتساقط الاوراق الخضراء في الشتاء القارس من نفس تفتقر الى الدفء العاطفي الذي يتوهج حرارة تذيب كل أدران الاتكال . . والأناية واللامبالاة تجاه الآخرين . . والرثاء الذاتي يدفع الى التوقع المرضي الذي لا يعبر عن حالة الحمل الطبيعي وحالة الانتظار الموقوت لقدم المولود الجديد ، وانما حالة انحسار موج الارادة المندفع وانكسار عنفوان الشباب المتقد داخل النفس طيلة لحظات العمر .

الصدى . . والايقاع : ان للحياة ايقاعا طبيعيا خاصا لا يستطيع الفرد تبديله دون احداث نشاز في السيمفونية الرائعة التي تحدثها الايقاعات الناجمة عن أصداء حركة الآخرين مجتمعة ، لأن الكون محكوم بقانون منذ البداية الى النهاية ، واذ استطعنا تغيير الأحداث فلا يمكن أن يكون الا داخل هذا الاطار وإلا فلنتساءل : هل يمكن أن نغلي الماء الى أعلى درجة ممكنة دون أن يتبخر؟ وهل يمكن أن ننفخ في البالون دون أن ينفجر؟ وهل يمكن أن نشد الحبل المطاطي أضعاف طوله دون أن ينقطع؟ وأخيرا هل يمكن أن نندفع في سباق محموم دون راحة أو نوم دون أن يصيبنا الارهاق الجسدي أو الانهيار العصبي؟!

ان الناس يتحدثون بمرارة عن الذين يملكون والذين لا يملكون وينسون

ان كثيرا من الذين يملكون هم في الواقع محرومون من لذة الملكية وحرية التصرف فيها . . هم أحرار مستعبدون . . يملكون المال ولا يملكون قدرة السيطرة عليه لتحقيق السعادة وينطبق عليهم القول (جئت امتلك المال فامتلكني المال) .

وبعيدا عن التعميم المخلل فان أكثرهم لا يملكون القدرة على الحياة البسيطة رغم أنوفهم لأن ظروفهم الاجتماعية تمنعهم من حرية هذا التصرف ، وبعض الأثرياء لا يستطيعون الهروب من قيود الثروة وعبودية المال فاذا فشلوا في الخلاص من هذه القيود تخلصوا من الحياة ذاتها ، وفي حياة العطاء والمشاهير نماذج واصداء صاحبة هذه الايقاعات المتوترة النشاز .

الزمان والمكان : هناك قانون ذهني عقلاي يعمل تلقائيا ولا اراديا وموضوعيا وغير انحيازي ليهيئ للناس أن ينال كل ما حققه واستحقه من نجاح ، ولكن قلة من الناس يؤمنون بهذا القانون ، وهو أن تعيش صديقا لمجرد لذة الصداقة واكتساب الاصدقاء في المقابل حتى تحسب عمرك بعدد الاصدقاء لا بتعدد السنوات ، ولأن كثرة من الناس ترى في هذا القانون نظرية ساذجة وفكرة طوبائية ستظل الهواجس الداخلية أشبه بالهلاوس السمعية تطن في الأذن « انظر الى هذا وذاك وأولئك . . الى النعيم والمال والجاه . . هل يستحقون كل هذا؟ هل بذلوا نصف جهدك كي يحصلوا على كل هذا؟ فان لم نتساو في العدل فلنتساو في الظلم» .

ان مقارنة الفرد نفسه وظروفه وحالته بظروف وحالة الآخرين خطأ في الأصل ، ويمثل أخطر صور العدوان الموجه نحو النفس ، لأن من الطبيعي لكل انسان أن يعتقد انه يستحق ما حققه وحصل عليه ولا يقرأ دخيلة نفوس الآخرين ، ولكنه يتأمل خارجيا فيحكم بأنهم حققوا أكثر مما يستحقون ويرتكب خطأ آخر لأننا جميعا ندفع الثمن جسديا وذهنيا لكل شيء يأتينا من الحياة . فليس هناك نجاح بلا مقابل ولا أخذ بلا عطاء ، ولكننا نفهم هذه المعادلة فهما جدليا في حساب المساحة المكانية المتاحة لا الرحلة الزمنية المعاشة من العدم الى الوجود . . من البذرة الى الحصاد . . لأن كل شيء يحدث في أوانه في الزمان والمكان

المحددین حسب قانون الكون العقلانی .

ولأن جزءاً ضئيلاً فقط من الجانب المشرق في روح الإنسان يطفو على السطح ويبقى الجزء الأكبر تحت السطح كجبل الجليد العائم في المحيط، فالمنطق يقتضي أن نمارس أعلى درجات ضبط النفس وقوة الصبر وشفافية الحس في تحديد قدرات الآخرين ورغبة المنافسين، وأي خلل في قوة الضبط أو سلامة الحس ينزع الفتيلة من حالة التوتر فتنفجر براكين اللاوعي مثل الانفجار النووي تحت الأرض فتخرج الحمم والقذائف في زلة اللسان . . أو حالة الهياج أو سورة الغضب التي تدمر الصلات وتهدم العلاقات . . وتجدد الأزمات . . ويصدق فيها قول الشاعر:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه اذا كنت تُبنيه وغيرك يهدم؟

وهكذا تنتشر في أنحاء الجسم آلاف المقصات والمناشير التي تعمل في أعصابنا ليل نهار.

الهدوء والايهان : هنالك قول ديني مأثور (في الهدوء والايهان ستكون قوتك) فالهدوء الشاغل خير من الضجيج العاطل ومثلما يكون السكون قبل العاصفة ففي قلب العاصفة يوجد مكان للهدوء المركزي . . الهدوء النفسي الداخلي . . فعندما تبدأ اليوم بهدوء وتنتهي بهدوء فان كل نشاط يقوم به الفرد يقع في هذه الفترة . . في الوسط بين نقطتين تقعان تحت سيطرة القوة الذاتية المنظمة لاشعوريا فيخرج الانسان من ميدان العمل بلا معركة ليدخل قاعات البيت بلا معركة ليستقبل لذة النوم بلا معركة . . وهذه المعارك الثلاث هي في الاصل المقصات والمناشير التي تنهش في قاع اللحم وتنخر في نخاع العظم . . الحرب المفروضة يوميا وعلى مدار السنة . . وبعض الناس يضيف اليها معارك مستحدثة في التوتر الموسمي في الاجازات والتي تعني في الاصل البحث عن الاسترخاء بعيدا عن أجواء التوتر العصبي في المباريات اليومية الثلاث فتصبح الأجازة مهمة عمل شاقة ومضنية والعودة منها مصادمة مستمرة لترتيب الاشياء وتصحيح الأخطاء فيكون السفر والعودة رحلة تخريب في البداية وفريضة ترتيب في النهاية وعودة الى نقطة البداية للانطلاق من جديد في الاتجاه الصحيح بصورة أشبه بالسفر مرتين في رحلة واحدة .

خطر التوتر: ان التوتر الداخلي هو أطراف المقصات وأسنان المناشير التي تعمل في الداخل والخارج في كل الاصعدة الثلاثة لهيكل الانسان . . الجسد . . الذهن . . الروح . . فتنزف الاعضاء وتعتصر الامعاء . . وتلف الانسجة وتتصلب الشرايين ويتساقط الشعر . . ويتجدد الوجه . . وترهل الجفون وينطفئ البريق عند الانسان . . فيتهالك ويتداعى ويشيخ في سن مبكرة .

ان التوتر هو العدو الاول الذي يجعلنا نتعجل الأمور . . هو الذي يغذي دماغنا بالأفكار الخاطئة التي تصور لنا الآخرين «ديناصورات» تهدد وجودنا . . هو الذي يجعل عقولنا «رادارا» معطوبا يصدر اشارات مغلوطة مشوشة تضلل الآخرين فتجعل ردود أفعالهم مغايرة لتصوراتنا . . هو الذي يدخلنا في دوامة الاحساس بفقدان الأمن المتمثل في الشعور بالكبرياء والهوى . . الاحساس المتعاطف بأننا وحدنا نعرف الطريقة المثلى والوسيلة الفضلى للوصول الى الحقيقة وهذا يجعلنا في مواجهة عدوانية مع الآخرين الذين يسرون في نفس الاتجاه السلطوي فنصطدم بهم ، أو الذين يسرون في اتجاه مغاير فنبتعد عنهم ، وفي كل الحالات يزداد التوتر في الداخل طالما كان كل واحد منا يتصور نفسه عنصرا أساسيا في اللعبة وليس جزءا مكملا للفريق الواحد .

ان النجاح في الحياة يتطلب اطلالة على الجهات الأربع في حياة الانسان . . الاولى تجعل الحياة هادفة معطاءة . . والثانية تجعل الحياة امتدادا تطبيقيا بوجود الآخرين لا انسلاخا أنانيا منه ، والثالثة تعطي الحياة بعدا انسانيا يؤكد كينوتتها العقلانية الواعية ، والرابعة تؤكد للانسان ايمانه بأن النجاح صنع دائما من الفشل ، وأن السعادة تأتي دائما بعد المحنة .

وقديما قال العالم الصيني المشهور كونفوشيوس : (ان توقد شمعة خير من أن تلعن الظلام) وهذا أجمل الكلام .

الفصل التاسع

(سباحة ضد التيار)

- المعادلة الصعبة
- المصعد والدرج
- الايقاع والصدى
- قلبي على ولدي

المعادلة الصعبة

قال تعالى ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ . . سورة النساء (آية ٣٤) فقد كان أهل الجاهلية يدفنون بناتهم أحياء مخافة الفقر والعار لأن البنت كانت عاجزة عن منافسة الرجل في كسب مادة الحياة فأصبحت عبئا على والدها فيقوم بقتلها حتى نزلت الآية الكريمة ﴿وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت﴾ . . سورة التكوير (آية ٩) وقد روى البخارى عن رسول الله ﷺ (ان الله حرّم عليكم عقوق الأمهات ووآد البنات) صدق رسول الله الكريم .

وبعد ظهور الاسلام ووضوح رسالته في حقوق المرأة على الرجل في الزواج حتى تستأذن وفي النفقة حتى ترضى مع وجوب الطاعة له في غير معصية ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ . . فالرجل في معادلة القوامة على المرأة هو الراعي المسئول عن الرعية، والمسئولية الأسرية تعتبر من تمام قوامية الرجل على المرأة وشروطها عديدة وأولها حسن المعاشرة والاعتدال في الانفاق ورجاحة العقل، ومن صفات حسن المعاشرة كمال الأخلاق ﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾ . . ومن صفات الاعتدال في الانفاق ضرورة الكسب الحلال (لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس اعطوه أو منعه)، ومن صفات رجاحة العقل نعمة العلم ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ . . صدق الله العظيم .

ويقول علماء الانثروبولوجيا ان ديناميكية العلاقة بين الذكر والانثى في عالم الحيوان والانسان في كل الاجناس والسلالات تقوم على غريزة السيطرة (DOMINANCE) ليس فقط بين الذكر والانثى في نفس الجماعة بل بين الذكر

وغريمه في نفس المملكة . . فغريزة الاحتواء والامتلاك لدى الذكر من الدوافع الاولى في تركيبة الهيكل الاجتماعي للعلاقات أو الهرم السلطوي في المجتمع ، وغريزة الخنوع (SUBMISSION) وعشق الذات وطلب الحماية هي بعض الدوافع اللاشعورية في قبول الانثى للدور الثانوي في أي تشكيلة اجتماعية يكون الذكر طرفا فيها لأنه يوفر لها هذه العناصر وفي التجمعات التي يفقد فيها الذكر القدرة على القيام بهذا الدور تجنح الانثى الى تقمص روح القائد للجماعة وتكون أكثر شراسة وأشد قوة وصلابة حتى ينقلب الهرم القيادي .

ويقول علماء النفس ان العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة تكاملية منذ اعتماد الطفل على أمه ذكرا أو أنثى الى اعتماد الرجل على المرأة ابنا أو زوجا . . والمرأة تعشق صفات التفوق في الرجل . . وتقدر في أعماقها وداخل قراره نفسها معاني القوة في شتى أشكالها وتجرب وتمتحن هذه الصفات في مجال الاحتكاك أمأً أو زوجة أو شريكة وفي محاولة الامتلاك سلما أو حربا ، وعندما تضعف ارادة الرجل تعمد الى السيطرة والانتهاك ، ولا تتم هذه العمليات بوعي كامل أو بارادة شريرة ظاهرة أو بنية خبيثة خفية للامتلاك أو الاحتكاك أو الانتهاك وانما بدافع لاشعوري لاشباع رغبات غريزية تتمثل في احساس داخلي بفراغ نفسي يبحث عن الامتلاء وضعف عاطفي يطلب الحماية ولذة جنوح طفولي يفتقر الى السيطرة الداخلية ويبحث عن اللجام الخارجي لكبح جماح رغبة الانتقام للاغفال البريء أو الالهال المتعمد ، وهذه النظرة التحليلية لا تجيب على تساؤلات أكثر تعقيدا مثل دور التنشئة في تغيير أو تبديل الغرائز والدوافع الأولية أو خصوصية العلاقة بين الرجل والمرأة في كل مجال منفصل كأم . . كزوجة . . كزميلة . . كمعلمة . . كسيدة مجتمع أو رئيسة حكومة ، وتدخل في صلب معركة الوراثة والبيئة المعقدة .

ويقول علماء الاجتماع ان المرأة نصف المجتمع رفض الرجل أم قبل . . شارك في صنع هذا الواقع أم عزف عن المشاركة حتى لو اضطر الأمر أن يأكل التفاحة التي أخرجت آدم من الجنة ويرتكب الخطيئة مرتين . . ومن خلال النظريات الاجتماعية استطاعت المرأة أن تحتل المكان المناسب في المجتمع وتبلور حقوقها

الدينية والزوجية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وقد نجحت الى حد كبير في تأكيد معاني المساواة بين كفتي الميزان وأصبح شعار (حقوق المرأة) قضية اجتماعية أحدثت تغييرا كبيرا في العلاقات الانسانية وخرجت المرأة الى ميدان العمل وشاركت الرجل في صنع أشكال الحياة المختلفة في مقاعد التعليم وشواغر الوظيفة ومناصفة المسئولية العائلية والمناصب السياسية . . والى هنا كان هذا الحد من الاحتكاك كافيا لإثبات جدارة المرأة مع الاحتفاظ بسلامة معادلة قوامه الرجل عليها . . معادلة قائمة على أساس تفوق الرجل الذي تهبأ لهذا الدور بتفويض الهي حتى بدأ اهتزاز المعادلة عندما بدأ الرجل يفقد بعض عناصر التفوق في فضل الرعاية وأفضلية الانفاق وألوية التعليم وأصبح دور المرأة لا يختصر فقط على ما هيأها الله لها من الانفراد بقدرات الحمل والولادة والرضاعة والتربية بل شاركت في أعباء الرجل وابتدأ المد في الانسحاب وتخلي الرجل عن بعض مسئولياته وريدارويدا، وكان لا بد أن يمتلىء الفراغ فبادرت المرأة الى ملء الفراغ بغريزة الاستحواذ المتعطشة الى الشعور، بالتفوق . . وعندما تمتلك المرأة شيئا فانها لا تفرط فيه ماديا أو معنويا . . كاحساس الأقلية المضطهدة في مناهضة الظلم فعندما تملك حق الحرية فخيرها الوحيد الحفاظ عليه أو الموت دونه . . وفي ظل هذه الغفلة من الطرفين انصرف الرجل الى جمع الثروات واكتفى بامتلاك المال فملك قلبه وعقله بحجة توفير حياة أفضل للزوجة والاطفال وهذه غاية نبيلة في حد ذاتها ولكن في غياب غايات أخرى تفقد غايته الهدف منها خاصة عندما تشعر المرأة بالحرمان من حق الرعاية وفقدان الحماية وضعف الوصايا وأهم سماتها الحضور الحسي والمعنوي في قلب وعقل المرأة .

ان من أبرز أسباب تفوق المرأة على الرجل ومن أكبر دلائل هذه الظاهرة تفوق البنات على الاولاد في الدراسة . . ولم يعد هذا انطبعا عفويا أو ملاحظة عابرة وانما تقرير حقيقة ومادة احصاء في معظم الدول العربية . . ولعلها ظاهرة (شرق أوسطية) عبر عنها أحد الكتاب الساخرين بانشغال الرجل بالحروب الأهلية والمحلية والأقليمية والصراعات الدولية المحيطة بالمنطقة تستوي فيها الدول الغنية والفقيرة والقديمة والحديثة ولو صدق ظني فان رياحها بدأت تهب

من خارج نطاق الوطن العربي ولكن يعوزني الحديث بلغة الأرقام . . ويقول محلل سياسي عربي معروف ان من أكبر أخطار انتشار المخدرات بصورة وبائية هو صرف وتعطيل طاقات الشباب في الدراسة والتعليم واضعاف البنية الاساسية في التركيبة الاجتماعية لدول المنطقة في المواجهة، ولكن هل القضايا الوطنية وقف على الاولاد دون البنات في الوقت الحاضر؟ والاجابة ان الظاهرة بدأت تتسرب وسط البنات بصورة نسبية متفاوتة تسجلها وقائع مؤتمرات الطب النفسي الأخيرة في القاهرة والأردن في العامين الماضيين .

ان المؤسف حقا ان هناك اتجاهها خطيرا يأخذ طابع الظاهرة المرضية تستر تحت شتى الشعارات هادفا الى التقليل من قيمة العلم واضعاف دافعية التعليم لدى مجتمعاتنا، وقد تفشى وسط الشباب شعور بالاحباط من العائد الوظيفي أو التعويض المهني وكأن التعليم وسيلة لثروة فقط وفي غياب تحقيق هذه الغاية تنتفي أي أهمية للعلم . وبعدها كان هذا التفكير لا يتعدى الهمس بالشفاه بين فئة المتسربين من مقاعد الدراسة تسلل هذا الكابوس الى نفوس انصاف المتعلمين وتمكن هذا الداء من عقول الفئة المؤمل فيها والمعتمد عليها فأصبح كثير من الطلاب يلهثون خلف الثانوية العامة للبحث عن وظيفة ينالون منها الاجر الذي يؤمن لهم احتياجاتهم الآنية في الملابس وتزجية الفراغ والسفر الى الخارج، ويغض بعض الآباء الطرف خشية الالتزامات المادية والمعيشية وهو الجانب المقابل لوأد البنات في الجاهلية الاولى .

وفي ظروف هذا الفراغ وطبيعا فان المرأة عندما تجد الفرصة مواتية ملء فراغ أحدثته ظروف عجز الرجل في البيت أو المجتمع فانها تستحوذ على كل منافذه حتى لو كانت في حجم ثقب الابرة وكانت النتيجة هذا التفوق الكمي والنوعي المذهل والمشرف في مجالات التعليم والعمل الوظيفي والاجتماعي . ان أي انسان - رجلا كان أو امرأة - يملك قدرا ضئيلا من الغيرة على مستقبل بلاده لا بد وأن يحس بسعادة غامرة وهو يرى مجتمعه سليما معافي يقف على قدمين ولكنه لا يستطيع أن يخفي خوفه الداخلي من ملاحظة الضعف والهزال في احدى هاتين

القدمين خاصة اذا كانت القدم الفاعلة والمؤثرة في حركته أو (المهيمنة) بالمفهوم العلمي لوظيفتها حسب تركيب الجهاز العصبي عند الرجل أو المرأة ودون الحكم الخلفي في المساواة أو الظلم ويتساوى في هذا الاحساس الرجل العاقل الذي يؤمن حقا أن عبارة (أعمال حرة) التي تتداولها السنة خريجي الثانوية العامة الأذكياء الكسالى ما هي - في كثير من الاحيان - إلا المسمى الوظيفي لمن لا وظيفة له ويتساوى في هذا الاحساس المرأة العاقلة التي تدرك في قرارة نفسها ان قلب المرأة الحقيقي يتعلق بالرجل المتفوق عليها في كل الأصعدة لا المتساوي معها في كل الامتيازات أو المدرج تحتها في السلم الوظيفي أو الاجتماعي مهما كان نوع المساحيق وكمية الطلاء الذي يصبغ شكل هذه العلاقة . . والله أعلم!

المصعد . . والدرج

قال المفكر الاغريقي الشهير اخيلوس : « ان البشر لا يشبعون مطلقا من النجاح » ، فاذا كان النجاح مرادفا أو مقابلا للسعادة ، فانهم يظلون في ظمأ مستمر مهما رشفوا من ينابيع السعادة ، وهذا يفسر سر كفاحهم المتصل من الميلاد الى الممات . . فلا النجاح يمثل خاتمة المطاف ، ولا السعادة تعني غاية المنى .

وكثيرا ما يقال « ان الميل يبدأ بخطوة » وهذه حقيقة أشبه بقدرح زناد الثقة ، وتهيئة المناخ النفسي في بداية المرحلة ، ولكن في نهاية الميل الاول يكون لكل مقام مقال ، حيث تبدأ رحلة الميل الثاني بخطوة أخرى في نفس الاتجاه ، أو في اتجاه آخر يؤدي الى غاية مختلفة ، وكثيرا ما يقال « ان الوصول الى القمة سهل ، ولكن الصعوبة في البقاء عليها » وهذا تفكير اجتراري يحتاج الى مراجعة ، فاذا كانت القمة تعني النجاح ، أو ترمز للسعادة فالواقع يؤكد ان الوصول الى النجاح صعب للغاية ، ولكن الذي استسهل الوصول الى القمة ، لا بد أن يكون قد استحدث وسائل خاصة به ، دونها الطرق الوعرة والمسالك الخطرة ، ولكن عندما طاب له المقام فيها ، واجه مشكلة التكيف معها ، وفكرة البقاء للأصلح ، وان الغاية لا تبرر الوسيلة ، ففكر وقدر ، ثم نظر ثم قرر ان البقاء في القمة يحتاج الى قدرات خارقة في سبيل الوصول الى العلى كما قال المتنبي في وداع سيف الدولة في رحلته الى انطاكية :

في سبيل العلى قتالك والسلم وهذا المقام والاقدام . . .
ليت أنا اذا ارتحلت لك الخيل وأنا اذا نزلت الخيام . . .
كل يوم لك احتمال جديد يسير للمجد فيه مقام . . .
وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام . . .

وقد أكد على هذا المعنى ، أبوالعلاء فيلسوف المعرفة ، رهين المحسنيين ، واحد أئمة الزهد في متاع الحياة حين استعجب من الطامعين في المجد والصعود للقمة بما فيها من مشقة وتعب على النفس قائلًا :

خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد
تعب كلها الحياة فما أعجب الا من راغب في ازدياد
كذلك يبدو من أصعب الأمور في الحياة الوصول الى القمة ، وتحقيق
النجاح وبقدر ما كانت الوسيلة صعبة أو سهلة بقدر ما كان البقاء عليها ، أو
السقوط منها ، وهكذا :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وهذا نوع الفارق بين الصعود الى القمة «بالمصعد أو الدرج» في قاموسنا
المعاصر .

ان عصرنا الحاضر اختزل المسافات واختصر الزمن ، وغير خريطة الزمان ،
والمكان ، ويبدو ان الانسان المعاصر كان أول ضحايا هذه التغييرات الحضارية ،
فأصبح يعاني من اختلال «الأنا» أشبه بحالة فقدان الوزن نتيجة خروجه من
منطقة الجاذبية بانطلاقه الصاروخي من منصات الاقلاع المتعددة التي نصبها
طموحه المدمر ، فأصبحت مأساة «شالنجر» تتكرر عشرات المرات دون الاعلان
عنها كحالة طوارئ لأنها أصبحت انماط الحياة التي يعيش فيها الأفراد
والجماعات .

ان هذا السلوك المبكر في الخروج والدخول من منطقة الجاذبية خلق دافعية
جديدة لدى شريحة كبيرة من المجتمع في ارتياد المستحيل ، وكسر حواجز الوصول
الى القمة بأي وسيلة ، فأصبحت الغاية تبرر الوسيلة ، وانسلخ البعض من
جلدتهم حتى تكتسب بشرتهم اللون المناسب الذي يؤهلهم للقيام بالدور الجديد
الذي يناسب متطلبات البقاء في القمة ، ولذلك فقد أصبحت من أكبر أزمات هذا
العصر الرغبة القهرية في تحقيق كل شيء عند بعض الناس ، في اختصار مسلسل

العمر في حلقة واحدة يتحقق فيها الحلم ، ويسدل الستار حتى أصبح الفرد لا يفرغ من مطلب إلا وتعلقت عيناه بأطراف مطلب آخر، كما قال المتنبي :
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

ان أكثر ما يسلب الانسان طمأنينته ومحرمه نعمة الاستمتاع بحياته انه كلما أصاب نجاحا في مجال حياته ، يمم وجهه شطر مجال آخر، وكلما صعد درجة في سلم الحياة، نازعته نفسه للصعود درجات أخرى، دون تقدير، وبلا حساب، وبما أن مستلزمات العصر الحديث، أوجدت المصعد الكهربائي الذي يختصر الطريق الى الطوابق العليا، فقد شطب الانسان من ذاكرته وجود الدرج التقليدي الذي يقوده الى وحدته السكنية، ومن خلال الاحساس المضني بالسباق مع الزمن، يرى في تعطيل المصعد تهديدا لأمنه واهدارا لوقته المشحون بالمتطلبات الحياتية التي تنتظر التنفيذ، فأصبح الخط البياني يتخذ شكلا أفقيا نحو الصعود الى أعلى . . الى ما لا نهاية . . حيث تتحدد الغايات لحظة الوصول، الواحدة تلو الأخرى، فأصبحت حياة الانسان مجموعة أهداف، تتجدد كالحلايا الاميبية أو الطفيليات الدقيقة . . وقد فقد الفرد الهدوء النفسي والاستقرار الروحي والأمن العاطفي الذي يجعل احراز أي كسب لحظة سعادة متصلة بفرح الكفاح اليها، موصولة بلذة العيش فيها، محطة وقوف في مسيرة مضنية يشعر فيها الفرد بأنه استطاع ان ينجز شيئا في حياته، حتى أصبح الفرد في هذه الحلقة المفرغة لا يعرف بالتحديد ماذا يريد، فالدخول من الباب الدوار يفضي الى كل الاتجاهات، مما جعل حياة الفرد أشبه بالمتاهة، يتحرك فيها بلا هدف محدد، رغم الدوافع المتعددة التي تؤكد وجود هدف داخل هذا الخلط الذهني الذي يسلب الفرد صفاء الرؤية ووضوح الهدف .

ان المصعد لم يصبح تلك الضرورة الحضارية التي تختصر الزمن عندما تنقلنا في ثوان من مدخل البناية الى أعلى طابق فيها فقط . ولكنه أصبح يمثل الرمز للسلوك الانساني الجديد الذي يختصر طريق الوصول الى الاهداف المبرمجة بالعقل الالكتروني الموجود داخل عقل الفرد، ولذلك أصبح الفرد يعيش صراعا

حضاريا ونفسيا في التعامل مع الدرج، فأصبح حضاريا، يعتبر الدرج مجرد «مخرج طوارئ» في حالة حدوث أزمة انقطاع تيار كهربائي أو تعطيل المصعد، وفي هذا تزييف للواقع، وطمس للحقائق، واستبدال الصورة بالأصل، فأصبح استعمال الدرج يعني هبوطا اضطراريا نتيجة ظروف غير طبيعية، لأننا نعيش أزمة وقت حقيقية وأزمة تعايش سلمية مفتعلة، لأن المصعد والدرج يخدمان هدفا واحدا رغم اختلاف الاستعمال، وقد يكون الصعود بالدرج أكثر مشقة، ولكن النزول اليه قد يصبح ضرورة حياتية في حالة الطوارئ أو تعطيل المصعد.

أما نفسيا، فإن هذا النمط الحضاري أفسد عقلية الفرد، ليس فقط في عمليتي الصعود والهبوط الى الاماكن المرتفعة والقمم العالية فقط، وانما في النظرة العملية الى تحقيق أهداف الحياة، عن طريق القفز بالزانة على رءوس الآخرين المعلقة أرزاقهم على حبل الصبر الطويل، أو المشي بالاقدام المخففة على جماجم الساقطين من قمم الاحلام الهلامية التي أصبح البقاء فيها كالجولوس على فوهة بركان متفجرة وهذه بعض وجوه مأساة الوصول الى القمة، حين يصبح البقاء عليهما مرتبطين بقدر الانسان لا بقدرته، ورهينا بطبيعة الظروف القاهرة، لا بتوقيت العقول المغامرة.

ان القلق النفسي هو عدو الانسان الاول في هذا العصر، وهو عادة لا يمكن التخلص منها إلا باحلال عادة بديلة لها، وأفضل منها، وليس أفضل للانسان من أن يتعلم عادة استعمال المصعد والدرج بلا خوف حسب حاجته وقدر طاقته لبلوغ غايته. . ان الطفل الذي يخاف رفع اقدمه الى أعلى لن يتعلم المشي، والآخر الذي يبدأ بالجري يسقط على وجهه، وفي النهاية كلاهما لا يحقق الهدف المنشود. . ونفس الشيء خطوة - خطوة سوف يصل مهما طالت المسافة والزمن، ومن سار على الدرب وصل. . والذي يقفز فوق الحواجز بلا رؤية ولا روية، يسقط، وقد يصعب عليه مواصلة المشوار ويفوته الآخرون، لأنه لم يحسن تقدير المسافة وسرعة الخطى وقدر طاقته، فقد قال تعالى: ﴿ورفعنا بعضكم فوق

بعض درجات ﴿ . . . صدق الله العظيم .

وهكذا يتعلم ان صعوبة الصعود بالدرج تصاحبها وتعاونها لذة النزول عليه عند الضرورة، وان السقوط من الدرج أقل خطورة من السقوط بالمصعد، وفي النهاية نعرف ان الفارق بين المصعد والدرج هو وسيلة حضارية للوصول الى هدف محدد، وليس غاية فلسفية في اكتساب سلوك انساني في مجال المعاملات .

واعظم الدروس في قصة المصعد والدرج تصوير الحياة في ملحمة كفاح مستمر، ولذة المعاناة في تحقيق الاهداف من خلال التخطيط المنظم للوسائل المتاحة للوصول الى الاهداف المرسومة، وان اسلوب القفز بالزانة أو الهبوط بالمنطاد لاختزال الزمن أو اختصار المشوار اذا نجح عشرات المرات فقد يفشل مرة واحدة، ويكون أشبه في السقوط بالمصعد وحدث كارثة ليست أقل خطورة من انفجار «شالنجر» على المستوى الفردي والجماعي .

ان للصعود الى القمة قدرات عامة وخاصة، فاذا توفرت الاولى، فلا بد من توظيف الثانية بصورة متميزة قبل بداية الانطلاق . . . والثابت والصحيح ان الصعود الى القمة صعب، والبقاء عليها أكثر صعوبة، لأن السقوط منها ليس له قاع، وان كل شيء يتعب الانسان في الوصول اليه يشقى كثيرا في الحفاظ عليه .

الايقاع . . والصدى

ان في الحياة جملة ايقاعات تعزف على شتى الآلات وكلما كانت النغمات متجانسة ذات هارمونية منسجمة أحدثت صدى ممتعا يشبه سيمفونية السعادة وكلما كانت خليطا متنافرا جلبت صوتا نشاذا يقطع نياط القلوب وينبعث كسياط الأسى من ربابة الحزن . . وبعض الايقاعات لا يعبر عنها صدى الصوت المنبعث من قلب الآلة لأن صدى الصوت لا يتوقف فقط على درجة السعة والذبذبة وانما طول المسافة التي يسافر اليها ويرجع منها فيحدث رد الفعل المشابه أو المغاير . . الانسجام أو النشاذ . . السعادة أو الحزن .

إذن هناك ثلاثة عوامل تتحكم في ايقاعات الحياة . . ضرورة حدوث الايقاع ومداه الزمني القياسي وحتمية التغيير المعبر في شكل الصدى . . ان الايقاع قد يحدث في فكر الانسان أو سلوكه أو سمات شخصيته والمدى الزمني يتمثل في أبعاد التجربة وعملية النضج والصدى أحد أشكال التغيير الحتمي في كل هذه الصفات . . والتغيير يحدث طواعية أو اكراها اراديا ولا اراديا . . رغبة ورهبة . . الزاما أو التزاما بقوله تعالى ﴿ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ . . وتغيير النفس أو تجديد الذات لا يتم إلا من خلال الثواب والثواب اما أن تكون إلهية أو وضعية . . فالثواب الالهية هي أعمدة حركة الحياة . . فالحياة تتحرك من خلال هذه الثواب الایمانية . . ولكن الثواب الوضعية هي القابلة للتغيير والتبديل في كل زمان ومكان والثابت والصحيح ان التغيير يكون دائما وأبدا الى الافضل في كل أصعدته الفكرية والسلوكية والشخصية في الحالات الطبيعية والسوية اما تعطيل التغيير أو انحرافه الى الأسوأ فهذا الشاذ لا القاعدة والحياة تقوم على قاعدة السواء .

ومثلما يتغير الانسان من الطفولة الى الكهولة . . . ويتبدل النهار الى الليل ويتغير ظلام الليل الى ضوء النهار فهكذا تتغير الثوابت الالهية لكي تستمر دورة الحياة وتكتمل من خلال هذه الحركة اما تغيير الثوابت الوضعية فيتمثل في تغيير الايقاع وتبديل المدى الزمني واختلاف الصدى في الانسان . . . ويقولون : ان الايقاع صدى الذات فتنوع الصدى يدل على نوعية الذات وبالضرورة اذا تغير الايقاع شدة أو ضعفا كان الصدى مماثلا . . . يتغير فقط من خلال المدى الزمني والمسافة التي تفصل ما بين الفعل ورد الفعل أو المثير والاستجابة وهذه لها قوانين تحكمها وعوامل تؤثر فيها وتتأثر بها .

فالايقاع يحدث في فكر الانسان فيتحول من شدة التعلق بمبدأ الى حدة التفريط في أمر ولا يحدث هذا من فراغ ولكنه من خلال التجربة العملية والممارسة الفعلية مع توظيف كل القدرات العقلية والطاقات العاطفية من أجل حدوث ذلك الصدى . . . ولادة التغيير . . . تحقيق الضرورة الحياتية في كل المجالات المادية والمعنوية لدى الفرد والجماعة . ان الرغبة في الانتماء الى جماعة يتحقق من خلال كينونة الفرد أو الارتباط بفكرة يستهدف من تحقيقها بناء الانسان أو التمسك بسلوك يوظف لخدمة قضايا الجماعة أو التقمص لشخصية يتجسد فيها معاني الخير والمحبة كل هذه الايقاعات لها أصداء في الواقع . وهذه الاصداء جاءت وليدة التغيير والتحوير والتبديل حتى تحقق الهدف المنشود .

فالانسان الذي يغير انتماءه الى جماعة من خلال تجربة معايشة صادقة وحرية اختيار كاملة أو يبدل سلوكه الخاص نتيجة ممارسة عقلانية واعية وليدة النضج أو يحوّر سمات شخصيته لكي تتلاءم مع طبيعة التغيير الذي يشمل كل مناشط الحياة سيكون قد أحدث الصدى الأمثل لطبيعة الايقاع الافضل طالما كان هذا التغيير خطوة الى الافضل بكل المعايير والقيم الانسانية الجميلة ولا يُعيب الفرد أن ينظر الى الوراء في لحظة محاسبة للنفس بقدر ما يتطلع الى الامام في وقفة تقويم للقدرات فاذا كان الرجوع الى الحق فضيلة . . . فالرجوع هنا ليس ردة فكرية أو نكوصا بالعهد وانما عودة الى دائرة الوعي من خلال رحلة عمل وأعمال للذهن

أشبه بوقفه المجاهد وتوبة العابد يقول تعالى في حديث قدسي : «يا عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم» وللتوبة شروط كما للوقفه مناسك يشرحها الامام النووي في كتابه (رياض الصالحين) فيقول : قال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب فاذا كانت المعصية بين العبد وربّه لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط أولا أن يقلع عن المعصية وثانيا أن يندم على فعلها وثالثا أن يعزم على ألا يعود اليها أبدا واذا كانت المعصية تتعلق بآدمي فلها شرط رابع وهو أن يبرأ من حق صاحبها فان كانت مالا أو نحوه رده اليه إن كانت حد قذف ونحوه مكّنّه منه أو طلب عفوه وإن كان غيبه استحلّه منها . فالنزوع الى التغيير وسيلة مشروعة لغايات سامية طالما كان لا يلبس لكل حالة لبوسها ولكنه فعل صادر عن قلب عامر وعقل قادر يتأصل ويتجدد في المعاملات والعلاقات من منطلق ايقاعات سوية صافية من شوائب التدليس والغرض .

ان أكثر ما يفسد ايقاعات الحياة جمود القوالب التي يصب الناس فيها قناعاتهم فيتصرون الوقوف ضد حركات التغيير يعبر عن قوة المبدأ وسلامة التفكير وبالتالي يرفضون تغيير مواقفهم الخاصة شأن الذين تأخذهم العزة بالانتماء . . حقيقة ان الانسان لا يمكن أن يتحول من موقف الخير الى الشر بدعوى ضرورة التغيير ولا من موقف الحب والجمال الى الحقد والكراهية بحجة حرية الرأي والتعبير ولكنه يمكن أن يتحول من المغالاة العمياء في فرض منظور فضائله على الآخرين اذا ثبت من خلال التجربة وبرهان الممارسة ان الوصول الى طريق الفضيلة لا يعني بالضرورة ان يتم من خلال هذا المنظور وهذه بعض الثغرات العديدة في صراع الأجيال عندما يكون الفارق بين روح المغامرة عند الشباب وبعد الرؤية وحكمة التروي عند الكبار هو المعيار الوحيد بين الحق والباطل . . الأمانة والخيانة . . أو الجبن والشجاعة وحقا :

الرأي قبل شجاعة الفرسان هو أول وهي المكان الثاني

فالرأي هنا موقف . . فكر انسان يخضع للتغيير تحت تأثير الجماعة من خلال المعاصرة والمناظرة التي دائما ما يكون صداها :

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

ورأي الفرد هو أول الايقاعات التي تستوجب المصالحة لتكون حصيلة التجربة صدى واقعياً يعكس الاستفادة من الخبرة والتجربة والعمر والنضج وإزدياد المعرفة . . فالانسان الفرد السوي هو مشروع فكرة في الوجود يتعامل في هيئة شخصية . . يتبلور في شكل رأي . . يتحرك في قالب سلوك يقول عنه العالم الفيلسوف ديكارت (أنا أفكر . . اذن أنا موجود . .) وهي صيغة تعبيرية مختلفة تقرر ان التفكير هو ضرورة حياة وعنوان وجود ولأن الانسان لا يتغير بين غمضة عين وانتباهتها متجاوزا عامل المدى الزمني فانه لا يتسم بالثبات المطلق أو الجمود المتحجر في كل مواقف حياته لأن هذا ضد مبدأ التلاقح الفكري والتواصل الثقافي والتكافل الانساني وضد طبيعة الاشياء .

حقيقة ان الانسان لا يتغير من فكرة الى أخرى بلا مبرر موضوعي ولكنه يتطور الى الافضل وهذا أجمل وجوه التعبير . . اذا كانت الفكرة استراتيجية مثل الحق والباطل . . والخطأ والصواب فان التطور يكون في تطوير الوسيلة أو التكتيك لتحقيق أهداف الفكرة من مرحلة الى أخرى ومن جماعة الى أخرى ومن ميدان الى آخر.

ان المقاتل الذي ينتقل من خندق مكشوف الى خلف المتاريس محاولا الوصول الى الهدف بالدخول في خندق محصن لا يعني انه تخلى عن فكرة الموت من أجل القضية ولكنه تطور في أسلوب القتال من خلال اختراقه المدروس لخريطة ميدان المعركة وهذا لا يتم إلا من خلال التدريب المتصل والمكثف على مدار سنوات طويلة ومن هنا تتفاعل العوامل الثلاثة فعنصر القتال هو الايقاع وعنصر التدريب هو المدى الزمني وعنصر النصر أو الهزيمة هو الصدى . . وعندما يتجانس الايقاع ينساب الصدى في (أغنية النصر) وعندما يتنافر الايقاع ينشز الصدى في (موال الهزيمة) وبما أن طبيعة الحياة تقتضي أن تكون العلاقة بين التجربة المتمثلة والواقع المعاش علاقة ازدواجية وليست قطعية بين السبب والنتيجة فانه لا يعقل أن يتوقع الانسان النصر في كل معركة أو يقبل الهزيمة في كل

صراع ولكننا اذا سلمنا بضرورة التغيير دون اخلال بمفهومنا لحركة الحياة واذا أدركنا ان المنطق يدير معركة التغيير دائماً الى الأفضل فإننا لا بد أن نتنصر للخير في كل معركة وأن ندافع عن الحق في كل صراع حتى يكون لكل الايقاعات الجميلة في الحياة أصداء أكثر روعة وجمالاً في الوجود .

قلبي على ولدي

ان من أقسى لحظات التوتر عند الانسان (قلق الانتظار) . لحظة الوقوف على حد السكين في نار الترقب وهب التشوق واستشراق المجهول . ان الانتظار يعني ربط الوقت المحدود على أوتار العصب المشدود وتجميد الحركة الدائبة في اطار الزمن الثابت وتثبيت عقارب الساعة حتى حلول موعد ولادة لحظة الانتظار . والذي عاش هذه التجربة في سبيل تحقيق أمنية مربوطة بميقات أو ولادة طفل قادم في موعد أو ملاقة صديق في مكان أو وصول طائرة في زمان لا بد أن يجتر شريط الذاكرة ليشعر بمראה (قلق الانتظار) .

وبين كل أشكال القلق التي يمر بها الانسان وقد يتبدل في كل مرحلة وقد يتكرر مرات في العمر وقد يحدث مرة واحدة في الحياة . فإن قلق الانتظار المرتبط بمصير الاطفال يبقى الهاجس المسيطر على الارواح والوجدان والمحرك للقلوب والعقول والحدث الكامن في أعماق ذاكرة الوالدين منذ لحظة انتظار حدوث الحمل . . وحدث الولادة . . ووقع الخطى في مسيرة النمو بداية بدخول الروضة حتى التخرج من الجامعة ورحلة الزواج والحصول على وظيفة حتى اعلان بيعته وريثا شرعيا يحمل الاسم ويستلم الراية .

وفي كثير من الاحوال لن تكون تلك المحطة الأخيرة في قلق الانتظار بل قد يظل القلب متعلقا بالولد حتى يفارق الحياة ويبقى تركة في أمانة الوريث الصالح الذي يدعوله ويقبل منه الدعاء، وهذا قمة النجاح وغاية المنى .

ان خصوصية هذه العلاقة الأزلية وروعة هذه الصورة الوالدية هما السر الأعظم في استمرارية الحياة، ليس في الحفاظ على النسل البشري في طبيعته البيولوجية بل الامتداد الروحي لعاطفة الأمومة والأبوة . . العاطفة الوحيدة في دنيا

الانفعالات التي لا يعترها الفتور ولا يصيبها الوهن ، ولا تتأثر جذريا بعوامل الاحباط فهي الشعلة التي لا تنطفىء تستمد وقودها من روح جيل الى اخر من دفء العلاقات الانسانية التي تربط بين الناس في أسمى صورها . . علاقة الوالدين . . مصدر الأخذ بلا عطاء . . والبذل بلا مقابل والتضحية دون انتظار عائد . . واذا كان لكل قاعدة شواذ . . فالقلة الشاذة في كل الدراسات المقننة بعوامل الصدق والثبات في مجموعات ضابطة أو «عينات» عشوائية تؤكد ان هذه العلاقة الوالدية هي المحك الحقيقي لمصادقية كل النظريات النفسية بداية بنظريات سيجموند فرويد التحليلية الى التجريبية التي بدأت منذ انشاء أول معمل علم نفس تجريبي للعالم الالماني فندت في المانيا عام ١٨٧٩م .

ان قلب الوالد (رمز الوالدية) يظل معلقا بالولد (رمز الذرية) منذ الاحساس الأول لدى الانسان بمشاعر الرجولة وغريزة الأمومة . . حين يلعب الطفل بدميته يتحدث اليها ويغدق عليها من شلالات الحنان الدافق من كل أركان البيت ويحتضنها وينام معها ويبشها أحلامه ، حين تبدأ رحلة الفطام النفسي من حضن والديه بعد أن ارتوى عطاء يحاول أن يعطي في أول محاولة لمعرفة البدائل وضرورة العطاء بلا مقابل . . للدمية اللعبة فيعمم هذا الاحساس الخاص الى شعور عام تجاه الأخوة والأخريين .

فاذا أردت أن تختبر أو تقيس أبوة رجل أو أمومة امرأة فانظر اليها في مجال العلاقات بالاطفال وهو وجه الاسقاط الوحيد الذي يخلو من دلالة المرض . . حين يستوعبه الموقف وتستحوذ عليه عاطفة الأسرة . . وهي الخيط العنكبوتي الذي يلتف حول عنقه وقدميه فير بظه بيته ويلزمه بأسرته ، ولذلك يقولون ان الطفل والد الرجل فهو أول معلم لحقوق الزوجية بين الشريكين وأكبر حافظ للأسرار العائلية بين الطرفين وأقوى خيط يشد العلاقات المتفككة ويعدل الأمزجة المضطربة ويقوم الشخصية المعتلة داخل البيت . . فعند دخول المولود الى عتبة البيت يهبط الأب من التحليق في سماوات اللامعقول الى الاحتكاك بأرض الواقع ، وتفيق الأم من أحلام اليقظة وغفوة النوم بلا ميعاد الى جدول عمل زمني

يحدد الحقوق والواجبات ويخلق قنوات اتصال مباشرة بين الابوين وموضوعات شتى للبحث والمناقشة ويفتح افاقا جديدة للتفكير في المستقبل الذي كان سرا مجهولا في عالم الغيب . . . ويعلم الطفل الوالدين فضيلة التعاون والثقة المتبادلة والمسئولية المشتركة كالجسد الواحد اذا مرض منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى وقد يكون أول مدخل لاقدام لم تطأ أرض المنزل منذ بناء عش الزوجية وعندما يبدأ في وضع حجارة الزاوية في مراحل نموه المختلفة يبدأ الوالدان يتنافسان في متابعة آخر المعلومات وأحدث الكتب الطبية عن كيفية المشي وطريقه الكلام في عالم الطفل .

وعندما يبدأ الدخول للمدرسة تبدأ مرحلة جديدة في التعليم والتعلم للطفل والاسرة، وتتسع دائرة معارف الاسرة بالحبل السري الذي يربط طفلها بأطفال آخرين لهم أمهات وآباء ويبدأ في تكوين الخلية الاجتماعية . . . فيكون أول معلم في دروس التربية ومبادئ التنشئة من خلال النجاح أو الفشل في تربيته تتعلم الأم المبادئ الأساسية في علم النفس داخل مدرسة الطفل، نفس الدروس التي استوعبها الاجداد الاوائل في مبدأ الثواب والعقاب البدني بينما تطرح مدارس علم النفس الحديث بدائل أخرى أكثر جدوى وأقل ضررا ولكنها في النهاية صياغات علمية جديدة لنظريات عملية قديمة وضعها علماء النفس أمثال واطسون . . . الأب الروحي للمدرسة السلوكية والعالم الانجليزي الأصل (جنوب افريقيا) (وولب) المنظر الحديث لعلاج المخاوف المرضية للأطفال مثل الساحر . . . والظلام . . . والشرطي . . . والطبيب وكل خرافات الامهات .

وعندما يبدأ مسلسل الامتحانات يتساوى قدر المعاناة عند آباء وأمهات أطفال الروضة أو طلاب الجامعات . . . الذين يجلسون لامتحان التخرج . . . كل يغني على ليلاه ورغم بعد المسافة وخرافة المقارنة وصعوبة المعادلة، إلا أنك لا تملك إلا أن تنحني اجلالا لرهبة الموقف في حياة الطرفين كما قال أحد أساتذة التربية المرموقين في الماضي . . . ورغم عبارات التشاؤم حول مستقبل التعليم وقصة الداخل مفقود والخارج مولود . . . والتجارة شطارة فان شر البلية ما يضحك!

لقد تطورت نظرة المجتمع الى العلم بحيث أصبح الرصيد الاكبر في بنك
الادخار و صكوك الاستثمار في بنك الحياة، وصدق شوقي حين قال :
العلم يرفع بيتا لا عماد له والجهل يهدم بيت العز والشرف

وبعد أن أسقط نبلاء المدينة وعقلاء المدنية كل أوهم الحسابات المالية بعد
التجربة والممارسة ورفضوا أكياس المال التي تمضي الى زوال، ايقنوا ان العلم هو
الحصان الراجح في نهاية السباق في هذا الزمان العجيب، ولا يقلل من شأنه ان كان
من مظاهر هذا الزمن الرديء الذي يعيشه أطفال اليوم ما ينطبق عليه قول
الشاعر:

ذو العلم يشقى في النعيم بعقله وأخ الجهالة في الشقاوة ينعم

ورغم انسياق الكثيرين وراء سخرية أبي العلاء المعري في قوله :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتى قيل اني جاهل

رغم كل هذا يبقى العلم القبس المضيء في دهاeliz الحياة المعتمة والطريق
الوحيد في شعابها المظلمة وما لقيت صديقا إلا حكي وشكا من معاناته في تعليم
الصغار وتأهيل الكبار . كثير من غيرنا مجرى طموحاتهم الخاصة وطبيعة حياتهم
العامة وانتقلوا من مكان الى آخر وهاجروا من بلد الى غيره وتآلفت قلوب متنافرة
ونفوس متناحرة حول هذه الغاية، وأكثر منهم سافر الى أبعد من بلاد الصين يطلب
العلم لأولاده، وبعضهم أصبحت الوشيحة الوحيدة التي تربط بينه والبلد الأول
والموطن الثاني قضية تعليم الاطفال فأصبح الوطن الحقيقي هذا «أرض الحلم» التي
تنادي (أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض) وكما لا يستغنى الجسم عن الأكباد
لا تستغنى الأرض عن الاولاد، ومن يهن عليه ضياع الاولاد يسهل عليه هوان
البلاد، وهذا سر العلاقة بين عاطفة (الولد والبلد) لأن مصيرهما مشترك وفي
نجاح الولد ولادة جديدة للأب وحياة أخرى للأرض، فالوالد هو الانسان الوحيد
الذي يتمنى للابن قولاً وفعلاً أن يتفوق عليه ليرقى السلم الذي عجز عن الصعود
عليه ويحقق النجاح الذي فشل في الوصول اليه ويحمل اسمه الذي لولاه لسقط
من صفحات التاريخ ويرفع لافتة مضيئة في خندق مهنته أو خندق شرف آخر

ويصبح العصا التي يتوكأ عليها في حالات العجز واليد التي تطعم الافواه الصغيرة
التي تنتظر الطعام بعد جفاف الينابيع ، والعين التي يبصر بها في ظلام الشيخوخة
ويبصره من خلالها كل العالم حتى بعد رحيله عنه .

ويظل يردد قول الشاعر الباكي على ابنه . . القائل :
بكاؤكما يجدي وان كان لا يفدي فجودا فقد أودى نظيركما عندي
وأول الحديث وآخر الكلام : قلبي على ولدي .

الفصل العاشر

(في دائرة الضوء)

- العلم نور
- القراءة والكتابة
- رُكن المتحدثين
- من أجل عيون النكبة

العلم نور

قال الامام مالك رحمه الله عليه «ان العلم ليس بكثرة الرواية ولكنه نور يجعله الله في القلوب» وليس هناك وصف أكثر تعبيراً وأصدق تفسيراً وأشد تأثيراً في وضوح التمييز بين العلم والجهل أكثر من وصف الاول بالنور والثاني بالظلمات، فإذا بحثنا في الأصول نجد أن العلم يرتكز عملياً على التأمل والتفكير بالحواس الخمس، وفلسفياً ينبع من القلب نقطة ادراك الغيبات حتى قيل عنه «مضغة اذا فسدت فسد الجسد كله» . . . وعلمياً يصدر عن القلب والحواس معاً.

اذن فالعلم أكثر شمولاً من المعرفة المسبوقة بالجهل رغم ان كليهما يتكونان من خلال القلب والحواس، وأكبر الفوارق وضوحاً يتمثل في اقتران العلم بصفة الذات الالهية ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ . . . والذي لم يقترن قط بصفة المعرفة لأن من شروط المعرفة أن يسبقها جهل ثم فهم ثم تعلم، فلذلك يجوز اطلاقها على سائر المعارف الانسانية فيقال «الرجل العارف» وعندما يراد الصعود بالموصوف الى مرتبة أعلى في التشريف تضاف اليه صفة «الرجل العالم» وذلك في قوله تعالى ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ . . . آية ١١ سورة المجادلة، مما يدل على أن العلم أرقى درجات المعرفة، وعلى صور الفهم وادراك المحسوسات والمرئيات .

والعلم نقيض الجهل شأن النور نقيض الظلام . . . تناقض وجود ونسخ اعتبار مثلما يخرج الله الانسان من الظلمات الى النور . . . ظلمات الغيب في بطن الأم الى نور الحقيقة في واقع الحياة أو ظلمات التيه في غياهب الجهل الى اشراق النور في رحاب العلم في قوله تعالى ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، انما يتذكر أولو الألباب﴾ . . . سورة الزمر.

والعلم فرض عين في بعض العلوم وفرض كفاية في أخرى ، فالعلوم الشرعية المرتبطة بعلاقة الانسان بربه كالتوحيد والفقه والحديث والتفسير من أكثر الفرائض العينية الواجبة على كل فرد له ثواب أدائها وعليه عقاب تركها ، ووجوب غاياتها يستلزم وجوب وسيلتها الناقلة لها في اللغة العربية من نحو وصرف وبيان وبلاغة ، اما سائر العلوم الاخرى فهي فرض كفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقيين كالعلوم الطبيعية التي تبحث في أنواع المادة وخصائصها وطرق الاستفادة منها كالاحياء والفيزياء والطب والهندسة وعلم الفلك والارصاد الى آخره .

ان العالم والفقير يحتلان مكانة سامية في قلب الأمة في فضل التشريع والفتوى والاجتهاد في قوله تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ . فهم الذين يستلهم منهم عامة الناس القدوة في السلوك وسلامة التوجه في بوابة الخروج في وقت المحنة وظلام الأزمة ، لأن العلماء ورثة الانبياء والعلماء هم القادة الحقيقيون الذين يلبسون قناع التواضع فيخفي طبيعة دورهم الطليعي في مسيرة الأمة ، وفي حديث يشفع يوم القيامة ثلاثة : الانبياء . . والعلماء . . والشهداء ، فاذا كان العلماء ورثة الانبياء واذا كان أكثر المؤمنين برسالتهم والمتمسكين بحبل الشهادة في سبيلها تذكرونا وقفه العالم الحكيم سقراط في محاكمته الشهيرة عندما دفع ثمن الثبات على المبدأ وتجرع السم من كأس المنية ومات شهيدا ، وكذلك يحفل تاريخنا المعاصر بسيرة العلماء المجاهدين الذين وهبوا حياتهم حتى الممات يضيئون كالشموع المحترقة تنير ظلمات دروب الآخرين في العلم والعمل وآخرين مناضلين في شتى صفوف المعرفة يجاهدون في سبيل الله يقاتلون ويقتلون في السر والعلن ويقدمون كل يوم دليلا جديدا على مكانة العلماء مصدقين قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ . ويقال «الذكرى للانسان عمر ثان» .

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : «تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد وتعليمه صدقة ، وبذله لأهله قربي» .

وهذه صفات تجعل العالم أقرب أهل الارض للكمال الانساني حتى اذا رحل عن الدنيا ترك خلفه أمة كاملة في رجل واحد، وفي هذا يقول أحد الحكماء «عِلْمُ الرجل ولده المخلد» أي الاثر الباقي بعد أن يتركه الاهل والمال والجاه ويتبعه داخل القبر العمل الصالح النافع ويبقى بعده الميراث والزكاة والنفقة والصدقة الجارية .

وقال الحسن البصري رحمة الله عليه «موت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد» واذا استقرأنا التاريخ القديم والحديث لوجدنا ان شأن الامة من قدر علمائها في تويرها لهم وقيادتهم لها في طريق الضلال أو سبيل الهداية ، فاذا نفى الوالي أكتافه من ثقل المسئولية وأمانة الرعية وترك الحبل على الغارب للداعية بغير علم والمفتي بغير معرفة والناصح بغير حق ضلت الامة في طريق مظلم ، ويحدثنا التاريخ عن مصير الامبراطوريات التي ازدهرت في نهاية الصراع عند انتصار العلم على الجهل واندثرت وهوت في القاع عند انتصار الجهل على العلم .

وكلنا يتذكر المقولة الماثورة للأديب والكاتب العربي الكبير المرحوم طه حسين عندما ترك وظيفته في كبرياء العالم الواثق قائلاً «عندي هذا القلم أملؤه حبرا فيملؤني تبرا» وهكذا يصدق عليه قول سيدنا على رضي الله عنه «المال يحتاج الى حافظ والعلم يحفظ صاحبه» .

وطلب العلم فريضة وفضيلة لا ترتبط بالزمان ولا المكان ولا العمر ولا المكانة ، ولذلك قيل «اطلبوا العلم من المهد الى اللحد» .

قال الشاعر:

ما أصعب العلم وما أوسعهُ من ذا الذي يقدر أن يجمعه
ان كنت لا بد له طالبا محاولا فالتمس أنفعه

والعلم يعصم صاحبه من الانزلاق في غواية الغرور والسقوط في رذيلة البطر
والدرك الاسفل في أحلك ظروف الحياة لأنه يضع نصب عينيه عظمة رسالته

وخطورة مسئوليته مصدقا بقوله تعالى ﴿انما يخشى الله من عباده العلماء﴾ . . . سورة فاطر، وعندما يشهد الله لهم بخشيتهم وميراث الانبياء فلا يمكن أن يتساوى قدرهم مع من دونهم ﴿ومن أحسن قولاً بمن دعا الى الله وعمل صالحاً، وقال اني من المسلمين﴾ .

قال عيسى عليه السلام « من تعلم وعلم دُعي في السماء عظيماً » وروي عن علي رضي الله عنه قوله «ياحمله العلم اعملوا به فإنما العالم من علم ثم عمل ووافق علمه عمله» فلا خير في عالم لا يزكي علمه ولا فضل لعالم لا يعمل به أو يسترزق منه دون الانفاق منه، فاذا كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا فقد فضل الله العلم على كليهما في كل الديانات السماوية وكان أول ما جاء في محكم التنزيل ﴿اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم﴾ . . . وفي ذلك يقول الشاعر:

اذا العلم لم تعمل به كان حجة عليك ولم تعذربا أنت جاهله
فإن كنت قد أوتيت علماً فانما يصدق قول المرء ما هو فاعله

هذا هو الزام الدعوة الصريحة للالتزام القول بالفعل واقتران العلم بالعمل، فلا خير في داعية جهاد مقدس يتعاس عن، أو مبشر بحالة تغيير لا يشارك فيه أو يتفاعل معه أو يتغافل عنه .

وأخيراً فهي بطاقة حوار مفتوح للاستزادة من العلم موجهة الى الانسان في كل زمان ومكان في كل الاديان السماوية .

القراءة . . والكتابة

لقد أصبح عصرنا عصر «المعلومة» وفي سبيل الحصول على «المعلومات» صنع الانسان كل الاجهزة المتخصصة لجمع «المعلومات» وحتى يتعامل مع هذا الكم الهائل أنشأ بنك المعلومات في العقول الاليكترونية التي تحفظ هذه الأرصدة المتعددة المتجددة المجمدة في شكل أرشيف اسطوري لا يقتصر دوره على التسجيل والحفظ والاسترجاع، بل التصنيف والتبويب والقدرة على التغذية الاسترجاعية في اللحظات المناسبة وبالقدر المطلوب، فأصبح الحصول على «المعلومة» أشبه بالحصول على الماء من فتحة صنوبر تديره فيعطيك الماء الحار أو البارد أو المزيج الدافئ . .

ومن المفارقات أن نجد في عصرنا ارتفاع معدلات الصحة العامة بارتفاع مستوى التغذية الجيدة، وانخفاض درجة الثقافة العامة بضعف الرغبة في القراءة وفقدان شهية الكتابة، ومازال جهد الفكر الانساني المعاصر يتسابق في سد فجوة الثقافة وتعديل خلل التوازن بين حاجات العقل والجسم، وأولى ثمار هذا الجهد يتمثل في محاولة اقتران القراءة بالكتابة والوسائل التعليمية الجديدة التي تحول الصوت الى حرف، فاخترع الاجهزة التي تحول الكلمة المنطوقة الى طاقة كهربائية ترصدها أجهزة متخصصة وتحولها الى حروف مكتوبة مختصرة جهد الكتابة كما فعلت في تعليم المعوقين بتحويل القدرات الذاتية من الحاسة المفقودة كالبصر الى الحاسة الموجودة كاللمس في طريقة «بريل» لتعليم المكفوفين .

ان كل هذه الانجازات هي محاولات علمية مقننة وجادة لمواكبة خطى الحياة، فالعصر الذي نعيشه عصر السرعة لأنه يتعامل مع «الوقت» بأسلوب تنموي حضاري، كالعملة الصعبة في الاسواق المالية في بورصة الحياة، ولا يريد

أن يلغي عقل الانسان كما يتصور البعض أن الانسان الآلي «الروبوت» هو احلال للآلة مكان الانسان . . قد تكون هذه احدى سلبياته مقابل ايجابياته المقصودة في معركة كسب الوقت في عصر يتعرض فيه الانسان لشتى المتغيرات الحياتية بينما تظل الآلة تحت سيطرة الانسان ذاته . فالحاسب الآلي لا يلغي دور الانسان الفردي في ضرورة التغذية الصحيحة للمعلومات ولكنه يرشد انفاق الوقت في توظيف هذه المعلومات لخدمة الهدف المنشود . . والرجل الآلي لا يتحرك خارج ارادة الانسان الذي يتحكم في جهاز التحكم الآلي البعيد ولكنه يمتلك قدرة التحرك نحو السيارات المفخخة والعبوات الناسفة بالشجاعة والدقة والحذر ودرجة الانضباط التي قد لا تتوفر للانسان العادي لحظة أداء المهمة الصعبة في السباق مع الزمن .

التجربة . . والواقع

ان مجتمعاتنا النامية في دول العالم الثالث أصبحت أسواق استهلاك لهذه المنجزات ، فأخذت سلبياتها حين غابت عنها الايجابيات في غياب الوعي العام الذي تعاني منه هذه المجتمعات . . وحالة الاحباط التي قد يعاني منها الفرد أو المجتمع تتمثل في الشعور بالعجز والقصور في مجارة المعادلة الصعبة في التوفيق بين رغبة الامتلاك وعنصر الاستهلاك الذي خلق فجوة كبيرة بين التجربة المتمثلة والواقع المعاش . . أي التجربة المتمثلة في الرغبة في اقتناء هذه المنجزات والاستمتاع بها في ظل الوفرة المادية والنزعة الاستهلاكية والواقع المعاش من خلال المعاناة من آثار هذه المنجزات في شكل محلات وأشرطة فيديو وكاسيت وغيرها من الوسائل الاليكترونية في نقل المعلومات الى مستوى وعي لا يتناسب وقدرة الكثيرين على القراءة والكتابة ولكنه يصيب الهدف بوصول «المعلومة» .

وأمام هذا الشعور بالاحباط يلجأ الانسان بطبيعة تكوينه النفسي الى حيل النفس الدفاعية لاحداث توازن داخلي في سلوكه تجاه متغيرات الحياة التي تتطلب قدرا من التكيف الاجباري أو التوافق الاختياري مع الواقع . . وهذه الحيل الدفاعية وسيلة سلوكية لاشعورية طبيعية ومشروعة طالما كانت تعمل بصورة معقولة لحفظ هذا التوازن ، ولكن عندما تصبح نمطا ثابتا في التعامل مع الحياة

والهروب من واجب المساءلة أصبحت سلوكا مرضيا يتطلب العلاج . . . وبدون أول الحيل الدفاعية التي تلجأ اليها مجتمعاتنا هي «الاسقاط» أن نسقط مصائبنا على الآخرين . . . ان نقول اننا غير مسئولين عن هذا التقصير ولكننا ضحايا تأثير المجتمعات الغربية التي تهدف الى احداث هذا العجز والتقصير .

أذكر انني في بداية السبعينات كنت مسافرا في رحلة طويلة بالقطار من لندن الى مدينة مانشستر في شمال غرب انجلترا، وجلست في مقعدي وأمامي رجل بدأ منذ لحظة تحرك القطار يرسم خطوطا متناسقة على خريطة على الطاولة وكأنه في مكتبه واعتقدت انه مهندس معماري . . . وجواره آخر كان يرصد أرقاما وحسابات وتصورت انه رجل أعمال يسجل فواتيره في السنة الختامية فتبين انه معلم يرصد درجات امتحان . . . وجلست على يميني سيدة تقرأ كتابا قاذي فضولي لأكتشف انه رواية بوليسية للكاتبة «أجاثا كريستي» وكان هذا هو الجو العام في القطار وكنت الوحيد الذي يتجول بنظراته وسط الصمت المطبق والهدوء العميق ينظر من الشباك تارة ويتفحص وجوه «متحف الشمع» المتحرك تارة أخرى . . . وشعرت بخجل وأنا افتقد لذة التعامل مع ذهني بصورة حضارية فشعرت بأنني افتقر الى الهدف والوسيلة رغبة القراءة والكتابة أو وجود الكتاب والقلم فتسللت خلسة الى «الكافيتريا» لاتعامل مع «الوقت» بصورة ترضي نفسي وتحفظ ماء وجهي . . .

ومنذ تلك اللحظة يتجدد في ذاكرتي ذلك المنظر كلما ركبت طائرة أو قطارا أو مركبة عامة أو قاعة انتظار في مكتب حكومي أو مستشفى . . . حيث يندر أن تجد الفرد ممسكا بكتاب في هدوء . . . أو متسمر في مقعده يقرأ صحيفة في صمت أو يحل الكلمات المتقاطعة في محاولة جادة للقراءة دون التعليق على المارة أو مضايقة الجالسين حتى أصبح هذا المنظر في مجتمعاتنا القاعدة لا الشواذ . . . واذا دخلت احدى قاعات الانتظار في المستشفيات تشاهد طوابير المراجعين والمنتظرين يلوحون بالايدي ويتزاحمون بالمناكب، ويتمددون طولا وعرضا في قلب الممرات ويدفعهم ملل الانتظار غير المثمر أو ضياع الوقت غير المستثمر في معارك جانبية ومشاحنات شخصية في مجتمع اسلامي أولى تعاليمه الربانية تمثل في دعوته

«ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» . . .
وفي قول رسوله الكريم ﷺ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو
ليصمت» فإذا كانت الدعوة الى القراءة ترقى الى مستوى الفريضة ونهج العقيدة
فقد تجلت حكمة الخالق في أسبقية القراءة على الكتابة لأن الاولى ترفع الجهل
والثانية توجد التواصل وقد رفع الله قدرات الانسان الخاصة منذ طفولته فجعل
نموه العقلي متدرجا من القراءة أولاً ثم الكتابة ولا يمكن أن تسبق الثانية الاولى
فكثيرون يمكنهم قراءة الصحيفة كاملة دون امتلاك قدرة كتابة جملة مفيدة أو
بضعة سطور وهذا منتهى الاعجاز.

فإذا كان علماء النفس يقيسون معدل الذكاء بحساب العمر العقلي على
العمر الزمني فإننا نستطيع أن نحسب معدل الاطلاع بنسبة الوقت القرائي على
الفراغ الزمني ومدى القدرة الانتاجية بالعمر الكتابي على العمر القرائي ويكون
الرصيد الثقافي هو حصيلة كل هذه المعدلات مجتمعة .

يقولون في البدء كانت الكلمة . . الكلمة المقروءة فجاءت أسبقية القراءة
على الكتابة في تأكيد أهمية الغذاء الفكري كالغذاء البدني وليس بالخبز وحده يحيا
الانسان . . فإذا كان العقل السليم في الجسم السليم فإنه من أبرز مظاهر سلامة
العقل حب القراءة . . وعشق الكتابة .

وصدق القائل : وخير جليس في الانام كتاب . .

رُكن المتحدثين

حدث قبل بضع سنوات في قلب مدينة لندن النابض بالحياة صدام مؤسف في كرنفال (نتنج هل قيت) أحد الاحتفالات الموسمية الشهيرة والتي ينظمها سكان جزر الهند الغربية في بريطانيا وتجوب شوارع المدينة بالأزياء الوطنية والرقصات الشعبية والاغاني القومية تحت حراسة شرطة النجدة والمطافئ ومكافحة الشغب وكان الصدام أحد علامات بداية الفتنة واشتعال جذوة الصراعات العنصرية التي شهدتها بريطانيا أخيرا بين السكان الأصليين والوافدين من جزر الهند الغربية والجنسيات الأخرى والذي أصبحوا يشكلون شريحة كبيرة في تركيبة المجتمع السكانية خاصة بعد هجرة البريطانيين الى كندا وأستراليا ونيوزلندا وارتفاع معدل البطالة بالذات في مدينة لندن .

وفي التحقيقات التي أعقبت هذه الأحداث قال قائد شرطة مدينة لندن للجنة التحقيق (اننا فقدنا خيرة رجالنا من الشرطة في هذه الأحداث المؤسفة رغم علمنا المسبق بالتخطيط لاعاقه هذه المسيرة) . سأل المحقق : هل كنت تعلم من خبرتك ان هذا المهرجان سيؤدي الى الاخلال بالأمن بهذه الصورة قال القائد : نعم . . كنت أعلم بإمكانية حدوث شغب يمكن احتواؤه ولكن ليس بهذه الصورة من العنف لأن في هذا هزيمة لأهداف المهرجان ذاته والذي ينادي بالمحبة والسلام . . وعند خروجه سأله الصحفيون لماذا لم تنصح بوقف المهرجان طالما كان لا يخدم هدفا يتساوى والضرر الذي لحق بالشرطة ، قال القائد : ان تقاليد هذه البلاد حماية الديمقراطية وحرية الرأي ومنع المهرجان سيلحق الضرر بسمعة المملكة وهو أكبر من الضرر الذي لحق بأفراد الشرطة التي كانت تؤدي واجبها في حماية هذه المبادئ والتقاليد شعارنا القول المأثور (قد اختلف معك في الرأي

ولكنني مستعد للتضحية بحياتي في سبيل ان تقول رأيك بحرية) وهذا ما حدث لقد اختلفنا في الرأي ولكننا ضحينا بحياة بعض الأفراد من أسرنا في سبيل أن يقول الآخرون رأيهم بحرية ودفعنا ثمن الحرية وكان درسا بليغا من دروس الوطنية التي تتشبه بها مؤسسات الامبراطورية وهي في الرمق الأخير من حياة العظمة .

تذكرت هذه الحادثة وأنا أتجول في أجازتي في حديقة هايدبارك وأشاهد الشرطة تلتف حول مجموعة من المتكلمين في ركن المتحدثين أو ملتقى المتكلمين أو زاوية الخطباء المسمى (Speakers' Corner) وكانوا يحاولون تهدئة الخواطر عندما صعد أحد أبناء الهند يتحدث عن التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا واستطرد في اتهام الحكومة البريطانية بتشجيع سياسة التفرقة العنصرية برفض فرض عقوبات اقتصادية استجابة لنداء المنظمات الدولية التي تمارس ضغوطا مختلفة على نظام حكم بريتوريا ونشبت مشادة كلامية بين المتحدث وأحد المستمعين من الانجليز كادت أن تتطور الى تشابك بالايدي فقال الشرطي : كفى هذا . . لن نسمح بهذا السلوك هنا . . وقال مخاطبا الشاب الانجليزي الذي أصر على منع المتحدث من الاستمرار: اذا لم يعجبك الحديث فاصعد في هذا المقعد مشيرا الى صندوق فارغ - وقل ما تريد، فقلت في نفسي (انصر أخاك ظلما أو مظلوما).

قد استعدت شريط ذكرياتي في لندن قبل عشرين عاما في نفس المكان في وقتي القصيرة المألوفة في ركن المتحدثين . . وأنا أتابع التغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية داخل وخارج بريطانيا . . وحدثت الزلازل الداخلية العنيفة من هبوط الجنيه الاسترليني وانخفاض عائدات بترول بحر الشمال وانفراط عقد منظمة دول الكومنولث وصراع الدخول في مجموعة السوق الأوروبية المشتركة وارتفاع معدل العطالة وقوة القبضة الحديدية التي حكم بها حزب المحافظين بريطانيا خلال السنوات الأخيرة وانقسامات أحزاب اليسار والوسط وضعف اتحاد العمال وازدياد النفوذ الأمريكي . . كل هذه السلبيات لم تلطخ الوجه الحضاري الانساني للشعب البريطاني في الحفاظ على التراث العريق في الدفاع عن المبادئ الانسانية بأضعف الايمان القلب واللسان .

ما زالت حديقة (هايدبارك) تمثل موسوعة سياحية تزخر بكل أشكال القوافل السياحية من كل بقاع العالم الاربع وتقدم في كل عام للسائحين والزوار آخر ابداعات العقل البشري في شتى مجالات الابداع . . الرسم . . الموسيقى الكتاب الرياضة الفروسية وسائل الترفيه في ظروف الطقس المتميز الذي يقدم لك فصول العام الاربعة من خلال اليوم الواحد . . الخريف . . الصيف . . الربيع . . الشتاء وفوق كل هذا وذاك منابر الخطابة في ركن المتحدثين .

ان هذه الظاهرة التي ما زالت تلقى التأييد وتحظى بالترحيب من الشعب والحكومة بدرجات متفاوتة من الرضا والقبول تمثل الشعاع المتبقي من شمس الامبراطورية وهي تأذن بالمغيب بعد موجات التحرر التي غيرت خريطة العالم في منتصف القرن العشرين . . ولا تزال حديقة هايد بارك عنوانا كبيرا محفورا في ذاكرة الملايين من سكان المستعمرات القديمة وقوافل السياحة الجديدة تمثل الوجه المضيء في ظلام الكابوس الليلي الذي ارتبط بصورة الاستعمار القديم ذي الوجه القبيح الجاثم في صدور الحاملين بالحرية والمحرومين داخل السجون واللاجئين السياسيين والمنبوذين في المنفى من جهة ورجال الفكر ودعاة السلام وأنصار الحرية والعدالة من جهة أخرى .

ان جولة واحدة في حديقة هايد بارك لساعات قصيرة تقضيها في جولة ثقافية ترفيهية تحملك الى عوالم متعددة الثقافات فترى كل الأجناس واللغات والمذاهب وتعرف آخر الانبياء واذا كان لكل مقام مقال فهناك لكل مقال مقام وتستطيع أن تقول كل شيء عن أي شيء دون أن يذكرك أحد تصرحاً أو تلميحا أو يشير اليك ترغيباً أو ترهيباً (ان ما كل ما يعرف يقال) .

وتشاهد عجباً . . حماس الزنجي الافريقي الذي يتحدث بصدق نادر عن عدالة القضية الفلسطينية وسخرية اليهودي الذي يتحدث عن أسرار محادثات نزع السلاح بين ريجان وجورباتشوف والخدعة الامريكية المغلفة في المؤتمر الدولي للسلام مع اسرائيل ووسط هذا الزخم الهائل من الكرنفال والتظاهرة الثقافية والسياسية الاسبوعية يتحرك الشرطي البريطاني بخطاه التقليدية الوثيدة وخوذته

الأثرية السوداء يؤكد دور العين الساهرة في حفظ كرامة الانسان وكافة حقوقه المدنية في ركن المتحدثين .

لقد كان من المواقف المثيرة للدهشة والاعجاب ان أحد المتحدثين كان يعتلي المنصة ويتحدث عن دور شركات البترول في حملة انتخابات الرئاسة الامريكية القادمة وقام أحد السواح المستمعين بالتقاط صورة له . . فقال المتحدث للسائح : أرجو عدم التصوير فاذا وقعت هذه الصورة في يد حكومتي فسوف يدخلونني السجن فلم يكثر صاحب آلة التصوير بالرجاء فما كان من الشرطي الذي كان يقف خلف ظهور المستمعين الا أن طلب من السائح تسليمه الكاميرا حيث قام بفتح الغطاء وأخذ الفيلم بهدوء وسلمه للمتحدث وثار هرج ومرج والشرطي يستمع وأخيرا قال للمصور: انني لم أتدخل في حريتك في تصوير ما تشاء ولكنني منعتك تصوير شخص طلب منك عدم تصويره وهذا حقه وعندما تعتدي على حقوقه فيجب عليّ أن أعيدها اليه وهذا واجبي . . ان حريتك تنتهي عندما تتعدى حرية الآخرين .

ويطول الحديث عن حديقة هايد بارك ويعجبني أن أزور هذه المنطقة في كل مرة وكلما جئت الى عاصمة الضباب فلها نكهة خاصة ووجه مميز . . ويشدني هذا الركن القصي في الحديقة . . ركن المتحدثين الذي يتنفس فيه الناس الصعداء فيمارسون حفلاتهم التنكرية ويتقمصون أدوار الشخصيات المحبوسة في أعماقهم فتنوي الانطلاق إما كالأرواح الشريرة وكالشياطين المتمردة من داخل القمقم فيظهرون أنفسهم من رجس الشيطان ، وإما كالملائكة الطاهرة الحاملة في داخلهم تعبر عن الوجدان المغلق وامتزاج الحلم بالحقيقة . . الحلم الذي يعيشه في(هايد بارك)والحقيقة التي يشاهدها ويسمعها في نشرات الأخبار التلفزيونية ومن خلال المعاشة لهذه الازدواجية في الواقع يتعلم كيف تحدث حالة انفصام في الخيال .

من أجل عيون النكبة

قال تعالى ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾ . . . صدق الله العظيم .
بعد الجفاف والتصحر جاءت المجاعة ونشبت أظافرها الحادة في لحم الاطفال ،
وقبل أن تبرأ الجراح النازفة ، جاء الفيضان والسيول فحلت النكبة وزلزلت أركان
العمارات وطمست معالم البيوت في خريطة السودان الذي شهد غضب النيل
مرتين في بضعة أعوام .

في الغضبة الأولى حبس النيل أنفاسه وتقوقع داخل مجراه بحيرات متفرقة
ومستنقعات راكدة وجزرا صغيرة تغري بالزراعة في كل شبر والبناء في كل
منحنى . . . وفي الغضبة الثانية ثار النيل وهدر وأرغى وأزبد وطفح الكيل وتحرك
كالديناصور يهشم كل المباني العملاقة ويسحق كل دابة على الأرض . . . وارتعدت
الأرض من وهج البرق الخاطف وأجهشت السماء بالبكاء وهطلت السحب المنبثة
كالعهن المنفوش وأمطرت سيولا وأعاصير تحذر وتذمر من النكبة القادمة . ﴿وما كنا
معدبين حتى نبعث رسولا﴾ . . . فجاءت الرسالة الأولى في نذير الجفاف الذي
ضرب مساحة مليون ميل مربع وهي شبه قارة تمثل مساحة السودان الحبيب تمتد
فيه أراضي الزراعة المطرية بما يعادل ثلاثة أضعاف مساحة الارض المزروعة في كل
الوطن العربي ، وعندما لم تتحرك الايدي لتزرع وتحصد جاءت الرسالة الثانية في
هطول الامطار في الهضبة الحبشية بصورة طوفان أغرق الأخضر واليابس ، وكان
لابد أن يفيض النيل ويشور ويخرج كالمارد من القمم بعد أن أوفى بوعده ، وذكّر
لعل الذكرى تنفع المؤمنين . وجاءت الطامة الكبرى وأخذت كل نائم على غرة
وكل سائر على عجل وكل متحدث ألجمت لسانه الدهشة وكل أخرس أنطقته
شدة المأساة . . . ولأول مرة في تاريخ السودان الحديث يعلن السودان منطقة منكوبة

من مصدر خيراته وسبب أزماته الاخيرة وهو لم يشهد هذه النكبة منذ عام ١٩٤٦
تطل بعيونها ذاتها من ذات المنبع والمصب ونفس الحجم والمنسوب الذي يقاس
بالستيمترات في مكان وبالمليارات في آخر من هضبة الحبشة وحتى عتبة السد
العالي منذ مطلع هذا الصيف الغاضب ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ . .

ان الخرطوم تعيش مأساة حقيقية . وهذا قدر السودان وحزن الوطن . . وقبل
لطم الحدود وشق الجيوب ودعوى الجاهلية لا بد أن نتأمل البعد المأساوي للكارثة
من عدة أصعدة اقتصادية وسياسية واجتماعية ووطنية . . فالكارثة طبيعية ولكن
حجمها فاق أزمة قصر النظر التي ظلت تعيش فيها البلاد قرابة عقدين من الزمان
ليس فقط في الدمار الاقتصادي الذي لحق بالزرع والضرع وفرض المجاعة على
بلاد في حجم قارة وأرض في خصوبة الذهب وصحارى شاسعة وبحار واسعة
وجبال راسية ومساحات زراعية تعبرها خمسة عشر نهرا تفيض موسميا في ميعاد
الخريف، لو زرعت شواطئها فقط لأنبتت الحامض والحلو والمالح والمر بلا من
ولا أذى .

يقول العقلاء «جزى الله الشدائد خير» . فالنار تظهر أصالة المعادن وطهارة
المواطن المخلص لوطنه وشعبه، ورب ضارة نافعة، فقد كشفت قصة المجاعة
خيوط المأساة وجاءت عيون النكبة مفتوحة على مشهد قديم شهده السودان قبل
نصف قرن ومازال بعض الذين عاصروا نكبة عام ١٩٤٦ أحياء يسدون النصح
ويقدمون المشورة لمن لم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد .

ان البعد الحقيقي للمأساة تمتد جذوره الى سنوات طويلة هي عمر أزمة
المواطن السوداني الذي فقد شهيته بالداخل وفقد هويته في الخارج . . فالداخل
مفقود والخارج مولود . ان فقدان الهوية بالخارج نابع من أصالة السوداني في
عصبيته الوطنية وفكره في قضية الانتهاك مهما كانت عوامل الجذب الخارجية،
وعوامل الطرد الداخلية . فعيونه في الخارج وقلبه في الداخل، وسيفه مع علي وقلبه
مع معاوية، وهذا أحدث الخلل الكبير في التوازن النفسي والتوافق الذاتي
والحس الوطني، وفقدان الشهية بالداخل تتمثل في عدم القدرة على الانسجام

طيلة سنوات فقد فيها الفرد انسانيته ، وخرب نفوس الأفراد والجماعات بصورة يصعب تجميع جزئياتها المبعثرة مثل الزجاج المكسور، ودمر البنية الأساسية لتركيب المجتمع السوداني، وجعل الشريحة الداخلية قوى شبه نظامية تعمل على حماية الوضع القائم على حساب أي عمل فردي أو جماعي تكون غايته خدمة الصالح العام، وأصبح الولاء للسلطة فوق الولاء للوطن، وأصبح العمل الوطني من باب الامتنان على الوطن، والبقاء فيه أشبه بدفع ضريبة وسداد دين واثبات وجود، والعمل مجرد بطاقة شخصية داخل البلاد تميز بين الصامدين والهاربين، في نظر السلطة، وقيمة الفرد يحددها دوره في تحريك ترس الآلة الضخمة التي تعمل على حماية السلطة، وفي سبيل ذلك رفع النظام السابق يده عن حماية الفرد والجماعة والمصلحة العامة، واستحدث عبارة (العون الذاتي) ليخلي طرفه من مسئولية الصرف على مشاريع الخدمات العامة كالصحة والتعليم فقامت المدارس بالعون الذاتي وانتشرت المنشآت الصحية كالنبت الشيطاني في كل حي وحرارة بلا وصاية من أحد ولا حماية من الدولة، وهذه كانت أول ضحايا الفيضان وتقف شاهد صدق على ظلم الانسان لأخيه الانسان .

وعندما امتدت فوضى العون الذاتي والتخطيط العشوائي أصبحت العشوائية إحدى السمات المميزة، وأبرزها السكن العشوائي بلا تخطيط بياني أو احصاء سكاني أو مسح ميداني، فجذب الى الخرطوم قبائل وشعوبا من كل القارة الافريقية وفقدت العاصمة هويتها الوطنية فهي بالنهار (الخرطوم) وبالليل جزر (واق الواق)، وفي غفلة من الزمن أحاطت بها شعوب من كل فئات المهاجرين والمهجرين والمهجورين والسياح واللاجئين في تلك الأكواخ المحيطة بالخرطوم كالسوار بالمعصم . . حتى جاءت عيون النكبة لتكشف لنا مناطق الضعف في سور المدينة وحجم الثغرة في أمن الدولة والحجم الحقيقي لمأساة الخرطوم ما بين النكبتين في نصف قرن .

ان السودان ضحية كوارث طبيعية تزامنت مع وجود مخطط مدرّس يهدف الى اجهاض تجربته الرائعة والفريدة في قلب القارة الافريقية . . تجربة شعب فجر

ثورتين شعبيتين في أقل من عقدين من الزمان، وتجاوزت الأزمات وأقسى النكبات الحقيقية والمفتعلة في الداخل والخارج وهو يسمع ويشتم في رائحة (الدعاش) القادم من الأمطار الخرافية اسطورة السحرة الذين يملعون بعودته الى الماضي أو سقوطه في الفك المفترس والانقلابات العسكرية محنة الحكم الوطني منذ فجر الاستقلال .

من أجل عيون النكبة نقول أن السودان في حاجة الى عون اقتصادي وسياسي وبحاجة الى سياج متين من الدول العربية والقوى الوطنية المخلصة على امتداد خريطة الخلاص الوطني ليحللوا أسباب النكبة . .
ولكن الى متى تتكرر النكبات؟ وثم ماذا بعد؟ ومازلت أتضرع الى الله قائلاً في قصيدة «لبيك يا وطني» في ديوان (أشباح المدينة):

أبشك أشجاني حزيناً وبأكيا تجلجل في الأسماع صوتاً منادياً تراوح في وجهي وتمشي أماميا جموعاً وأسراباً . . دليلاً وحادياً تسجل تاريخاً وتصنع راوياً وفي حلك الظلماء أما وراعياً وغابات أسمنت تلاقى عوالياً تشعان حباً صادق الوعد نامياً سحابات حزن تجعل الحزن غالباً اليك وتدعوني فليبك داعياً وألبس من خرق الثياب حواشياً أواصل مشواري على الجمر جارياً وهل أرتجي من دون غيرك حانياً تظل مدى عمري عزيزاً وغالياً	لبيك يا وطني قريباً ونائياً لك الله يا سودان في كل محنة كأنك في الأفلاج نجم معلق تنادي بقايا العائدين مواكباً من العالم المهجور من ألف موقع وتبقى لنا الخرطوم نيلاً وجنة بيوتنا من العشب القديم تعانقت ومن أجل عينيك اللتين أراهما تهون عذابات السنين وتنجلي وما قيمة الدنيا اذا لم تضميني أشيّد من طلل الخرائب مسكناً وان عجزت قدمي عن السير في اللظى حنانيك يا أمي حنانيك يا أبي فديتك يا سودان شعباً وموطناً
---	--

ومن أجل عيون السودان . . دعونا نتأمل عيون النكبة وهي تقرأ سطور المساة .

الفصل الحادي عشر

(حول قضايا التربية)

- شرخ في الجدار
- السابقون واللاحقون
- المصيدة القاتلة
- الحـرمان
- الشباب في الصيف

شرح في الجدار

قال سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : « الناس بزمانهم أشبه منه بأبائهم » ورجال التربية وعلم النفس والاجتماع يدركون صدق هذه المقولة عندما يُعرفون عبارات «صراع الاجيال» و«الفجوة بين الأجيال» بأنها محاولة علمية لترجمة عصرية لحقيقة تربوية تؤكد أن لكل زمان طابعا خاصا في أصول التنشئة وقواعد التربية . . وأن معطيات كل عصر هي التي تحدد طابع هذه الاصول ونوعية تلك القواعد .

وفي هذا المعنى يقول سقراط الحكيم : « لانكروها أولادكم على اثاركم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » . إن كلمة سقراط لا تسلب الاسرة أو المدرسة أو المجتمع سلطة التوجيه والتقويم في التنشئة، ولكنها تسلط الضوء على خطورة الاكراه خاصة وسط أمة تهتدي بالمبدأ العقائدي القائل ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ . . فيصبح من نافلة القول « لا إكراه في القدوة » خاصة اذا كانت بعيدة عن التمثيل والاستيعاب أو وليدة زمان مضى وعهد قضى (ولا ضرر ولا ضرار) .

وفي هذا المعنى يقول الفيلسوف افلاطون « ان التعلم بالاكراه لا يستقر في الذهن » . وقد يتذكر بعض الآباء زمانا كان فيه الاجداد يأتون بالطفل الصغير الى شيخ القرية لتحفيظ القرآن قائلين له : « لك اللحم ولنا العظم » وكأنهم يوقعون ضمانات شفوية بعدم المساءلة في حالة الضرب المبرح الذي يأكل اللحم ويترك العظم حياً . وقد سار كثير من رجال التعليم على هذا النهج، وبارك أكثر الاجداد هذا السلوك من المعلم، حفاظا على روح العروة الوثقى، وایمانا منهم بأن الضرب بالعصي والسياط وشتى أدوات التعذيب وسائل مشروعة في التربية، مهما ترتب عليها من عاهات جسدية أو اعاقاة نفسية، وتعني أن العبارة الاخيرة لم

تدخل قاموس التربية القديمة، وهذا أحد وجوه الخلافات الجديدة بين الاجيال، خاصة اذا أدركنا أن دور الأم كان هامشيا، أو غائبا عن ساحة المشاركة في العملية التربوية، ولم تكن هناك مدارس مشتركة مختلطة، ولا مجالس للآباء والامهات، ولا علاقة مقننة بين البيت والمدرسة. كل هذه المعطيات الاخيرة أصبحت جزءا هاما من المتغيرات الجديدة التي تؤكد حقيقة اختلاف أطفال الامس عن أطفال اليوم، واختلاف عالم الامس عن عالم اليوم، ليس فقط في العلاقة بين الطفل وأبويه وبين الآباء والمعلمين، وبين المعلمين والمجتمع، وبين المجتمع والسلطة، وإنما هناك صياغات جديدة تحدث تلقائيا في كل عقد من الزمان بين هذه الاطر المختلفة والهياكل التنظيمية المتنوعة التي تشكل عالم الاطفال والراشدين.

وفي هذا يقول الشاعر الانجليزي وليام شكسبير: «ان الطفل هو الاب للرجل» مما يوضح أهمية مرحلة الطفولة في وضع اللبنة الاساسية التي يقوم عليها بناء شخصية الرجل. وبقدر ما يتوفر من رعاية وعناية، تكون المراحل اللاحقة امتدادا معافي وبناءً سليماً من خطر التصدع والشروخ والانهارات النفسية.

وتؤكد دراسات وأبحاث العاملة الامريكية مارجريت ميد، ان مجتمع (الاسكيمو) يتمتع أفراده بالاعتماد على النفس وضعف روح الجماعة والتمركز حول الذات ونزعة العنف، وهي صفات وليدة تغذية استرجاعية بطريقة الغرس المبكر في نفسية الطفل، منذ بداية حياته، كما وجدت نفس الباحثة ان نفسية الطفل هي المرأة العاكسة لروح المجتمعات في «غينيا الجديدة» حيث يقوم الرجل بدور المرأة في تنشئة الطفل ورعاية شؤون البيت، وتقوم المرأة بدور الرجل في الخروج للصيد وتوفير سبل العيش للعائلة، مما يجعل الطفل يكبر متبنيا هذا الدور الموروث، يصدق فيه قول الشاعر عمرو بن كلثوم القائل:

« وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عودّه أبوه»

ان من الثابت والمؤكد ان الصراعات النفسية في مرحلة الطفولة المبكرة تؤثر تأثيرا لا خلاف حوله في المراحل اللاحقة من حياة الفرد، ويبقى الخلاف فقط حول نوعية الأثر وماهية التأثير. درجته وشدته واختلافه من فرد لآخر، وهذا

يتوقف على توقيت حدوثه في المرحلة العمرية المعينة، ومداه الزمني المحدد وطابع استجابة الطفل له، من خلال الظروف البيئية المحيطة به. ولم يتفق علماء النفس باختلاف مدارسهم الفكرية مثل اتفاقهم حول هذه الحقيقة العلمية في مجال الصحة النفسية، كما لم تتفق ممارسات الاطباء النفسانيين مع اختلاف وجهات نظرهم الاكلينيكية فيما بينهم وتعارضها كثيرا مع الخبراء النفسيين بقدر ما نلاحظ، وأجمعت بصورة مذهلة على هذا النوع من التأثير والتأثر، اختلفوا فقط في كيفية حدوثه ونوعية الأثار المترتبة عليه. فالتحليليون ركزوا على نظرية «التثبيت» في مرحلة الصدمة، حيث تحدث الصدمة النفسية شرخا في مرآة النفس، يبقى ساكنا تحركه الاحداث في مرحلة لاحقة، فيصاب الفرد بالنكوص الى تلك المرحلة الطفولية نتيجة الكبت والاحباط، ويكتسب سلوكه السمات المرضية المميزة لها كالكابوس الليلي والمخاوف المرضية والوساوس القهرية والسلوك العصابي بينما يرى السلوكيون ان الصدمات النفسية تكسب الطفل عادات سلوكية خاطئة نتيجة التعلم الاشرطي. وبما أن العادات هي مجموعة انعكاسات شرطية، يمكن أن تلغي بالاطفاء أو تبقى بالتعزيز فالخوف هو منعكس شرطي خاطيء يمكن تصحيحه أو علاجه بالاطفاء عن طريق الاسترخاء أو الكف المتبادل وهذا يتم باستعمال مبدأ الثواب والعقاب بالطريقة السلوكية المعينة.

ان مبدأ الثواب والعقاب لا يعني بالضرورة أن يكون العقاب ماديا. بل قد يكون الحرمان من الثواب في حد ذاته من أقسى أنواع العقاب، وهذا ما يجعل الفجوة تتسع في مفهوم التواصل بين زمان وزمان، وجيل وآخر، بالصورة التي يجعل بعض الآباء والتربويين يرون في هذه النظريات بدعا مستحدثة وتغولا على أساليب التنشئة الكلاسيكية المقدسة، والتي أثبتت فعاليتها وجدواها رغم المحاذير التي يطلقها أصحاب هذه الطريقة من النظرة السطحية للفعالية ذات الأثار الايجابية الظاهرة، دون الالتفات الى خطورة الاضرار السلبية الخفية التي لا يتبصرها غير عين خبير. ويستشهدون بالنتائج المذهلة التي أحرزتها أساليب التطبيق العملي للتغير السلوكي في تعليم المعوقين ذهنيا، والمرضى العقليين، دون

النظر الى تعميم نتائج التجارب على الحيوان في مجال الانسان .

وهذا يبدو واضحا في تعليم «حيوانات السيرك» على تعديل سلوكهم الى درجة «عقلانية» لا يرقى اليها بعض البشر، وهذا من خلال تطبيق مبدأ نظرية الثواب والعقاب بالمفهوم السلوكي النفسي .

قد لا أكون أفضل من يجيد الحديث عن نظريات علم النفس، ولكن من تجاربي العلمية في مجال مهنتي، أستطيع أن أسرد عشرات القصص، وأن أضرب مئات الامثلة، وأن اعدد آلاف الأضرار التي برزت في مرحلة لاحقة في حياة الفرد نتيجة تجارب نفسية مبكرة في طفولته، بأبعادها المختلفة، ذات ارتباط مباشر بين السبب والنتيجة، موثوقة بخلاصة الدراسات الاكلينيكية والتحليل النفسي للكبار، الى جانب الدراسات الانثربولوجية لطرق تنشئة الاطفال عند كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة، والمقارنة بين جدوى أسلوب العقاب المادي (الضرب والزجر والتأنيب) وأسلوب العقاب المعنوي (الحرمان من الثواب والتقدير). كما نشير الى خطورة سلاح العقاب وسلبياته المتعددة، أولها يتمثل في انه طريق لا اتجاه واحد، متى اختار المربي السير فيه فلن يعرف نهايته . متى وأين وكيف يتوقف فيه وثانيا، فان الطفل ينمو جسميا وعقليا واجتماعيا وانفعاليا، بينما تضعف قدرات المربي أبأ أو معلماً مجتمعين في هذا الاتجاه، وتختل المعادلة، وتميل كفة الميزان نفسه كوسيلة وحيدة أو لغة تخاطب خاصة بين الطرفين، يصعب التفاهم بدونها. ويبقى سلاحا ذا حدين، وأحد (الرموز) في عملية الأخذ والعطاء . . وعندما يتكون للمرء معنى واحد في مفهوم طرفين متنازعين تكون أي محاولة لايجاد بدائل للحل مرهونة بتنازل طرف للآخر. وهذا ما لا يحدث إلا بكثير من التضحية في غير موقعها، وثالثا خطورة التجاوز في فرض العقوبة، وما يترتب عليه من أضرار مادية ومعنوية، اضافة الى أن المربي ليس قادرا على توقيع العقوبة المناسبة بالقدر المناسب، وهي ضرورات اذا فقدت دقة التوقيت، أفقدت سلاح العقوبة أهم فعاليته التربوية .

والحق والصحيح فيما أغفله التوضيح في أثر العقوبة والجزاء ان الاطفال رغم

التشابه الشديد، فهم مختلفون تماما على امتداد هذ الطريق في الفوارق الفردية، بداية بالطفل الوديع الذي تجري دموعه وترتعش أوصاله من زلزلة الصوت المرتفع وحده الكلمة الجارحة، نهاية بالطفل المتمرد الذي لا تدمع له عين ولا تتحرك له جارحة لا باليد ولا باللسان . . يدفع المربي داخل حلقة العناد المتكرر يناطح الصخر ويحارب طواحين الهواء . . وعندما يقرر اللجوء الى اضعف الايمان - لغة القلوب - يكون الطفل قد تجاوز مرحلة الخوف من التهديد، وقويت بنيته الجسمانية، ويكون المربي قد أعياه الزمن، وتآكلت قبضته الحديدية، ولكن تظل تجربة الطفولة مترسبة في الاعماق كالشرخ في الجدار.

وقديما قال المثل الاغريقي: «كما تفكرون تكونون».

السابقون . . واللاحقون

لكل شىء بداية ونهاية . . وفي حياتنا مواقف متعددة تمثل بداية البدايات ومازالت هناك نقاط أكثر عددا تمثل بداية النهايات . . والفرد الناضج في تفكيره العالم ببواطن أموره المتدبر في وجوده ومصيره يضع دائما نصب عينيه مواقيت هذه العلامات . . ربما أنه لا يستطيع أن يقرأ المستقبل أو يتنبأ بالغيب لكنه يظل في داخل عقله يرصد كل الاحتمالات المؤدية الى طريق النهاية ويتأمل في صبره وتبصره في أمل حول متى . . وأين . . وكيف تكون هذه العلامات . .

ومن خلال حصر فكره في أداء عمله وشحن ذهنه في تحليل سلوكه وتوظيف قدراته الذهنية في محاولة الاجابة على هذه الاسئلة يجد المتعة في أن يحيا حياة انسانية غنية هادفة مخططة لا يجرفها التيار ولا تحدها الصدف . . وانما ينظمها التخطيط والتفكير وتكون وليدة التجربة المثيرة ونتيجة المعاناة المريرة .

فاذا كانت الحياة سباقا له نقطة بداية ونهاية فلا بد أن يكون فيه أول وأخير . . أو سابق ولاحق . . والحياة ليست سباقا واحدا في اتجاه واحد وانما عدة سباقات في اتجاهات مختلفة تجري في أوقات متفاوتة بأولويات معينة ، فلذلك كانت سمة النضج في سلوك الانسان في الحياة ان يفكر كيف يرتب أولوياته في هذه السباقات ومتى يبدأ سباقه بين المتسابقين وأين ينتهي به المطاف . . كثير من لا يشغلون أنفسهم بالاجابة على هذه الاسئلة ويتركون الحبل على القارب وعند نهاية السباق يقفون على أمشاط أقدامهم يندبون الحظ العاثر أو ينكفئون على وجوههم ينبشون الجرح الغائر ويلطمون الخدود ويشقون الجيوب ويدعون بدعوى الجاهلية!

طبيعي عندما تكون البداية بلا مقدمة والنهاية بلا حساب يكون حصاد

الرحلة الطويلة بين النقطتين حفنة ندم وجرعة ألم، وبالتالي يصبح التصور لما هو واقع وما ينبغي أن يكون واقعا وتقدير ما هو حاصل مقارنة بما كان يجب أن يحصل فراغا كبيرا يطرح كثيرا من التساؤلات ولا يعطي اجابة شافية، لأنه في الاصل لم يكن هناك تصور واقعي للبداية ولا استشراق موضوعي للنهاية، بحيث يصبح الفارق بين شتى الاحتمالات الواردة هو مجرد اختلاف في درجة الاجتهاد في التفكير وقوة نفاذ البصيرة أو فضيلة الرجوع الى الحق وشتان ما بين الموقفين . . ذلك المثير للجدل والتساؤل والآخر المتلقي السلبي لردود الفعل والممتص التلقائي . . للصدمات ولا بد أن يختل الحكم على الاشياء عند الموقفين . . فالذي يصنع المواقف يختلف عن الذي تصنعه المواقف، والذي يتشكل معها . . والاحداث قد تكون مرتبطة بالفرد، وقد تكون منبثقة من وجود الجماعة، وقد تكون خارجة عن ارادة الانسان تماما، فهي مكتوبة له ومقدورة عليه .

لقد قال أبو الطيب المتنبي في قصيدته الشهيرة:

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديدا؟
أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيد دونها بيد

هذا التساؤل الاستنكاري عن العيد وحال عودته ونوع أوبته يلقيه الشاعر على مسامعنا مفتوحا لا ينتظر له اجابة معينة . . فهو يعرف ماذا يريد من العيد الجديد فالبداية والنهاية مشوار متصل في قطع الصحارى وطى الفيافي وصولا الى أحبته، ودون ذلك فلا جديد تحت الشمس جاء العيد أم لم يأت . . وقد يكون مرماه أبعد من ذلك ولكنه مرتبط بهدف .

وفي حياتنا ينقضي العام السابق ويأتي العام اللاحق وتتساقط من ذاكرة الانسان أوراق العام الماضي على دفتر كشف الحساب الختامي لكل عام فنشاهد المقارنات والمسجلات بالاحداث والارقام والتنبؤات عن أحداث عام سابق . . وأمنيات عام لاحق . . ونأتي مرة أخرى الى نقطة البداية والنهاية . . كيف بدأ العام ومشيننا خطواتنا فيه بأي فكرة والى أي هدف . . وكيف كان تصورنا . . وماذا كنا ننتظر ولماذا كانت النتيجة بالصورة التي انتهى عليها . . والى أي مدى تطابق أو

تعارض أو توافق طموحنا وأمانينا كأفراد وجماعات وشعوب وعالم كبير .

اننا كثيرا ما نصدر أحكاما هي في الواقع تعكس رغباتنا الخاصة ونظرتنا الشخصية للأمور أكثر مما تصور الواقع الذي نحكم عليه . . نطلق على العام عام الحرب أو عام السلم أو عام اللاسلم واللاحرب ، والواقع انه منذ فجر التاريخ وحروب الجاهلية حتى الحروب العالمية الكبرى والصراعات الاقليمية الصغرى كان كل عام ينقضي يحمل في طياته الخير والشر بدرجات متفاوتة وكل عام مقبل عبارة عن حصيلة جديدة لتراكمات كمية وكيفية وتفاعلات مادية ومعنوية لتجارب الفشل والنجاح في كل موقع من مواقع الحياة . . والعام السابق ليس ترتيبا فريدا للاحداث ولا العام اللاحق تبويبا جديدا للواقع وانما هو امتداد زمني لهذا الترتيب واعادة مبتكرة لهذا التبويب بروح جديدة . . روح تنبعث من التجربة المخترنة في أذهاننا من خلال معاشة صادقة للاحداث التي انقضت بقدر ما نجحنا في صنعها وبقدر ما فشلنا في الخروج من قوالها الجاهزة .

وعندما نقول ان العام اللاحق سوف يكون أفضل فاننا نتمسك بعضا التفاؤل لنشوق بها بحر الظلمات الممتد أمامنا في شكل المحيط الهادر بأموج الاحباط . . وعندما نقول انه سيكون أسوأ فاننا نسقط منذ البداية دورنا في المساهمة في تغيير هذا الواقع ونؤكد عجزنا في تحقيق الهدف ونرفع راية الاستسلام في أولى معارك العبور من هوة الفشل الى عتبة النجاح ، وهو انعكاس لروح الفرد أكثر منه تصوير دقيق لواقع الحياة ، لأننا في أغلب الأوقات نرى الامور لا كما هي كائنة لكن كما ينبغي أن تكون لاننا نعطيها كثيرا مما عندنا من تجربتنا المتمثلة في الشكل والمضمون . . ليصبح شكلا مقبولا يتوافق ورؤيتنا للأنماط السلوكية المعروفة ومضمونا معقولا يتناسب ومزاجنا ومشاعرنا المكبوتة .

ولذلك عندما نقول ان العام السابق كان حافلا بالمآسي فلأننا كنا نتمنى حياة أكثر اشراقا مما كانت عليه وما تبادل عبارات التهاني ورسائل الامنيات الطيبة بحلول عام جديد إلا وعى لا شعوري بأن من الممكن أن يكون العام اللاحق أفضل من الذي نحن فيه . . بدورنا المؤثر ومشاركتنا الصادقة واخلاصنا للامحدود

في أن نجعل منه ذلك الشكل الامثل لتحقيق الامنيات .

وعندما نقول لقد كان العالم السابق أفضل من عالم اليوم فاننا لا نعطي الصورة الحقيقية من خلال سرد تاريخي محايد لوقائع الحياة، وانما من خلال لحظة الحزن أو الفرح أو التكيف أو الاحباط التي تمر علينا . . وما عبارة (الدنيا بخير) لحظة التفاؤل أو (الزمان تغير) ساعة التشاؤم إلا تعبير عن هذه الأمزجة المتقلبة في لحظة التقويم لاحداث العام أو واقع العالم .

ان العالم الماضي لم يكن قطعاً أفضل من عالم اليوم ولن يكون علما المعاصر أفضل من عالم الغد - باذن الله - مهما كانت المقاييس والقيم التي ننظر بها الى الحياة، وليس هذا افراطاً في التفاؤل وليس تفريطاً في التشاؤم الحذر المطلوب ولكن محاولة التزام الدقة في نظرتنا للحياة .

صحيح ان علماء كالرازي وباستير وابن خلدون وارسطو ونيوتن وابن سينا وأبو الطيب المتنبي وشكسبير كانوا أكثر عطاء من كثير من علماء اليوم الذين مازالوا على قيد الحياة يقدمون اسهاماتهم المقدره في عالم الطب والكيمياء والفيزياء والاجتماع والآداب، ولكن لأن عطاء الأوائل توقف وانتهى دورهم واسدلت الستارة قام المؤرخون بتقويم ابداعهم مقارنة بعصرنا وامكانياته وزمانهم وقياساته فكانوا بهذه المقاييس أكثر عطاء، لكن لو توقف العالم والعلوم عند انجازات هؤلاء لما وصل العالم الى الصورة الحضارية المتطورة المعاصرة . . وبنفس القدر ولذات الاسباب عندما ينقضي هذا العصر وينتهي أجل علمائه ومفكره ويبدأ الجيل القادم في تقديم كشوفات حساباتهم وتقويم انجازاتهم ومن خلال التصور الذهني في شتى المجالات بعد نصف قرن سوف يكون العالم شيئاً مغايراً تماماً في الشكل والصورة عن عالم اليوم وسوف يقول اللاحقون ان عالم الامس كان أفضل تعبيراً عن حاجتهم الغريزية لاشباع تطلعاتهم الى الافضل . .

لقد كان ولا يزال التغمي بالماضي والبكاء على الاطلال أحد مظاهر الرثاء النفسي وبعض سمات النزوع الفطري الى العزاء والسلوى في ظروف الاحباط، ولكنه ليس حكماً علمياً دقيقاً للمقارنة بين الامس واليوم والغد . . انه بعض

وسائل النفس الدفاعية في النكوص والعيش في الماضي . . في مرحلة عمرية سابقة
في أحضان طفولة يهرب فيها الفرد من مرارة واقعه وقيود مسؤوليته ومتطلبات حياته
غير المستجابة . انه الشوق القديم الى الجديد الأفضل .

المصيدة القاتلة

قبل سنوات وتحت عنوان (السيارة وسيلة نقل أم أداة قتل!) وزعت منظمة الدفاع الاجتماعي العربي في مؤتمر مكافحة الاعتداء على العقاقير والمخدرات والمسكرات وثيقة حول الخطر الجديد الذي يتصدر قائمة أسباب الوفيات واهدار الثروة البشرية وسط الأطفال المراهقين وقطاع الشباب ويبدو ان التحذير قد ساعد في ارتفاع الوعي وانخفاض معدلات حوادث الطريق ولكن الى أي مدى وإلى متى تستمر حرب الاستنزاف غير المعلنة ضد النفس والغير؟!!

ان نسبة كبيرة من هذه الحوادث تكون نتيجة الاستهتار ونسبة غير ضئيلة تمثل أحد صور الانتحار. . نتيجة الكآبة أو القلق أو الحرمان مع العدم أو الافراط في الوفرة بلا ندم. ان حوادث الطريق بالمعايير العالمية تكون نتيجة أربعة عوامل. . السائق. . المركبة. . الطقس أو الطريق فاذا وقفنا في وسط هذا المربع نتأمل زواياه الأربع من واقعنا المحلي نجد أن السائق هو المسئول الاول عن هذه الحوادث وهذا يتوقف على عنصر الشخصية «وتعريف الشخصية يعني تنظيم وتركيب خصائص الفرد ووسائل سلوكه بالصورة التي تعطيه الطابع الخاص به في التكيف مع البيئة» ومن هذا المنطلق نجد أننا نتعامل مع عدة نماذج من الشخصيات من مختلف الجنسيات والثقافات والتقاليد مما يجعل محاولة إيجاد سبب واحد لتفسير سلوك شخصية الفرد تجاه هذا الخطر الجديد تمثل صعوبة واضحة من اختلاف وتنوع سمات المجتمعات والأصل ان لكل انسان دوافع كثيرة مرغوبة وغير مرغوبة ممكنة ومستحيلة ايجابية وسلبية في نفس الوقت. فالانسان الذي يرغب في الشراء السريع مع الخوف من مخالفة القانون والخروج عن الضوابط الاجتماعية التي تحكم علاقات الناس يعيش في صراع إيجاد حل مناسب ومعقول

وهذا الصراع من أكثر وأهم الصراعات التي يجب فهمها لأن أي عوامل مادية أو بيئية أو اجتماعية تحول دون تحقيق رغبات الشخص بطريقته الخاصة تحدث لديه شعورا بالاحباط مما يولد انعكاسات ضارة على شخصيته أولها الاحساس بالقلق والتوتر وكثرة الحركة واضطراب المزاج والشعور بالضيق والافراط في التدخين وتعاطي الكحول والتعرض للحوادث Accident Proneness وثانيها فقدان السيطرة على النفس والثورة غير المنطقية للتنفيس عن شعور الكبت خاصة في الشخصية الاندفاعية غير المتزنة وثالثها العنف والعدوان المباشر باليد واللسان نحو مصدر الاثارة الانسان والمركبة . ورابعها العدوان التحولي أي توجيه العنف لغير مصدر الاثارة عندما يكون مصدر الاحباط مبهما ويصعب الوصول اليه أو يستحيل معه كأن يتفادى سياره الشرطة ويصدم أخرى عابرة .

وعلاقة السائق بالسيارة علاقة انسانية معقدة التركيب يحكمها عنصر السيارة والآخرين والقانون . . وفي نظر الكثيرين ان السيارة سلعة استهلاكية متوفرة البديل لا تمثل عائقاً أو رادعاً عن ارتكاب الجريمة مع وفرة المال والسوق الحرة وسهولة الاقساط وأخطر من هذا تحولت الى عنصر مباحة ووسيلة تفوق ذاتي على الآخرين ورغبة تعويض للشعور بالنقص في مجالات أخرى . . يقول سارتر: الجحيم هم الآخرون . . فالآخرون يخلقون الزحام . . والزحام يولد العنف من الاحتكاك في الاسرة والشجار في المدرسة والصراع في العمل والزحام في الطريق خاصة اذا نظرنا الى عدد المركبات قياسا بالمساحة الجغرافية وارتفاع نسبة التجاوزات وتحطي الاشارات وسوء استعمال آلة التنبيه ورفض اعطاء حق الطريق وفساد الذوق العام . ان في المجتمعات المختلطة في كل بقاع العالم توجد حساسية الأقليات النابعة من فلسفة كبش الفداء (SCAPEGOAT) في المعاملات الاجتماعية وهي أسلوب اسقاط كل المشاكل الاقتصادية والسلوكية على فئة خاصة من جنسية معينة أو شريحة اجتماعية مستهدفة تتجاوب هي بنفس أسلوب العدا المائل والعنف المقابل ويدور الجميع في حلقة مفرغة من المصادمات الخفية خاصة في ظروف انعدام اللغة المشتركة ووسيلة التخاطب ذات الكلمة المعبرة والايحاء المؤثرة والفعالية الاليائية في ضبط هذه العلاقات التي تؤثر في تناطح السيارات

كثيران المصارعة التي تعتمد على لغة الاشارات التي تخطىء وتصيب .

ان مهنة قيادة السيارة ذوق وأخلاق أولاً ثم كفاءة وفن ثانيا وبما انه لا توجد وصفة طبية لتغيير نفوس كل الناس فلا بد من معالجات لاحداث هدف التغيير من خلال التركيز على أن قيادة السيارة ذوق وأخلاق قبل أن تكون كفاءة وفناً لأن الثانية مهارة تكتسب بالممارسة بينما الاولى فضيلة تغرس في الطفولة فاذا لم تتوفر منذ الصغر فلن يستقيم الظل والعود أعوج وقد أثبتت دراسات شهادات التقدير للسائق المثالي أنهم فئة تتمتع في أغلب الاحيان بدرجة عالية من الذوق والحس الرفيع ويأتي دور التوعية المرورية وقد غطت الجهات المسؤولة الجانب الاعلامي بصورة تجاوزت في بعض الاوقات الحد المناسب من الاثارة التي تؤدي الى الانطفاء الاشتراطي حيث أصبحت نوعاً من الدعاية النمطية التي يتعامل معها الفرد مثل الملصقات الجدارية في الاماكن العامة مع حدوث أثر عكسي مثل التحذير من السرطان المكتوب في عبوة الدخان . . يقنع ولا يردع .

حقيقة ان حوادث الطريق ظاهرة مرضية خطيرة ومصيدة قاتلة ضحاياها الاشخاص الاسوياء الابرياء والمستهترون الاشقياء على السواء وسواء كان الاسوياء ضحية الارهاق البدني أو المرض النفسي كالكآبة أو الانتحار أو كان الاشقياء نتيجة اعتلال الشخصية وتأثير المخدرات أو لذة الاستهتار فتعددت الأسباب والموت واحد . . كلهم ضحايا حوادث الطريق ان هذا الطرح السريع الموجز يسلط الضوء على الجانب الهام والخطر من أبعاد المسألة بحثاً عن وسيلة مكافحة الأزمة ولكن ينبغي ملاحظة أن بعض الحوادث الغامضة ليست فقط نتيجة اعتلال الشخصية أو استهتار السائق أو تأثير المخدرات فهناك حوادث تكون نتيجة حالة اكتئاب أو مرض نفسي ويكون الحادث وسيلة انتحار يلجأ اليها المريض للخلاص من الحياة لأنها الوسيلة الوحيدة المتوفرة لديه والمتاحة دون رقابة والمقبولة اجتماعياً أكثر من السقوط من بناية عالية أو الموت احتراقاً أو تعاطي كمية من الحبوب السامة وما يتبع ذلك من تحقيقات وفضائح يكون الشاهد الوحيد فيها قد غادر مسرح الأحداث .

لقد وضح من دراسة ميدانية في مركز مكافحة المخدرات وحوادث الطريق في جامعة أوكلاند بكاليفورنيا عام ١٩٨٥م ان ٧٪ من حوادث الطريق المتكررة بفعل المسكرات والمخدرات بعد اجراء الدراسات التتبعية وضح انها حدثت نتيجة الانتحار أو القتل الجنائي وان تعاطي المخدرات كان نتيجة للمرض النفسي وليس سببا فيه ولذلك نادى المركز باعادة النظر في قوانين الحركة القائمة بحيث تناسب حجم المشكلة وتؤكد ان وضع قانون واحد يتعامل مع حوادث الطريق على انها مخالفة قانونية واحدة لها بيانات محددة وعقوبة معينة يعني اغفال أحد الاسباب الهامة في وقوع المخالفات لأن الذي يكرر الحوادث تحت تأثير الخمر والذي يكررها بفعل الطيش يختلفان عن الذي يكون ضحيتها نتيجة الارهاق البدني والنفسي تحت ظروف قاهرة فرضت عليه القيادة في ظروف غير طبيعية أو حالة مرضية .

يقول علماء الاجتماع ان توحيد عقوبة حوادث الطريق بتحديد المادة بالجزاء مثل عقوبة تخطي الإشارة أو التجاوز أو التوقف المفاجيء أصبحت أشبه بقانون تسعيرة المواد الغذائية فالشخص يرتكب من المخالفات حسب قدرته على سداد الفواتير ماديا أو معنويا وعليه ينبغي صياغة قانون خاص يتعامل مع كل حالة على حدة ويعتبر حوادث الطريق جريمة يتم فيها التحقيق الجنائي بالكشف الطبي على الحالة النفسية والعقلية واللياقة البدنية ودراسة الظروف الاجتماعية وتوقع العقوبة التي تتناسب مع المخالفة واسقاط التسوية التي تفترض ان العقوبة المفروضة تعادل المخالفة تحت كل الظروف خاصة لدى الصغار المراهقين وهم الشريحة المعنية وأعلى وأول الضحية في حصاد الهشيم .

لقد وضح أن بعض الآباء يسمحون لأبنائهم الأحداث بقيادة السيارات في كل الظروف اما ارضاء لغرورهم أو اتقاء لشروورهم أو لأسباب أسرية أو اجتماعية أخرى وقد أثبتت التجارب ان التصنيفات الاسرية التالية تعطي فكرة عن شخصية الحدث المتقدم لرخصة القيادة أو المرتكب للمخالفة وأولها الاسرة النابذة غير الراغبة في الطفل وغالبا ما يشب الطفل منحرفا في المستقبل وثانيها الاسرة القابلة للراضية والتي تساعد في تنشئة المواطن الصالح وثالثها الاسرة المستبدة

المسيطرة والتي تخلق من ابنها شابا منساقا للشئلة لا ارادة له ولا خيار وربعها الاسرة
المسرفة في المحافظة على المراهق والتي تجعل منه فردا انطوائيا انسحابيا وخامسها
الاسرة الديمقراطية التي لا يتوفر فيها كل شيء إلا بجهد كل فرد ولا تحل المشاكل
إلا بمشاركة الجميع وهذه تصنع الطفل المعتدل وبهذا المعيار يمكن تصنيف
المراهقة الى أربعة أنواع أولها المراهقة المتكيفة التي تجتاز المصيدة القاتلة بلا خطورة
وثانيها المراهقة الانسحابية الانطوائية التي يروح الطفل فيها ضحية سلبته
للحادث وسط الزحام ثم المراهقة المتمردة وأخيرا المراهقة المنحرفة وهاتان
الاخيرتان هما مصدر الخطورة وبؤرة الفساد وسط الشباب حيث يقودهم الى
المصيدة القاتلة وكما قال الشاعر:

إذا كان الغراب دليل قومٍ يقودهم الى جيف الكلابِ

الحـرمان . . . !

يقول المتفائل : ان نصف الكوب ممتلىء . ويقول المتشائم : ان نصف الكوب فارغ . ورغم ان الحقيقة العلمية حول محتوى الكوب ثابتة لا تتغير فكلاهما صحيح ولكن تتبدل نظرة الفرد حسب حالته النفسية ، والفارق بين الحالتين ان المتشائم يجذبه النصف الفارغ لأنه يفتقد الشعور بالامتلاء في نظرتة للحياة . . نظرة الحرمان . . وفاقده الشيء لا يعطيه .

والحرمان قد يكون حسيا ذا علاقة بالاحساس والحواس أو عاطفيا ذا علاقة بالأم ، وقد يكون جزئيا أو كليا ، شعوريا أو لا شعوريا ، ويختلف معنى الحرمان من (حرمان المثير) أو العزل الادراكي أو العزل الاجتماعي حسب درجته ومداه الزمني وشخصية الفرد .

والحرمان الحسي قد يكون نتيجة فقدان المثير في عمليات غسل المخ أو الحياة في رحلات الفضاء أو فقدان أداة التوصيل كاصابة الحواس أو بتر الاعضاء ، والحرمان العاطفي قد يكون نتيجة فقدان مصدر الحنان أو الاطمئنان بالغياب الحسي للمصدر أو المعنوي في حالة غياب العطف في وجود المصدر . ولقد كان أول من درس ظاهرة الحرمان الحسي بطريقة علمية العالم الكندي (هب) في جامعة مونتريال عام ١٩٥٠ حيث اكتشف حقيقة الطبيعة الكهربائية للسيالات العصبية ومن خلاصة نظرية هلمهولتز في سرعة الدفعة العصبية ونظرية فختر للأساليب النفسفسيولوجية ونظرية بافلوف في رد الفعل المنعكس الشرطي (أو التعلم الشرطي) وأبرز مظاهر الحرمان الحسي والمعنوي تلخص في حدوث ثلاثة تغيرات هامة في الانسان أو تغيرات ادراكية في شكل هلاوس سمعية وبصرية كرد فعل داخلي لحرمان المثير باصدار منبهات (تعويضية) لتنشيط الجهاز العصبي

والخروج به من حالة الاختلاط العقلي وثانيا تغيرات وجدانية كاضطراب الانفعال والحزن نتيجة فقدان المثير وثالثا تغيرات فسيولوجية كانهخفاض النشاط الكهربائي للمخ وازدياد النشاط الهرموني وحدث انعدام الوزن نتيجة فقدان الجاذبية الارضية .

ومن أول مجالات تطبيق الحرمان الحسي في غسيل الدماغ الذي يعني تغذية الذهن بمجموعة من الافكار الجديدة بدلا من الافكار القديمة بواسطة التعذيب العقلي خاصة بواسطة الأدوية والوسائل الأخرى كالتنويم المغناطيسي أو التفريغ العقلي وغسيل الدماغ يتم عن طريق التأثير على المعرفة والتعلم ، اذ ان في حالات الحرمان الحسي تشتد قابلية المحرومين للثارة والايحاء والتأثر بالدعاية لدى الفرد الذي تتولد لديه رغبة شديدة للثارة والاستماع لأي شىء ورؤية الاشياء التي عادة لا تثير الانتباه في الظروف العادية ، وعندما يصبح الفرد في حالة اعياء نفسي شديد واختلال الأنية (الذات) خاصة تحت ضغط العذاب غير الانساني الذي يمارس في عمليات غسل المخ ، يحاول الفرد أن يثبت نفسه بمسامير الواقع على جدار أي فكرة جديدة أو عقيدة لكي ينهي حالة الاضطراب الوجداني ويشبع عالمه الممتلئء بالهلاوس ، وفي هذه الحالة تتسلل الأفكار الجديدة لتملأ الفراغ قبل حدوث الأمراض العقلية عند ذوي الاستعداد الوراثي والشخصية المضطربة . . لقد أثبتت التجارب انه لا توجد تغيرات ايجابية على الانسان السوي في حالة الحرمان بل تحدث تغيرات سلبية على شخصية غير الأسوياء مما يفسر ظاهرة صمود بعض الافراد لكل أشكال الحرمان الحسي وانهيار البعض الأخر تحت نفس الظروف .

والحرمان العاطفي ذو العلاقة بالأم أو البديل يؤثر في كل مراحل العمر خاصة في السنوات الاولى حيث تمثل الأم مصدر السند العاطفي أو صمام الأمان والذي وصفه العالم النفسي البريطاني (جون بولبي) في تقريره لمنظمة الصحة العالمية عام ١٩٥٢م ، حيث قال تحت عنوان (دور الامومة في الصحة النفسية) قال (ان أهمية دور الأم للنمو النفسي للطفل تعادل أهمية فيتامين (د) لنمو عظام الطفل) وقد

أجرى دراسات (مظلة أمومة) فتوصل في دراسته الى أن الأطفال المحرومين من عطف وحنان الأم يعانون من ضعف الاستجابة واعاقة النضج النفسي وتدني معدلات الذكاء وتفشي عيوب النطق والكلام خاصة في السنوات الأولى وتستمر في مرحلة لاحقة في عدم القدرة على استمالة الآخرين أو إثارة غريزة المحبة في نفوسهم وقد، ثار جدل علمي طويل بين علماء سيكولوجية النمو حول علاقة الطفل بأمه وهل الاعاقة النفسية تحدث نتيجة الحرمان من الأم ذاتها أم ضعف الاثارة البيئية وأيهما العامل الأهم؟ وهل يمكن للبيئة التعويضية أن تمنع حدوث الاعاقة نتيجة غياب الأم؟ حيث أثبتت بعض الدراسات في علاقة الطفل بأمه ان اعاقة مزمنة قد تلحق بالطفل نتيجة اختلال العلاقة الوالدية. . وان العلاقة المضطربة بين الطفل و(الأم الفصامية الشخصية) قد تؤدي الى المرض العقلي في حين أن توفير الحنان من الأم البديل قد يؤدي الدور المطلوب في تخفيف شدة الحرمان العاطفي خاصة وان بعض الثقافات تعمد الى فصل الطفل عن أمه كأسلوب تربوي ونمط حياتي حتى يعتمد الطفل على نفسه من خلال اعتماده على أمهات بديلات أو ممرضات مؤهلات أو جدات متشبعات بالحنان فأين السبب والنتيجة؟

ان الحرمان الحسي (الادراكي) أو المعنوي (العاطفي) يقوم على ثلاث نظريات أهمها النظرية الفسيولوجية التي تؤكد على دور سلامة منطقة التكوين الشبكي في المخ والذي يحتاج الى تغذية مستمرة بالمثيرات الخارجية لكي يقوم بارسال منبهات للمخ وفي حالة انعدام هذه المثيرات يتعطل الجهاز ويحدث اختلال الادراك ومزج الخيال بالواقع أما النظرية التحليلية فتفسر الظاهرة بحدوث نكوص أو ارتداد الى مرحلة طفولية مبكرة نتيجة اختلال الأنية (الذات) التي تسيطر على البيئة الخارجية وفي حالات الحرمان تفقد هذه السيطرة وتبدأ ظهور الامراض النفسية البدائية وأخير انظرية التعلم التي تقول ان الفرد يتعلم من خلال تجاربه في الحياة القدرة على تقسيم المثيرات الخارجية التي تؤدي الى تكوين نماذج معرفة ثابتة في المخ يتعلم منها الفرد فهم الأشياء وتصنيف الاحتمالات والقدرة على التركيز والانتقاء لبعض المنبهات دون الأخرى فحدوث أي خلل في هذه العملية

نتيجة الحرمان الحسي يؤدي الى اضطراب الصورة والادراك والخيال .

ان فهمنا لمعنى وأشكال الحرمان الحسي والمعنوي يقودنا الى فهم كثير من أسباب الأمراض النفسية والعقلية ووقاية العقل البشري من خلال الاستخدامات السليمة والتطبيقات المفيدة في مجال تدريب المعوقين ذهنيا وجسديا باثارة الحواس ورفع القدرات العقلية وتطوير الرعاية التعويضية للأجزاء المعطلة أو المشلولة كالسمع والبصر والأطراف ثم الاثار النفسية المترتبة عليها كالاضطرابات السلوكية والوجدانية والجنوح عند الاطفال، ويقابلها لدى المسنين الشعور بالدونية والاضطهاد والخلط الذهني وعدم التعرف على الزمان والمكان من جراء فقدان البصر والسمع والقدرة الحركية كما نستطيع أن نتغلب على الاثار السلبية التي تحدث في حالات العزلة الفردية في الزنزانات والسجون والمصححات العقلية الاثرية وحالات تدهور المناعة النفسية نتيجة العزل الاجتماعي في المعسكرات، ومعتقلات التعذيب في حالة اختطاف الافراد أو المركبات وحجز الرهائن لفترات طويلة يتعرضون فيها الى ضعف المنبهات الخارجية تحت الضغط النفسي الضار بالصحة العقلية .

ان في حياتنا اليومية تبدو حالات الحرمان الحسي والمعنوي معا في حياة الطفل والمسن عن حدوث فقد عزيز (BEREAVEMENT) حيث يتأخر رد الفعل في المرحلتين فيبدو الطفل سعيدا في بيت المأتم ويبدو المسن متماسكا يتقبل العزاء برباطة جأش وبعد بضعة شهور يبدأ التداعي من الداخل وتتصدع الدفاعات النفسية وتظهر على الطفل علامات الاكتئاب والصدمة النفسية وفقدان الشهية ويبدو على المسن آثار الانكسار تحت وطأة أطنان الحزن طوال فترة حضانة الحرمان الحسي والعاطفي معا . . بينما تتفاوت ردود فعل الأفراد في منتصف العمرين الانهيار العصبي المباشر أو التوازن النفسي المعتدل أو حدوث المرض العقلي والنفسى . . وكما تتعدد الاسباب والموت واحد تتفاوت أشكال الحرمان وتختلف مسمياته ومضاعفاته . . ولكن يظل الحرمان ذلك الامتداد اللانهائي لمساحات العدم يلبس طاقية الاخفاء بالليل ويلبس نظارة سوداء بالنهار بحجم قرص

الشمس تغطي كل منافذ الضوء فتظلم الحياة في وجوه كثير من الناس . . فيرون
النصف الفارغ في الكوب ولكن لا بد من التفاؤل لكي نقفز فوق سياج الحرمان
ونرى النصف الممتلئ من أول نظرة .

الشباب . . في الصيف

قال سقراط الحكيم (لا تكرهوا أبناءكم على آثاركم فهم مخلوقون لزمان غير زمانكم) هذه المقولة المأثورة تحمل الكثير من الحكمة والموعظة الحسنة وكان بعض الناس يفسدونها بالتفسير الشبيه بكلمة الحق يراد بها باطل اذ يكررون أن هذا يعني انسلاخ شباب هذا الزمان عن الزمان الماضي . . ولكن الحقيقة تؤكد ضرورة ألا تنقطع الصلة بين الماضي والحاضر كالحلح الذي يوصل بين الحلم والحقيقة وحتى في هذا المثال يتداخل الحلم مع الحقيقة فاذا كان واقع شباب اليوم هو الحقيقة وطموحات الآباء هي الحلم فلا بد للانسان السوي أن يحلم بالأفضل وبدون الحلم تطفح الحياة باليأس والقنوط وقد قال علي كرم الله وجهه (الناس بزمانهم أشبه منه بأبائهم) ووجه الشبه بين الزمانين يقرب الصورة أكثر للواقع حيث لا يوجد أب عاقل يطمع في أن يكون ابنه طبق الأصل أو نسخة مكررة منه ولكنه يريد أن يحقق ذاته في اطار زمانه بصورة لا تقطع صلة الوصل بزمانه وأبائه .

أسوق هذه المقدمة كمدخل لمحاولة تضيق الشقة وفجوة الأجيال الطبيعية على امتداد العمر الزمني الذي يتغير فيه شكل البيوت الى عمارات وسفر الدواب الى حافلات وطائرات . . هذا الاختزال الزمني والمكاني الذي أحدث الفراغ ، أكبر مصيدة في حياة الشباب وأكبر عدو في تقدم المجتمع .

أذكر قبل بضع سنوات أن أحد خريجي كلية التربية بجامعة الامارات قدم دراسة اجتماعية ميدانية أوضحت ان نسبة الاضطرابات السلوكية وكل انماط الانحراف تزداد بمعدل خرافي في فترة الصيف وتصل الذروة في بداية العام الدراسي الجديد من كل عام ثم يبدأ المعدل في الهبوط ويستقر في المعدل الطبيعي قبل نهاية الفترة الدراسية الاولى ثم تكاد تتلاشى كل هذه السلوكيات غير

المرغوبة قبل نهاية العام وقد نوقشت هذه الدراسة في أكثر من مجال ووردت في معظم ملاحظات محاضر مجالس الآباء وهذا يدل بوضوح على حدوث خلل تربوي في فترة الاجازة في الصيف ينتشر بشكل وبائي بين الشباب يروح ضحيته معظم الطلاب ويتمثل في كثرة التسرب من الدراسة وحوادث الطريق والسلوك الجانح والاضطراب الأسري وضعف دافعية التعليم والمصادمات مع السلطة الى آخر مسلسلات العنف .

وحقيقة والواقع هنا أن الطلاب بصفة عامة ومنذ بداية العام الدراسي ينتظمون في الفصول الدراسية في سباق تحصيل علمي مكثف ولهاث لا يتقطع خلف الامتحانات الشهرية والدورية وصيد العلامات بصورة تكاد تنعدم فيها وسائل الترويح عن هذا التوتر الداخلي ويظل الطالب يدور كالترس في آلة الدراسة غير المنقطعة بدرجة لا تسمح بالتقاط الانفاس وتفرغ شحنة الانفجار وهذه الحقيقة قد ترجع الى المنافسة الحادة بين الطلاب للحصول على معدلات عالية تؤهلهم للدخول الى الجامعات أو الاختيار بين المدارس في المراحل المختلفة خاصة وان عنصر التفوق أصبح أحد العوامل الهامة في تحقيق رغبة الاختيار أو حتى الاستمرار في الدراسة الصباحية أو المسائية . . وعندما يصل الطالب نهاية العام يكون قد وصل درجة الغليان التي يعبر عنها صراحة بأمنيته في الخلاص من الامتحانات والانفكاك من قيود الدراسة وعدم مصافحة الكتاب مرة أخرى اما بالنوم طيلة اليوم أو مشاهدة التلفزيون طوال العطلة أو السفر للخارج كل الاجازة أو عمل أي شيء لا يمت الى القراءة بصلة . وهنا يبرز الخلل التربوي في علاقة الطالب بالمدرسة ونظرة الى الاجازة الصيفية حتى اذا حان موعد العطلة وحتى قبل استلام الشهادات ينطلق بعض الطلاب الى شركات الطيران والتي تكون قد هيأت مكاتبها لاستقبال أفواج العائدين من معركة الدراسة المهاجرين الى جنان الترويح لتفريغ الطاقة المخزونة التي تبحث عن التنفيس بشتى الوسائل في كل بقاع العالم .

ان هذه الصورة أفضل بكثير مما كانت عليه قبل عشر سنوات حيث كان الزمن

الذي يقضيه الطالب خارج المدرسة أكثر بكثير من الوقت الذي ينفقه في كل الأنشطة التعليمية خاصة بعد صدور اللائحة التربوية والانضباط الادارى والضغوط الاجتماعية والوعي الأسري وضيق فرص العمل وشدة المنافسة في الوظائف وقلة المقاعد في الجامعات للطلاب العرب الوافدين في جامعات بلادهم هناك أو الجامعة الوحيدة هنا أضف الى هذا انفتاح المجلس الأعلى للشباب باستقطاب قطاع الطلاب في العطلة الصيفية وقيام المخيمات الكشفية والخدمة الاجتماعية في وزارة التربية والتعليم .

انني أعتقد عن قناعة خاصة وممارسة عملية من خلال مساهمة طويلة في مجالس الآباء لسنوات طويلة واهتمام شخصي بمشاكل التعليم في الداخل والخارج ان العطلة الصيفية أصبحت تمثل ثغرة كبيرة في حياة الشباب خاصة قطاع طلاب المدارس . ويجب اعادة النظر في موضوع الاجازة ومشكلات الصيف بحيث يكون الاهتمام (بالشباب في الصيف) امتدادا لاهتمام الدولة بالدراسة النظامية المنهجية في الفصول .

حقيقة ان مسؤولية الطالب في الاجازة تقع على عاتق أسرته ولكن ما كل الأسر تمتلك القدرة على التوجيه الصحيح رغم امتلاك المقومات ، المادية فان بعضها يفتقر الى التخطيط المدروس للاجابة على السؤال أين وكيف يقضي الطالب العطلة؟ ان الدولة تمثل الراعي الأكبر للمجتمع الذي يمثل المرشد الأول للأسرة وفي حالة ضعف الرعاية الأسرية وغياب الرقابة الاجتماعية تتحتم على الدولة أن تواصل رعايتها المنهجية واللامنهجية طوال العام بحيث يظل الطالب يمارس نوعا من النشاطات تُمثل امتدادا متكاملًا للجهد التربوي في الفصول الدراسية وهذا لا يعني استمرارا الدراسة أو اعفاء الأسرة من مسؤولياتها ولكنه يتطلب توفير البديل لمن يحتاج اليه والتوجيه والارشاد الأسري لمن يسأل عنه حتى لا يجد الطالب نفسه نهبا لرياح التيه والضياع وسط الشللية الضارة .

ان اقامة الرحلات الداخلية بين مختلف الامارات والمحلية بين دول منطقة الخليج والاقليمية داخل الوطن العربي والدولية تحت اشراف جهاز تربوي يخدم

الأهداف التربوية العامة في التعريف بهوم الوطن والقضايا المشتركة وجغرافية الوطن العربي وتضاريسه الاقتصادية والسياسية كما أن دور المؤسسات الثقافية كالمجمع الثقافي واتحاد الكتاب والأدباء ودور العبادة والمساجد يجب ألا تغيب في أجازة مع نهاية دوام المسئولين فهي الشعلة التي لا تنطفئ وخلية النحل التي تعلم روح التعاون ومعنى المشاركة وفضيلة الأخذ والعطاء من خلال الأنشطة الثقافية كالمسابقات الأدبية ومعارض الرسوم الفنية وتقديم المحاضرات الدينية والأفلام الوثائقية الهادفة عن أضرار التدخين وخطر المخدرات كما أن تنظيم المخيمات الكشفية التي توفر القنوات المشروعة لتفريغ طاقات الشباب في المنافسات الرياضية في الصالات المغلقة وتنظيم مهرجانات سباق الزواق بين مناطق الدولة والاشتراك في حملات التوعية المرورية مع أجهزة الشرطة المختلفة امتدادا للنشاط الموسمي المكثف والمتقطع حول حوادث الطريق التي تزيد بصورة وبائية في العطلات الصيفية حسب سجلات الشرطة ويمكن أن يقدموا خدمة نادرة في مكافحة الدراجات النارية والبخارية والسيارات (العجيبة) التي تشر الهلع في الشوارع .

ان التجربة تؤكد ضرورة التأمين على فوائد الرحلات السياحية الحرة التي تقوم بها مجموعات الشباب بدون رقابة . ان بعض الآباء يتحملون مسئولية تاريخية تربوية واخلاقية في اطلاق العنان للاطفال القاصرين الذين يذهبون الى الخارج بأموال طائلة يصرفونها من حيث ندري ولاندرى ثم نعود ونسقط (سقطاتهم) على المجتمعات الغربية . ان المجتمعات الاجنبية فيها السليبات والايجابيات . . فيها الجوانب المضيئة التي تعلم الأمانة في القول والصدق في الفعل والاخلاص في النية كما تقدم دورات تدريبية في شتى اللغات واكتساب مختلف المهارات والعادات الطيبة كما ان فيها الجوانب المظلمة في دهاليز الملاهي الليلية وأوكار القمار وتجار المخدرات . . فلماذا يهجر الشباب الاماكن الاولى بكافة فضائلها ويندفع الى الثانية بكل رذائلها سؤال هام لماذا؟

في نظري لابد من انشاء مراكز متخصصة بالتعاون مع شركات الطيران والقنصليات الثقافية للدول بالخارج للاشراف والتنسيق والمتابعة في حالة السفر المنفرد الذي ينبغي الحد منه خاصة لصغر السن وتشجيع الرحلات العلمية والعملية والترفيهية تحت رعاية هذا الجهاز الاستشاري التابع للمجلس الأعلى للشباب . ودائرة الخدمة الاجتماعية والتربوية . . لقد أثبتت التجارب خلال سنوات طويلة ان البكاء على ضياع الشباب من تأثير الافلام الأجنبية والرحلات الخارجية أشبه باللطم على الخدود وشق الجيوب ودعوى الجاهلية لأن التنشئة الأسرية السليمة مسؤولة شاقة لا تقتصر فقط على السكن المريح والملبس الفاخر والغذاء الصحي ولكنها تتجاوز كل هذا الى غرس فضيلة الاعتماد على النفس والانصياع للنصح وتقبل التوجيه من الكبار والايان العميق بأن الاجازة الصيفية ليست تأشيرة خروج من رحاب العلم والكتاب أو سمة دخول الى عالم الشر والخراب .

الفصل الثاني عشر

(الخطر الجديد)

- الأحرار المستعبدون
- الدخان عادة أم ادمان؟
- مثلث الشيطان
- الحصار
- عالم .. داخل المتاهة
- الرسالة

الأحرار المستعبدون

من منا لا يحفظ عن ظهر قلب قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي عن نكبة دمشق حيث يقول فيها:

سلام من صبا بردى أرقُ ودمع لا يكفكف يادمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدق
دم الثوار تعرفه فرنسا وتعلم انه نور وحق
وللأوطان في دم كل حر يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مزرجة يدقُ

ومن منا لا يشعر برغبة خفية في استقراء أحداث تاريخ تلك الحقبة ويقارن بين حال وحال . . كيف تغير مفهوم الحرية وتبدل مضمون الثورة وانتكست رايات نضال عريقة وصممت أصوات البنادق وارتفعت مكبرات الصوت داخل قاعات المؤتمرات تطرح نظريات جديدة حول مفهوم الثورة والوطنية . . والارهاب وحقوق الانسان . . وديون الأوطان وديون صندوق النقد الدولي . . والجداول الطويلة المستحقة والمؤجلة والمليارات الكبيرة العاجلة والمجدولة وبنود الاتفاقيات المعلنة والخفية في ملف القضية .

وفي هذا المساحة الزمنية القصيرة اتسعت الفجوة بين مفهوم الحرية الذي فجر شاعرية أحمد شوقي في نكبة دمشق والآخر الذي ألهب وجدان محمود درويش في نكبة فلسطين ومازال يجاهد من أجل تأطير مفهوم الحرية التي أصبحت سلعة تباع وتشترى وتمنح وتعطى «عطاء من لا يملك لمن لا يستحق» في زمان كثرت فيه قرارات مجلس الامن الدولي بصورة فلكية الارقام حول نهاية الاحتلال ونزع السلاح ومشكلة الانسحاب وقضايا الاستقطاب بدرجة وصلت فيها كل الهيئات

الدولية مرحلة من العجز في عقد مؤتمر دولي واحد في الارض أو الفضاء يخرج العالم من المأزق الدولي في أحد رحلاته المكوكية، فقد أصبح الداخل مفقودا والخارج مولودا في الحلقة المفرغة داخل دائرة اللامعقول.

ولأن كل المفاهيم التي وردت في قصيدة شوقي استبدلت في عصر محمود درويش فقد استبدل العدو كل خرائط جغرافية الحصار الانفتاحي من بداية المفاوضات الى حرب المخدرات لأن المفاوضات تشل ارادة القمة ولكن المخدرات تدمر قدرة القاعدة الشبابية المتحركة التي أصبحت الحارس الأمين لقيم هذه الأمة المنكوبة. . ومن يريد الشرح والافاضة فليقرأ نقوش أصابع الاطفال في حجارة الانتفاضة.

اضاءة جديدة :

أسوق تلك المقدمة القصيرة وصولا الى هذه الاضاءة المثيرة في الندوة العلمية الاولى التي نظمتها جمعية الاجتماعيين بالتعاون مع اللجنة الوطنية العليا لمكافحة أضرار المخدرات والمسكرات بالدولة تحت شعار «المخدرات في مجتمع الامارات» والتي عقدت في فندق هوليداي انترناشيونال مؤخرا.

وكان من أبرز النقاط المضيئة في دائرة الضوء الكبيرة التي غطت كل سلبات المشكلة، ذلك الاجماع الكامل على أن مشكلة المخدرات ظاهرة شبابية حديثة تتصاعد بشكل وبائي في السنوات الأخيرة في المرحلة العمرية المنتجة من المراهقة وتمثل ظاهرة طبية نفسية اجتماعية اقتصادية أمنية سياسية. . بكل هذه الابعاد المتداخلة من واقع احصائيات دقيقة قدمت حول حجم الظاهرة وتطورها وانتشارها وسبل مكافحتها.

وقد أوضح أكثر من باحث ومتحدث ومعلق في مداخلات موضوعية موثقة بالارقام ان هناك تخطيطا خارجيا لاغراق الشباب في المخدرات بصورة انتحارية جماعية تشمل كل خطوط المواجهة القائمة والمحتملة في خريطة التحرر الوطني في شتى مناطق العالم، وأن هناك ما يؤكد تصنيع المخدرات بصورة تجارية رخيصة في معامل كيميائية حديثة في اسرائيل وترويجها في المنطقة لتدمير هذه الشريحة الهامة

من الشباب ، أبطال الانتفاضة وثوار الحجارة الذين خرجوا من خيمة الوعي قبل الدخول في كهوف الغيوبة .

بداية مضيئة :

لقد كانت هذه الندوة مبادرة وطنية طيبة من جمعية الاجتماعيين حيث شرف الحفل معالي خلفان الرومي وزير العمل والشئون الاجتماعية وكبار المسؤولين في وزارته والذي أكد على ضرورة التصدي لخطورة التحدي الذي تمثله مشكلة المخدرات في مجتمع الامارات خاصة وسط المواطنين الشباب في السنوات العشر الأخيرة حيث كانت الظاهرة الداخلية قاصرة على الاتجار غير المشروع بين العمالة الأجنبية .

لقد كان أول المتحدثين أحد الوجوه المشرقة في طليعة الندوة وهو النقيب علي شهيل من شرطة دبي حول الاحصائيات والبيانات عن المخدرات في مجتمع الامارات ، وقد أكد ان المخدرات جريمة متجددة متطورة تستخدم أحدث ابداعات العقل البشري في وسائل الانتاج والتصنيع والتمويل والمتاجرة والتهرب والتر ويج والتعاطي . . وقد عرض بالشرائح الاحصائيات ووسائل التهرب الاسطورية كما قدم صوراً وثائقية لامبراطوريات ومافيا المخدرات وثقلها الاقتصادي ونفوذها السياسي وامتدادها الجغرافي في خريطة العالم .

الأطر العلمية :

لقد شارك في الندوة نخبة ممتازة من الاطباء النفسانيين وعلماء النفس ، وقد كان لي شرف ادارة الجلسة الاولى للندوة دون اسهام شخصي ممثلاً للجنة الوطنية العليا لمكافحة اضرار المخدرات والمسكرات ، وقد تحدث في الندوة الأخوة الزملاء الدكتور الطيب زروق (حول الأثار السلبية لادمان المخدرات) والدكتور عماد حمدي حول (العلاج النفسي للادمان على المخدرات) وقد كانت اسهامات علمية ثرة يصعب الحديث عنها في هذا السياق الضيق .

وقد أكد النقيب شهيل ان التطور المرضي للادمان يبدأ بالتدخين ثم الخمر ثم الحشيش ثم الهير ويين ثم الحبوب المهدئة والمسكنة بهذا التسلسل في الاستعمال

وهو الأكثر انتشارا بين النساء رغم شح الاحصائيات وحول المسكرات ذكر انها أصبحت ثانوية من حيث الانتشار والخطورة بين قطاع المواطنين حيث احتلت مشكلة المخدرات الصدارة وأصبحت مادة الهير وبين تمثل الخطر الاول وسط قطاع الشباب المواطنين ومحطة الهلاك الأخيرة، وحول موضوع الغراء واستنشاق البترول دارت مداخلات جانبية حول ضرورة مصداقية تناول هذه القضايا الهامة ذكرت فيها للحاضرين تجربتي قبل عشر سنوات حيث حضرت في مهمة رسمية بتكليف من وزارة الصحة وأقيمت في نفس فندق الهوليداي انترناشيونال بالشارقة للقيام بمسح ميداني لظاهرة استنشاق الغراء وسط طلاب المدارس وقد وصلنا الى قناعة بأن المشكلة أصبحت ظاهرة مرضية يجب التصدي لها، وقد قامت الوزارة بتوزيع التقرير على جهات الاختصاص، وأخيرا تم الاتفاق على أن المشكلة حالات فردية لا ترقى الى مستوى الظاهرة ولا يصح الاعلان عنها وبعد عشر سنوات تفجرت أنبوبة الغراء في قبلة الهير وبين المدمرة.

وقد أكد النقيب عبدالله راشد أن هناك ثلاثة عناصر أساسية في بداية الادمان وهي التفكك الأسري في البيت والخلل التربوي في المدرسة والتسيب السلوكي في المجتمع بين شلة الاصدقاء، وأوضح بالتحديد القاطع ان المشكلة ليست مسئولية الشرطة فقط، وعدد في افاضة دور الاسرة ووزارة التربية والاعلام والشباب والصحة والهيئات والمؤسسات الاجتماعية في دعم اسلوب المشاركة الشعبية في تطويق هذا الحريق الهائل.

وقد شدني اشارة الدكتور عماد حمدي الى بعض الابحاث التي أثبتت وجود أربعة أنواع من الاتجاهات والسلوك المتعلق بالادمان وهي :

(١) المدمن المستقر (٣٣٪) وهو الذي يمارس الادمان سرا دون مضاعفات عائلية أو عملية ودون ميول اجرامية أو خلط للمخدرات ويملك عملا ويعول أسرة متماسكة .

(٢) المدمن المتدهور (١٧٪) وهو الذي لا يعمل ويعتمد على دخله من الجريمة ويعاني من المضاعفات الجسمية ويعيش في عالم الادمان .

(٣) المدمن المنعزل (٢٩٪) وهو الذي يعيش حياة ادمانه وحيدا منعزلا ويختلف عن المدمن المستقر في انه لا يعمل ويختلف عن المدمن المتدهور في عدم اقدمه على الجريمة .

(٤) المدمن الذي يعيش بين عالمين (٢١٪) وهو الموزع بين عالم المجرمين وعالم الاسوياء .

خاتمة :

لقد أثبتت التجارب وأكدت المداولات والتوصيات ان اللجنة الوطنية العليا لمكافحة المخدرات والمسكرات تمثل الفرصة الاخيرة المخلصة للدولة لتسجيل أول انتصار علمي في معركة المخدرات . . ويقيني ان فئة المدمنين سواء من الناحية الاخلاقية أو العلمية . . مرضى كانوا أو مجرمين يحتاجون الى عناية خاصة .

فلا هم مرضى فيطلبون العلاج ولا هم مجرمون فيدركون طبيعة الفعل ولا هم أصحاب فيحملون الحجارة ولا هم أحرار فيملكون الارادة . . انهم الاحرار المستعبدون . . فمتى يتحررون؟ هذه مسئوليتنا جميعا .

الدخان . . عادة أم إدمان؟

احتفلت شتى المؤسسات الحكومية والأهلية والتطوعية بعيد الميلاد الأربعين لمنظمة الصحة العالمية، ونظمت ندوات ثقافية وصحية تحت شعار (يوم خال من التدخين) للتعريف بأضرار التدخين والتوعية بوسائل مكافحته .

وقد تضمن تقرير منظمة الصحة العالمية في عام ١٩٧٥ الصادر عن أضرار التدخين ان عدد الموتى سنويا من التدخين يفوق اعداد الموتى من أمراض السل والطاعون والجزام والتيفوئيد والتيفوس والجدري والكوليرا مجتمعة . وقد أكدت على أن التدخين بدأ ينتشر في سن مبكرة وسط الشباب من الذكور والاناث وهذا يمثل خطورة في طول فترة حضانه المرض (الادمان التبغى) والتي قد تمتد الى أكثر من ثلاثين عاما حيث تنمو الظاهرة لاشعوريا بنظرة اللامبالاة الاجتماعية وضعف الرقابة التربوية وخلل التنشئة الاسرية الى مرحلة النضج والرجولة والشيوخوخة قبل أن يسقط المدخن بالضربة القاضية بحدوث جلطة في القلب أو الدماغ تؤدي الى الشلل أو الوفاة .

وقد قامت جمعية الاطباء النفسانيين الامريكية بتصنيف التدخين كنوع من (الادمان) يدخل تحت بند الاضطرابات النفسية، لأن الفرق بين التعاطي والتعود والادمان أصبح ينطوي على درجة من الخلط في ذهن عامة الناس في الفارق النوعي والموضوعي والاختلاف الكمي والكيفي، في حين ان الادمان يعني حالة تسمم دورية أو مزمنة تلحق الضرر بالفرد المتعاطي ولها ثلاث خصائص أولها وجود رغبة غلابة وقهرية تدفع بالشخص المتعاطي بالاستمرار في تعاطي المخدر، وثانيها الميل الى زيادة الجرعة المتعاطاة من المخدر، وثالثها الاعتماد النفسي والجسماني على آثار المخدر، وبما أن تعاطي الخمر أو المخدر أو أي عقار يتم للحصول على تأثير

نفسى وعضوي فهناك اختلاف في نوعية المخدر وشخصية المتعاطي يؤثران في تعريف التعاطي والتعود والادمان، كالفارق بين مادة الأفيون أو الحشيش أو شخصية الفرد العصابي أو الفرد غير السوي . .

وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن التدخين في مرحلة معينة من (التعاطي) وصفات محددة في (التعود) لا يصبح عادة فقط بل يعتبر نوعا من الاعتماد (الادمان) وقد صنف ضمن الاضطرابات النفسية وسُمى (الاعتماد التبغى) Tobacco Dependency لأن أهم خصائص التدخين تنطبق على سمات الادمان، وأولها فشل محاولات التوقف الدائم عن التدخين، وثانيها ظهور علامات غير طبيعية عند محاولة الاقلاع مثل القلق والصداع الشديد والتوتر وضعف التركيز، وثالثها الاستمرار في التدخين رغم ظهور علامات مرضية مثل شدة السعال وازدياد ضربات القلب وعُسْر الهضم والقرحة وضعف الشهية الى آخره، بينما لا يوجد جهاز في جسم الانسان لا يتأثر ويتضرر بالدخان وأولها الجهاز التنفسي والدوري والهضمي وأخطرها أثره على الجهاز العصبي مركز القدرات العقلية العليا والذي يتحكم في الأفعال الإرادية والسلوك الانساني الراقى وحركة العضلات فيؤدي الى الصداع الشديد والغثيان والخمول والنسيان وضعف الذاكرة، وقد يحدث هذا وظيفيا نتيجة الحلقة المفرغة بين القلق والدخان أو عضويا نتيجة تسمم خلايا المخ بالمواد السامة حيث يستعمل مسحوق بعض أنواع التبغ في بعض البلدان كمبيد للحشرات .

وهكذا يتحول التدخين الى نوع من الأدمان له أخطاره الاجتماعية والنفسية والعضوية، وأخطر من ذلك يتحول الدخان بوابة للادمان للكحول والمخدرات خاصة لدى الصغار والمراهقين والكبار المعتلين نفسيا حيث ثبت أن ٢٥٪ من المدخنين يتعاطون المخدرات، والأكثر خطورة ان الدخان يقود الى تعاطي المواد المخدرة الخطرة، اذ ان ٩٩٪ من مدمني الهيروين و٥٨٪ من مدمني الحشيش و٧٥٪ من مدمني الخمر يمارسون (عادة التدخين) بافراط (ادمانى)، خاصة وان الدخان أو التبغ له استخدامات عديدة في شكل السجاير والسيجار والغليون

والنرجيلة والجوزة أو السعوط والنشوق والمضغ والاستنشاق ، وهكذا تتعدد الوسائل البديلة في الوصول الى بوابة الادمان .

ان من أخطار ظاهرة التدخين (تعود) المجتمع عليها كسلوك اجتماعي لا كظاهرة مرضية . . سلوك مقبول في مرحلة عمرية معينة ، ومرفوض في مرحلة أخرى ومكروه في غيرها حتى أدى هذا التناقض في سلوك القدوة في نظر الشباب تجاه الظاهرة الى حيرة تدفع بهم الى التهلكة . مع أن عدم ورود نص بالتحريم في القرآن الكريم لم يمنع أئمة المسلمين من تفسير الحكمة في تحريم الخمر (أم الكبائر) لأنها تخامر العقل وتحجبه وكل ما خامر العقل يصبح محرما ، ويسري النص على المخدرات لأضرارها الواضحة على العقل مما دفع علماء الدين الاسلامي الى الفتوى بتحريم التدخين لأنه من الخبائث وقد حرم الله الخبائث نظرا لأخطارها على العقل والجسم (ولا ضرر ولا ضرار) .

وقد ثبت علميا ان الدخان الناتج من احتراق التبغ يحوي مواد كيميائية تتعدى الألف تنتشر في جسم الانسان ، وأخطرها أثرا مادة النيكوتين التي تزيد افراز مادة الادرنالين في الجسم وهذه تزيد من عمل القلب بصورة تؤدي الى الاجهاد والاحتشاء ، بينما تتحد مادة أول أكسيد الكربون مع الدم وتسمى (الخصاب الكربوني) الذي يمتص الاوكسجين المغذي لخلايا الجسم والمخ فيؤدي الى ضمور الالياف العصبية ، ومثال ذلك العصب البصري والشبكية ويؤدي الى ضعف البصر كما يؤدي نفس الأثر بالضعف الجنسي عند الرجال وكثرة التوتر وشدة الاثارة والانفعال واضطرابات النوم .

وسيكولوجية الادمان تدور حول ثلاثة محاور رئيسية هي تركيب الشخصية وغريزة التقليد وتأثير الاشاعة والاعلان . فالادمان يأتي من الاعتقاد الخاطيء تماما لدى المدخنين بأن نشاطهم الذهني والجسمي يزداد نتيجة الدخان وذلك نتيجة النشوة المؤقتة التي تحدث في بداية الدخان كما يحدث عند أثر الحبوب المنشطة (كالامفيتامين) والتي يعقبها خمول وكسل وكآبة . وكنتييجة للتعلم الشرطي الخاطيء ترتبط لذة شفط الدخان من السجائر أو الغليون ورائحة الدخان وشكل

السحاب المنعقدة في لقطه الاعلان بحالة تصور حدوث الراحة النفسية وانخفاض التوتر والاسترخاء والانشراح فينتقل حنين وشوق المدخن من الدخان ذاته الى مادة النيكوتين (البديل الموضوعي) فيصبح النيكوتين عاملا أساسيا في علاقة الفرد بالدخان وخطرا رئيسيا على سلامة الجهاز العصبي للمدمن أو المتعود على السواء .

وفي الوقت الذي تؤكد فيه كل الدراسات العملية المتوفرة على أن هناك نسبة عالية من مدمني المخدرات والمسكرات بدأوا رحلتهم بالدخان من حيث ربط السبب بالنتيجة أو العلاقة بالموضوع ، فانه لا توجد دراسة موثوقة أثبتت أن هناك أي فوائد صحية للجسم أو العقل يمكن الاعتماد عليها في تفسير ظهور العادة أو حدوث الادمان في مقابل الأضرار النفسية والاجتماعية والاقتصادية والجسدية المتعددة التي لا تترك عضواً إلا وأشعلت فيه حريقاً وتصدعا من الداخل والخارج على المدى القريب أو البعيد .

وإذا كان أثر الدخان من القوة بحيث ينفذ من خلال دم الأم الى جسم الجنين فيؤدي الى الاجهاض أو الولادة المتعسرة أو نقصان الوزن أو الوفاة، فانه يؤثر كذلك على المخالطين للمدخن من خلال تلوث البيئة والهواء في المكاتب والأماكن العامة ، ومركبات النقل مما يسمونه (بالمدخن السلبي) أي الفرد الذي يتعرض لكل أخطار الدخان بالمخالطة دون ممارسة للفعل ، كما أثبتت الدراسات العلمية الميدانية ان أكثر من ٩٠٪ من المدخنين يعلم بأضرار التدخين وأكثر من ٦٠٪ منهم لا يوجد لديهم سبب معين لعدم الاقلاع مما يدل على خطر الادمان خاصة في مرحلة الطفولة المتأخرة والمراهقة .

وفي تقرير صادر عن كلية الأطباء الملكية في لندن عام ١٩٧٧ حول (التدخين والصحة) يقول ان تدخين سيجارة واحدة يقطع من عمر المدخن خمس دقائق ، كما ان تدخين عشرين سيجارة يوميا يقطع منه خمس سنوات ، وهذا انذار مبكر لكل انسان لكي يراجع حساباته ليعرف رصيده في معركة التدخين وليقرر اذا أراد التوقف ان يفكر جديا ويقنع نفسه بالاقلاع تماما علما بأن التجربة العلمية

والعملية المؤكدة أثبتت أن الامتناع يجب أن يكون قطعيا ومطلقا لا تدريجيا ومبهما
واليوم قبل الغد.

مثلث الشيطان

شهدت الشقيقة مصر مؤخرا اهتماما شعبيا ورسميا على المستويات بقضايا وقوانين المخدرات وكان مصدر هذه الحملة من داخل مجلس الشورى والشعب عند طرح تعديل قانون المخدرات بصورة تتماشى والتطور المشهود لهذه الجريمة العصرية التي تفتك بأعداد هائلة من شباب مصر وقد طالبت أكثر الهيئات والفئات في البلاد بتوقيع عقوبة الاعدام على تجار المخدرات وقد شاءت الظروف أن أحضر في القاهرة هذه التظاهرة الدستورية حول الاجراءات القانونية والتشريعية في كل الاصعدة وتابعت جلسات مجلس الشعب والشورى والاذاعة والتلفزيون والندوات الصحفية حول أهمية تعديل قانون المخدرات وضرورة مكافحة الادمان ذلك التنين الأسود الذي أفلت من عقاله ينشر الرعب والدمار في كل مكان وجعل البيت المصري يعيش الآن في حالة فزع حقيقية خوفا من هذا التنين الأسود ذي الرؤوس السبعة والذي اسمه . . الادمان . . ذلك القاتل المأجور الذي انطلق دون رقيب أو حسيب ودون أي بادرة منا بايقافه عند حده فمن يدري من هو الضحية التالية قد يكون ابني أو ابنتك، هذا ما جاء في الأهرام القاهرية بتاريخ ٢٢/٤/١٩٨٩ .

ان مصر تواجه أخطر الحروب تلك التي لا تطلق فيها رصاصة واحدة ولا ينزف فيها أحد دما، الحرب التي لم تبدأ بعد الحرب والجهاد الأكبر ضد مثلث الشيطان وإبعاده الثلاثة . . المهرب والمتاجر والمدمن . . المسميات الثلاث الملعونة لقد قال الدكتور علي لطفي رئيس مجلس الشورى ان دراسة خبراء مجلس الشورى قد أكدت أن أربعة آلاف مليون جنيه تأكلها تجارة المخدرات في مصر سنويا وان علاج المدمن يتكلف في الشهر الواحد نحو تسعة آلاف جنيه وأن أكثر من ٦٥٪

من الذين يعالجون من الادمان خطير ون لدرجة يمكن أن يسرقوا ويحتالوا ويقتلوا اذا لم يجدوا الجرعة في الوقت المناسب .

وقد أكد مفتي الجمهورية بأن هناك نزيفا مخيفا في جسم الأمة يأخذ معها كل اقتصادياتها وهذا النزيف سببه الادمان الذي يجب أن يتوقف وأن يُعدم كل من تسبب في ذلك من التجار الى جانب فتح باب العودة الى المدمنين عن طريق العلاج . وقد اقيمت ندوة لخريجي كليات الصحافة ضمت نخبة من المسؤولين وكبار رجال الدولة وأساتذة الجامعات ورجال الاعلام والشرطة وقد وصلت الى عدة توصيات جاء في ديباجتها ان ثمة مخططا خارجيا لتدمير الانسان المصري من الداخل ولكن علينا أن نهض هذا المخطط الأسود لحقن شرايين الانسان المصري بسموم الهيروين والكوكايين والماكس فورت واجباط تلك المؤامرة الكبرى التي تحولت بكل المقاييس الى ظاهرة خطيرة تهدد أمن المجتمع وتغتال طموحاته ومستقبله . ان هناك حملات شرسة للسموم البيضاء تستهدف الأمة العربية وفي مقدمتها مصر لاجهاض طموحات التنمية باهدار قوى صناعتها من الشباب ، وكتب الاستاذ محمد عبدالرحمن سلامة وكيل مجلس الدولة في ملاحظاته حول تشديد العقوبة في جرائم المخدرات في ٢٣ / ٤ / ١٩٨٩ (ان هناك احساسا بالارتياح لتصبح عقوبة الاعدام بالنسبة لبعض جرائم المخدرات لما فعلته من حالة الفزع التي أصابت المجتمع المصري من جراء انتشار ظاهرة الاتجار في المخدرات وادمانها بين الشباب حتى أصبح معظم تلاميذ المدارس يعلمون بمواقع بيع وتوزيع تلك المخدرات في الاكشاك والمقاهي المحيطة بالمدارس والأندية . بعد أن لجأ بعض تجار تلك السموم البيضاء الى كل أساليب الترويج والخداع لاصطياد ضحاياهم من الشباب بحيث أصبح أكثر حالات الادمان تتم دون ارادة المدمن ولكن كأثر لخداعه والوقية به في هذا الشرك المهلك الأمر الذي أصبحت فيه الأسر المصرية تعيش في حالة من الرعب الدائم خشية سقوط أبنائها في تلك الشرك بل تحول هذا الرعب الى حالة ارتياب الآباء في أبنائهم من هول فداحة القلق والمتابعة والمراقبة الدائمة مهما كان صلاح هؤلاء الأبناء واستقامة سلوكهم) .

وكان من ضمن توصيات ندوة خريجي كليات الصحافة اعدام تجار المخدرات ومصادرة أموالهم لاقامة مصحات لعلاج المدمنين وتم تحميل البيت المصري المسؤولية الأولى في انحراف أبنائه عن الطريق . . حيث لم يعد البيت المصري القديم بوجود الأب الورع الحامي للأسرة والأم بحنانها وجبها الكبير . وأن الشرطة وحدها لا تستطيع وقف سيل تدفق المخدرات الى الداخل والقانون وحده أصبح عاجزا في ظل عدم تنفيذ حالة اعدام واحدة في مهرب أو تاجر مخدرات من المحكوم عليهم كما ان حجم العلاج في البلاد باحصائية تقريبية لا يتجاوز المائتي سرير حكومي وغير حكومي كما ان العلاج الاستشاري من الادمان مكلف للمدمن ويكون ما بين ١٤٠ الى ٢٠٠ جنيه في اليوم الواحد .

ويقول المستشار سعيد العشماوي رئيس محكمة أمن الدولة العليا (ان تشديد العقوبة وحده غير كاف لاستئصال الجريمة وان القانون عنصر واحد من عناصر متعددة يتعين أن تعالج المشكلة على أساسها فمكافحة المخدرات ينبغي أن تكون ضمن خطة عامة تقوم على توجيه الاعلام توجيهها رشيدا واعادة تنظيم التربية على أسس سليمة ومنع انتشار الفكرة الخاطئة التي تزعم ان المخدرات ليست محظورة اسلاميا . . بعد ذلك يأتي القانون لمحاربة المتعاطي واستئصال المتجر أو الجالب ومعالجة المدمن أما الركون الى القانون وحده بعيدا عن هذه الخطة فلن يجدي كثيرا ويلاحظ أن تشديد العقوبات يفرض على ضمائر القضاة عبئا ثقيلا فكلما شددت العقوبة تعين تدقيق الاجراءات وتقليص الصلاحيات .

كما أكد الدكتور فتحي نجيب مساعد وزير العدل للتشريع (ان المشروع الجديد للقانون يعتبر علاج المدمن مستمرا حتى يندمج في المجتمع كشخص سوي كما استلزم التعديل الجديد انشاء مصحة في كل محافظة لعلاج المدمنين وهو أمر يفرض التزاما على الدولة بتوفير المصحات بدلا من ايداع الاشخاص من المدمنين الذين وقعوا ضحية هذا الداء في السجون مما يعرض نسبة منهم للاختلاط بطوائف المجرمين ويصبحون عرضة للانحراف وقد قرر المشروع الجديد حق المحكمة في ايداع المدمن احدي المصحات بدلا من توقيع العقوبة عليه كما لا تقام

الدعوى الجنائية ضد من يتقدم للعلاج من تلقاء نفسه كما يحق لأهل المتعاطي أو المدمن طلب علاجه في المصححة في سرية ملزمة للقائمين عليها.

هذه بعض ملامح التغيير التي يجري تضمينها مشروع القانون الجديد في مصر وهي أبرز السمات التي يجري تطبيقها في وحدات علاج الادمان هنا منذ سنتين . . ثم ماذا بعد؟

اننا في دولة الامارات العربية المتحدة قد استفدنا من توصية هيئة الصحة العالمية في وثيقة جنيف عام ١٩٨٦ باسم (القانون وعلاج الاشخاص المعولين على المخدرات والمسكرات) وهي دراسة مقارنة للقوانين السارية في الدول التي لها تجارب سابقة وبعد صدور القانون الاتحادي رقم (٦) لعام ١٩٨٦ في شأن المواد الضارة بالعقل وما في حكمها ونص القانون على انشاء وحدات علاج المعولين فقد تم تخصيص وحدة علاجية خاصة تستمد صلاحياتها من هذا التشريع ونتمنى أن تكون تجارب الدول الخليجية الأخرى والعربية على نمط علمي موحد يتم دراسته ومقارنته حتى نصل الى هدف توحيد وسائل مكافحة سوء استعمال العقاقير أو التعويل على المسكرات والمخدرات خاصة وقد أثبتت وثيقة هيئة الامم المتحدة لعام ١٩٨٧ على الاجماع العالمي في (مكافحة المخدرات والاتجار غير المشروع) والنظرة الشمولية على ان مشكلة المخدرات قضية عالمية تتخطى الحدود المحلية والاقليمية والدولية وعلى هذا فإن التخطيط الهرمي الذي لا ينبع من قناعة العاملين بأن المشكلة لم تعد مشكلة قطر وانما مشكلة عالمية يكون قاصرا في وضع الحلول أوسن القوانين والتشريعات التي تتكاتف كحلقة واحدة من الحلقات الدولية المتناسكة في مواجهة الخطر الواحد.

اننا نأمل أن تكون في تجربتنا المتواضعة مجرد الاطار الصحيح والبداية العلمية التي تنتظر التغيير والتبديل والتطوير بعد الدراسة والتقييم لاقامة نماذج مماثلة في الدول المجاورة تخضع لاشراف منظمة العمل الدولية (ILO) ومنظمة الصحة العالمية وبرنامج الامم المتحدة الانمائي (UNDP) لمكافحة سوء استعمال العقاقير .

هذه هي البداية . . وبعد استكمال المنشآت الصحية الحديثة نبدأ الخطوة الثانية في مستهل المشوار ومن سار على الدرب وصل . . شريطة أن يكون هناك تحرك مماثل من الدول الأخرى بنفس الاستراتيجية والوسائل المشتركة .

الحصار

لقد بات واضحا أن حرب المخدرات حرب غير معلنة تتغلغل في صمت وتتكاثر كالحلايا السرطانية في جسم المجتمع وتنتشر كالطاعون عن طريق مثلث الشيطان المتمثل في المهرب والمتجر والمدمن . . المثلث ذو الميئات الثلاث الملعونة وإذا أردنا وصفا مطابقا في الشكل متوازنا في الزاوية فهو مثلث الدمار وأبعاده الثلاثة : المنبع . . المجرى . . المصب ذو الميئات الثلاث المشحونة بالسموم السوداء والبيضاء والمركبات التخليقية في كل قرية . . ومدينة وقطر وإقليم وقارة .

ان حرب المخدرات حرب حقيقية . . حرب أخلاقية مفروضة على المجتمع وسياسية واقتصادية غير معلنة ضد الحكومات وأمنية طبية موجهة ضد وجود الانسان ومالم تتعامل معها الحكومات والدول والافراد بنفس القدر من الاهمية فإن الحرائق المتفرقة المشتعلة الآن ستظل مجرد ذؤابة في غابة وبقايا شرر من جحيم مستعر .

في حالة الحرب تعلن الدولة التعبئة العامة وفي مواجهة القضايا القومية تشن قوانين الطوارئ والاجراءات الاستثنائية التي تطبق في ظروف الحرب مثل حيازة السلاح ونشاط الجاسوسية والتخريب الاقتصادي وهي أسلحة يجب توظيفها في خدمة معركة المخدرات وإذا كانت تهمة الخيانة العظمى تعني في مفهومها الوطني ارتكاب فعل يضرُّ بالمصلحة العليا للبلاد فان الجلب والتهرب والاتجار في المخدرات يعني في القصد الجنائي تدمير البنية الأساسية للدولة على المدى القريب أو البعيد .

لقد جاء في تقرير لهيئة الصحة العالمية أن انتشار المخدرات أصبح أشبه بالطاعون الحديث فإذا نظرنا الى الاجراءات الوقائية التي تتخذها الهيئات العالمية

والمحلية عادة من تعبئة عامة وحملات اعلامية في المدارس والمؤسسات والتجمعات السكانية في حالة حدوث الأوبئة كالكوليرا والالتهاب السحائي فلماذا لا يتم نفس التحرك في محاربة المخدرات خاصة وان هذه الأوبئة الفتاكة لا تكون بفعل فاعل أو بهدف التخريب بينما تنتشر المخدرات وفق مخطط منظم (لمافيا) ارهابية وعصابات عالمية ذات أهداف واستراتيجية معروفة . . ويؤكد التقرير على خطورة الطاعون باحصائية وردت من سبع وعشرين دولة أوربية عام ١٩٨٧ عن حوادث السيارات التي تقع تحت تأثير المخدرات والمسكرات تقول (لقد وقع بها ١٦,٥٣٠,٠٠٠ حادث سيارة بسبب المخدرات نتج عنها وفاة ٩٣٠ الف شخص واصابة ٢٢٢,٠٠٠,٢٢٢ وتمثل هذه الأرقام زيادة قدرها ٣٢٪ عن معدل الحوادث وارتفاع ٤٣٪ عن معدل الوفيات في عام ١٩٨٠) وتقول ان السموم السوداء كالحشيش والأفيون والتي تنتشر عادة بين كبار السن في مقابل السموم البيضاء كالكوكائين والعقاقير التخليقية التي تنتشر بين فئات الشباب وفي عواصم المدن الكبرى وبينما كانت المخدرات تنتشر بين القطاعات الفقيرة من السكان وفي الأرياف أصبحت الآن تتمركز في الأحياء الراقية وسط العائلات الكبيرة خاصة مادة الهيروين والكوكايين واذا أضفنا حقيقة انتشار عقاقير الهلوسة والحبوب المنشطة بين ذوي الحرف اليدوية وسائقي سيارات الأجرة والشاحنات الثقيلة فتكون بذلك قد طوقت المخدرات كل الشرائح الاجتماعية وكافة القطاعات .

وفي هذا السياق ناقشت هيئة الامم المتحدة موضوع المخدرات في مناقشات عقوبة الاعدام قبل سنوات وقد وضع ان قانون المخدرات المصري رقم ١٨٢ لعام ١٩٦٠ يحكم بالاعدام للجلب والانتاج في مجال المخدرات والاعدام أو الاشغال المؤبدة للتجار ولكن لأن لم تُنفذ عقوبة الاعدام في حالة واحدة بين المحكوم عليهم بينما نجد أن بعض الدول التي طبقت العقوبة مثل الصين وماليزيا ودول أخرى قد انخفضت فيها جرائم المخدرات بنسبة ٥٠٪ ولكن هل هي السبب أم النتيجة : قوة الحصار أم عقوبة الاعدام أم الاثنان معاً؟ هذه المسألة مازالت موضع جدل قانوني واسع .

ان عقوبة الخيانة العظمى في حالة الحرب هي الاعدام وهي وسيلة لسد الثغرات للتسلل الى صفوف المقاتلين ولكنها لن تسقط العوامل الأخرى التي أدت الى نشوب الحرب ولذلك طالما ظل مثلث الدمار مفتوحا والمادة المخدرة تتدفق من المنبع فوجود المادة في حد ذاته يعني بالضرورة خلق مجرى لها داخل المجتمع وموقع تصب فيه في قطاع الشباب والفئات المستهدفة .

لقد أصبح الانسان ذاته وسيلة للتهريب ويسمونهم (المبتلعون أو المحشونون) حيث يتم حشو الامعاء والمعدة والجلد بالمواد المخدرة لعبور المنافذ ثم تفرغ الانسان في المواقع الأخرى وقد اكتشفت عن طريق أجهزة حديثة متطورة تكشف الأجسام الغريبة داخل جسم الانسان الى جانب الفحوصات العشوائية للبول والدم للحالات المشتبه فيها من المهربين وسائقي السيارات وأخيرا تصب كل هذه النفايات والمجاري الملوثة في نهر الأحزان في معدة المتعاطي وشرابين المدمن وضمير الطبيب المعالج الذي يمثل نهاية المطاف في كتيبة الحصار وأول الأهداف في ضحايا الدمار .

ان هناك نقطة في غاية الأهمية في حصار هذه الظاهرة وهي الاعتقاد السائد لدى الكثير من عامة الناس بأن القرآن نص نصا واضحا على تحريم الخمر بينما لم يرد نص واضح على تحريم المخدرات . . ولا يجدى كثيرا أن نقول أن هذه مغالطة ومكابرة وجهل . . كلنا يعرف الحقيقة ولكن أصحاب القضية يجهلونها وإذا أردنا أن ننجح في حصار الحريق فعلينا أن نوضح انه منذ حكم الامام ابن تيمية بحرمة تعاطي الحشيش في عهد التتار في القرن السادس الهجري حين قام التتار بترويجه بين المسلمين فحكم بكفر المتجر فيه وعلماء المسلمين يصرون شتى الفتاوي لتأكيد هذا المعنى الذي مازال بعيدا عن ضحايا المخدرات .

إننا بحاجة الى قراءة جديدة في ملف المخدرات تتجاوز الطرح المستهلك للقضية والاهتمام الموسمي على المستوى المحلي أو الاقليمي أو الدولي . . اننا بحاجة الى اعادة النظر بروح عصرية متجردة في كل القوانين والمعاهدات والبروتوكولات الدولية الخاصة بالمخدرات لا على أساس أنها مشكلة قطر أو

اقليم أوقارة وانها مشكلة عالمية أكبر من حقوق الانسان وسباق التسلح والتدهور الاقتصادي لأنها تجمع كل هذه العناصر في مصير الانسان . . يكون أم لا يكون . . وبهذه النظرة الشمولية الجديدة يستطيع السكرتير العام للأمم المتحدة بالاتفاق مع الحكومات والهيئات والتجمعات الاقليمية وبنفس الروح التي يتنقل بها من بلد لآخر أن يقوم بدور أكثر فعالية لوقف الحرب العالمية الكبرى غير المعلنة والتي تدور في أكثر من موقع . . حرب المخدرات . . وهذه هي بداية الحصار.

عالم . . داخل المتاهة

المتاهة شبكة من الممرات المعقدة والمحيرة . . وقد استحدث رواد علم النفس التجريبي لشتى الأغراض أجهزة علمية اطلقوا عليها أسم «متاهة» وهي تستعمل عادة في دراسة سلوك الانسان أو الحيوان، وفي ملاحظة واستنباط وقياس قدراته الخاصة والعامة من خلال تفسير الحاجات بالدوافع الاساسية . ثم استخدم علماء النفس هذه «المتاهة» بصفة عامة في اختبارات الذكاء وغيرها، وتتكون في أبسط صورها من شكل هندسي به ممر صحيح وعدة ممرات متعرجة عمياء أو خاطئة . ونجاح الاختبار لا يقاس فقط بالقدرة على اكتشاف الطريق الصحيح، ولكن بنوعية السلوك المؤدي لذلك، والمدى الزمني الذي يتم فيه، الى جانب عوامل أخرى يتحكم فيها مصمم الاختبار في ظروف مقننة .

كان شعوري أشبه بالدخول في متاهة على مدى ثلاثة أيام ونحن نتابع العلماء والباحثين يحاولون الخروج من متاهة «الايدز» بالطريق الصحيح وسط شتى المنعطفات العلمية بأقصر وقت ممكن . . كان هذا الشعور الخاص يتغلغل بين جمهور المستمعين في أكبر تجمع علمي شهدته البلاد، اكتظت به قاعة المجمع الثقافي الكبير في أبوظبي في «مؤتمر الايدز» في الفترة ما بين الأول والثالث من أكتوبر الماضي تحت رعاية وزارة الصحة وتنظيم جمعية الامارات الطبية بالتعاون مع المجمع الثقافي .

وعندما أقول أكبر تجمع - جماهيريًا - فاني لا أتحدث بالقياس للحضور النسبي لما يدور في الأنشطة الأخرى في المجمع، أو أي مؤتمرات ذات صبغة مختلفة في الدولة . . وعندما أتحدث عن أعظم تظاهرة علمية، فاني لا أقلل من شأن التجمعات العلمية التي تمت سابقا بتنظيم جمعية الامارات أو غيرها في أفخر

فنادق الدولة . . ولكنني اتحدث بالتحديد القاطع عن الأهمية الحسية والمعنوية التي اكتسبها المؤتمر وفاقت تصوراتي المتواضعة رغم اهتماماتي الشخصية بحضور هذه المؤتمرات على مدى اعوام طويلة . ولعل هذا الشعور الذي غمرني منذ بداية المؤتمر، وتأكد لي بعد نهايته، يتطابق وكل صفات العظمة والتوقير لهذا التجمع العلمي . . لقد أحاطت بالبحث بكل جديد حول مرض «الايذز» من دراسات وبائية ووسائل تشخيص واختبار وطرق عدوى وانتقال، الى آخر المبادرات التي تبرر استهلال الحديث عن المتاهة .

فقد دخلت بداية المؤتمر كأحد المهتمين بالقضايا الصحية وأقل العاملين في هذا المجال تخصصاً فيه، ومن أكثر الباحثين جهلاً به . . وارتدت أن التقط فقط رءوس الموضوعات ذات الاهتمام المشترك بين دقة التخصص وضرورة وعي العامة له وصلة الطب النفسي به فوجدت نفسي مشدوداً داخل القاعة التي اكتظت بالناس وقوفاً ساعات وإياماً وبقيت متمسراً في مقعدي لا بدافع الفضول الذي يثيره هذا «الطاعون الحديث» في كل أرجاء العالم ولكن بنهم المتلهف لدسم الأبحاث التي عرضت وسرعة التكنولوجيا المستحدثة في مكافحة هذا الوباء، والانتصارات التي تحققت، وهكذا كان الدخول في المتاهة يدفع المستمعين بطريقة لا شعورية للاستمرار بكل مشاعر التحفز والاثارة التي تشهدها في أفلام هتشوك وأجاثا كريستي وكولمو.

لقد ألغيت كل ارتباطاتي السابقة، واسقطت من مفكرتي كل العناوين التي اخترتها للمحاضرات لشعوري بأنني في بداية «مسلسل» علمي مترابط الحلقات وغيايبي عن أحد حلقاته يعني فك الخيط الرفيع الذي يربط بين أشتات الأبحاث القادمة من جامعات ميتشيجان وبلجيكا وكولمبيا البريطانية وفرنسا وكوبا وسويسرا وألمانيا الغربية وبريطانيا، وكأن هذه الدول المتناثرة في كل خريطة العالم الجغرافية تدخل كلها في «متاهة» واحدة لتشهد كيف يسلكون الطرقات بالداخل للخروج من بوابة واحدة وقف أمامها الدكتور «هارت مست» من ألمانيا الغربية في ختام المؤتمر متسائلاً: «الايذز . . ماذا ينبغي لنا في المستقبل؟؟» .

لقد استهلكت المؤتمر الدكتورة جون أوسبورن مديرة مركز أبحاث «الايذز» في جامعة ميتشيغان بأمريكا منذ عام ١٩٨١ ، وخبيرة هيئة الصحة العالمية ، وتحدثت عن وبائيات ، «الايذز» منذ اكتشاف أول حالة في أمريكا ، وآخر ما توصل اليه العلم في مجال الاحصائيات الوبائية . وقد كانت صادقة في طرحها ، دقيقة في اجاباتها موسوعية في معرفتها ، لآخر تطورات هذا الوباء ، وكانت تقود المؤتمر داخل المتاهة بهذه الصفات التي جعلت عامل الاثارة يشد الناس الى مقاعدهم دون كلل أو ملل أو نوم أو محاولات للخروج من الابواب الخلفية كما يحدث في أحلى الامسيات الشعرية تحت هذا الصرح الثقافي العملاق .

وقد طرح المؤتمر أبحاثا مثمرة ومتميزة حول «الايذز» ونقل الدم ، وأكد ان الثابت والموثوق ان عمليات نقل الدم للمرضى وتعاطي المخدرات بالابر من ضحايا الادمان هي أحد الاسباب الرئيسية في نقل «فيروس الايذز» كما قام الدكتور شارلس فارتنج بجولة علمية مثيرة حول فيروس «الايذز» واعراضه الاكلينيكية ومعالجته الطبية ، وكان أحد النجوم اللامعين في «مسلسل مؤتمر الايذز» والذي كانت فرصته لن تعوض في العروض الشائقة على مدى ثلاثة ايام ، لم يتكرر فيها مشهد واحد يبعث على الملل في الحضور . كما قدمت أبحاث أخرى أكدت ان خلل العلاقات الانسانية المتمثلة في الممارسة الجنسية الشاذة هي ثانيا الاثافي في نقل الفيروس . كما حملت «كوبا» شعلة مضيئة في دهاليز العالم الثالث حين قدمت مساهمتها المتميزة في وسائل التشخيص باستخدام تكنولوجيا الهندسة الوراثية في جامعة «هافانا» وهكذا تلاقى كوبا والولايات المتحدة في رحاب العلم ضد عدو مشترك حقيقي أكد ان نقاط الاتفاق أكثر وأنبل بكثير من أسباب الاختلاف بين كل دول العالم ، عندما يكون الهدف في استراتيجية الدولة هو خدمة السلام العالمي ومصلحة البشرية جمعاء ، وان الميدان الوحيد الذي يجمع بين هذه الغايات النبيلة هو مجال العلم الذي لا يعرف له وطنا ولا يعترف بالحواجز الجغرافية والسياسية والعنصرية ، لأن العلم في خدمة الانسانية

وقد كانت حصيلة المؤتمر أكثر من ثلاثين بحثا علميا دقيقا تعكس أرقى

وسائل التكنولوجيا المتطورة والتقنية الحديثة في معالجة وبائيات «الايذز» .

وقد وضع ان العالم المعاصر كله يعيش داخل هذه «المتاهة» خارج المؤتمر والفارق ان العالم بالخارج يسير داخل المتاهة في الظلام، ويمشي في الرمال المتحركة والمستنقعات، بينما كانت رحلة المؤتمر داخل «المتاهة» من الداخل في الاعماق، مضاءة بالمصابيح الكهربائية في الطرقات المظلمة، ومزودة بأحدث الآليات في التنقل بين الرمال والمستنقعات والمرتفعات، ولذلك استمتعنا بلذة الرحلة واكتشاف المجهول، بينما كنا بالخارج مع أفراد الجمهور نعرف فقط «مانشيتات» صحفية عريضة مفزعة: «الايذز» ينتشر كالطاعون، وينفجر كالبركان، ويقتل كالقنبلة الذرية . . ولكن كيف يحدث ذلك؟ ولماذا؟ كانت أسئلة خارج دائرة فهمنا القاصر لطبيعة الوباء . . ولذلك قررنا بداية حضور بعض الجلسات، واكتفينا بانتقاء ما نعتقد أننا نقصنا معرفته . وعندما دخلنا القاعة، وكان لنا شرف المشاركة والحضور، وجدنا اننا كنا نجهل كل شيء وان الموضوع أكثر خطورة، ويتطلب حضورا يوميا في ذاكرتنا، أفرادا وجماعات .

ان التوعية العامة هي الوسيلة الاولى والوحيدة المتاحة حتى الآن لمحاربة هذا المرض في غياب مصل فعال أو علاج قاطع . . وقد أسعدنا أن هيئة الصحة العالمية في اعلان لندن في يناير ١٩٨٨ قد جعلت ديسمبر ١٩٨٨ «شهر الايذز» ليواكب هذا المؤتمر النموذجي في حملة علمية مكثفة لاسئصال شأفة هذا المرض القاتل، في مناخ وعي صحي شامل وتحرك جماهيري من الظلمات الى النور وهذا ما دفعني للكتابة في هذا الموضوع، مساهمة في الطرح الموضوعي للقضية .

ان أعظم نقطة مضيئة تسجل لهذا المؤتمر هي الخروج بالمشكلة من قمم التعتيم الذي عاش فيه عالمنا العربي أو «المتاهة» التي مازال يسير في ممراتها المتعرجة، الى ضوء الحقيقة، لنواجه مصيرنا بجرأة علمية مجتمعين في محطات الاتفاق، بعيدين عن هاويات الاختلاف، لنعلم أن أكبر وسيلة لانتشار الوباء هي ضعف الرأي العام وغفلته الفكرية والنفسية عن خطورة اختراق المرض لدفاعات القيم الروحية، والجمالية في المجتمع، واهدار العلاقات الانسانية،

وتفكيك البنية الاساسية للاسرة والدولة والامة . . قضايا لا تستطيع أن تدافع عنها الدولة منفردة في غياب الوعي الجماهيري . كما تمنيت لو تمكنت قطاعات أخرى من المجتمع من المشاركة في أعمال المؤتمر، ولو تم نقل بعض جلسات المؤتمر مع الترجمة الفورية على الهواء مباشرة من داخل قاعات المجمع الثقافي، وتكون هذه مبادرة فذة في التوعية الصحية بأخطار هذا المرض على مستوى الدولة . . لقد خرج كل الناس من المؤتمر ولسان حالهم يقول: خذوا عمري واحموني من «الايـدز» .

الرسالة

انعقدت في العشر سنوات الأخيرة عدة مؤتمرات وحلقات دراسية حول ظاهرة المخدرات وتمت دراسات ميدانية من الافراد والهيئات والمؤسسات متعددة الاهداف والاتجاهات ونشرت الكتب والدوريات وقامت فئة مخلصه من المهتمين بهذه الظاهرة بتوفير المراجع العلمية الكافية للحصول على الماجستير والدكتوراه من كثير من الجامعات العربية حول أسباب نشوء الظاهرة أخطارها والوقاية والعلاج، أقول هذا وأمامي بعض هذه الاطروحات و«الرسالات العلمية» وأكرر هذا وقد حضرت معظم هذه المؤتمرات وأعيد الحديث مرات بعد أن تضافرت الجهود وأصبحت (الرسالة) أمانة في أعناق جهات عديدة مختلفة التخصص متحدة الهدف في وصول الرسالة الى أصحاب القضية وضحايا المعركة . . الصحة والتربية والتعليم والاعلام والثقافة والشئون الدينية والعمل والشئون الاجتماعية اضافة الى الجمعيات الخيرية وذات النفع العام ولكنني أكتب هنا لأطرح وجهة نظر حول الدراسات والتوصيات المقدمة من مؤتمرات الأطباء النفسانيين العرب الثلاثة وتصنيفاتها المحلية والاقليمية والدولية والتي انعقدت في السنوات الاخيرة وقدمت دراسات كانت نتاج عناء فكري وجهد علمي مقدر أفرزت توصيات لو طبقت البنود الاولى من أول مؤتمر لأوصلنا الرسالة الى الشريحة المستهدفة وأدينا الأمانة للفئة المعنية بأضرار المخدرات وقاية وعلاجاً من فئة الأطفال والمراهقين والمسنين!!

وما يبرز وجه التناقض بين الجهد المبذول وعائد الوصول ويوضح المسافة الطويلة بين الدراسات والمؤتمرات في نطاق المتخصصين وحجم المسألة مع ضعف الحيلة والبصيرة لدى فئات المتضررين نجد أن ظاهرة المخدرات بدأت تتزايد

بشكل مرعب في كل أركان العالم ويتصاعد بأرقام فلكية وتنتشر كالحريق في المهشيم ويتساقط الضحايا كالجنود المشاه الذين يسرون في حقول الالغام ولا يعرفون الى أي مدى تمتد المساحات المملوغة لأنهم لم يستلموا (الرسالة) التي ماتزال تتعثر في بريد المؤتمرات .

اننا في العالم العربي نمتلك القدرة الفكرية الانطباعية التي تصل حد التقليد في استيراد كل ما يصلنا من أساليب حديثة في سبيل تطوير مجتمعاتنا قولا وفعلا ولكننا نتمتع ببيروقراطية متميزة قادرة على تجميد كل هذه الاساليب وتعليبها وفك الارتباط بين النهج في التخطيط والسلوك المقابل في التطبيق ولذلك لا نجد صعوبة فكرية أو مادية في عقد المؤتمرات ورصد التوصيات الفعالة والمؤثرة ولكننا نصطدم بعقبة التنفيذ وفي غياب التنفيذ تصبح كل القرارات حبرا على ورق وهذه العبارة أصبحت تلوكها الألسن عقب كل لقاء في كل المستويات ولو تأملنا بنفس الحساس الذي دار في المؤتمر وذات الشفافية في الحس والادراك التي ولدت التوصيات لعرفنا لماذا لا يستقيم الظل والعود أعوج .

ان مؤتمرات مكافحة المخدرات أصبحت من وضوح الرؤية لدى المتخصصين في شتى أجهزة مكافحة بحيث تكاد تكون توصيات أي مؤتمر جاهزة قبل الجلسة الختامية ولكن شعورا غريبا بأن نهاية المؤتمر وصدور التوصيات يعني نهاية المهمة يجعل معظم القرارات لا تصل الى مجراها الطبيعي ولا تصب في قنواتها الصحيحة . . ولا تصل (الرسالة) وتصبح التوصيات غاية في حد ذاتها لا وسيلة تهدف الى جمع الحقائق ورصد المعلومات والنظر الى أفضل الطرق لترجمة هذه الحقائق الى ممارسات يومية تصل الى القطاعات ذات المصلحة الحقيقية في طرح القضية في شكل ندوات أو لقاءات أو حوارات مفتوحة أو برامج اعلامية أو أفلام سينمائية أو مشاركة في الدورات التدريبية أو مراكز توجيه وإرشاد بحيث تتحول المعلومات المعلبة الى أطواق نجاه تنتشل الساقطين في بؤرة المأساة فيكون قد نزلنا من برج التنظير الى مرحلة التأطير السليم للمشكلة ثم عملية التحرير للرهائن المحتجزين في داخل معسكرات المخدرات .

لكن ما يحدث فعلا ويؤلم حقا ان ظاهرة المؤتمرات المتعجلة والقرارات المؤجلة أصبحت شبه نهج فكري ينتشر في كل الاوساط ونادرا ما نتساءل ماذا تم في توصيات المؤتمر السابق قبل أن نقرر موعد المؤتمر اللاحق .

وأنا عندما أخص بالذكر مؤتمراتنا الطبية وبالتحديد مؤتمر الاطباء النفسانيين العرب الذي هو شعبة من اتحاد الاطباء العرب وبالذات المؤتمر الثالث والآخر المنعقد في الأردن الشقيق عام ١٩٨٧ وجمع خيرة الاطباء النفسانيين العرب لأنني أهدف من تعميم المقدمة الى تلخيص التجربة الخاصة بهذا المؤتمر والذي تحمل عبء المساءلة فيه ولا انتقص من حق المعدين له من دراسات قيّمة انتهت بتقديم سبع عشرة توصية وتكوين مجلس ادارة للاتحاد تضم كلا من الاردن ومصر والسعودية والعراق والامارات والكويت وقطر والبحرين والمغرب واليمن وكانت التوصيات بمثابة ميثاق عمل لو قدر لمجلس وزراء الصحة العرب أن يتبناه لأصبح ورقة عمل لتطوير الخدمات النفسية في كل أرجاء الوطن العربي .

وبما أن التوصيات كثيرة ومتداخلة فاني أذكر ذات الاهتمام المباشر بما طرحته من ملاحظات تقول التوصية السابعة «يجب الاهتمام بدراسة وبائيات الامراض النفسية بطريقة علمية مقننة وذلك يساعد على رسم الخطة الوقائية العلاجية مع الأخذ في الاعتبار بالأعباء الاقتصادية للبلدان النامية والتي تواجه العديد من الأعباء والمشاكل الاقتصادية» واذا لم تكذبني الذاكرة فإن هذه التوصية قد وردت في توصيات المؤتمر الدولي لمكافحة الاعتماد على المخدرات والمنعقد في البحرين في عام ١٩٧٥ قبل عشر سنوات ولو تمت المتابعة من ذلك الوقت لكان الوضع اليوم يختلف كثيرا مما هو عليه من ازدياد مضطرد لقضايا المخدرات ومعدل الجريمة، والتوصية الثامنة تقول «يجب تحديد الفئات الأكثر تعرضا للامراض النفسية والعصية (Risk Group) وهم الأطفال والمراهقون والمسنون وتركيز الجهود لتقديم الخدمات النفسية اللازمة لهم وقائيا وعلاجيا مع الاهتمام بوجه خاص بالمشاكل النفسية للشباب مثل الاضطرابات السلوكية الاجتماعية ومشاكل الادمان والاعتماد على المخدرات والسموم البيضاء التي تفتشت خلال السنوات الماضية والتي تحتاج

الى أساليب مختلفة عما كان متبعاً في علاج المواد المخدرة التقليدية كالحشيش والأفيون» وإذا صدق ظني فإن هذه التوصية وردت في توصيات مؤتمر (الشباب والصحة النفسية) المنعقد بالقاهرة في جامعة الدول العربية في عام ١٩٧٥ حيث كان هناك شبه اجماع على أن بعض دول هذه المنطقة لا تعاني من مشكلة مخدرات وكان الاستاذ الدكتور مصطفى سويف المشهور له بمعرفته الموسوعية بأبحاث الحشيش والأفيون وسط الشباب وطلاب المدارس والجامعات في مصر قد استشهد بالتوجه المنتشر في أمريكا نحو عدم تحريم الحشيش خشية الوقوع في قبضة مخدر أكثر خطورة واليوم بعد كل هذه المؤتمرات المتسابقة والمتلاحقة تصبح مشكلة المخدرات كزائر الليل يطرق كل البيوت الآمنة والاقطار البعيدة عن هوة التردى والضيق النفسي لتشعل حريقاً في كل المجتمعات الغنية والفقيرة المتقدمة والمتخلفة وتنحسر موجة الحشيش ليتصدر القائمة خطر الهيروين والكوكايين وتدخل المخدرات في تجارة «مافيا السلاح» فتحارب في معركة واحدة بسلاحين كلاهما أشد خطورة من الآخر . والفئة المستهدفة لم تصلها (الرسالة) وهي تبحث عن مخرج الطوارئ وسط هذا الحريق الكثيف .

والتوصية التاسعة «يجب التوعية بخطورة سوء استعمال العقاقير الطبية المهدئة والمسكنة والتي كثيراً ما تؤدي الى الادمان والتعود وكذلك عدم الافراط في استخدام المسكنات بعد العمليات الجراحية وذلك بتوعية زملاء المتخصصين في فروع الطب الأخرى لخطورة الاستعمال» .

اني أستطيع أن أؤكد ان ما من مؤتمر حول مشكلة الادمان تمت الدعوة اليه في قطاع الصحة والتربية أو الداخلية أو المؤسسات الخيرية والتطوعية إلا استهل ديباجة التوصيات بهذه الفقرة الهامة والتي من فرط تكرارها أصبحت مثل عبارة التحذير المكتوبة في عبوة السجائر « التدخين سبب أساسي للسرطان» وما زال الناس يدخنون!

ان هذا لا يلغي دور المؤتمرات ولا ينتقص من أهمية التوصيات ولكن لا بد أن يكون الهدف العملي هو وصول هذه (الرسالة) الى أصحاب القضية الذين

يدفعون الثمن غاليا ويسابقون الزمن ويخسرون كل يوم موقعا جديدا في معركة تحرير أنفسهم من عبودية المخدرات نتيجة الممارسات الخاطئة والمفاهيم المغلوطة والمشوشة في أذهانهم وعقولهم للفوارق العلمية بين الخصائص الكيميائية والمشتقات والاستعمالات الطبية للمهدىء والمسكن والمخدر وما هو الفارق بين التعاطي والتعود والادمان؟ هل هو فارق كمي أو كيفي . . نوعي أو موضوعي أو موضوع حياة أو موت؟!

ما زالت هذه التساؤلات الأساسية بعيدة عن دائرة اهتمام أصحاب القضية من الاطفال والمراهقين والشباب والمسنين . . أكتفي بهذا القدر من الملاحظات مؤكداً أن معظم هذه التوصيات كانت ومانزال احدى أولى استراتيجيات المكتب الاقليمي للصحة النفسية لاقليم شرق البحر الابيض المتوسط EMRO التابع لهيئة الصحة العالمية بالاسكندرية قبل عشرين عاما .

وأتمنى ونحن نتأهب للمشاركة في أعمال المؤتمر القادم والذي سينعقد في صنعاء بإذن الله العام القادم أن تكون الرسالة المكتوبة من الاخوة أعضاء اتحاد الاطباء النفسانيين العرب الى اخوانهم وأبنائهم في البلاد العربية قد وصلت اليهم ما بين ابريل ٨٧ حتى ديسمبر ٨٩ وأدعو مخلصا أن تتحقق هذه التوصيات ولا تبقى مجرد أمنيات وما نيل المطالب بالتمني . .

الفصل الثالث عشر

(قضايا أدبية)

- بين الطب والأدب
- من حصاد المربد
- أزمة الرمز في الشعر
- الشعر والذاكرة
- عود على بدء

بين الطب والأدب

كتب أحد الأدباء عن علاقة الطب بالأدب يقول اذا كان المجال لا يتسع لنشر أسماء أعلام الطب في الأدب، أو أعلام الأدب في الطب، قديماً وحديثاً، فانك يمكن أن تسمع من يعرف عن نفسه بالقول «أنا طبيب أولاً وأديب ثانياً»، ولكن من المستحيل أن تسمع من يقول: «أنا أديب أولاً وطبيب ثانياً»، فإذا كان نفي النفي اثباتاً، فان هذه الحقيقة تثبت ان الطبيب عندما يقول انه طبيب، فهو يقرر حقيقة، ولكن عندما يقول انه أديب، فهو يطرح افتراضاً أو يقدم ادعاء يحتاج الى أدلة قابلة للرفض والقبول والنفي والاثبات.

وتحضرني في هذه المناسبة المناظرة الشائعة قبل عشرين عاماً في جريدة «الصراحة» السودانية بين أحد كبار شيوخ الصحفيين الاستاذ المرحوم عبدالله رجب حيث كتب في زاوية «الصراحة راحة» تحت عنوان «الشعراء يتبعهم الغاؤون» مقالة نقدية قاسية عن الشاعر الاستاذ السرکنه الذي كان يعمل طياراً في إحدى شركات الطيران، وقد قال فيما قال: «لقد كنت أظن - الى عهد قريب - ان الاستاذ كنه طيار بين الشعراء وشاعر بين الطيارين حتى تكشف لي انه غراب وسط الطيور وطيور وسط الغربان».

وقد اشتهر المرحوم بصراحته المفرطة ومساجلاته المحبطة ومقارناته المماثلة بين الأدباء والشعراء السياسيين، وكان بارعاً في مقالاته في أسلوب «التورية» حيث شرح في مقالته ان ما يميز الاستاذ كنه وسط الطيارين انه يملك قدرة اضافية، ولكنه لا يجيد قدرته الأصلية في قاموس الطيران، المعيار الأساسي للفشل والنجاح في أي مهنة، بينما يتفوق على الشعراء بخبرة مكتسبة في الطيران لا ترقى الى مستوى القدرات الفكرية عند الشعراء «كالمثبت لا ارضاً قطع ولا ظهراً

أبقى»، لا الطيار المجيد ولا الشاعر الفريد . . اما وصفه بالغراب بين الطيور، فيفسره بالنظرة النفسية التشاؤمية عند الشعراء القدامى في وصف الغراب كنذير شؤم للفراق والديار الموحشة حين قالوا عنها: «وغراب البين فيها ينقع» .

وفي النظرة الجمالية مقارنة الغراب وما يحمله من سواد اللون وكآبة المنظر والطيور وما تثيره من مشاعر الالفة والمحبة وصفات الاناقة، فإن قوله «طير» بين الغربان يعني ما جرى على لسان عامة الناس في السودان، في اطلاق كلمة «طير» كناية عن عدم رجاحة العقل، كوصف النعامة التي تدفن رأسها في الرمال وسط الغربان التي تحرق نظراتها حجب الظلام، أي مقابلة السذاجة بالفطنة، والسطحية بالحكمة .

وأذكر عندما تصديت للدفاع عن الاستاذ كنه دون سابق معرفة، ولكن من أجل عيون الحقيقة التي كانت تؤكد اقتداره رغم عدم تفرغه قياسا بقدرات المتفرغين في مهنتهم، انبرى لي أديب مقاتل بعنوان بركاني يقول «اذا كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا» واخذ مادة كتابته من قصيدة «شهر يوليو» التي كتبتها عندما كنت طالبا في الجامعة تحية للعام الجامعي الجديد قبل أن يكمل دورته المائة خلال عشرين سنة في الصراع الديهاجوجي بين ادارة الجامعة والطلبة، وقد أخذ أحدمقاطعها التي تقول في ديوان (الضياء والحريق) الذي صدر عام ١٩٦٨ :

وعيونى تتغلغل

تنبش الاجساد مفصل بعد مفصل

كل رمش في عيونى الف مغزل

يتجول

مثل مجهر

في الوجوه الأجنبية

فقال الناقد «لقد تأثر الشاعر بعلم التشريح والميكروسكوب والفيزيولوجيا في وصف أعضاء الانسان فأصبح شاعرا وسط الاطباء وطببيا وسط الشعراء . . والحق يقال ان الاستاذ المرحوم عبدالله رجب تصدى له متهما اياه بسرقة تعبيره وتكرار

مقولته ، وقال ان ذلك من باب المدح المقصود به الذم ، وكنت أعتقد صادقا انه الذم ذاته الذي يفضي الى المدح رغم أنف القائل «عدويقدح وصدیق یمدح» يذكرني قول المتنبي :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب نفع العود

ولا أعتقد ان أحد أصدقائي الصحفيين أو الادباء والكتاب والفنانين في السودان في ذلك الوقت كان يعرف حقيقة وجودي في مجال الطب والادب . . ولا يعرف أن بداية علاقتي بالطب كانت أشبه بالزواج الكاثوليكي .

وكان يسعدني كثيرا وجودي أديبا بين الأطباء أكثر منه طبيبا بين الأدباء ، فالأولى تستوجب لي اعتراف الآخرين ، والثانية تستلزم مني اثبات وجودي ، ولكن قدر الله وما شاء فعل . . ولترتيب هذه المعطيات المتفرقة في سياق تاريخي مقبول ، كان تعقيبي علي الناقد مفاجأة للكثيرين حين ذكرت انني عندما تقدمت للالتحاق بالجامعة ، كانت تدفني رغبة جامحة في الالتحاق بكلية الآداب والحصول على دكتوراه في النقد الادبي والترقي في سلم العلوم الأدبية ، وبما أن الشهادة الثانوية حينذاك «كمبردج» كانت تعطى صاحب المجموع التنافسي العالي الحق في اختيار أي كلية علمية أو أدبية ، فقد دخلت كلية العلوم للمنافسة لكلية الطب . . وعندما سمعت أصوات الطيور المغردة في حدائق الشعر والامسيات الأدبية ، شدي شعوري الغريزي الى الجانب الآخر من الجامعة . . الى الكليات النظرية وكان وقت التسجيل قد انتهى ، فذهبت الى الدكتور عبدالله الطيب أطلب منه المساعدة في اعادة تسجيلي في كلية الآداب ، وقد كان شاعرا وأديبا وكاتباً مرموقاً في أروقة الجامعة ، ومازال علماً بارزاً يشغل منصب أستاذ الأدب العربي في جامعة الملك محمد الخامس في الرباط .

لقد طلب مني أن أتقدم بطلبي مشفوعاً بمجموعي التنافسي الأدبي ، معتمداً من مسجل الكلية آنذاك ومدير جامعة أم درمان الاهلية حالياً الاستاذ الدكتور محمد عمر بشير ، وتمت الموافقة في مجلس الكلية ودخلت قاعة المحاضرات

في كلية الآداب لأول مرة، وتشاء الاقدار أن تكون أولى المحاضرات للاستاذ المرحوم الدكتور محمد المعتصم حول «بحور الخليل في الشعر العربي» وكان معروفا بحبه لتسجيل مادة محاضراته، وكانت تجربتي مع بحور الشعر غير موفقة، حيث كنت مندفعاً في اتجاه المدارس الشعرية الحديثة آنذاك، وموجة التحرر من القافية، اضف اليه انتقالي المفاجيء من مختبر كلية العلوم حيث العلاقة بين السبب والنتيجة من خلال التجربة المحددة الى البحور الشعرية الواسعة التي تمثل طفرة نفسية لم نتهياً لها ذهنياً، فلم يكن معي قلم ولا دفتر، فقال الدكتور في سخرية: «لولا ان الشقيقة مصر ألغت لقب الباشوية لقلت للبيه الي فوق: لماذا لا تكتب؟.. مش عاجبك الكلام والا ايه»..

فأيقظني صديقي الاستاذ أحمد الأمين البشير - مندوب السودان في الامم المتحدة حالياً - قائلاً: «هذا الرجل يتحدث اليك والافضل أن تكتب شيئاً، ولم تكن لدي الوسيلة، ولا عندي الرغبة، فالتزمت الصمت، وفجأة واجهني مباشرة قائلاً: «لماذا لا تأخذ مذكرات» فلم تسعفني سرعة البديهة وحضور الذاكرة، فقلت له: انني أعرف بحور الشعر فانتفض ثائراً: «اذا كنت تعرف بحور الشعر، لماذا جئت الينا؟ هل لتمتحنني؟ لا بد من أن يبقى واحد فينا ويخرج الآخر»، وبما انني كنت عند الباب، فقد خرجت ولم أعد حتى الآن، لأن التجربة كانت أشبه بالحلم.. بالكابوس المتقطع، فقررت العودة نهائياً الى كلية العلوم، خاصة وان كل المواقيت قد أذنت للمغيب.

ورجعت الى مدرج العلوم، وجلست في مؤخرة الصف، فجاء استاذ الاحياء، عميد الكلية الاسكتلندي، الدكتور ماكلي ذو الشوارب المعتدلة والغليون المتأجج مثل مداخن أدنبره، وقد كان مشهوراً بعدائه للكليات النظرية ونظراته المتعالية عليها وكان يسميها «الجانب الآخر من الجامعة».. جاء ليقول بصوت جهير «لقد سمعت ان أحد السذج» قد عبر الحدود الى الجانب الآخر من الكلية.. من هو؟.. هل هو هنا؟ وهممت بالوقوف إلا ان يد المعيد كانت أسرع مني فشدني الى مقعدي وهمس في أذني: لا تتحرك من مكانك.. وعند خروج

العميد عرفت من المعيد انه كان يرغب في مقابلتي حتى يعطيني درسا يكون عبرة
للذين تراودهم أحلام التفكير في ترك الكلية، خاصة الى كلية نظرية .
وبالتحديد الآداب .

وهكذا «أردت عمروا فأراد الله خارجه» . . وبقيت في مقعدي :
كالذي ألقوه في اليم مكتوفا وقيل له اياك اياك أن تبتل بالماء
وعندما دخلت الطب في نهاية العام، قلت: وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير
لكم، والآن اذا استطعت أن أقول انني طبيب بين الأدباء . . فهل يحق لي أن أقول
انني أديب بين الأطباء؟
عودا على بدء . . هذا شأن الآخرين .

من حصاد المربرد

لقد كان من أبرز أحداث العام الماضي قيام مهرجان المربرد الشعري الثامن في بغداد تحت شعار «لماضينا نغني ولستقبلنا نطلق الكلمة» وقد أضاءت شعلة المربرد القديم في ضواحي البصرة كل مدن العراق ولسان حالها يقول:
بغداد والشعراء والصّور ذهب الزمان وضوؤه العطر

وقد فاتني شرف الحضور واقعدتني ظروف العمل عن تلبية الدعوة الكريمة المقدمة من سكرتارية المهرجان من طرف الأخت الفاضلة الشاعرة العراقية الكبيرة الاستاذة لميعة عباس عمارة. . والشيء بالشيء يذكر. . فقد كتبت لي الشاعرة الكبيرة قبل أكثر من عشر سنوات بعد قراءة ديواني (مع رياح العود) تسألني عن الصدفة في تطابق الأسماء. . وتسألني أن أبحث في الأصول والفروع في شجرة العائلة وكنت وقتها في السودان، وقد رددت عليها برسالة مع أحد الأدباء السُودانيين المقيمين في بغداد آنذاك قائلاً: (رب أخ لم تلده أمك). . وتشاء الأقدار أن نلتقي بعد عشر سنوات في أبوظبي لقاء عفويا ماثلا عندما رفعت الهاتف وكان الصوت القادم من الطرف الآخر صوت الشاعرة الكبيرة لميعة عباس عمارة تنقل إليّ نبأ حضورها للمشاركة في الموسم الثقافي بدعوة من وزارة الاعلام وتقيم في فندق «هيلتون» أبوظبي والتقينا وأهدتني ديوانها الأخير (لقد أنبأني العراف) وفيه عبارة (حتى نلتقي في بغداد) وكأنها بدعوتهما الأخيرة تبرّ بوعد قطعته وود صنعته وكان لي أجر المحاولة وجهد المواصلة، فاعتذرت بقصيدة بعثت بها إليها في بغداد.

اذكر هذا مدخلا للحديث عن حصاد المربرد العظيم. . حيث كنت قد ناقشت مع الشاعرة المبدعة موضوع الحداثة والرؤية في الشعر العربي المعاصر،

وتطرقنا الى الشعر الحديث وبروز مسميات القصيدة (الكلمة) والقصيدة (الالكترونية) وأهديتها ديواني قبل الأخير (نقوش على البحر) وفي مقدمته أقول (ان مهنتي لا تترك لي فراغا أتعلم فيه صناعة الشعر. . فالشعر ثلثه موهبة وثلثاه صنعة كالنحت بالأزميل والغوص في البحور والحذق في الطلاء الى آخر أسرار احتراف المهنة وشتان بين الهواية والاحتراف)، وكانت تسألني الشاعرة عن مفهومي للصنعة هل هو الالتزام بالشعر العمودي والقافية أو بالشعر الحر والتفعيلية وكنت أقصد مشكلة التمييز بين الصياغة العفوية الصادقة والصنعة التقنية المحددة بالأشكال الفنية والمقاسات اللغوية والعبارات المنتقاه سواء كان هذا الضرب من العمل الفني في صلب القصيدة العمودية ذات البحر (المفاعل . . المتفاعل . . المفعلمن) أو القصيدة الحرة ذات الصور الضبابية والرموز الاسطورية والكهوف الدهليزية ذات السلام اللولبية . . هذا النمط من الفن الشعري ذي الاستغراق في بناء الهيكل الفني على حساب تلقائية البث المباشر بين قلب الشاعر ووجدان الجمهور . . وهذه المسافة بين الارسال والاستقبال تمتص حرارة الشحنة العاطفية المنبثقة من دفء التجربة نتيجة الصنعة التي جعلت الفارق بين الشعر العمودي والشعر الحر مختزلا في الاجابة على التساؤل: هل هناك حقا قضية شعر وشاعري في النص المطروح للدراسة؟.

ولعل من محاسن الصدف في متابعاتي لأبحاث المرشد الثامن، البحث المقدم حول الشاعر العربي وحدائه الرؤيا . . والبحث يتطرق الى جذور أزمة اللغة الشعرية والرؤى الحديثة وكيفية ولوج القصيدة العربية الى بوابة الواقع الغربي منذ بداية الخمسينات ودعوة رواد المدرسة الانجليزية أمثال «وردورث وت . س . اليوت» الى الهبوط بمستوى الشعر الى لغة شعرية متصلة بالحياة والاحياء بعيدة عن الزخارف والديكورات .

ويحضرني في هذا السياق قول الشاعر السوداني الكبير المرحوم محمد المهدي المجذوب في مقدمة ديوانه (نار المجاذيب) وتأكيده على أن الدفقة الشعرية أغلى من الصنعة الشعرية وأكثر أهمية من البنية الفنية للقصيدة، وهي التي تكشف عن

أصالة الشاعر ذاته لا جودة أدواته المستخدمة في تشكيل العمل الفني . . وقد أكد
المجذوب على أن كثيرا من كبار الشعراء وهو فيهم لا يجيدون فهم بحور الخليل
بن أحمد قدر اجادتهم قول الشعر الموزون المقفى ذاته وهذا قمة الابداع . . ويؤكد
أن (الشعر ثلثاه موهبة وثلثه صنعة) مناقضا رؤيتي في مقدمتي التي كنت أعتبرها
بنظرة نقدية عقابية تعذيرية لا حقيقة تقريرية وقناعة شخصية .

وعودا على بدء . . أقول ان الشعر مازال (ثلثه موهبة وثلثاه صنعة) على كل
المستويات . . التقليدية والحديثة . . وأصبحت الصيغة تتخذ عدة أشكال سواء في
الهرم التقليدي لبناء القصيدة العمودية ذات النفس الطويل والبحر الكامل أو
القصيدة الحديثة ذات الاجنحة المتكئة على رموز الميثولوجيا الاغريقية والصور
الهلامية والتعابير السيكلوجية وفي الحالتين هي صنعة . . تتطلب الوقت والدربة
وكل فنون الأداء .

وفي المرصد الثامن أكد الشاعر العراقي الكبير عبدالرزاق عبدالواحد الحائز
على جائزة الشعر على هذا المعنى في سياق حوار صحفي قال فيه : « الشعر عندي
صنعة . . هذا صحيح . . ثمانون بالمائة من القصيدة عندي صنعة وان كنت
لا أريد أن أذهب الى هذا الحد في التقنية الشعرية لكن بالتأكيد الشعر دربة كبيرة
ووعي كبير مضاف اليه ثقافة وكل أدوات صقل الموهبة الخام الموجودة في ذات
الانسان» وبعملية حسابية بسيطة نجد أن الثمانين بالمائة من القصيدة تعادل
الثلثين من الصنعة التي أتحدث عنها في مقدمة ديوان (نقوش على البحر) قبل
بضعة أعوام، وهنا لا بد أن أشير الى أن مفهومي للصنعة لا يتعارض مع دور
الموهبة بل يتكامل معها، فاذا كان هناك شعراء موهوبون فقط فان ثقافتهم التي
هي (وقودهم الداخلي) كما يقول الشاعر الالماني «غوته» سوف تعزز صنعتهم لأنها
احدى أدوات الصقل لبناء العمل الفني، واذا كان بعض الشعراء هواة صنعة فان
درايتهم بالعروض وحفظهم للتراث واشتغالهم بحرفة الأدب تعوض ضعف
الموهبة . . ولكنها لا تستطيع بحال أن تكسبهم رهافة الحس الشعري الفطري
الموروث . . ذلك الجرس الداخلي الذي يحدث ايقاعا خاصا وصدى متميزا

كالذي تحدّثه أنامل العازف الموهوب على أوتار الآلة الموسيقية . . فالصنعة بلا موهبة كالجرس بلا صدى أشبه بالصوت الأخرس ، والموهبة بلا صنعة ثقافية كالنار بلا وقود . . يمكن أن تظل مشتعلة ولكنها تفقد قوة التوهج وقوة الحرارة وانبعاث الدفء وقد تموت بفعل الزمن .

وهذا الفارق . . أو الخلط في وضع أهمية الفارق بين الموهبة والصنعة يمثل أحد أبعاد أزمة الشعر العربي المعاصر . . فالشعر في الاصل بدأ بالموهبة . . بالفطرة السليمة . . وكان الشعر لسان العرب وكتاب تاريخهم يقولونه على السليقة . . في ارتجال معبر . . وإيقاع منتظم بلا بحور في المدح والهجاء . . في الحرب والسلم والحب والغزل . . وعندما برزت البحور الشعرية وظهر فن العروض في الأدب العربي بدأ الشعر يتشكل ومر الشعر بمراحل ازدهار وضمحلل حسب الظروف الموضوعية والمناخ النفسي والتيار القومي الذي يؤجج ناره أو يطفئ أواره، وفي فترات أوغل في الغموض وهموم التراث والهروب من الواقع، وفي أخرى عبر عن وجدان الأمة وضمير الجماعة . . ولكن من خلال المعركة غير العقلانية التي دارت وتدور بين القديم والحديث كان الشعر هو الحصان الخاسر الوحيد في الرهان وفقد كثيرا في مجال الموهبة والصنعة، وتمركز الابداع الفني في الآونة الأخيرة في مجال القصة والرواية بينما هبط مستوى الشعر والدراما الى درجة أفقدتهما دور الريادة المنوط بهما منذ عصور . . وكان من أبرز سمات هذا الضمور والانحسار هذه الثنائية المتعقدة الضارة التي برزت بين شعراء المرید من شرح جدار الصف الشعري بين القديم والحديث ولولا وجود بعض الأصوات الأصلية من شعراء موهوبين مفتورين على سلامة القول وصدق القلب واللسان وصفاء القلب والبيان شمخوا بقاماتهم العملاقة يغطون قصور أكتاف بقية الشعراء المشرببة الى مستوى منصة المهرجان، لشهد المرید الثامن نهاية دور الشعر في عقردار شاعر العروبة الأول أبي الطيب المتنبي القائل :

أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي وأسمنت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وحقا فقد سهر أكثر من ألفي كاتب وشاعر ومفكر على مدى ثمانية أيام متتالية
متصلة ليل نهار في كل من بغداد والبصرة وبابل والموصل تبحث عن خليفة للرجل
الذي قتله بيت واحد من قصيدته المذكورة قال فيه . . واستشهد في سبيله مقرنا
القول بالفعل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

أزمة الرمز في الشعر

كتبت في مرة سابقة ان الشعر نوع من الترويح النفسي والتفريغ العقلي عن أزمة نفسية عابرة أو مزمنة . . . وتعبير عن حالة انفعال . . . والانفعال قد يكون في صورة فرح أو حالة كآبة يعاني منها الفرد وفيه يستعمل الانسان شتى وسائل النفس الدفاعية للحفاظ على التوازن الذاتي والتوافق الاجتماعي .

والشعر وسيلة «تسامي» تعمل على تفريغ مخزون الطاقة النفسية في قنوات صحية تحظى بالتقدير الاجتماعي والأدبي وتمجد القبول والاستحسان في تصريف الرغبات المكبوتة بأسلوب معبر ومتميز ومرغوب .

وإذا كانت للشعر ذاته أزمة . . فكيف يتجاوزها إذا أردناه نتاجا فكريا معافى وانعكاسا لموهبة موروثه أو ابداع مكتسب؟

يمكننا في البدء أن نقرر ان ليس كل من يكتب الشعر يعاني من أزمة نفسية وان كان الشعر في كل حالاته لحظة معاناة فكرية تتجاوز الفعل ورد الفعل اللاشعوري الى قراءات في المستقبل تحمل افتراضاته قدرا كبيرا من الشعور .

والفرد كائن حي متكامل متفاعل مع بيئته لا بد أن يستجيب لكل مثير بقدر فاذا قرر وامتلك القدرة على عدم الاستجابة للمثيرات تصبح حالة مرضية وإذا أصبح معرضا للاستجابة الفورية لكل مثير أصبح يدور في حلقات مفرغة من ردود الفعل المتواترة ويصاب بالارهاق النفسي وتكون النتيجة واحدة في كلا الحالتين . . يتوتر وينفعل ويهبط بفكره السامي وسلوكه الانساني الى مستوى الحيوان . . كالقط داخل القفص أو الخنزير الغيني في معمل التجارب اما أن يستجيب للصددمات الكهربائية فيتغير سلوكه حسب ضوابط التجربة في عملية غسل دماغ مؤلمة واما

أن يكتسب سلوكاً جديداً يحدده المعيار الخلقى لعالم التجربة وإما أن يرفض الاستجابة فيتسم باللامبالاة والحزن و«العصاب التجريبي» حالة مرضية نتيجة تواتر المثيرات داخل حدود بيئة وظروف معينة لا يملك القدرة على الخروج منها.

وبما أن هذه الشروط لا تنطبق على الإنسان ولا العالم التجريبي الذي يحترم آدمية البشر فوق كل اعتبارات خارج معسكرات غسل المخ التي تخدم أغراض العصر الحديث وقضايا التقدم الحضاري . . قال تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾ . . صدق الله العظيم .

إذا سلمنا بكل هذه الافتراضات نجد أن الإنسان منذ أن خلق يحتاج إلى وسيلة تعبير . . منذ طفولته حتى شيخوخته وعندما يفقد القدرة على التعبير عن حاجاته ودوافعه في أي مرحلة من مراحل حياته يصاب بالتوتر النفسي . . والنكوص والحرمان الحسي فيندفع إلى البحث عن مثيرات خارجية أو داخلية وأكثر المثيرات الداخلية استجابة لحالات الاحباط وسيلة الشعور . . وإذا أدركنا أن ليس بالضرورة أن يكون لكل نوع مثير شكل استجابة واحدة وأن المثير الواحد قد يأخذ عدة أشكال من الاستجابات . . يكون رد الفعل أحد مظاهر الأزمة . . نتاج تفاعل بين مثير واستجابة .

إن الشعور قد يكون حالة صراخ . . بأعلى صوت يمزق أحشاءنا الداخلية وأشد عنفاً من تغيير ملامحنا الخارجية . . يزلزل أركان النفس ولكن لا يتعدى أثره سطح القشرة الخارجية في جلد الآخرين . . ولكنه حالة انفعال مقبولة اجتماعياً أكثر من الصراخ المباشر المريح عن الألم والجوع وكل أشكال المعاناة ولكن عملية التطبيع الاجتماعي والنمو الانفعالي فرضت علينا التحكم في هذه الدوافع الفطرية . . فنلجأ إلى وسائل أخرى كالشعر . . وكتابة الشعر عند أكثر الناس نوع من الصراخ الطفولي بأسلوب حضاري وطريقة على قدر كبير من النضوج الفكري . . وعندما يواجه الشعر ذاته أزمة . . حالة كبت . . أو كف . . ينطفئ اللهب المندفَع من حريقنا بالداخل .

والإنسان في صراعه مع الطبيعة لا تعوزه الحيلة في إيجاد البدائل للتعامل مع

بيئته كالحيوان يغير لون بشرته كطبيعة الارض حتى ينجو من الافتراس . . أو يكسو جلده بالفراء الكثيف من شدة البرد . . أو يعتمد على قدرة الحواس فقط اذا كان يعيش في غابة بشرية تتطلب أعلى درجات اليقظة وأقصى مواقف الحذر . . وهل ينكر عاقل ان عالمنا المعاصر أصبح مثل مدينة «وولت ديزني» يزين مدخله لافتة كتب عليها بشتى اللغات «عالم الغابة المتحضرة» .

فإذا لم نستطع أن نستبدل وسيلة التعبير بالشعر . . بوسيلة أخرى كالرسم لأن المجتمع لم يتعود عليه أو المسرحية لأن الجمهور يشم رائحة النصوص المخزونة وطعم السم في الدسم . . والفيلم لأنه يتحرك في ساحة اللاشعور في عقل الفرد الواعي فلا يبقى ، أما الشعر فيأبى أن يستعمل الرمز في شتى الاشكال . . فاذا كان الشعر يحل أزمته باللجوء الى الرمزيان أزمة الرمز انه يلجأ الى دهاليز التغليف وكثافة المساحيق . . والمغالاة في الابتعاد عن حمل القارىء الى ساحة رد الفعل والاستجابة المناسبة ويصدق عليه قول الشاعر :

إذا الشعر لم يهزك عند سماعه فليس حريا أن يقال له شعر

المثير في البيئة إن أزمة الرمز هي أحد مظاهر أزمة الفكر المعاصر اننا لا نلجأ الى الرمز اذا كان التعبير المباشر ممكنا ولعل قلة تتحاشى مخاطبة المباشرة في الشعر كاسلوب فني . . ولكننا في حالات الاحباط النفسي نلجأ الى الرمز لأن الوسائل المباشرة ليست متوفرة في قاموس عصرنا السياسي أو غير مقبولة في أوضاعنا الاجتماعية المعاصرة أو لأنها تثير فينا آلاما نفسية لأنها تقتل الصرخة في أفواهنا أو تحدث جرحا عميقا في جمجمة الذين يمتلكون كل هذه القدرات .

إذا كان الرمز كذلك فأين الأزمة؟ الاجابة هي تعامل مجتمعنا المعاصر مع الفكر الراقى الذي يستعمل الرمز . . الفكر الذي يجمع الجزئيات المتفرقة ليعطي أشكالا متعددة متكاملة . . الفكر الذي يستعمل الخبرات السابقة في حل المشاكل الحاضرة ويعطي لكل معنى مدلول لا تعطيه الجزئيات . . هذه القدرات الهائلة لدى الانسان . . المفكر أو الشاعر هذا النوع من الفكر أصبح ترفا ذهنيا في قاموس كثير من الناس . . وأنا أستعمل كلمة «الناس» من باب الرمز . . واذا كان بعض الناس يرى في هذا التعميم سلبا لخصوصياتهم في التفكير أو قدراتهم في التنظير أو

انتقاصا من مكانتهم في مشاداتهم ببقية البشر فقد قال تعالى في سورة الناس :
﴿قل أعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس من شر الوسواس الخناس الذي
يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾ . .

أليس الوسواس الخناس في عالم الطب النفسي مرضا نفسيا اكتشف حديثا
وسمي «الوسواس القهري» بأعراض محددة ومعروفة ويقع تحت تصنيف الامراض
العصابية التي تسبب ألما لا يعرفه غير المريض والطبيب ومازال الطب النفسي
تحت ظلال القرآن يرى في «الجنة والناس» مصدر تعاسة الكثيرين الذين يؤمنون
بالجن ويتوهمون السحر في معاملة الناس وهذا المرض يصيب أكثر الناس ذكاء
وفطنة وعدم قدرة على التعبير عن مشاعرهم نتيجة الكبت .

وعندما يصبح تحقيق الأمنيات مستحيلا في أرض الواقع فلا بد من التحليق
بالشعر في الخيال بأجنحة الرموز وهذه أزمة الفكر الانساني المعاصر . الذي يعبر
بالرمز ويحلم بالرمز والنماذج الشعرية الحية المعبرة عن أزمة الرمز تحلم بالوليد القادم
من بعيد مع ابداعات الزخم الشعري الباحث عن الأصالة والتجديد . والخروج
من قمم الرمز ودوامة التعقيد .
دعونا ننتظر . .

الشعر . . والذاكرة

في احدى الأمسيات الشعرية في الموسم الثقافي للجمعية الاردنية بأبوظبي دعنتي اللجنة الثقافية للاشتراك في (قرآءات شعرية) وبدأ المشاركون في تقديم اسهاماتهم في الأمسية وفي مثل هذه المناسبات يحب الانسان أن يكون منسجماً مع المناخ النفسي للأمسية متجاوباً مع اللقاء العاطفي بالمستمعين معبراً عن الشعور الذاتي بكل خصوصية تجاربه المتمثلة والمعاشة . . ويسعى للجمع بين كل هذه الامنيات في قصيدة واحدة أو بضع قصائد في ليلة شعرية واحدة قد تكون الأولى والأخيرة مع تلك النخبة من الحضور وهذا مستحيل!

في تلك الأمسية شعرت بأن البوصلة الشعرية تشير الى كل الاتجاه بين الفكر السياسي والمنحى العاطفي والوعي الاجتماعي والتأمل الفلسفي وكنت أحمل معي كالعادة - مجموعتي الشعرية الكاملة بين دفتي كتاب يحوي أكثر من مائة وخمسين قصيدة هي حصاا تجربتي الشعرية في مختلف مراحل العمر.

وكان طبيعي ألا تكون القصيدة العاطفية المعبرة عن مرحلة العقد الثالث منسجمة مع تاريخ ميلادي في تلك الأمسية ولا اللغة السياسية معبرة عن الواقع المعاش في هذه الفترة وكان عليّ أن أختار . . اما الخروج من دائرة المعقول في تصور الحاضرين أو الدخول من أي باب يعبر عن ذاتي الخاصة وعزائي مقولة : (رضاء الناس غاية لا تدرك).

وقد غلب على توجه مهنتي في التعامل مع الآخرين فأثرت أن أكون متكيفاً مع الجماعة دون اخلال بالمبدأ . ومادام المبدأ يتمثل في عنصر المشاركة الوجدانية فقد قطعنا شوطاً طويلاً في عقد مصالحة بين النفس والآخرين وهذا أحد مظاهر الصحة النفسية أما التكيف فيعني التجاوب المسئول والانسجام المتبادل بين

طروحاتي مع الآخرين .

لقد ذكرت في أكثر من مرة في كتاباتي ومجموعاتي الشعرية انني عشقت الشعر قبل قصة حبي مع الطب النفسي . . ومنذ طفولتي عندما كان الطب النفسي يعني مهنة الدجل والشعوذة وحرفة الكهّان ومحضري الأرواح وقبل أن يصبح علما يدرس في الجامعات وقسم مرموقا في المستشفيات العلمية ومصدر رزق للكثيرين من الكتاب والأدباء وأصحاب صناعة السينما وتجار المسلسلات واذا صحّ ان الطبع يغلب التطبع فإن الشعر كان في طبعي ولكن الطب النفسي تعلمته بالتطبيع . . بالدراسة والممارسة والتجريب ولكن هناك خيوطا رفيعة تربط بين الاثنين . . خيط العشق لهما . . وخيط الرباط السري بينهما وخيط المنفعة الذاتية لدى الاول في مضمار التعبير عن الذات والمنفعة المادية والمعنوية في الثاني في مجال تخفيف معاناة الآخرين وتحقيق ذاتي من خلال هذه الممارسة وتخفيف معاناتي الشخصية من خلال توظيف المهنة في عمل أكسب منه عيشي وأطفالي .

ولما جاء عصر التخصص في الشعر . . المقفّي والمنثور . . وتشهد عليه مناظرات التقليديين والمحدثين كانت حرب التخصص تدور في أروقة الطب النفسي لتخرج به من قوقعة الفلسفة الى داخل المختبرات العلمية فقد أصبح خيارى تلقائيا وبالضرورة منحازاً الى الطب النفسي المكتسب على حساب الحب الشعري الموروث .

وفي عهد التخصصات الدقيقة أصبح الشعر ذاته يخوض حرب الانطلاق من بحور الخليل بن أحمد . . والانفلات من ديباجوجية الاشتراكية الأدبية وطوبائية المدرسة الرومانسية وداخل فصول التلمذة في هذه المدارس وانتقل الشعر من الهواية التي هي الأصل في الابداع الى الاحتراف داخل أروقة الكليات والأقسام الأدبية المختلفة .

كذلك الحال بالنسبة للطب النفسي فقد تجاوز التلمذة حول المفهوم الاجتماعي لأسباب الأمراض النفسية الى النطاق العلمي والبيولوجي والفارق بين العضوي والوظيفي في تصنيف الأمراض العقلية والنفسية .

لقد بات من الصعب على الانسان أن يظل تلميذا راسبا عدة سنوات في صف واحد في المدرسة الشعرية حتى لو كان أحد الهواة وأصبح أكثر صعوبة للطبيب أن لا يترقى في السلم الاكاديمي الى نهاية المطاف في التخصص في مجال الطب النفسي بعد ربع قرن من الزمان في الدراسة بالتدريس والتحصيل والتحليل للمطالب الدنيوية والأخروية . . العاجلة والأجلة إذ لا بد من الانتقال من مرحلة التلمذة بالتدرج الاكاديمي الذي يتطلب متابعة المراجع وحضور المؤتمرات المحلية والاقليمية والدولية والمساهمة المتواضعة في الانجازات الحديثة والامام بأحدث ما يستجد في الساحة العلمية من قضايا معاصرة وفي هذه المرحلة يجد العاشق للشعر والملتزم بالتخصص الطبي يجد نفسه يراوح بين خانة الهواية والاحتراف واذا كان قمة النضج العقلي لأي فرد ان يُتقن العمل الذي يعمله فقد يصبح بالضرورة اتقان مهنة الطب النفسي احترافاً يتطلب أعلى درجات التسليح بالمعرفة - لا بل يحتم المساهمة الفعالة والملموسة في هذا المجال تزكية لاحتراف اللقب أو امتلاك العضوية أو الحصول على شرف المشاركة في المحافل الدولية وهذا يعني بالضرورة مساهمة فكرية متخصصة ومتأصلة أو منقولة بتصرف مسئول ليس كمجرد تراث علمي . وانما محاولة اثراء الفكر الانساني في مجال العمل . . . ولذلك عندما حضرت مهرجان (المربد) في العراق قبل عامين . . كنت أتشوق أن يعرف الأدباء عني عشقي للشعر وكانوا يتشوقون لاشباع عشقهم لعلم النفس والاحلام والتنويم المغناطيسي .

فاتجهت أخيراً الى الكتابة في مجال الطب النفسي واستعملت كل الخيوط التي تربط بين الوظيفتين والحق يقال لقد ساعدني العشق الأدبي كثيراً في تذليل مهمة نقل أفكارى الى القارئ العادي والطبيب المتخصص في مجال الطب النفسي وكان هناك تواصل دائم بين مشيمة العطاء في رحم الأدب ومسيرة الاداء في مجال الطب .

ووجدت نفسي متنازعا بين موقفين . . الموقف الشعري والموقف الطبي . . وقررت أن أقنع نفسي بأن القصور اذا حدث في مجال الشعر فاني قد حسمته منذ

أن تركت كلية الآداب في جامعة الخرطوم ورجعت الى كلية الطب . . فكان في الأصل قرارا غير معلن بانحيازي لعشقي الأخير أن أتعامل مع الشعر كهواية وأعيش في الطب كمهنة وإذا كان نزق الشباب وأضواء النجومية في مستهل الحياة المهنية قد وظّفت أكبر امكانياتي الفكرية في مجال الأدب ومازالت تقتطع جزءا كبيرا منها فإن نضج الرشد وازدياد المسؤولية الاكاديمية في منتصف الحياة المهنية أضافت أعباء جديدة وتكاليف مقننة تتطلب تنفيذا لا يحتمل التأجيل ومواكبة لا تقبل التأخير ومعاصرة لا تغفل الأصالة وتلتزم بالاضافة الجديدة في الكم والكيف وأمام هذه الالتزامات يجد الفرد نفسه مشدودا الى هموم الآخرين أكثر من اهتمامه بقضاياها الخاصة .

ولأن الطبع يغلب التطبع فقد ظلت غريزة الشعر الدفينة في أعماقي المتجزّرة في طينة أرضي تنمو وتزدهر في اللا شعور ويطفو الى السطح في حالات الفرح الشديد والحزن العميق أو لحظات المزيج . . وهي دفقات شعورية أعرف جيدا أنها تحتاج الى كثير من الصنعة في اختيار البحور وانتقاء الألفاظ والتعابير ويحتاج الى التنوع في البحر والروي ولو قدّرت لي أن أعيد كتابة قصائدي لغيرت كل كلمة فيها لأنني أعرف جيدا انني لم أبذل جهد الصانع في التجويد وانما اكتفيت بقدر الموهبة في الابداع . . وأشعر بقدرة غير محدودة في كتابة أي قصيدة في لحظات . . وأطول قصيدة عندي لم تستغرق أكثر من يومين وإذا لم تكتمل ولادتها في أسبوع فاعتبرها تجربة مجهضة أو ولادة متعسرة تحتاج الى عملية قيصرية وغالبا ما يموت الطفل الوليد فلذلك أتعجل الطلق وأخشى طول المخاض ولم أدخل في مثل هذه التجربة والشعر يحتاج الى أرشيف خاص في الذاكرة يسهل استرجاع المعلومات منه في الزمان والمكان المحدد وهذا يتطلب قدرا كبيرا من الانتباه والتركيز والاختزان والاسترجاع وبالتالي يحتاج الى وقت طويل لتتم عملية الحفظ بعد ترتيب مقوماته السيكلوجية وهي عمليات ديناميكية تحتاج الى كثير من الوقت والتدريب بحيث يكون الفرد قادرا على استرجاع القصيدة المناسبة في الوقت المناسب .

وما يحدث لي الآن عند قبول دعوة المشاركة في أمسية شعرية لا ندوة أدبية بها

تطلبه الاولى من حفظ لا أملك له الوقت الكافي وما تقتضيه الثانية من مداخلات تقوم على استرجاع محصلة علمية بدون حفظ يحلني حضور الأسميات الشعرية على الاختيار بين الاعتذار الذي لن يقبل التكرار وبين المشاركة التي تستوجب الاستعداد والاستذكار لحدوث التعامل التلقائي بين الشاعر والمتلقي وكثيرا ما يطلب مني أحد المستمعين قصيدة معينة خارج دائرة الذاكرة والقصائد المستحضرة فأعود أنبش صفحات المجموعة حتى أعثر عليها وأنفض عنها الغبار وكأنها جاءت من مستودع مجهول بكل ما ينطوي عليه هذا الموقف من حرج تعرضت له كثيرا في هذه المناسبات .

فالمستمع يطلب من الشاعر أن يكون مستعدا لتلبية رغبته ليستمتع بالأمية وهذا حق مشروع لا يهمه أن يكون المشاركون من خلفيات متباينة وتخصصات مختلفة ومهن متعارضة ليس في برنامج أولوياتهم تلبية رغبات المستمعين في الأسميات الشعرية ولكن قبول الدعوة ابرام عقد والعقد شريعة المتعاقدين .

وكثيرا ما يطلب مني الاصدقاء في المؤتمرات العلمية من خلال أسميات البرنامج الترفيهي أن أقدم لهم بعض القصائد الشعرية وهم في هذه الحالة لا يتعاملون معي كزميل يحمل هموم المهنة وانما كأديب يتمتع أو ينبغي أن يمتلك قدرات أخرى يجب أن يوفر لها قدرا من الوقت للاجادة والتجويد ولذلك تعودت أن أحمل معي مجموعتي الشعرية لمواجهة هذه الاحتمالات وهذا النوع من الجمهور يسهل التفاهم معه لأنه يفهم هذا الوضع ويقبل التنازل عن هذه الحقوق وقد بلغ الشطط بأحد الزملاء أن طلب مني نظم قصيدة بمناسبة انعقاد مؤتمر الاطباء النفسانيين في الخليج العربي في البحرين وقد نظمت هذه القصيدة ونشرتها في مجموعتي الشعرية الأخيرة (أشباح المدينة) وطلب مني آخر نظم قصيدة في مؤتمر الاطباء النفسانيين العرب في الأردن وقد فعلت نفس الشيء . . ولكنني لا أحفظ أي قدر معقول من القصيدتين!!

ومن المواقف الطريفة الأخرى حدث أن دعانا أحد الأخوة في حفل عائلي يغني فيه صديق الطرفين الاستاذ المطرب عثمان حسين . . أحد عمالقة الفن

السوداني وكان ينوي تقديم أغنية من كلماتي بعنوان (الوتر المشدود) وقد طلب مني صاحب الدعوة أن أقدم القصيدة بنفسى مشاركة منى فى هذه المناسبة فاسقط فى يدي عندما وجدت نفسى لا أحفظ كلمات القصيدة وكان موقفا محرجا وأول دواعى الحرج ان البعض لم يصدق . . والبعض ظن أننى أفعل الموقف . . والبعض ظن أننى أرفض بأدب المشاركة بهذه الصورة وقلة قليلة استوعبت المعادلة الصعبة بخلفية مسبقة وما كان بوسعى أن أحتاط لهذه المواقف بحمل قصاصة ورق لأقرأ القصيدة منها ولكننى وطدت نفسى على أن شعري محفوظ بين صفحات الكتب . . وقد يتوفر لي فى المستقبل بإذن الله الوقت الذى أحفظ فيه الشعر للتسلية وقتل الوقت عندما يفيض عن حاجة العرض والطلب بعد أن فقد دوره كسلاح فى معركة التحرير .

لقد أردت من كتابة هذه المقالة الدفاع عن نفسى بأثر رجعي حول هذه الظاهرة التى بدأت أتكيف معها وبدأ الآخرون يقبلونها على علاقتها حتى اشعار آخر . . وأرجو ألا تبعث على الملل لأننى قصدت منها أن تلقى الضوء على جانب هام من حياتى الخاصة التى قد تصبح فى بعض الأوقات ملكا للجميع فقد تعكس بعض جوانب أزمة المزاجية بين الهواية والاحتراف فى حياتنا المعاصرة فى طغيان فكرة التخصص الدقيق على موسوعية المعرفة العريضة التى كان يتميز بها الجيل السابق من الشعراء الاطباء أو الاطباء الشعراء الذين أجادوا فن الشعر حفظا ونظما وفن الطب شكلا ومضمونا . . والآن أصبح ضروريا أن يتقلب جانب الحرفة على الهواية والصناعة على الابداع والتخصص الدقيق داخل اطار الثقافة العامة .

فاعذروني ان قلت ان الشعر أصبح يحتاج الى تفرغ وتخصص ترصد له جوائز الدولة التقديرية والطب أصبح يحتاج الى تفرغ أكثر وأعلى درجة من التخصص وبعد كل هذا قد لا يرقى الى مستوى الحصول على جائزة تقديرية واحدة محلية أو اقليمية أو دولية فكيف يكون الحال اذا كان المطلوب مستوى من الاجادة يصل حد المرتبتين فى الاداء ويجمع بين الاثنتين فى العطاء؟

عود على بدء

من خلال قرآتي في مراجعة (بروفات) هذا الكتاب قبل صدوره من المطبعة وهي أول رحلة متصلة أتقبل فيها بنظرة فاحصة بين المقالات المتفرقة في الموضوعات والمواقيت من أول الى آخر صفحة وجدت ما يشبه الرباط الخفي في السياق الموضوعي الواحد بين عدة أفكار تدور في مجموعة أطر علمية وأدبية . . وقد كان هذا العنوان (مقالات مختارة) تذكية للاهداء المقترن باسم أستاذي الجليل الدكتور التجاني الماحي الذي استرجعت صدى ذكراه في (مقالاته المختارة) .

إذن فإنني في الأصل لم أقرر نشر كتاب حول الطب النفسي بالصورة العلمية القاطعة التي تحدد الشكل والمضمون على النسق الاكاديمي المعروف ولم أفكر في طرح موضوع أدبي حول فكرة محددة تدور في اطار نظرية معينة وانما جمعت أشتات المقالات العلمية الى جانب المقالات الأدبية مع غيرها ذات الطابع الخليط تحت مظلة الاهداف المذكورة في المقدمة وأودعتها في قلب هذا الكتاب .

ورغم ذلك وجدت ما يشبه الفكرة الواحدة تدب في روح المقالات والسياق المعين يربط أشتات العبارات ويستحوذ على اهتمامي في موضوعاته كما ان القارئ يلاحظ تكرار بعض الافكار أو ورود بعض العبارات أو الجمل تتردد أكثر من مرة في فترات متباعدة تمتد الى سنوات طويلة وليست وليدة زمان أو مكان واحد .

هذا الاحساس المشترك في هامش الفكرة وزخم العبارة ووحدة الهموم يبدو رغم اختلاف المضامين وتنوع الاشكال والمواقيت وبرز في وضوح الاطار الحركي الذي يحكم قدرة القلم والمناخ النفسي الذي يصبغ لون الافكار والقاموس اللغوي الذي يغذي قوة التعبير . . يبدو هذا التنسيق الداخلي كخيوط قناعات ثابتة تربط حبات العقد في شكل منظومة واحدة .

ان كثيرا من الناس يستطيع أن يشتم رائحة الشاعر العربي الكبير نزار قباني من كلمات قصيدته حتى لوجاءت في قلب قصيدة رائعة تحمل توقيع شاعر آخر . . . ويستطيع أن يستشعر وجود (أدونيس) في مقاطع قصيدة جديدة لم تحفر بعد في ذاكرة الأوراق ويستطيع أن يستشف احساس أبي الطيب المتنبي في حكمته الشعرية المنقولة على لسان أي شاعر عربي آخر . . . ذلكم هو الاسلوب المميز أو السمة الخاصة والتي تعطي أي شاعر الشكل المتفرد به وهذا أشبه بالقاموس اللغوي أو المجال الحركي في التعبير أو الدائرة الشعرية ولا يعني هذا أن هؤلاء الشعراء يكررون أنفسهم بقدر ما يعني أنهم يؤكدون تميزهم وتفردهم وأصالتهم الشعرية وحجزوا مقاعدهم في الصفوف الأولى في المسيرة الأدبية .

وكما يتكون لدى كل شاعر أسلوب خاص به في الكتابة يتشكل لديه مناخ نفسي خاص به في التفكير . . . الاطار الفكري الموجه نحو غاية واحدة . . . فكرة الحرية . . . أو فكرة الموت أو فكرة الخلود . . . والكاتب الذي يعشق الحرية يستحيل أن يخرج من اسار هذا الهاجس الفطري النابع من أعماق وجدانه . . . فحب الحرية الذي يقود الى الموت أو يدفع للحياة لا بد أن يخلق المناخ النفسي المشبع بهذه الروح ويؤكد النزوع الغريزي المترغ بعشق هذه الغاية . . .

فالحرية غاية في حد ذاتها . . . والكتابة . . . والشعر بعض الوسائل المستخدمة لتحقيق هذه الغاية . . . ولأن الغاية لا تبرر الوسيلة فيفترض أن تكون الحرية أغلى الغايات لتصبح كل أشكال التعبير عنها أصدق وأنبئ الوسائل في حياة الانسان .

ولأن فكرة الحرية هي الهاجس الذي يورق مضجعي في الليل والنهار ويحدد موقعي في الترك والاختيار فإن كل وسائل التعبير العلمية والأدبية والخاصة والعامّة عندي تنبع من ذلك الشلال الداخلي المتدفق من الاغوار العميقة وتصب في هذا المحيط الخارجي المتمزج بالخيال والحقيقة محيطة كتاباتي ومساهماتي واهتماماتي رغم تباعد الاوقات وتعدد الأزمان .

ان رغبتى الصادقة في المساهمة بقدر مقبول في الساحة الأدبية بصورة لا يحدها

عجزني في توفير الوقت المناسب له دون التأثير الضار على اسهاماتي العلمية جعلني أحس بالغرابة النفسية حيال طموحاتي المتجددة أمام تحديد الخيارات المسبقة لأنني أشعر بأنني أكثر قدرة على تحقيق ذاتي من خلال العمل الأدبي خاصة الشكل الشعري في التعبير عن واقع الحياة . . وكثيرا ما تراودني فكرة كتابة القصة ومجال عملي كنز ثري بالمواد الخام في هذا المجال . . وكتابة المسرحية وأنا أعمل في أكبر مسرح جماهيري يصلح كل أفراده لعمل فني متكامل ولكن أين الوقت! وماذا عن الجانب الآخر من الخيارات المحددة . . خيار الجانب المهني والالتزام به؟ .

ومن هنا كانت محاولاتي المتكررة والجادة للابتعاد عن الأطر الفكرية التي تتسم بالتحجر والجمود وكل المدارس الأدبية التي تشترط النهج وتخطط للفكرة وتقيّد الحركة وتحدد المضمون وتصنع القوالب الجاهزة .

ومن أجل ذلك تحركت في مشوار رحلتي الشعرية الطويلة من شكل (القافية) الى (التفعيلة) ورجعت مرة أخرى وسأعود مرات أخرى لكل شكل من أشكال التعبير الأدبي - شعراً ونثراً - يخدم هدف تحقيق فكرة حرية الانسان لأن الشعر أحد وسائل تحقيق هذه الغاية .

ولأن حس الاغتراب عندي يأكل كالمقصات والمناشير في داخلي كل الاعصاب والعظام حتى النخاع فإنني منذ أن خرجت في السودان في طلب العلم أولاً ثم رجعت اليه وثم هاجرت منه مع المهاجرين والأنصار ثانياً وفي حلقي غصة وفي عيني دمعة وفي قلبي نزيف وفي عقلي هاجس متحرك كجهاز التحكم الآلي البعيد يدفعني ويجذبني نحو (الوطن الأم) في الوقت المناسب رغم كل ترف الحياة وحسن المعاشرة وطيب المقام ونعيم الدنيا وزاد الآخرة في كل موقع عملت فيه وبلغت به غاية المنى فما زال حس الاغتراب الداخلي يقول :

وطني ولو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي

ومن أجل كل هذا ظل احساسي بالغرابة خارج بلادي اكرهاها أو طواعية منذ

لحظة الخروج الأولى ومحاولات الدخول المتعددة كنت ومازلت أحس بمرارة
الأسى يتضاءل أمام عيني كل انجاز حققته وما كنت أحلم به في الداخل أو الخارج
مقابل أن أكون موجودا بالداخل في حدود ذلك الوطن البعيد ولسان حالي يقول في
قصيدة (بطاقة معايدة) أرد بها على الأخ الصديق الأستاذ الشاعر الطيب العباسي
في أمسية شعرية :

جئت الخليج ولا أقول مجاملاً سنواته كانت أعز حصادي
الله يعلم لم يكن في خاطري حين اغتربت وقد حزمت عتادي
وسألت نفسي هل سعيت لغربتي أم أن قدرتي كان بالمرصاد
أم أن أصل الحزن صوت ربابتي ومرارة الكلمات طعم مدادي
وتشابه الأيام بعض تصوري حتى ارتديت لهن ثوب حداد
كان الخيار الحريين أصابعي والآن أفلت من يدي وقيادي

هذا الاحساس المؤلم بانفلات حق الخيار وسلطة القرار من يدي في البقاء أو
العودة حيث تدخلت أطراف أخرى في قلب المعادلة الصعبة . . هذا الاحساس
الخفي الذي يؤكد :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن
هذا الشعور المتعاطف بالعجز حيال موقف الأمر يزيد من الشعور
بالاحباط وهذا قد يبرر التعابير المكررة عن هذا الاحباط الذي يتعزز مع تقدم
العمر ويتصادم مع مستقبل الأطفال ويتجزّر مع بعد المسافة وطول مشوار رحلة
العودة في طريق المجهول .

وبما أن الطب النفسي يبحث ويغوص في أعماق النفس البشرية فليس من
باب الشعور بالحزن أو الخنوع لليأس أن نحاول دخول ذلك الدهليز في كل مقالة
أو نكشف عن الجوانب المظلمة في كل مشكلة لأن طبيعة الدراسة النفسية تفرض
النظرة التحليلية لكل مقالة ومشكلة .

يقيني أن هذا الاسلوب المكتتب والوصف الحزين هو انعكاس للواقع المرير الذي يعيشه كل كاتب يتمتع بحس شفاف يلتقط ذبذبات نبض واقعة وليس تعبيراً عن اضطراب في المزاج عندي في وقت أتمتع فيه بقدرة خرافية على امتصاص الصدمات وتخطي العقبات وتجاوز الأزمات مثل (سيزيف) مازال يحاول رفع الصخرة الى أعلى الجبل وهي تندرج . . ولن ييأس .

ان من محاسن دراسة الطب النفسي أن أخضعنا في بداية حياتنا العملية لتحليل نفسي يكشف لنا مواطن الضعف في نفوسنا ونقاط القوة في طبيعتنا وعلمنا المزاجية بين القوة والضعف بصورة تحقق التوازن النفسي حتى نتكيف مع المواقف الجديدة . . السارة والحزينة .

لقد أصبنا نجاحاً لا نستطيع إلا أن نحمد الله عليه حيث وصلنا هذه المرحلة من العمر دون اعاقاة جسدية أو نفسية بعد معارك قاسية حقيقية ومفتعلة وقد أصبنا ذلك القدر من النجاح رغم الظروف الصعبة التي نقاومها في مواقف أشبه بالسباحة ضد التيار في ليلة مظلمة .

ولأن مهمة الأديب تتكامل ودور الطبيب في مقاومة وإزالة عوائق الاحباط وما أكثرها في عالمنا المعاصر بزلالته المتكررة في أوربا الشرقية والغربية وآفاته المستحكمة في الأمة العربية والاسلامية والتي تهزم أهداف النضال من أجل الحرية .

ومادامت فكرة الحرية هي الغاية التي نسعى اليها فإن تكرار الاسلوب الكتابي وانسجام السياق الموضوعي والتزام المجال الحركي وتعاضم الحس الاغترابي ومقاومة مشاعر الاحباط النفسي . . كل هذه الفضائل تعبر عن رغبتنا وقدرتنا على الصمود في داخلنا . . وهي محاولة للعلاج النفسي الذاتي حتى لا نصاب بالتوتر والقلق والاكتئاب وشتى أمراض العصر التي نخشى أن يداهمننا ونحن نخوض معركتنا من أجل تحقيق غاية الحرية الانسانية ونحن مازلنا نتمتع بالعافية الجسدية والصحة النفسية والمناعة الذاتية ضد هذه الأمراض التي نتعامل

معها من خلال الآخرين واكتسبنا خبرة خاصة في معرفة مسبباتها ومسارها والتنبؤ بها والتغلب عليها .

وحتى نظل على أعلى درجات اليقظة نمارس العلاج النفسي الذاتي تحت مطرقة الضغوط النفسية وحتى لا تموت جذوة الابداع في دوامة الظلام والضياع دعونا نتحدث عن طبيعة هذا الصراع في سيكولوجية الابداع .

الفصل الرابع عشر

(الحزن النيل)

- أمة في واحد
- الحزن ينطق الحجارة
- محراب النيل
- لكل أجل كتاب

أمة في واحد

قال تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ . . . صدق الله العظيم ، وقيل : اطلبوا الموت تكتب لكم الحياة ، فطلب الموت قدر الرجال الذين يصنعون الحياة ويكتبون التاريخ ولا تصنعهم الحياة أو يكتب عنهم التاريخ . . . ذلك أجل الشهداء الذين يشكلون المواقف ويصبونها في قوالب الصياغة المتجددة دائما في صراعات التحرير ولا يتشكلون بفعل الأحداث التي تحشرهم في زاوية خانات التسوية والتغطية .

وقد صدقت هذه الأقوال عبر الأجيال منذ عهد القائد التاريخي خالد بن الوليد عندما قال «ليس في جسدي شبر إلا وفيه طعنة من رمح أو ضربة من سيف ، وهأنذا أموت في فراشي ميتة البعير ، فلا نامت أعين الجبناء» ، معبرا عن حبه للشهادة وحلاوة الاستشهاد ، ومؤكدا ان الشجاع يموت مرة والجبان يموت ألف مرة ، لأن الأول يطلب الشهادة في كل كَرٍّ وفَرٍّ ، والثاني يطلب الحياة فرارا من الموت كل العمر .

ولا يمكن لقلم يملك ناصية الكتابة أوريشة تعرف رسم الخطوط أوقريحة تلهم قافية الشعر ، أن تمسك بخناق الكلمات المشتعلة وشلال الحروف المنفصلة التي تندفع مثل طلقات الرشاش من سلاح المقاتلين المهللين المكبرين في فرحة المآتم خلف موكب جنازة فقيد الأمة العربية والاسلامية وحزن أنصار الحرية وجرح الأرملة الفلسطينية وصوت مآذن القدس السلبية وكلمة السر في شفاه أبناء الأرض المحتلة الخضبية وهتاف حناجر أطفال الحجارة في فلسطين الحبيبة . . . ونبض وجدان الشعب وضمير الأمة وذاكرة الثورة وأمل القضية الواحدة المتجسدة في بطولة رجل . . . في الشهيد (أبوجهاد) الصامد الصابر . . . الصامت المتكلم . . .

الحاضر الغائب الذي كان حضوره حياة للثورة الفلسطينية وسيكون غيابه بعثا جديدا لطموحات أصحاب القضية . . ولم يشهد الوطن العربي من المحيط الى الخليج بعد رحيل الزعيم العربي البطل جمال عبدالناصر تكرار المشهد وروعة اللحظات ودفء تفاعل الأحداث مثلما حدث عقب اغتيال (أبوجهاد) ، ويتوالى الشهداء مصدقين لقوله تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ . . صدق الله العظيم . وقد قال أبوجهاد قبل اغتياله بأيام (ان الانتفاضة في الأرض المحتلة لا تهدف الى تأمين مقعد لفلسطين في طاولة المؤتمر الدولي ولكنها تحرض على تحرير الأرض وقيام دولة فلسطين) وكانت هذه الشرارة التي أشعلت حقد صانعي القرار في أعلى مستويات المسئولية في الكيان الصهيوني لتصفية (أبوجهاد) الوقود المحرك لبركان الثورة والمجاهد العربي الذي عاش يصنع الاحداث خلال أربعين عاما على خريطة الوطن العربي وكأن الله قد أراد أن تكون اسرائيل ذاتها هي المعلن الوحيد دون وعي عن فضائل الرجل (والفضل ما شهدت به الأعداء) . وكما قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ نفع العود

فلولا اغتيال (أبوجهاد) ما كان العالم ليعرف انه كان العقل المفكر والرأس المدبر لتأسيس حركة فتح وإطلاق أول رصاصة في حرب التحرير، وانه الرجل الذي التزم بالخيار العسكري للحل دون الاخلال بالخيارات الأخرى المطروحة لحل القضية، وقد قال بالفم المليان عقب مؤتمر القمة العربية في بغداد (ان تحرير القدس لن يتم إلا داخل الأرض المحتلة)، وكان دينامو العمليات الفدائية العسكرية داخل وخارج فلسطين، وكان الرقم الذي لم يقفز عليه أحد في حرب أيلول الأسود في الأردن، وكان صمام الأمان في مفاوضات توحيد الفصائل الفلسطينية في أخرج الظروف وأحلك المواقف، وكان القائد الميداني في حرب لبنان حتى قاد قافلة (الخروج العظيم) الى تونس للدخول في خندق جديد عام ١٩٨٢م، وأخير اكان مفجر النار وسراستمرارها في اشتعال ثورة الحجارة وحرب الانتفاضة التي كسرت ذراع اسرائيل الطويلة والقصيرة في الداخل وأصبحت رمزا

نضاليا جديدا وشكلا شعبيا ابداعيا في حروب التحرير . . الحجر في مواجهة الرصاصة . . معادلة جديدة في خريطة الواقع السياسي في المنطقة العربية والدولية جعلت اسرائيل لا ترى صيغة حضارية للحل غير الاغتيال في محاولة لانفراج المأزق التاريخي الذي عاشته خلال عمر الانتفاضة وظنت في لحظة احباط ان قتل الثورة واجهاض الانتفاضة لن يتم إلا بتحطيم الرمز والتمثال والصورة والقضاء على مصدر الالهام الثوري في ضمير الصغار وعقول الأطفال المنخرطين في قافلة الشهادة . . فنفس الرجل الذي احتفل بميلاد حركة فتح واطلاق أول رصاصة وقاد مسيرتها في الطرق الوعرة . . في غابات الهزيمة ووحل التسوية وشباك التنازلات حتى وصلت بالناس مرحلة الرفض لتوجهات المنظمة، جاء اغتيال أبوجهاد اختصارا لمعركة النصر الطويلة للمنظمة من مرحلة اليأس الى فجر الانطلاق، فبقدر ما كان استشهاده انتصارا جديدا للقضية كان هزيمة كبرى لاسرائيل . . لقد أعاد اغتياله الحياة في شرايين كل الفصائل الفلسطينية المتعارضة والمتجانسة ورفع بنودها خفاقة من جديد . . ووجد رؤية كل المتنازعين على مصير الوطن المسلوب فمشوا خلف موكبه يؤدون (قسم الثورة) من جديد، وفتح بوابة عبور بين المنظمة وليبيا ظلت مغلقة طيلة سنوات هي حصاد التسويات والمساومات والخلافات والمؤتمرات المتعاقبة والمتكاملة على ورقة التوت التي تغطي عيوب الحل السلمي والسلام الوهمي . . وجاء اغتياله فظرة تواصل بين المنظمة وسوريا . . أكبر التحديات التي واجهت المنظمة بعد حرب لبنان طيلة عدة سنوات ظلت فيها المنظمة خارج دائرة الفعل المؤثر للقرار الثوري في الخريطة الدولية وفقدت الثقل السياسي الذي يسند قرارها العسكري، والآن يدخل رئيس المنظمة دمشق محمولا على الأعناق ليقرأ الفاتحة على روح الشهيد الذي دفع القوى العظمى مكرهة في طريق المؤتمر الدولي كحد أدنى يمكن القبول به للمفاوض الفلسطيني وكأسوأ الخيارات المطروحة أمام العدو الصهيوني (والكارت) الأخير في لعبة السلام الدولي في يد الحلفاء .

وأهم من ذلك كله ان اغتيال (أبوجهاد) كان هزيمة سياسية وأخلاقية لاسرائيل سوف تدفع ثمنها غاليا في الجبهة الداخلية والمحافل الدولية لأنها قامت بحرب

معلنة من دولة كاملة لتصفية رجل فرد ابتداء من القرار السياسي على أعلى مستوى والاستعداد العسكري على أكبر نطاق والاستنفار القتالي لوححدات الكوماندوز الجوية والبحرية والبرية وجهاز الاستخبارات (الموساد) وطائرات قادة الارتباط من اسرائيل الى دولة أخرى ذات سيادة لتدخل (الدولة) غرفة نوم (الرجل) وتغتاله في بيته وسط أطفاله، وهذا تسجل في تاريخها الحافل بالقرصنة صفحة جديدة تلغي كل المفاهيم المغلوطة حول (حقوق الانسان) والدفاع عن «عالم الديمقراطية» و«مكافحة الارهاب» . . . وتتحول عملية الاغتيال المحدودة الى حرب شاملة .

وأخيرا أقول اذا كنا نحلم كثيرا بالصلاة في القدس فعلينا أن نحلم دائما بالموت فيها ولأن الحلم لا يكفي لتحريرها فيجب علينا ان لا ننام أبدا . . . ولكنني وجدت أصدق من قولي مصارحة القصيدة الأخيرة للأخ الشاعر الدكتور مانع سعيد العتيبة بعنوان «ثورة الحجارة» وهي دفقة شعورية نائرة نابضة بالحس النقدي للواقع العربي والاسلامي وتعتبر رسالة انسانية مؤثرة ودعوة مفتوحة مطولة للمجاهدين في سبيل الله . . . ومن أجل القدس . . . تستحق الأشادة وجديرة بالقراءة والتأمل حيث يقول فيها:

ما عاد للكلمات وهج حرارة	وأحس حين أقولها بمرارة
فعلام أنفخ في الرماد محاولا	أن أستمد من الرماد شرارة
القدس ساهرة وصوت أذانها	غضب . . . سكوت المسلمين أثاره
الله أكبر كيف نامت أمي	والذل ينشر في العيون غباره
ان السرايا لا تسير لمسجد	الله بارك أرضه وجواره
ومحمد في ليلة مشهودة	أسرى الاله به اليه وزاره
أيظل محتلا يئن مكبلا	والمسلمون يمينه ويساره
أين العروبة أين قائد زحفها	ضحج النفير ولا أرى استنفاره

الا رحم الله الشهيد (أبوجهاد) فقد كان أمة كاملة في رجل واحد

الحزن ينطق الحجارة

قال الشاعر العربي أبو فراس الحمداني:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر
نعم أنا مشتاق وعندى لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سر

ويقول الكاتب الكبير حسين مروة في «قضايا أدبية» ان عاطفة الحزن من أروع مجالات التعبير في الشعر العربي المعاصر. . ويقول علماء النفس ان الحزن حالة وجدانية غير سارة قد تأخذ صورتين. . هادئة أو ثائرة. .

وأجمل ما يمكن أن توصف به صورة الحزن الهادئ القول: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب وانا لفراقك لمحزونون يا ابراهيم». والحزن الهادئ يعبر عن انفعال منضبط وهدوء قبل العاصفة. . عاصفة الغضب وثورة البراكين. . وهذا الانفعال الهادئ في ظروف الاحباط الشديد، قد يشل قدرة الفرد على التعبير ويسطح مشاعره، ويحوّلها الى برودة قاتلة لعاطفة الشعر، كما نرى في قول المتنبي في رثائه أبي شجاع فاتك:

الحزن يفلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصي طيّع
بردحشاي ان استطعت بلفظة فلقد تضر اذا تشاء وتنفع

ولكن عندما ينعي الخليفة، يصاب بشلل العبارة الشعرية وتور الدفقة

العاطفية قائلاً:

مات الخليفة أيها الثقلان فكأنني أفطرت في رمضان

ولعل نفس هذه الحالة النفسية من الحزن الهادئ المعبر عن هول الصدمة وهروب الذاكرة من دائرة الوعي التصويري قد داهمت الشاعر أبو تمام عندما قال في رثائه القائد حميد الطوسي:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفيض ماؤها عذر
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت اخمصك الحشر

ولكن عندما مات ابنه، عقد الحزن لسانه، وعجز عن التعبير، فانكفاً قائلاً:
كان الذي خفت أن يكونا انا الى الله راجعونا

والحزن في رحلته الهادئة، في مرحلة السكون قبل العاصفة، يعتمل في داخل
وجدان الشاعر الفلسطيني طه عبد الغني مصطفى في قصيدته «أين ضميركم»
حول مذابح صبرا وشاتيلا:

يا مكة الاسلام نصرك اننا بين الموارنة اللثام نعذبُ
يا مصر أنت ملاذنا حتى متى تتقاعسين وفي الفؤاد مشطب
يا نيل عج نحو المخيم واسقه جفت دماء عروقه وستنضب
ياتونس الخضراء يا بغداد يا وهران ردي واستجب يا مغرب
يا كل أمتنا بكل ديارها درء الأذى عنا لفرض موجب

وفي نفس الظروف القتالية التي شهدت ميلاد الحصار الطويل في بيروت،
وأفرزت أهزوجة الخروج العظيم، كان الحزن الهادئ يخنق صوت كل شاعر
عربي ويلون حروفه وتعايره بصورة تفقد الحياة لونها وطعمها ورائحتها. فعندما
استقبلت مولودي الجديد (تامر) عام ١٩٨٢ م، كان يشاركني فرحة المناسبة الحزينة
جاري الذي فقد أسرته في مخيم صبرا وشاتيلا. وما كانت مساحة الحزن تسمح
بأكثر من كتابة (ثلاثية حزينة الى طفلي تامر) في مجموعتي الأخيرة (أشباح
المدينة)، تقول في أحد مقاطعها المطولة:

جاء تامر

ليت أرحام الحوامل كل يوم تلفظ الآلاف

«تامر» بعد «تامر»

ربما مليون ناثر

يرفع الراية في وجه الشواهد والمقابر

يغسل العار المخضب وجه أمتنا السلبية..

يرسم الوجه المغاير
في شروخ بنائة الوطن المصدع . . في البوادي والحواضر
كي يعيد كتابة التاريخ بعد حصار بيروت البطولي المعاصر
وينادي بالبشائر
من أراد العيش فليبق . . والا . . فليهاجر
ان شعب الموطن المحتل باق كالعصافير الحبيسة في البيادر
لن يفارق قدره المخبوء في عمق القلوب ولن يغادر
والصبايا تحمل الاسماء والعنوان قصة كل مغترب مهاجر
ان رحم الأرض ينبض بالبقايا
سوف ينبج ألف «تامر» بعد «تامر»
مرحبا بك يا عريس المجد في وجه المخاطر

لقد كان هذا الكم من الصور الشعرية المعبرة عن نفس المضمون، بشتى الاشكال الفنية واللغوية، نموذجا صادقا للحزن الهادى . . الحزن الذي يتفاعل شأن تفاعل المواد الكيميائية قبل لحظة الاشتعال أو موعد الانفجار داخل الانسان، متخذاً عدة مظاهر، أول سماتها العنف، ونهاية مطافها الاستشهاد . . في هذا المنعطف الخطير تكون لحظة المخاض . . بداية ميلاد الثورة . . نقطة الانطلاق من السكون الى العاصفة . . النقطة الفاصلة بين الحزن الهادى والحزن الناثر . . وهذا الوجه الآخر للحزن تفجر في ثورة الحجارة .

ان أطفال فلسطين، جيل الغضب الالهي، قد دخل مرحلة الحزن الناثر . . ودخولهم لم يكن حدثاً عشوائياً، ووجودهم في الساحة لم يكن نبتاً شيطانياً، ولكنه كان بوابة جديدة للدخول الى معركة النصر الأخيرة بعد أن أوصلت ظروف المساومات والمزايدات والتنازلات الفردية والجماعية كل الأبواب القديمة المؤدية الى كسر الجمود الذي أصاب هذه القضية بمرض الكساح النضالى، بعد رهان الكثيرين على أن الأجيال الجديدة المولودة تحت ظل الاحتلال أصبحت قطعة صلصال يسهل تشكيلها حسب قوالب الواقع السياسي المحزن الذي كرس

مفاهيم «الجندي الاسطورة» و«الجيش الذي لا ينهزم» وسقوط اللاءات العربية الثلاث من لافتات المسيرة . ولكن هذا الحزن الثائر أصبح مدخلا فلسفيا ولغة جديدة في أسلوب الحوار بين «دلالة الحجارة» و«منطق الرصاصة» . . اليس غريبا أن تشتعل نار الحجارة وسط جيل خرج من داخل الأرحام الممزقة بالرصاص ، ورضع حليب الامهات المسجيات في غرف العناية المركزة، وفتح عيونه على لون الدماء واللفافات الدامية والخوذات الرمادية ، والتقطت حاسة سمعه صوت الطلقات النارية والقنابل العنقودية ، واشتم رائحة البارود والغاز المسيل للدموع ، وتذوق مرارة علقم الهزيمة المصنوعة من تركيبة قرارات المنظمات الدولية والاقليمية ، والموزعة من وكالات غوث اللاجئين في شتى أشكال المعلبات الغذائية . . ولس بأصابه العشرين أشواك المأساة المغروزة في رؤية النضال المتقلبة من جيل الى آخر خلال رحلة نضال استمرت أربعين عاما، استشهد فيها جيل ، واندثر جيل ، وبقيت أنقاض أجيال جربت كل أساليب المقاومة حتى أصابها القنوط ، لأنها ربطت قضية التحرير بالرموز السياسية ، وخلطت أوراق القضية بين قناعات شخصية وطموحات طفيلية منذ عهد شركاء وعد بلفور وخريطة التقسيم ، الى آخر قائمة المنوط بهم قضية الدفاع عن القضية .

ان الجيل الجديد لم يعد محكوما بجغرافية الواقع السياسي المتردي ، ولم تعد حركته محدودة بديموغرافيا الوجود الفلسطيني والكيان الصهيوني القائم في تفكير الذين أسقطوا من حساباتهم نزعة الانسان الفطرية للحرية ، وخصوصية قضية فلسطين المعبرة عن خصائص الدفاع عن العروبة والاسلام ، وخريطة الواقع السياسي العالمي المعاصر ، والذي يؤكد ان قضايا التحرر هموم انسانية لا ترتبط بكفاح جيل أو وجود رموز خاصة في ساحة النضال ، وان كانت هذه العوامل جذوة مشتعلة لكفاح مستمر ، إلا أنها ليست نهاية لطموح شعب أو ارادة أمة .

ان أول ما فعله الجيل الفلسطيني الجديد في أسلوب التعامل وطرح البدائل كانت أولى خطواته ثورة الحجارة التي أصبحت رمزا جديدا لبدائل الصمود والتصدي وشعارات الرفض والتحدي . . سخرية الفتى المتحمس أمام العدو

المتطرس والجندي المتمرس ، مع قدرة ملهمة في تفويت الفرصة على دخول الدبابات وهدم المخيمات ، كما حدث في جنوب لبنان ، حيث فتحت بوابة التآمر واسعة لدخول كل عناصر الفتنة وتوسيع رقعة المواجهة ، حتى يسهل اجهاض الثورة المشتعلة قرابة سنتين ، وهو عمر قياسي في تاريخ الانتفاضات الشعبية ، مع غياب القيادة المباشرة بصورة أفقدت العدو عقله ، وأطارت صوابه ، وجعلته يعيش حالة الحزن الهادئ فلا هو قادر على احتواء الموقف بالخيار العسكري الحاسم ، ولا يتمكن من السيطرة على غضب براكين الحجارة المتناثرة كالحمم ، أو استخدام عناصر الفتنة والعمالة المتأهبة للدخول في أي لحظة ، بينما تستمر الثورة في تسجيل مواقف اسطورية من روعة نضال شعب يحارب بقوة وسخرية ، ويواصل ثورته بثقة متميزة ، بحجارة معبرة عن السخرية والاذلال ، ناطقة بالصمود والتحدي ، محملة برياح التغيير في كل موقع .

ويحضرني في هذه الوقفة تعليق ساخر للاستاذ الدكتور أحمد الكبيسي رئيس قسم الدراسات الاسلامية بكلية الشريعة والقانون في جامعة الامارات العربية سابقا عندما كنا في طريقنا الى رمي الجمرات في مناسك حج عام ١٤٠١ هـ في رحلة الجامعة الرسمية حيث قال لي : سبحان الله . . لو أن لهذه الجموع الغفيرة من هذا الطوفان البشري أن تلقي مثل هذا الكم الهائل من الحجارة على اسرائيل لاستقرت فعلا في البحر؟! ولعل هذا ما سيفعله أطفال الحجارة في فلسطين . فقد أيقظوا العالم من نومته المكهفة ، ولو قدر لثورتهم الفتية المتميزة أن تستمر في أوارها المستعمر من وقودها المستمد من قلوب الأطفال النابضة بحب الوطن ، العامرة بعشق التراب سوف تتحرك كل الدمى والتماثيل ، وسوف يردد أهل الكهف قول أبي القاسم الشابي :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

فاذا كان الحزن ينطق بالحجارة فمن ذا الذي ينطق من فمه الماء؟

محراب النيل

قال الشاعر السوداني المبدع المرحوم التجاني يوسف بشير في قصيدة (محراب النيل):

أنت يا نيل يا سليل الفراديس نبيل موفق في انسيابك
حضنتك الأملاك في جنة الخلد ورقّت على وضيّ عبابك
وأمدت عليك أجنحة خضرا وأضفت ثيابها في رحابك
وقد قام بوضع اللحن المطرب السوداني الموسيقار الاستاذ عثمان حسين أطال
الله عمره وأمد في أيامه المعطاءة فقد أضفى اللحن على كلمات القصيدة جوا من
الموسيقى التصويرية المعبرة عن حركة النيل في خريف الماء واندفاع الموج وصوت
العصافير في رحلة مجنحة على قارب صغير ينساب بين أمواج النيل منحدرًا من
أعلى (بحيرة فكتوريا) في جبال الحبشة منسابًا من بحيرة (تانا) من وديان الجنوب
بين الكلمة المعبرة والايحاءات الصوتية المؤثرة في رحلة (النهر الخالد) نهر النيل
العظيم . . خيط الزئبق الفضي المتلألئ ليلا تحت شعاع ضوء الليالي القمرية في
ظلمة غابات أفريقيا المتوهج نهارًا تحت لهيب الشمس المحرقة في الصحراء الكبرى
ويظل يزحف في عنفوان الشباب يحمل رسالة عطرة من الجنوب الى شمال
الوادي . . من أرض المليون ميل مربع شبه القارة الى بلاد النصف مليون نسمة
في قلب القاهرة (أم الدنيا) كما يسميها أهل مصر هذا الرباط التاريخي الذي
يطلقون عليه مسميات الأجيال: حبل المشيمة المائي أكسير الحياة الأزلي أورمز
وحدة وادي النيل الأبدية!

وعندما فكر الزعيم الراحل جمال عبدالناصر في بناء مشروع السد العالي
قامت الدنيا ولم تقعد حتى الآن بين صديق يمدح وعدوي قدح وظل الانجاز أقرب
الى الخيال في تاريخ الشعوب وحياة الأجيال وكما حدثنا أستاذ التاريخ القديم (ان

كبار الرجال يصنعون كبار القرارات) فالحكمة في بناء السد العالي والتي غابت عن أذهان الكثيرين قد ظهرت بعد مرحلة التنظير ومعركة التحرير وفي بداية قضية التنمية والتعمير . . فأصحاب التنظير أغرقوا العالم في حمى المعارضة الخفية والمكشوفة والتي شغلت الناس في الداخل والخارج وأشعلت عداوات الشرق والغرب بصورة لم تكن مصلحة مصر طرفا فيها ومعركة التحرير فرضت حروبا بطولية خاضتها مصر مع الأمة العربية وأهدرت فيها أنهارا من دماء أبنائها وكان السد العظيم أحد أسلحة المعركة في تزويدها بأطنان الوقود وقبل اللحظات الحرجة التي دخل فيها البترول العربي معركة التحرير والتي ماتزال نارها تعلو وتخبو في كل الجهات وتستنزف كل الطاقات جاء وقت واجهت فيه مصر أزمات داخلية وخارجية متلاحقة استطاع الشعب المصري أن يحتويها في صبر ويتجاوزها في ثقة .

وفي بداية قضية التنمية والتعمير . . تعمير ما تهدم بفعل الحرب وخراب الاقتصاد الوطني وبناء الانسان المصري المعاصر في القرى والريف وتطوير المشاريع الزراعية واقامة المصانع الحربية وتشجير الصحراء وتحويل مياه (بحيرة ناص) لتوليد الكهرباء كان السد العالي مع بداية أزمة النفط ومشكلة الطاقة أكبر منقذ للمشاريع الحيوية في مصر من الصعيد الى الدلتا .

وقد ازدادت طول قامة الانجاز العملاق حتى لمست هامته شمس الحقيقة عندما ضرب أفريقيا الجفاف والتصحر في أطرافها الأربعة وكان السد العالي ليس سدا من الحجارة لتخزين المياه وتوليد الطاقة ورمزا لتحرير ارادة الانسان في صنع المستقبل وانما ساترا طبيعيا وجغرافيا من الزحف الصحراوي الذي غير طبيعة القارة الافريقية وتضاريس خريطتها الاقتصادية وظلت (أم الدنيا) محروسة في أحضان شعبها الباسل وذاكرة أمجاد زعيمها الراحل بعيدة عن أخطبوط الجفاف وهي التي تلتف حولها الصحراء الكبرى كالمعصم باليد .

كنت أستعيد هذا الشريط المختزن من أرشيف الذكريات وأنا أنزل ضيفا في القاهرة في (فندق ماريوت) في غرفة تطل على النيل من شرفاتها الأربع وحيث اتجهت قابلني النيل نشوان ضاحكا يجتر أغنية (محراب النيل) وأنا أتابع رحلة

القوارب الصغيرة والبواخر النيلية في حركتها المتصلة والنيل يحيط القاهرة بالشاطآن المخضرة وأشجار النخيل الباسقة التي تعانق زرقة السماء . . وفي الليل وبعد نهاية جلسات المؤتمر المصري الدولي للصحة النفسية أعود الى غرفتي لاستجلى روعة النيل وكأنها القمر المختبىء خلف غمامة شاردة في صقيع ليلة شتوية في القاهرة يمد أصابعه يرسم بأشعته المتناثرة وجوه كل التماثيل الأثرية المنصوبة أمام بوابة الفندق تحكي حضارة (أم الدنيا) عبر قرون من التاريخ .

وعندما أطل نور الصباح استيقظت من نصف حلم انقطع فجأة ليطارد نصف الحقيقة الهاربة من النافذة المطلة على الجسور الثلاثة المعلقة في الطرف الآخر تحاول عبثاً أن تخفي صفحة النيل الجاري تحت الأعمدة الفولاذية . . وعندما خرجت الى قاعة المؤتمر التقيت بالصيديق الكبير الطبيب النفسي المشهور الاستاذ الدكتور فتحي لوزه مدير مستشفى (بهمان) الخاص للطب النفسي وكان قد قدم لي دعوة غداء في منزله الفاخر في مدينة المعادي ورحلة نيلية خاصة على (اليخت) وكأنها نهاية أحداث الحلم وبداية هاجس الحقيقة فلم أكنم فرحتي وسردت له الحلم وما أن جاء وقت الأصيل حتى خرجنا من داره العامرة الى نهر النيل لينطلق بنا الزورق الراقص كفتاة البالية على صفحة الموج فكان يزور بنا الفنادق المتعددة المشرفة على شاطئ النيل والتي تستضيف أعضاء المؤتمر لتؤكد لنا أن النيل ليس رمزا للمتعة والترفيه فقط وانما مصدر رزق وورشة عمل ووسيلة انتقال وشريان حياة ينقل الدم من الحي الى الميت . . ويحمل الرزق من الغني الى الفقير .

أعود أحدث نفسي - والحديث ذوشجون - وأكثر ما يثير الشجن في رحلتي أنها تأتي بعد انقطاع دام عشرين سنة هي عمر المحنة . . فقد زرت القاهرة آخر مرة في عام ١٩٦٧ بعد النكسة مباشرة وسافرت الى بيروت ودمشق تحسس جراح الهزيمة ورأيت الأم الثكلى تلبس عباءة الحداد في أعقاب المأتم العربي الكبير وقلت: رعاك الله يا مصر . . فقد تجمعت كل دموع العرب وانحدرت من حدقات عيون القاهرة واختزننت في صدرها الرحب بكل أهات الأمة وطوت في قلبها

الجريح كل أحزان الدنيا بعد ما حدث في أيام النكسة فحققت بذلك الموقف التاريخي الذي تستحق عليه لقب (أم الدنيا) فقد كانت الفجيعة أكبر من احتمال قلب كل عربي وضمير كل قائد غير رجل واحد . . . وقف في أحلك لحظات العمر يعلن للعالم أجمع من قلب أم الدنيا كامل تحمله تبعات الخطأ ونبأ تنحيه عن مركز القيادة حتى إعادة تفويض شعبي لم يسبق له مثيل في تاريخ الشعوب والقيادات بعد حرب الهزيمة التي زلزلت إيمان كل المنهزمين .

وقد قررت الخروج من القاهرة والحزن يعصر قلبي والجرح يدمي كل أطرافي وقررت ألا أعود إلا وقد تماثلت أم الدنيا للشفاء واشتدت عافية القيادة وما كان ذلك على الله ببعيد . . . وبلا سابق موعد أو تخطيط سأقتني قدمي إلى القاهرة بعد عشرين سنة في أكتوبر ١٩٨٧ لمتابعة دخول أبنی جامعة عين شمس ليقضي حق العلم في أحضان أم الدنيا بعد أن ضاق به صدر أمه الحنون في الخرطوم وكان محض صدفة أن أجد نفسي أحتفل بمرور عشرين عاما على زيارتي الأخيرة إلى مصر وكنت قبل ذلك التاريخ أزورها كل عام وتجمعت فجأة ذكريات محراب النيل وأحزان النكسة واصدء عودة مصر إلى قلب الوطن العربي مع بداية رحلة ابني في محراب النيل .

وقبل مغادرتي القاهرة قرأت في صحف الصباح خبر مشروع ري مدينة (العريش) في الصحراء وكنت قد زرت قطاع غزة والعريش في عام ١٩٦٢ بدعوة من جمعية التضامن العربي قسم الوفود والمؤتمرات وكانت لنا وقفة بالقطار في محطة العريش لبضع ساعات التقينا فيها بأحد المنظرين في فلسفة الصراع العربي الصهيوني وحدثنا قائلاً (العرب يسابقون الزمن فاذا لم يبادروا بحرب خاطفة بقيادة الجيل المعاصر الذي عرف جغرافية الأرض المحتلة الآن فان الجيل القادم لن يستطيع تحرير فلسطين في المستقبل) ولا أعرف ماذا يقول صديقنا المناضل في محطة العريش عام ١٩٦٢ بعد الآن؟

فقد بدأت رياح العودة تهب من العريش . . . عودة الروح إلى جسد الأمة العربية وعودة مصر إلى قلب الوطن العربي وعودة الحلم إلى نفوس المحرومين من

لذة الصحو وعودة الطيور المهاجرة الى قلب الوطن الأم .. قلب كل مدينة عربية
تسرب اليه اليأس وأحاطت به الضغوط وبدأ يتطلع الى آفاق المستقبل ويشم
رائحة المطر من سحابات الأمل التي تروي جفاف الود وعطش العلاقات مع
تباشير كل فجر جديد.

لكل أجل كتاب

قالت الخنساء في أحد مراثياتها تبكي أخاها «صخر»:

أعيني جودا ولا تجمدا
ألا تبكيان الجريء الجميل
الابكيان الفتى السيدا
الابكيان الفتى السيدا
ساد عشيرته امردا
ساد عشيرته امردا
إذا القوم مدوا بأيديهم
إلى المجد مد إليه يدا
فقال الذي فوق أيديهم
من المجد مضى مصعدا
يكلفه القوم ما عاظم
وان كان أصفرهم مولدا
ترى المجد يهوى إلى بيته
تأزر بالمجد ثم ارتدى

وجدت نفسي أردد هذه المقاطع الحزينة الباكية المريرة كطعم الحنظل النافذة كرائحة التوابيت وأنا خارج من ديوان الوزارة حيث بادرنى أحد الاخوة في نهاية الاجتماع متلعثما متجهماً شارد النظرات قائلاً هل صحيح ان الدكتور السوداني ابراهيم مصطفى توفى الى رحمة الله ؟ ومن فرط طول المسافة بين امكانية حدوث الفعل ومصادقية تجاوب العقل وبعد المدى بين الصوت والصدى وخروج المعقول من دائرة المقبول قلت . . من يكون الدكتور ابراهيم ؟ فلم يصدق اني لم أصدق واردف مؤكدا الدكتور السوداني الذي سألتني عن أوراقه أمس . . وشعرت بقشعريرة تسري كالتيار الكهربائي في أطرافي وفشلت كل مشيرات الحواس الخمس كما تفشل كل أصناف الأبر الصينية في إعادة الحس المخدر في جلدي لتخرجني من حالة الخلط الذهني المؤقت الذي تسببه الصدمات المفاجئة بالصوت والصورة رغم مناعة اسطورية كخاصة الاسفنج في امتصاص الصدمات . . قدرة مهنية اكتسبتها خلال سنوات طويلة من معايشة عالم بشري يفترش الصدمات

ويلتحف الازمات وطلب مني صديقي الجلوس على مقعد قائلا . . ألم تقرأ
الصحف المحلية اليوم فقلت له . . ماذا تريد ان تقول لي بالتحديد ؟ قال . .
لقد قرأت ان الدكتور ابراهيم مصطفى وزوجته توفيا في حادث انفجار اسطوانة
غاز وكانت الوزارة قد تعاقدت معه للعمل خلفا للاستشاري الانجليزي الذي
غادر البلاد ولقد حاولت ان ارجع بذاكرتي مسافات خرافية لاربط بين الاحداث
واختزل الزمان سنوات شمسية وقمرية والمعقول واللامعقول متخطيا قوانين الحركة
والسكون ولم استطع كبح جماح خيالي المندفع كالفرس الشرس ذي الصهوة التي
لا تمتطى والحوافر التي تطير بلا خطى ورددت الأمر الى الله من قبل ومن بعد
قائلا . . انا لله وانا اليه لراجعون لتدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما لا يرضي
الرب وانا لفراقك لمحزونون يا ابراهيم .

اقول هذا بمنتهى الصدق والعضوية بكل مظاهر الضعف الواضحة فيه
وادعاءات القوة الخافية عنه وانا اتحدث الى الصديق الذي قال لي قبل يوم اننا
كتبنا للدكتور ابراهيم مصطفى وفي انتظار الرد ودخلنا في جدال طويل حول طول
الاجراءات وضعف الاتصالات بالخرطوم لتحديد الموقف وصدق الفقيه حين قال
لي في آخر لقاء لنا في مستشفى الخرطوم في وسط أزمة الفيضان وغضب الطوفان .

دع الايام تجري في أعنتها ولا تنامن الا خالي البال
ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال الى حال

ولعل هاجس الموت الذي يسرع في سرايين الموتى كان يصور له أزمة
الفيضان بداية النهاية . . وانا اتصور نهاية أخرى وبداية مختلفة كانت له رؤية
مغايرة ما كنت اظنها تأتي بهذه السرعة المأساوية المذهلة التي يصدق فيها قول ابن
المعتز . . (الموت كسهم مرسل اليك وعمرك بقدر سفره نحوك) .

واعود الى بكائية الخنساء في مقدمة مقالتي ويشهد الله من فرط تقمص
ابراهيم لكل المعاني النبيلة في الحياة ما كنت احسبني احيا الى زمن أرى فيه موت
المعاني أو أسمع اسمه مقترنا بالموت وقد كان ملء السمع والبصر عفيفا معافي . .
بصرا وبصيره . . سموا وتسامي وليست هذه ردة فعل اكتئابية لفقد عزيز وانما

قراءة انسانية في سطور متناثرة من حياة قطوفها فانية وبعض تأملات عقلانية ومضاهاة وصفية تشرىحية نصية للصفات التي صاغتھا الخساء شعرا و ترجمھا نثرا عاجزا في المجارة قاصرا في التعبير في رثاء ابراهيم لقد عرفت ابراهيم في مطلع الصبا في الخرطوم جنوب وكنا نلعب سويا في حارة واحدة وكان كريبا وشهما طويل النجاد ساد عشرته امردا فقد توفي والده وترك والدته وخمس أخوات وأخا أكبر منه سنا وأقل منه شعورا بالمسئولية تجاه أسرته التي حمل همومها حتى كاد يترك مقعده الدراسي في مدارس البعثة التعليمية المصرية والتي كان يرى انها لن تتيح له فرصة المنافسة في التعليم الجامعي وظل يجاهد ويجالد حتى أكل الاكتاف حديد المسئولية وهو أصغر أفراد العائلة الممتدة بين الخرطوم وأم درمان فوصل الى جامعة القاهرة الأم وتخرج ليعود الى السودان ويتفرغ لتنشئة اخواته ورعايتهم حتى شبوا عن الطوق ووصلوا مستوى المسئولية وكان برا بوالدته وحملها وهنا على وهن حتى صعدت الى الرفيق الأعلى وبعدها سافر الى انجلترا وتدرج في سلام العلى حتى وصل أكبر المستشفيات التعليمية في لندن وكان مساعدا للجراح العربي المصري الأستاذ الدكتور مجدي يعقوب أستاذ جراحة القلب المفتوح . . وقد كتب له الأساتذة المتخصصون شهادة خبرة تعتبر من اروع ماكتب وقيل عن انسان يجب عمله ويعمل في أي مجال وستظل وثيقة خطية وبطاقة تركية تعتبر مفخرة لكل سوداني مخلص لوطنه مهما تباعدت المسافات وتقطعت السبل وستظل جوهرة مضيئة في سجل الخدمات الصحية في ملف الطبيب السوداني .

وإشاء الله ان يحرم هذا البلد المعطاء الذي فتح له قلبه وذراعيه معا وهو الذي عاد بعد كل تلك الاجماد العلمية ليقدّم خبراته النادرة لوطنه الغالي وظل يصارع نار غربته ويعاني نير اغترابه طوال فترة عمله الحافلة بالتضحية داخل وخارج السودان وقد كان حقاً نموذجاً رائعاً للتضحية في حياته الخاصة والعامة ومن فرط محبته لها وتعلقها به ظلت معاني التضحية في شتى صورها الواضحة والمستترة بطاقة هويته ومفتاح شخصيته عنوانها صفات الحديث الشريف « ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » وهكذا كان يفعل ابراهيم لا يبخر الناس اشياءهم ولا ينتقص من قدرهم ولا يتمنى زوال نعمة الغير في

احلك ظروف الحاجة وما أكثرها في حياته .

لم يتعلق بملذات الحياة وهو في ريعان شبابه فاعانته الحياة على تصريف شئون تقصم ظهور الكبار وزهد في الزواج من أجل راحة اخوته حتى لا تشغله همومه عن حاجة اخوته ففتح الله له مدخل صدق الى أعلى درجات التخصص النادرة في عالم اليوم في أحد أكبر بلدان العالم الثالث التي يزرع تحت هموم الثالوث الذهبي للازمات العصرية المرض والفقر والديون العالمية التي تقتل جذوة الابداع في نفوس ابنائه النابغين من كل حذب وصوب وحكامه الطامحين في فك اغلال الذل والمهانة واخير ازهد ابراهيم في المنصب الرفيع في لندن وعاد الى وطنه الحبيب وبعد ان كان يطرق أبواب المجد والرفعة ظلا يطرقانه صباح ومساء وتنهال عليه العروض من شتى الجامعات ولم يتغير ولم يتبدل وظل كالمعدن الأصيل لا تزيده نار التجربة ولا هيب المعاناة الا بريقا ولمعانا . .

ويشاء الله في حسن الختام لكي يشهد شاهد من أهله ان يؤكد في حياته كل المعاني الحقّة في التضحية فيختتم مهرجان التكريم في اعتزال معترك الحياة الدنيا بشرف الشهادة فقد مات شهيدا عندما ضحى بنفسه في سبيل انقاذ حياة زوجته التي رافقته في الجزء الأخير من مشوار رحلته الطويلة الحافلة بالتضحيات فعندما انفجرت اسطوانة الغاز داخل المطبخ سقطت زوجته فهب لنجدها وهو يصارع النيران حتى التهمته وهو يحاول اللحاق بها . . حزني عليك يا ابراهيم ، فهل وصلتك الرسالة وما عزاني أحد عنك باحسن مما عزى متمم بن نويرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مقتل أخيه زيد بن الخطاب عند سماعه قصيدته التي يرثي فيها أخاه «مالك» قائلاً . .

أرى كل جبل دون جبلك اقطعا	وفي الصبر آيات أراها وانني
وكنت جديرا أن تجيب وتسمعا	واني متى ما ادع باسمك لا تجب
حينما فابكى شجوها البرك أجمعا	فما شارف عيساء ريعت فرجعت
اذا حنت الاولى سجعن لها معا	يذكرن ذا البث القديم بدائه
مناد فصيح بالفراق فاسمعا	سأوجد منى يوم قام (بمالك)

وكننا كندمانى خديمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
الا رحم الله ابراهيم وزوجته وأنزلهما منزلة الشهداء والصديقين وحسن أولئك
رفيقا.

الفصل الرابع عشر

(الحزن النيل)

- أمة في واحد
- الحزن ينطق الحجارة
- محراب النيل
- لكل أجل كتاب

أمة في واحد

قال تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ . . صدق الله العظيم ، وقيل : اطلبوا الموت تكتب لكم الحياة ، فطلب الموت قدر الرجال الذين يصنعون الحياة ويكتبون التاريخ ولا تصنعهم الحياة أو يكتب عنهم التاريخ . . ذلك أجل الشهداء الذين يشكلون المواقف ويصبونها في قوالب الصياغة المتجددة دائما في صراعات التحرير ولا يتشكلون بفعل الأحداث التي تحشرهم في زاوية خانات التسوية والتغطية .

وقد صدقت هذه الأقوال عبر الأجيال منذ عهد القائد التاريخي خالد بن الوليد عندما قال «ليس في جسدي شبر إلا وفيه طعنة من رمح أو ضربة من سيف ، وهأنذا أموت في فراشي ميتة البعير ، فلا نامت أعين الجبناء» ، معبرا عن حبه للشهادة وحلاوة الاستشهاد ، ومؤكدا ان الشجاع يموت مرة والجبان يموت ألف مرة ، لأن الأول يطلب الشهادة في كل كَرْوْفَرٍّ ، والثاني يطلب الحياة فرارا من الموت كل العمر .

ولا يمكن لقلم يملك ناصية الكتابة أوريشة تعرف رسم الخطوط أوقريحة تلهم قافية الشعر ، أن تمسك بخناق الكلمات المشتعلة وشلال الحروف المنفصلة التي تندفع مثل طلقات الرشاش من سلاح المقاتلين المهللين المكبرين في فرحة المآتم خلف موكب جنازة فقيد الأمة العربية والاسلامية وحزن أنصار الحرية وجرح الأرملة الفلسطينية وصوت مآذن القدس السلبية وكلمة السر في شفاه أبناء الأرض المحتلة الخضبية وهتاف حناجر أطفال الحجارة في فلسطين الحبيبة . . ونبض وجدان الشعب وضمير الأمة وذاكرة الثورة وأمل القضية الواحدة المتجسدة في بطولة رجل . . في الشهيد (أبوجهاد) الصامد الصابر . . الصامت المتكلم . .

الحاضر الغائب الذي كان حضوره حياة للثورة الفلسطينية وسيكون غيابه بعثا جديدا لطموحات أصحاب القضية . . ولم يشهد الوطن العربي من المحيط الى الخليج بعد رحيل الزعيم العربي البطل جمال عبدالناصر تكرار المشهد وروعة اللحظات ودفء تفاعل الأحداث مثلما حدث عقب اغتيال (أبوجهاد) ، ويتوالى الشهداء مصدقين لقوله تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ . . صدق الله العظيم . وقد قال أبوجهاد قبل اغتياله بأيام (ان الانتفاضة في الأرض المحتلة لا تهدف الى تأمين مقعد لفلسطين في طاولة المؤتمر الدولي ولكنها تحرض على تحرير الأرض وقيام دولة فلسطين) وكانت هذه الشرارة التي أشعلت حقد صانعي القرار في أعلى مستويات المسئولية في الكيان الصهيوني لتصفية (أبوجهاد) الوقود المحرك لبركان الثورة والمجاهد العربي الذي عاش يصنع الاحداث خلال أربعين عاما على خريطة الوطن العربي وكأن الله قد أراد أن تكون اسرائيل ذاتها هي المعلن الوحيد دون وعي عن فضائل الرجل (والفضل ما شهدت به الأعداء) . وكما قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ نفع العود

فلولا اغتيال (أبوجهاد) ما كان العالم ليعرف انه كان العقل المفكر والرأس المدبر لتأسيس حركة فتح وإطلاق أول رصاصة في حرب التحرير، وانه الرجل الذي التزم بالخيار العسكري للحل دون الاخلال بالخيارات الأخرى المطروحة لحل القضية، وقد قال بالفم المليان عقب مؤتمر القمة العربية في بغداد (ان تحرير القدس لن يتم إلا داخل الأرض المحتلة)، وكان دينامو العمليات الفدائية العسكرية داخل وخارج فلسطين، وكان الرقم الذي لم يقفز عليه أحد في حرب أيلول الأسود في الأردن، وكان صمام الأمان في مفاوضات توحيد الفصائل الفلسطينية في أخرج الظروف وأحلك المواقف، وكان القائد الميداني في حرب لبنان حتى قاد قافلة (الخروج العظيم) الى تونس للدخول في خندق جديد عام ١٩٨٢م، وأخير اكان مفجر النار وسراستمرارها في اشتعال ثورة الحجارة وحرب الانتفاضة التي كسرت ذراع اسرائيل الطويلة والقصيرة في الداخل وأصبحت رمزا

نضاليا جديدا وشكلا شعبيا ابداعيا في حروب التحرير . . الحجر في مواجهة الرصاصة . . معادلة جديدة في خريطة الواقع السياسي في المنطقة العربية والدولية جعلت اسرائيل لا ترى صيغة حضارية للحل غير الاغتيال في محاولة لانفراج المأزق التاريخي الذي عاشته خلال عمر الانتفاضة وظنت في لحظة احباط ان قتل الثورة واجهاض الانتفاضة لن يتم إلا بتحطيم الرمز والتمثال والصورة والقضاء على مصدر الالهام الثوري في ضمير الصغار وعقول الأطفال المنخرطين في قافلة الشهادة . . فنفس الرجل الذي احتفل بميلاد حركة فتح واطلاق أول رصاصة وقاد مسيرتها في الطرق الوعرة . . في غابات الهزيمة ووحل التسوية وشباك التنازلات حتى وصلت بالناس مرحلة الرفض لتوجهات المنظمة، جاء اغتيال أبوجهاد اختصارا لمعركة النصر الطويلة للمنظمة من مرحلة اليأس الى فجر الانطلاق، فبقدر ما كان استشهاده انتصارا جديدا للقضية كان هزيمة كبرى لاسرائيل . . لقد أعاد اغتياله الحياة في شرايين كل الفصائل الفلسطينية المتعارضة والمتجانسة ورفع بنودها خفاقة من جديد . . ووحده رؤية كل المتنازعين على مصير الوطن المسلوب فمشوا خلف موكبه يؤدون (قسم الثورة) من جديد، وفتح بوابة عبور بين المنظمة وليبيا ظلت مغلقة طيلة سنوات هي حصاد التسويات والمساومات والخلافات والمؤتمرات المتعاقبة والمتكاملة على ورقة التوت التي تغطي عيوب الحل السلمي والسلام الوهمي . . وجاء اغتياله فظرة تواصل بين المنظمة وسوريا . . أكبر التحديات التي واجهت المنظمة بعد حرب لبنان طيلة عدة سنوات ظلت فيها المنظمة خارج دائرة الفعل المؤثر للقرار الثوري في الخريطة الدولية وفقدت الثقل السياسي الذي يسند قرارها العسكري، والآن يدخل رئيس المنظمة دمشق محمولا على الأعناق ليقرأ الفاتحة على روح الشهيد الذي دفع القوى العظمى مكرهة في طريق المؤتمر الدولي كحد أدنى يمكن القبول به للمفاوض الفلسطيني وكأسوأ الخيارات المطروحة أمام العدو الصهيوني (والكارت) الأخير في لعبة السلام الدولي في يد الحلفاء .

وأهم من ذلك كله ان اغتيال (أبوجهاد) كان هزيمة سياسية وأخلاقية لاسرائيل سوف تدفع ثمنها غاليا في الجبهة الداخلية والمحافل الدولية لأنها قامت بحرب

معلنة من دولة كاملة لتصفية رجل فرد ابتداء من القرار السياسي على أعلى مستوى والاستعداد العسكري على أكبر نطاق والاستنفار القتالي لوححدات الكوماندوز الجوية والبحرية والبرية وجهاز الاستخبارات (الموساد) وطائرات قادة الارتباط من اسرائيل الى دولة أخرى ذات سيادة لتدخل (الدولة) غرفة نوم (الرجل) وتغتاله في بيته وسط أطفاله، وهذا تسجل في تاريخها الحافل بالقرصنة صفحة جديدة تلغي كل المفاهيم المغلوطة حول (حقوق الانسان) والدفاع عن «عالم الديمقراطية» و«مكافحة الارهاب» . . . وتتحول عملية الاغتيال المحدودة الى حرب شاملة .

وأخيرا أقول اذا كنا نحلم كثيرا بالصلاة في القدس فعلينا أن نحلم دائما بالموت فيها ولأن الحلم لا يكفي لتحريرها فيجب علينا ان لا ننام أبدا . . . ولكنني وجدت أصدق من قولي مصارحة القصيدة الأخيرة للأخ الشاعر الدكتور مانع سعيد العتيبة بعنوان «ثورة الحجارة» وهي دفقة شعورية نائرة نابضة بالحس النقدي للواقع العربي والاسلامي وتعتبر رسالة انسانية مؤثرة ودعوة مفتوحة مطولة للمجاهدين في سبيل الله . . . ومن أجل القدس . . . تستحق الأشادة وجديرة بالقراءة والتأمل حيث يقول فيها:

ما عاد للكلمات وهج حرارة	وأحس حين أقولها بمرارة
فعلام أنفخ في الرماد محاولا	أن أستمد من الرماد شرارة
القدس ساهرة وصوت أذانها	غضب . . . سكوت المسلمين أثاره
الله أكبر كيف نامت أمي	والذل ينشر في العيون غباره
ان السرايا لا تسير لمسجد	الله بارك أرضه وجواره
ومحمد في ليلة مشهودة	أسرى الاله به اليه وزاره
أيظل محتلا يئن مكبلا	والمسلمون يمينه ويساره
أين العروبة أين قائد زحفها	ضحج النفير ولا أرى استنفاره

الا رحم الله الشهيد (أبوجهاد) فقد كان أمة كاملة في رجل واحد

الحزن ينطق الحجارة

قال الشاعر العربي أبو فراس الحمداني:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر
نعم أنا مشتاق وعندى لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سر

ويقول الكاتب الكبير حسين مروة في «قضايا أدبية» ان عاطفة الحزن من أروع مجالات التعبير في الشعر العربي المعاصر. . ويقول علماء النفس ان الحزن حالة وجدانية غير سارة قد تأخذ صورتين. . هادئة أو ثائرة. .

وأجمل ما يمكن أن توصف به صورة الحزن الهادئ القول: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب وانا لفراقك لمحزونون يا ابراهيم». والحزن الهادئ يعبر عن انفعال منضبط وهدوء قبل العاصفة. . عاصفة الغضب وثورة البراكين. . وهذا الانفعال الهادئ في ظروف الاحباط الشديد، قد يشل قدرة الفرد على التعبير ويسطح مشاعره، ويحوها الى برودة قاتلة لعاطفة الشعر، كما نرى في قول المتنبي في رثائه أبي شجاع فاتك:

الحزن يفلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصي طيِّع
بردحشاي ان استطعت بلفظة فلقد تضر اذا تشاء وتنفع

ولكن عندما ينعي الخليفة، يصاب بشلل العبارة الشعرية وتور الدفقة

العاطفية قائلاً:

مات الخليفة أيها الثقلان فكأنني أفطرت في رمضان

ولعل نفس هذه الحالة النفسية من الحزن الهادئ المعبر عن هول الصدمة وهروب الذاكرة من دائرة الوعي التصويري قد داهمت الشاعر أبو تمام عندما قال في رثائه القائد حميد الطوسي:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفيض ماؤها عذر
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت اخمصك الحشر

ولكن عندما مات ابنه، عقد الحزن لسانه، وعجز عن التعبير، فانكفاً قائلاً:
كان الذي خفت أن يكونا انا الى الله راجعونا

والحزن في رحلته الهادئة، في مرحلة السكون قبل العاصفة، يعتمل في داخل
وجدان الشاعر الفلسطيني طه عبد الغني مصطفى في قصيدته «أين ضميركم»
حول مذابح صبرا وشاتيلا:

يا مكة الاسلام نصرك اننا بين الموارنة اللثام نعذبُ
يا مصر أنت ملاذنا حتى متى تتقاعسين وفي الفؤاد مشطب
يا نيل عج نحو المخيم واسقه جفت دماء عروقه وستنضب
ياتونس الخضراء يا بغداد يا وهران ردي واستجب يا مغرب
يا كل أمتنا بكل ديارها درء الأذى عنا لفرض موجب

وفي نفس الظروف القتالية التي شهدت ميلاد الحصار الطويل في بيروت،
وأفرزت أهزوجة الخروج العظيم، كان الحزن الهادئ يخنق صوت كل شاعر
عربي ويلون حروفه وتعايره بصورة تفقد الحياة لونها وطعمها ورائحتها. فعندما
استقبلت مولودي الجديد (تامر) عام ١٩٨٢ م، كان يشاركني فرحة المناسبة الحزينة
جاري الذي فقد أسرته في مخيم صبرا وشاتيلا. وما كانت مساحة الحزن تسمح
بأكثر من كتابة (ثلاثية حزينة الى طفلي تامر) في مجموعتي الأخيرة (أشباح
المدينة)، تقول في أحد مقاطعها المطولة:

جاء تامر

ليت أرحام الحوامل كل يوم تلفظ الآلاف

«تامر» بعد «تامر»

ربما مليون ناثر

يرفع الراية في وجه الشواهد والمقابر

يغسل العار المخضب وجه أمتنا السلبية..

يرسم الوجه المغاير
في شروخ بنائة الوطن المصدع . . في البوادي والحواضر
كي يعيد كتابة التاريخ بعد حصار بيروت البطولي المعاصر
وينادي بالبشائر
من أراد العيش فليبق . . والا . . فليهاجر
ان شعب الموطن المحتل باق كالعصافير الحبيسة في البيادر
لن يفارق قدره المخبوء في عمق القلوب ولن يغادر
والصبايا تحمل الاسماء والعنوان قصة كل مغترب مهاجر
ان رحم الأرض ينبض بالبقايا
سوف ينبج ألف «تامر» بعد «تامر»
مرحبا بك يا عريس المجد في وجه المخاطر

لقد كان هذا الكم من الصور الشعرية المعبرة عن نفس المضمون، بشتى الاشكال الفنية واللغوية، نموذجا صادقا للحزن الهادى . . الحزن الذي يتفاعل شأن تفاعل المواد الكيماوية قبل لحظة الاشتعال أو موعد الانفجار داخل الانسان، متخذاً عدة مظاهر، أول سماتها العنف، ونهاية مطافها الاستشهاد . . في هذا المنعطف الخطير تكون لحظة المخاض . . بداية ميلاد الثورة . . نقطة الانطلاق من السكون الى العاصفة . . النقطة الفاصلة بين الحزن الهادى والحزن الناثر . . وهذا الوجه الآخر للحزن تفجر في ثورة الحجارة .

ان أطفال فلسطين، جيل الغضب الالهي، قد دخل مرحلة الحزن الناثر . . ودخولهم لم يكن حدثاً عشوائياً، ووجودهم في الساحة لم يكن نبتاً شيطانياً، ولكنه كان بوابة جديدة للدخول الى معركة النصر الأخيرة بعد أن أوصلت ظروف المساومات والمزايدات والتنازلات الفردية والجماعية كل الأبواب القديمة الى كسر الجمود الذي أصاب هذه القضية بمرض الكساح النضالى، بعد رهان الكثيرين على أن الأجيال الجديدة المولودة تحت ظل الاحتلال أصبحت قطعة صلصال يسهل تشكيلها حسب قوالب الواقع السياسي المحزن الذي كرس

مفاهيم «الجندي الاسطورة» و«الجيش الذي لا ينهزم» وسقوط اللاءات العربية الثلاث من لافتات المسيرة . ولكن هذا الحزن الثائر أصبح مدخلا فلسفيا ولغة جديدة في أسلوب الحوار بين «دلالة الحجارة» و«منطق الرصاصة» . . اليس غريبا أن تشتعل نار الحجارة وسط جيل خرج من داخل الأرحام الممزقة بالرصاص ، ورضع حليب الامهات المسجيات في غرف العناية المركزة، وفتح عيونه على لون الدماء واللفافات الدامية والخوذات الرمادية ، والتقطت حاسة سمعه صوت الطلقات النارية والقنابل العنقودية ، واشتم رائحة البارود والغاز المسيل للدموع ، وتذوق مرارة علقم الهزيمة المصنوعة من تركيبة قرارات المنظمات الدولية والاقليمية ، والموزعة من وكالات غوث اللاجئين في شتى أشكال المعلبات الغذائية . . ولس بأصابه العشرين أشواك المأساة المغروزة في رؤية النضال المتقلبة من جيل الى آخر خلال رحلة نضال استمرت أربعين عاما، استشهد فيها جيل ، واندثر جيل ، وبقيت أنقاض أجيال جربت كل أساليب المقاومة حتى أصابها القنوط ، لأنها ربطت قضية التحرير بالرموز السياسية ، وخلطت أوراق القضية بين قناعات شخصية وطموحات طفيلية منذ عهد شركاء وعد بلفور وخريطة التقسيم ، الى آخر قائمة المنوط بهم قضية الدفاع عن القضية .

ان الجيل الجديد لم يعد محكوما بجغرافية الواقع السياسي المتردي ، ولم تعد حركته محدودة بديموغرافيا الوجود الفلسطيني والكيان الصهيوني القائم في تفكير الذين أسقطوا من حساباتهم نزعة الانسان الفطرية للحرية ، وخصوصية قضية فلسطين المعبرة عن خصائص الدفاع عن العروبة والاسلام ، وخريطة الواقع السياسي العالمي المعاصر ، والذي يؤكد ان قضايا التحرر هموم انسانية لا ترتبط بكفاح جيل أو وجود رموز خاصة في ساحة النضال ، وان كانت هذه العوامل جذوة مشتعلة لكفاح مستمر ، إلا أنها ليست نهاية لطموح شعب أو ارادة أمة .

ان أول ما فعله الجيل الفلسطيني الجديد في أسلوب التعامل وطرح البدائل كانت أولى خطواته ثورة الحجارة التي أصبحت رمزا جديدا لبدائل الصمود والتصدي وشعارات الرفض والتحدي . . سخرية الفتى المتحمس أمام العدو

المتطرس والجندي المتمرس ، مع قدرة ملهمة في تفويت الفرصة على دخول الدبابات وهدم المخيمات ، كما حدث في جنوب لبنان ، حيث فتحت بوابة التآمر واسعة لدخول كل عناصر الفتنة وتوسيع رقعة المواجهة ، حتى يسهل اجهاض الثورة المشتعلة قرابة سنتين ، وهو عمر قياسي في تاريخ الانتفاضات الشعبية ، مع غياب القيادة المباشرة بصورة أفقدت العدو عقله ، وأطارت صوابه ، وجعلته يعيش حالة الحزن الهادئ فلا هو قادر على احتواء الموقف بالخيار العسكري الحاسم ، ولا يتمكن من السيطرة على غضب براكين الحجارة المتناثرة كالحمم ، أو استخدام عناصر الفتنة والعمالة المتأهبة للدخول في أي لحظة ، بينما تستمر الثورة في تسجيل مواقف اسطورية من روعة نضال شعب يحارب بقوة وسخرية ، ويواصل ثورته بثقة متميزة ، بحجارة معبرة عن السخرية والاذلال ، ناطقة بالصمود والتحدي ، محملة برياح التغيير في كل موقع .

ويحضرني في هذه الوقفة تعليق ساخر للاستاذ الدكتور أحمد الكبيسي رئيس قسم الدراسات الاسلامية بكلية الشريعة والقانون في جامعة الامارات العربية سابقا عندما كنا في طريقنا الى رمي الجمرات في مناسك حج عام ١٤٠١ هـ في رحلة الجامعة الرسمية حيث قال لي : سبحان الله . . لو أن لهذه الجموع الغفيرة من هذا الطوفان البشري أن تلقي مثل هذا الكم الهائل من الحجارة على اسرائيل لاستقرت فعلا في البحر؟! ولعل هذا ما سيفعله أطفال الحجارة في فلسطين . فقد أيقظوا العالم من نومته المكهفة ، ولو قدر لثورتهم الفتية المتميزة أن تستمر في أوارها المستعمر من وقودها المستمد من قلوب الأطفال النابضة بحب الوطن ، العامرة بعشق التراب سوف تتحرك كل الدمى والتماثيل ، وسوف يردد أهل الكهف قول أبي القاسم الشابي :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

فاذا كان الحزن ينطق بالحجارة فمن ذا الذي ينطق من فمه الماء؟

محراب النيل

قال الشاعر السوداني المبدع المرحوم التجاني يوسف بشير في قصيدة (محراب النيل):

أنت يا نيل يا سليل الفراديس نبيل موفق في انسيابك
حضنتك الأملاك في جنة الخلد ورقّت على وضيّ عبابك
وأمدت عليك أجنحة خضرا وأضفت ثيابها في رحابك
وقد قام بوضع اللحن المطرب السوداني الموسيقار الاستاذ عثمان حسين أطال
الله عمره وأمد في أيامه المعطاءة فقد أضفى اللحن على كلمات القصيدة جوا من
الموسيقى التصويرية المعبرة عن حركة النيل في خريف الماء واندفاع الموج وصوت
العصافير في رحلة مجنحة على قارب صغير ينساب بين أمواج النيل منحدرًا من
أعلى (بحيرة فكتوريا) في جبال الحبشة منسابًا من بحيرة (تانا) من وديان الجنوب
بين الكلمة المعبرة والايحاءات الصوتية المؤثرة في رحلة (النهر الخالد) نهر النيل
العظيم . . خيط الزئبق الفضي المتلألئ ليلا تحت شعاع ضوء الليالي القمرية في
ظلمة غابات أفريقيا المتوهج نهارًا تحت لهيب الشمس المحرقة في الصحراء الكبرى
ويظل يزحف في عنفوان الشباب يحمل رسالة عطرة من الجنوب الى شمال
الوادي . . من أرض المليون ميل مربع شبه القارة الى بلاد النصف مليون نسمة
في قلب القاهرة (أم الدنيا) كما يسميها أهل مصر هذا الرباط التاريخي الذي
يطلقون عليه مسميات الأجيال: حبل المشيمة المائي أكسير الحياة الأزلي أورمز
وحدة وادي النيل الأبدية!

وعندما فكر الزعيم الراحل جمال عبدالناصر في بناء مشروع السد العالي
قامت الدنيا ولم تقعد حتى الآن بين صديق يمدح وعدوي قدح وظل الانجاز أقرب
الى الخيال في تاريخ الشعوب وحياة الأجيال وكما حدثنا أستاذ التاريخ القديم (ان

كبار الرجال يصنعون كبار القرارات) فالحكمة في بناء السد العالي والتي غابت عن أذهان الكثيرين قد ظهرت بعد مرحلة التنظير ومعركة التحرير وفي بداية قضية التنمية والتعمير . . فأصحاب التنظير أغرقوا العالم في حمى المعارضة الخفية والمكشوفة والتي شغلت الناس في الداخل والخارج وأشعلت عداوات الشرق والغرب بصورة لم تكن مصلحة مصر طرفا فيها ومعركة التحرير فرضت حروبا بطولية خاضتها مصر مع الأمة العربية وأهدرت فيها أنهارا من دماء أبنائها وكان السد العظيم أحد أسلحة المعركة في تزويدها بأطنان الوقود وقبل اللحظات الحرجة التي دخل فيها البترول العربي معركة التحرير والتي ماتزال نارها تعلو وتخبو في كل الجهات وتستنزف كل الطاقات جاء وقت واجهت فيه مصر أزمات داخلية وخارجية متلاحقة استطاع الشعب المصري أن يحتويها في صبر ويتجاوزها في ثقة .

وفي بداية قضية التنمية والتعمير . . تعمير ما تهدم بفعل الحرب وخراب الاقتصاد الوطني وبناء الانسان المصري المعاصر في القرى والريف وتطوير المشاريع الزراعية واقامة المصانع الحربية وتشجير الصحراء وتحويل مياه (بحيرة ناص) لتوليد الكهرباء كان السد العالي مع بداية أزمة النفط ومشكلة الطاقة أكبر منقذ للمشاريع الحيوية في مصر من الصعيد الى الدلتا .

وقد ازدادت طول قامة الانجاز العملاق حتى لمست هامته شمس الحقيقة عندما ضرب أفريقيا الجفاف والتصحر في أطرافها الأربعة وكان السد العالي ليس سدا من الحجارة لتخزين المياه وتوليد الطاقة ورمزا لتحرير ارادة الانسان في صنع المستقبل وانما ساترا طبيعيا وجغرافيا من الزحف الصحراوي الذي غير طبيعة القارة الافريقية وتضاريس خريطتها الاقتصادية وظلت (أم الدنيا) محروسة في أحضان شعبها الباسل وذاكرة أمجاد زعيمها الراحل بعيدة عن أخطبوط الجفاف وهي التي تلتف حولها الصحراء الكبرى كالمعصم باليد .

كنت أستعيد هذا الشريط المختزن من أرشيف الذكريات وأنا أنزل ضيفا في القاهرة في (فندق ماريوت) في غرفة تطل على النيل من شرفاتها الأربع وحيث اتجهت قابلني النيل نشوان ضاحكا يجتر أغنية (محراب النيل) وأنا أتابع رحلة

القوارب الصغيرة والبواخر النيلية في حركتها المتصلة والنيل يحيط بالقاهرة بالشاطآن المخضرة وأشجار النخيل الباسقة التي تعانق زرقة السماء . . وفي الليل وبعد نهاية جلسات المؤتمر المصري الدولي للصحة النفسية أعود الى غرفتي لاستجلى روعة النيل وكأنها القمر المختبىء خلف غمامة شاردة في صقيع ليلة شتوية في القاهرة يمد أصابعه يرسم بأشعته المتناثرة وجوه كل التماثيل الأثرية المنصوبة أمام بوابة الفندق تحكي حضارة (أم الدنيا) عبر قرون من التاريخ .

وعندما أطل نور الصباح استيقظت من نصف حلم انقطع فجأة ليطارد نصف الحقيقة الهاربة من النافذة المطلة على الجسور الثلاثة المعلقة في الطرف الآخر تحاول عبثاً أن تخفي صفحة النيل الجاري تحت الأعمدة الفولاذية . . وعندما خرجت الى قاعة المؤتمر التقيت بالصيديق الكبير الطبيب النفسي المشهور الاستاذ الدكتور فتحي لوزه مدير مستشفى (بهمان) الخاص للطب النفسي وكان قد قدم لي دعوة غداء في منزله الفاخر في مدينة المعادي ورحلة نيلية خاصة على (اليخت) وكأنها نهاية أحداث الحلم وبداية هاجس الحقيقة فلم أكنم فرحتي وسردت له الحلم وما أن جاء وقت الأصيل حتى خرجنا من داره العامرة الى نهر النيل لينطلق بنا الزورق الراقص كفتاة البالية على صفحة الموج فكان يزور بنا الفنادق المتعددة المشرفة على شاطئ النيل والتي تستضيف أعضاء المؤتمر لتؤكد لنا أن النيل ليس رمزا للمتعة والترفيه فقط وانما مصدر رزق وورشة عمل ووسيلة انتقال وشريان حياة ينقل الدم من الحي الى الميت . . ويحمل الرزق من الغني الى الفقير .

أعود أحدث نفسي - والحديث ذوشجون - وأكثر ما يثير الشجن في رحلتي أنها تأتي بعد انقطاع دام عشرين سنة هي عمر المحنة . . فقد زرت القاهرة آخر مرة في عام ١٩٦٧ بعد النكسة مباشرة وسافرت الى بيروت ودمشق لتحسس جراح الهزيمة ورأيت الأم الثكلى تلبس عباءة الحداد في أعقاب المأتم العربي الكبير وقلت: رعاك الله يا مصر . . فقد تجمعت كل دموع العرب وانحدرت من حدقات عيون القاهرة واختزننت في صدرها الرحب بكل أهات الأمة وطوت في قلبها

الجريح كل أحزان الدنيا بعد ما حدث في أيام النكسة فحققت بذلك الموقف التاريخي الذي تستحق عليه لقب (أم الدنيا) فقد كانت الفجيعة أكبر من احتمال قلب كل عربي وضمير كل قائد غير رجل واحد . . . وقف في أحلك لحظات العمر يعلن للعالم أجمع من قلب أم الدنيا كامل تحمله تبعات الخطأ ونبأ تنحيه عن مركز القيادة حتى إعادة تفويض شعبي لم يسبق له مثيل في تاريخ الشعوب والقيادات بعد حرب الهزيمة التي زلزلت إيمان كل المنهزمين .

وقد قررت الخروج من القاهرة والحزن يعصر قلبي والجرح يدمي كل أطرافي وقررت ألا أعود إلا وقد تماثلت أم الدنيا للشفاء واشتدت عافية القيادة وما كان ذلك على الله ببعيد . . . وبلا سابق موعد أو تخطيط سأقتني قدمي إلى القاهرة بعد عشرين سنة في أكتوبر ١٩٨٧ لتابعة دخول أبي جامعة عين شمس ليقتضي حق العلم في أحضان أم الدنيا بعد أن ضاق به صدر أمه الحنون في الخرطوم وكان محض صدفة أن أجد نفسي أحتفل بمرور عشرين عاما على زيارتي الأخيرة إلى مصر وكنت قبل ذلك التاريخ أزورها كل عام وتجمعت فجأة ذكريات محراب النيل وأحزان النكسة واصدء عودة مصر إلى قلب الوطن العربي مع بداية رحلة ابني في محراب النيل .

وقبل مغادرتي القاهرة قرأت في صحف الصباح خبر مشروع ري مدينة (العريش) في الصحراء وكنت قد زرت قطاع غزة والعريش في عام ١٩٦٢ بدعوة من جمعية التضامن العربي قسم الوفود والمؤتمرات وكانت لنا وقفة بالقطار في محطة العريش لبضع ساعات التقينا فيها بأحد المنظرين في فلسفة الصراع العربي الصهيوني وحدثنا قائلاً (العرب يسابقون الزمن فاذا لم يبادروا بحرب خاطفة بقيادة الجيل المعاصر الذي عرف جغرافية الأرض المحتلة الآن فان الجيل القادم لن يستطيع تحرير فلسطين في المستقبل) ولا أعرف ماذا يقول صديقنا المناضل في محطة العريش عام ١٩٦٢ بعد الآن؟

فقد بدأت رياح العودة تهب من العريش . . . عودة الروح إلى جسد الأمة العربية وعودة مصر إلى قلب الوطن العربي وعودة الحلم إلى نفوس المحرومين من

لذة الصحو وعودة الطيور المهاجرة الى قلب الوطن الأم .. قلب كل مدينة عربية
تسرب اليه اليأس وأحاطت به الضغوط وبدأ يتطلع الى آفاق المستقبل ويشم
رائحة المطر من سحابات الأمل التي تروي جفاف الود وعطش العلاقات مع
تباشير كل فجر جديد.

لكل أجل كتاب

قالت الخنساء في أحد مراثياتها تبكي أخاها «صخر»:

أعيني جودا ولا تجمدا
ألا تبكيان الجريء الجميل
الابكيان الفتى السيدا
الابكيان الفتى السيدا
ساد عشيرته امردا
ساد عشيرته امردا
إذا القوم مدوا بأيديهم
إلى المجد مد إليه يدا
فقال الذي فوق أيديهم
من المجد مضى مصعدا
يكلفه القوم ما عاظم
وان كان أصفرهم مولدا
تري المجد يهوى إلى بيته
تأزر بالمجد ثم ارتدى

وجدت نفسي أردد هذه المقاطع الحزينة الباكية المريرة كطعم الحنظل النافذة كرائحة التوابيت وأنا خارج من ديوان الوزارة حيث بادرنى أحد الاخوة في نهاية الاجتماع متلعثما متجهماً شاردا النظرات قائلاً هل صحيح ان الدكتور السوداني ابراهيم مصطفى توفى الى رحمة الله ؟ ومن فرط طول المسافة بين امكانية حدوث الفعل ومصادقية تجاوب العقل وبعد المدى بين الصوت والصدى وخروج المعقول من دائرة المقبول قلت . . من يكون الدكتور ابراهيم ؟ فلم يصدق اني لم أصدق واردف مؤكدا الدكتور السوداني الذي سألتني عن أوراقه أمس . . وشعرت بقشعريرة تسري كالتيار الكهربائي في أطرافي وفشلت كل مشيرات الحواس الخمس كما تفشل كل أصناف الأبر الصينية في إعادة الحس المخدر في جلدي لتخرجني من حالة الخلط الذهني المؤقت الذي تسببه الصدمات المفاجئة بالصوت والصورة رغم مناعة اسطورية كخاصة الاسفنج في امتصاص الصدمات . . قدرة مهنية اكتسبتها خلال سنوات طويلة من معايشة عالم بشري يفترش الصدمات

ويلتحف الازمات وطلب مني صديقي الجلوس على مقعد قائلا . . ألم تقرأ
الصحف المحلية اليوم فقلت له . . ماذا تريد ان تقول لي بالتحديد ؟ قال . .
لقد قرأت ان الدكتور ابراهيم مصطفى وزوجته توفيا في حادث انفجار اسطوانة
غاز وكانت الوزارة قد تعاقدت معه للعمل خلفا للاستشاري الانجليزي الذي
غادر البلاد ولقد حاولت ان ارجع بذاكرتي مسافات خرافية لاربط بين الاحداث
واختزل الزمان سنوات شمسية وقمرية والمعقول واللامعقول متخطيا قوانين الحركة
والسكون ولم استطع كبح جماح خيالي المندفع كالفرس الشرس ذي الصهوة التي
لا تمتطى والحوافر التي تطير بلا خطى ورددت الأمر الى الله من قبل ومن بعد
قائلا . . انا لله وانا اليه لراجعون لتدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما لا يرضي
الرب وانا لفراقك لمحزونون يا ابراهيم .

اقول هذا بمنتهى الصدق والعضوية بكل مظاهر الضعف الواضحة فيه
وادعاءات القوة الخافية عنه وانا اتحدث الى الصديق الذي قال لي قبل يوم اننا
كتبنا للدكتور ابراهيم مصطفى وفي انتظار الرد ودخلنا في جدال طويل حول طول
الاجراءات وضعف الاتصالات بالخرطوم لتحديد الموقف وصدق الفقيه حين قال
لي في آخر لقاء لنا في مستشفى الخرطوم في وسط أزمة الفيضان وغضب الطوفان .

دع الايام تجري في أعنتها ولا تنامن الا خالي البال
ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال الى حال

ولعل هاجس الموت الذي يسرع في سرايين الموتى كان يصور له أزمة
الفيضان بداية النهاية . . وانا اتصور نهاية أخرى وبداية مختلفة كانت له رؤية
مغايرة ما كنت اظنها تأتي بهذه السرعة المأساوية المذهلة التي يصدق فيها قول ابن
المعتر . . (الموت كسهم مرسل اليك وعمرك بقدر سفره نحوك) .

واعود الى بكائية الخنساء في مقدمة مقالتي ويشهد الله من فرط تقمص
ابراهيم لكل المعاني النبيلة في الحياة ما كنت احسبني احيا الى زمن أرى فيه موت
المعاني أو أسمع اسمه مقترنا بالموت وقد كان ملء السمع والبصر عفيفا معافي . .
بصرا وبصيره . . سموا وتسامي وليست هذه ردة فعل اكتئابية لفقد عزيز وانما

قراءة انسانية في سطور متناثرة من حياة قطوفها فانية وبعض تأملات عقلانية ومضاهاة وصفية تشرىحية نصية للصفات التي صاغتھا الخساء شعرا و ترجمھا نثرا عاجزا في المجارة قاصرا في التعبير في رثاء ابراهيم لقد عرفت ابراهيم في مطلع الصبا في الخرطوم جنوب وكنا نلعب سويا في حارة واحدة وكان كريبا وشهما طويل النجاد ساد عشرته امردا فقد توفي والده وترك والدته وخمس أخوات وأخا أكبر منه سنا وأقل منه شعورا بالمسئولية تجاه أسرته التي حمل همومها حتى كاد يترك مقعده الدراسي في مدارس البعثة التعليمية المصرية والتي كان يرى انها لن تتيح له فرصة المنافسة في التعليم الجامعي وظل يجاهد ويجالد حتى أكل الاكتاف حديد المسئولية وهو أصغر أفراد العائلة الممتدة بين الخرطوم وأم درمان فوصل الى جامعة القاهرة الأم وتخرج ليعود الى السودان ويتفرغ لتنشئة اخواته ورعايتهم حتى شبوا عن الطوق ووصلوا مستوى المسئولية وكان برا بوالدته وحملها وهنا على وهن حتى صعدت الى الرفيق الأعلى وبعدها سافر الى انجلترا وتدرج في سلام العلى حتى وصل أكبر المستشفيات التعليمية في لندن وكان مساعدا للجراح العربي المصري الأستاذ الدكتور مجدي يعقوب أستاذ جراحة القلب المفتوح . . وقد كتب له الأساتذة المتخصصون شهادة خبرة تعتبر من اروع ماكتب وقيل عن انسان يجب عمله ويعمل في أي مجال وستظل وثيقة خطية وبطاقة تركية تعتبر مفخرة لكل سوداني مخلص لوطنه مهما تباعدت المسافات وتقطعت السبل وستظل جوهرة مضيئة في سجل الخدمات الصحية في ملف الطبيب السوداني .

وإشاء الله ان يحرم هذا البلد المعطاء الذي فتح له قلبه وذراعيه معا وهو الذي عاد بعد كل تلك الاجماد العلمية ليقدّم خبراته النادرة لوطنه الغالي وظل يصارع نار غربته ويعاني نير اغترابه طوال فترة عمله الحافلة بالتضحية داخل وخارج السودان وقد كان حقاً نموذجاً رائعاً للتضحية في حياته الخاصة والعامة ومن فرط محبته لها وتعلقها به ظلت معاني التضحية في شتى صورها الواضحة والمسترة بطاقة هويته ومفتاح شخصيته عنوانها صفات الحديث الشريف « ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » وهكذا كان يفعل ابراهيم لا يبخر الناس اشياءهم ولا ينتقص من قدرهم ولا يتمنى زوال نعمة الغير في

احلك ظروف الحاجة وما أكثرها في حياته .

لم يتعلق بملذات الحياة وهو في ريعان شبابه فاعانته الحياة على تصريف شئون تقصم ظهور الكبار وزهد في الزواج من أجل راحة اخوته حتى لا تشغله همومه عن حاجة اخوته ففتح الله له مدخل صدق الى أعلى درجات التخصص النادرة في عالم اليوم في أحد أكبر بلدان العالم الثالث التي يبرز تحت هموم الثالث الذهبي للازمات العصرية المرض والفقر والديون العالمية التي تقتل جذوة الابداع في نفوس ابنائه النابغين من كل حذب وصوب وحكامه الطامحين في فك اغلال الذل والمهانة واخير ا زهد ابراهيم في المنصب الرفيع في لندن وعاد الى وطنه الحبيب وبعد ان كان يطرق أبواب المجد والرفعة ظلا يطرقانه صباح ومساء وتنهال عليه العروض من شتى الجامعات ولم يتغير ولم يتبدل وظل كالمعدن الأصيل لا تزيده نار التجربة ولا هيب المعاناة الا بريقا ولمعانا . .

ويشاء الله في حسن الختام لكي يشهد شاهد من أهله ان يؤكد في حياته كل المعاني الحقّة في التضحية فيختتم مهرجان التكريم في اعتزال معترك الحياة الدنيا بشرف الشهادة فقد مات شهيدا عندما ضحى بنفسه في سبيل انقاذ حياة زوجته التي رافقته في الجزء الأخير من مشوار رحلته الطويلة الحافلة بالتضحيات فعندما انفجرت اسطوانة الغاز داخل المطبخ سقطت زوجته فهب لنجدها وهو يصارع النيران حتى التهمته وهو يحاول اللحاق بها . . حزني عليك يا ابراهيم ، فهل وصلتك الرسالة وما عزاني أحد عنك باحسن مما عزى متمم بن نويرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مقتل أخيه زيد بن الخطاب عند سماعه قصيدته التي يرثي فيها أخاه «مالك» قائلاً . .

وفي الصبر آيات أراها وانني	أرى كل جبل دون جبلك اقطعا
واني متى ما ادع باسمك لا تجب	وكنت جديرا أن تجيب وتسمعا
فما شارف عيساء ريعت فرجعت	حنينا فابكى شجوها البرك أجمعا
يذكرن ذا البث القديم بدائه	اذا حنت الاولى سجعن لها معا
سأوجد منى يوم قام (بمالك)	مناد فصيح بالفراق فاسمعا

وكننا كندمانى خديمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
الا رحم الله ابراهيم وزوجته وأنزلهما منزلة الشهداء والصديقين وحسن أولئك
رفيقا.

الفصل الخامس عشر

(سيكولوجية الابداع)

- تعريف الابداع
- الابداع والوعي
- الابداع .. والشخصية
- الابداع .. والمرض العقلي
- الابداع .. والضغط النفسية

تعريف الابداع

ان القدرة على الابداع ليست قدرة عامة وانما هي قدرة نوعية خاصة وتختلف القدرة على الابداع في مجال الرياضيات عنها في أي مجال آخر مثل المجال الفني أو الموسيقي أو اللغوي .

ودوافع الابداع متعددة ولكنها تعبر عن الأصالة - الدوافع الفطرية الأولية عن طريق الوراثة البيولوجية والثانوية المكتسبة عن طريق التعلم والممارسة ومن الدوافع الشعورية كالرغبة في الشهرة أو لاشعورية كمحاولة الرضا المبطن لموقف معلىن .

والابداع مصطلح عام يطلق للدلالة على العلاقة الديناميكية بين الكائن الحي وبيئته في شكل وظيفي خاص كالرسم . . والشعر . . والقصة والغناء وهذه العلاقة لا تكون في شكل ظاهرة سلوكية يمكن ملاحظتها فقط من الشكل الابداعي الخارجي ولكن كظاهرة استدلالية من مضمون هذا الشكل ومدى قدرته على التعبير عن خصوصية هذه العلاقة . والابداع لا ينطلق من فراغ ولا يصنع في معامل ولكنه يتحقق من خلال سلوك يهدف في النهاية الى تحقيق التوازن وخفض التوتر وتفجير الطاقات الكامنة المثيرة للقلق عند الانسان

قد لا يفهم الشخص المبدع الدوافع الحقيقية الكامنة وراء نشاطه العقلي، وقد لا يفهمه المحيطون به بنفس الدرجة وهذا الجانب اللاشعوري فيه . . ولكن قدرة المحيطين به من نقاد على تفسير السلوك والتنبؤ بحدوثه ومستقبله قد يخلق دوافع ثانوية توجه سلوك المبدع وجهة معينة تمنعه من الانحراف والاضطراب وتدفعه نحو الاجادة بصورة تجعل صورة الابداع مقبولة اجتماعيا لا تخرج على القوانين والقيم وهذا الفارق بين الابداع السوي وغير السوي، فالابداع هو

تجسيد رغبة الصدق مع النفس لا هدف التجاوب مع الآخرين وهنا تحدث
المواجهة والمصادمة فاما الانسحاب من الساحة أو الموت في سبيل الابداع ، ولذلك
كان طبيعيا أن يواجه المبدع بالنفور أو الفتور من المتلقي والمستجيب منذ البداية
وحتى النهاية وقد يكتشف ابداعه في عصر لاحق بعيون جديدة وعدسات متطورة
عن زمانه لأنه كثيرا ما يسبق زمانه بمسافات خرافية وليس هذا صك براءة للذين
يوغلون في الغابات الموحشة ويعيشون في الهوامش الضيقة بدعوى انهم سابقون
لزمانهم . . لأن المحور الأساسي للابداع هو الصدق ولا بد أن تتغير المواقف . .
الخاصة أو العامة وينكشف الغطاء ويبدو أن الابداع كان مجرد خداع . . مساحيق
لتجميل التضاريس القبيحة في وجه الاشكال الابداعية .

ان الابداع محاولة خروج عن المؤلف دون تشويه الاطار العام للقيم
الاجتماعية والجمالية . . انه نظرة جديدة من زاوية مختلفة لمشكلة قائمة تنتظر
الحل . . انه قراءة جادة في كتاب قديم واستقراء للمعاني الخفية بين السطور . . انه
تحليق بأجنحة فولاذية لاحتراق جدار الصمت والجمود . . انه دوران خارج نطاق
الجاذبية التي تشد الاشياء الى أسفل . . ومحاولة للصعود الى أعلى .

والابداع قدرة نوعية خاصة . . الابداع ليس مرادفا للعبقرية ، فاذا كان كل
العابرة مبدعين فليس كل المبدعين عباقرة .

١ - العبقرية عملية خلق تصنع مبادئ ونظريات خاصة والابداع قدرة تفوق
على الذات والآخرين من خلال الخروج على الأطر المألوفة والقوالب الجاهزة .

٢ - الابداع موهبة تصنع معجزة ولكنها ليست عملية اعجاز . . والاعجاز
قدرة ربانية واذا احتوت الموهبة فقد تتحول الى عبقرية وهي حالات نادرة ومحدودة
مثل بيتهوفن وشكسبير وليوناردو دافنشي وبيكاسو وديستوفسكي وتولستوي .

فالطفل المعجزة الذي يدخل الجامعة في التاسعة أو يكتب النوتة الموسيقية في
السادسة مثل موزارت الذي عزف على البيانو في الرابعة هو عبقرى مبدع ولكن
المبدعين أمثال كولون ولسون وارنست همنجواي والبير كامولم يكونوا عباقرة . .
والفارق نوعي وموضوعي . . فالعباقرة ينتهون بحدوث المعجزة والمبدعون

يستمررون بدافعية خاصة نابغة من الداخل نتيجة تيارات نفسية واجتماعية واقتصادية تغذي هذا الوهج المتأجج . . اينشتاين توقف ابداعه بعد نظريته الحسابية النسبية ونيوتن بعد نظرية الجاذبية وداروين بعد نظرية التطور . . والاطفال المعجزة كابطال الشطرنج وغيرهم في المجالات الرياضية توقفوا بعد حدوث المعجزة دون بلوغ الاعجاز ذلك الرقم القياسي الذي ينتظر العبقرى الجديد . . ولكن المبدعين يستمررون يدورون خارج اطار المؤلف والمتكررون بلوغ قمة يصعب الوقوف عليها وقد يستمر الابداع مدى الحياة . . ويبقى مع المبدع حتى أرذل العمر .

ان علم النفس يصنف قدرات الانسان الى قدرات عامة وقدرات خاصة ويضع لها اختبارات . . ويحدد القدرات العقلية العليا في الادراك والتفكير والخيال والذاكرة ويحدد القدرات العقلية الخاصة الى قدرات لفظية وأخرى عملية . . فالقدرات اللفظية كالقدرات الحسابية والتعبيرية . . كالاشكال الفنية . . الشعر . . القصة . . المقالة والقدرات العملية كالمهارات اليدوية كالاشكال الفنية الرسم . . النحت . . التشكيل والرياضة البدنية .

والابداع أحد مظاهر المهارة الفردية والذكاء المتفوق والنضج المبكر وهي أحد معايير فهم الشخصية السوية ، اذن فالعبقرية تفرض نفسها لحظة ولادتها بينما الابداع يظل في منطقة الظل ، مغمورا في انتظار الضوء . . لحظة الاكتشاف التي قد تتأخر حتى جيل آخر ومثال ذلك لقد صمم ليوناردوا دافنشي (الباراشوت) قبل تصميم الطائرة ثم اخترع المدخنة الحديثة وحدد ملامح نظرية الجاذبية قبل نيوتن ولكن كل هذه الانجازات نتاج العبقرية ظلت في طي النسيان بينما ظل ابداعه الأخير في لوحات (الموناليزا) و(العشاء الأخير) مثار جدل وحيوية حتى هذه اللحظة .

هذا نموذج الفارق النوعي بين العبقرية والموهبة .
وإذا نظرنا المنحى الجرسى لتوزيع الذكاء . . نجد ان معدل الذكاء المتفوق بينما يكون عاملا هاما في العبقرية قد لا يكون كذلك في الابداع وان كان يساعد

في تطويره ومتوسط معدل الذكاء لدى الفرد الطبيعي ١٠٠٪.

فالشاعر الالماني غوته سجل ١٩٠ والموسيقي الالماني باخ سجل ١٤٠ بينما سجل العالم الطبيعي الانكليزي داروين ١٤٠ وليوناردو دافنشي ١٥٠ .

والابداع ليس مرتبطا بالوراثة كالعبقرية . . وان كانت عاملا هاما في الحالات . . فالعباقرة في أغلب الأحيان يأتون من أسر معينة - بينما المبدعون قد يأتون من أسر مغايرة ومن الشوارع الخلفية (الكاتب العربي عبدالرحمن الشرقاوي) وهذا سر دور البيئة في ازدهار الابداع . . الظروف الحياتية . . والبيئة . . فاذا كانت مقولة الحاجة أم الاختراع صحيحة فانها تنطبق على الابداع أكثر مما تتطلبها العبقرية التي تولد تلقائيا . . والثانية تتولد تدريجيا من خلال المعاناة والتجربة فلذلك نجد العباقرة يرثون صفات آبائهم بينما المبدعون يرثون صفات مجتمعاتهم . . فهم تجسيد لهذا الواقع من خلال مواقف . . معبرة بالكلمة . . بالنغم . . بالريشة . . باللون المظلم أو المضيء أو المبهم .

الابداع والوعي

الابداع حالة تفرد متميزة داخل الفرد . . تفرد في الشكل وتميز في المضمون . . ولذلك لا بد أن تبدأ من حالة الوعي حتى اذا انتهت بحالة اللاوعي .

وإذا نظرنا من ناحية تحليلية الى جغرافية العقل البشرية . . وفصلنا بين منطقة الوعي (مبدأ الواقع) ومنطقة اللاوعي (اللذة أو اللاشعور) نجد ان الحائط الذي يفصل بين المنطقتين هو الرقيب . . ونجد أن (الذات) تقع تماما في منطقة الوعي بينما تقع (الأنا) الغريزية تماما في منطقة اللاشعور وهناك حوار متواصل لاشعوري وصراع دائم مستمر بين الذات الحاضرة والأنا الغائبة المستترة في الداخل . . بينما نجد الأنا العليا أو الضمير . . وهو مجموعة القيم الاجتماعية والاخلاقية والعادات والتقاليد تكون مميزة عبر المساحتين ولكنها تتعامل مباشرة مع الذات ولا تخاطب الأنا الغريزية ولكنها تمثل ضغوطا متواصلة عليها من خلال (الذات) . . هذه ديناميكية صراعات الابداع .

ومن هذا المنطلق لا بد في حياتنا من وجود وسائل نفسية دفاعية أو حيل أو خدع يحاول بها الانسان الدفاع عن كيانه ويوائم بها بين الدوافع المتناقضة وتخفيف التوتر الداخلي بصورة تساعد على السلوك المتوافق التوافق الذاتي والجماعي (الوجدان الجماعي) فالانسان يخلق ويطور أساليبه الدفاعية لمواجهة القلق والاتجاهات العدوانية كالغضب والاحباط وهذه الأساليب الدفاعية يلجأ اليها كل الناس يوميا لمواجهة المواقف الحياتية المختلفة لكي يتمكنوا من العيش في سلام مع أنفسهم والآخرين في تكيف دائم مع البيئة وهناك عدة أساليب دفاعية . . كالكبت والتبرير والاحلال والاسقاط والنكوص والتسامي والتكوين العكسي والتعويض والتقمصي .

وهذه الاساليب أو الخدع النفسية هي حالات صحية ودفاعات مشروعة متى ظلت بابا للخروج من مأزق أو الهروب من أزمة أو حل مشكلة ولكنها تصبح ناحية مرضية تعود الى مرض نفسي محدد اذا أصبحت وسيلة متصلة ثابتة في التعامل مع مشاكل الحياة .

فلذلك عندما يبدأ الابداع حالة وعي أو تنفيس عن الشعور الداخلي أو تعبير عن الحاجة الى التمييز أو التفرد بالوسيلة المختارة . . الغناء . . الموسيقى . . الشعر . . الرسم . . الكتابة تكون هناك حالات لا وعي أو لا شعور مشتركة صحية ومعافاة تشارك في تكوين هذه الصورة أو تنعيم ذلك اللحن أو تشكيل ذلك الرسم . . أو تكوين تلك القصيدة .

وأكثر وسائل النفس الدفاعية استعمالا في عملية الابداع هي وسيلة التسامي ثم التعويض ثم التقمصي ثم التكوين العكسي ، وقد تكون كل هذه الوسائل مجتمعة في حالة ما بصورة ما في شكل ابداعي واحد فالتسامي هو تحويل وتبديل الدوافع غير المقبولة اجتماعيا أو شخصيا الى نشاط وسلوك مقبولين وغير متضادين فالرغبات العدوانية تجد لها منفذا مشروعا في المنافسات الرياضية والحقاق الهزيمة والشعور بالانتصار والطاقت الجنسية المكبوتة تجد لها اشباعا في قرص الشعر أو التأليف أو الرسم التشكيلي .

ونادرة ما يدرك الانسان ان النشاط الذي يبذله في المجالات التي تقرها الجماعة يستمد طاقته من الرغبات المكبوتة التي جرى التسامي بها والاستعلاء عليها كقول عمر بن أبي ربيعة :

واعجبها من عيشها ظل غرفة وريان مُلتف الحدائق أخضر
ودال كفاها كل شيء يممها فليست لشيء آخر الليل تسهر
أما التعويض

فهو حيلة نفسية أخرى للدفاع عما يشعر به الانسان من نقص واكمال ما عنده

من عجز . . فالاعمى قد يكون أكثر قدرة من المبصرين أسوة بأعضاء المخيم العربي الكشفي للمكفوفين بالشارقة لسان حالهم يقول :

وما كل ذي عينين بالفعل يبصر وما كل ذي أذنين يصغى فيؤمر

وأروع الأمثلة يضرها لنا أساطين الأدب العربي الدكتور طه حسين والشاعر عبدالله البردوني . . والشخص قصير القامة قد يحاول اظهار التسلط والسيطرة المبالغه كتعويض عن مشاعره المكبوتة بالنقص وكذلك الطفل كثير الشغب بالفصل أو السارق يكون تصرفه تعويضا عن الشعور بالضعف أو الجبن أو حب الانتقام بصورة غير مباشرة .

أما التكوين العكسي

هو المبالغة في اظهار عكس ما يكتبه الانسان من رغبات وميول في اللاشعور فالمبالغة في المجاملة تجاه شخص معين ربما تكون تكوينا عكسيا لشعور الرفض له والعداء نحوه .

وشعر المتنبي لكافور الاخشيدي نموذج لهذا الشعور بالتكوين العكسي وبعض أشعاره عن سيف الدولة نقيضا آخر عن هذا الشعور العارض كقوله :
إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس أبواق لها وطبول

وقوله (وهو أشبه بالمدح الذي يقصد به الذم) :

لكل امرئ من دهره ما تعودا	وعادات سيف الدولة الطعن في العدا
هنيئاً لك العيد الذي أنت عبده	وعيد لمن ضحى وسمى وعيدا
اذل حسد الحساد عني فاني	بحبك قد صيرتهم لي حسدا
ووضع النوى في موضع السيف بالعلی	مضركوضع السيف في موضع الندی

وفحوى المبالغة في اظهار الاعتراف بالجميل ربما تكون تكوينا عكسيا لمشاعر الغيرة والحسد، والمبالغة في الكلام عن الاستقامة ومدح الأمانة والشرف وسائر الصفات الحميدة هي قد تكون في الواقع تكوينا عكسيا لرغبات مكبوتة للسلوك

المعوج والحياة وارتكاب الموبقات في بعض الأحيان .

فقول بشار بن برد :

إذا كنت في كل الامور معاتباً صديقك لن تلقي الذي لا تعاتبه
إذا أنت لم تشرب دواماً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو تشاربه

ونحن نعرف أن بشار بن برد الشاعر العظيم لم يكن يشرب دائماً بهذه الصورة
حيث يقول :

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوت كواكبها

وهناك التقمص :

وهي وسيلة يحاول بها الفرد التوصل الى اشباع دوافعه عن طريق المشاركة في
تحصيل أشخاص آخرين أو جماعات أخرى ويحدث التقمص في جميع الاعمار
كمثل الطفل الذي يزهو بوالده ومكانته فهو تقيص في شخصه ليشارك في نجاحه
وكذلك الاشتراك في الجمعيات والاحزاب أو الاعجاب والثناء على النجوم من
الممثلين المشهورين بمحاولة الانتهاء الى كيانات .

وفي مجال الكتابة يشيع هذا النمط من السلوك . . . واذا قرأت لأدونيس
وقابلت ذلك بكولن ولسن في (أبعاد الانسان) . . . لخرجت بنتيجة مماثلة .

واذا أحصيت عدد قصائد المجازاة في الشعر العربي فهو نمط من التقمص
واذا رصدت رقماً للقصائد التي جارت المتنبي في مدح سيف الدولة :

ليالي بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل
يَبْن لي البدر الذي لا أريده ويخفين بدرا ما اليه وصول
يجرمه لمع الأسنة فوقه فليس لظمآن اليه سبيل

فلا أعرف من الشعراء التقليديين المعروفين لدى من لم يكتب قصيدة في
غرض من أغراض الشعر مجارياً قصيدة المتنبي .

واذا طالعت الكتابات في القضية الفلسطينية . . . والمواويل المعاصرة فان

نبرات صوت محمود درويش تطل من كل ناحية وعيونه تكاد تبرق من خلال الكلمات .

اذن فالابداع حالة وعي يغذيها اللاشعور بصورة تلقائية وهذا ما جعل الخلط في أذهان عامة الناس عندما تصوروا أن هذا اللاشعور هو المقابل الموضوعي للالهام . . وتارة يسمونه شيطان الشعر . . الذي يسكن واد عبقر . . وأخيرا ويتطور العلوم الطبيعية تحولوا الى الحاسة السادسة . . وهي لغة ميتافيزيقية لأن العلوم الطبيعية لم تكتشف حتى الآن غير الحواس الخمس ومهامها الفسيولوجية المعروفة . . ولا أعتقد ان الانسان بحاجة الى حاسة أخرى للابداع ، فالابداع مزيج من القدرات الخاصة لهذه الحواس مجتمعة في أفضل الصور ومنفردة في بعض الحالات كالعمى . . والصمم والبكم .

الابداع الشخصية

يتصور الكثيرون ان المبدع شخصية غير عادية . . وهذا صحيح اذا استطعنا أن نميز بين الشخصية العادية وغير العادية بالمفهوم العام وان تحدد الفارق بين الانسان السوي وغير السوي بالمعنى العلمي . . ان درجة السواء في مفهومنا القاصر لهذا المدلول هي لا تتجاوز قول الرسول الكريم (خير الأمور الوسط) لا افراط ولا تفريط .

وفي قوله تعالى ﴿الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾ . . صدق الله العظيم . فهذا الخلق السوي . . والتعديل الالهي . . والتركيب الرباني هو معيار السواء أو درجة الكمال فاذا أمنا بأن الكمال لله وحده فعلينا أن نعتبر أن هناك درجة من السواء دون هذا الكمال مدروجة في طبيعة الانسان كالخير والشر .

فالشخصية المبدعة شخصية قلقة متوترة منفعة ديناميكية متحركة في كل الاتجاهات حتى وان دفعت بها هذه الحركة الى الخروج عن دائرة المألوف والمتعارف عليه . . ولكنها ديناميكية موجبة وليست حركة سالبة .

وفي تصنيف الشخصية للعالم النفسي الالماني كريتشمر والبريطاني شلدون يصنفون الشخصية بالبنية العضوية أو الملامح الفسيولوجية أو الصفات المزاجية كما فعل أبوقراط عندما قسم تكوين المزاج الى سوداوي وأصفر ولمفاوي وقارن بين هذه الأمزجة واعتلال الصحة النفسية في تقسيم الأمراض النفسية ولكننا نجد أن الشخصية غير السوية أو Psychopath في مفهوم الطب النفسي أو التي تطلق عليها الشخصية المناهضة للمجتمع تقسم الى ثلاث عينات افتراضية حسب طابع السلوك المميز لها :

١ - السكوباتية الوضعية أو التافهة Petty

٢ - السابكوتاتية العنيفة Aggressive

٣ - السابكوتاتية الخلاقة (الابداعية) Creative

والاخيرة لديها قدرات خارقة ولكنها سالبة في استقلال هذه القدرات ، فقد تكون ابداعية بكل معاني الكلمة . . ولكن استيعابها لهذا الابداع وتعاملها معه مرضي الى أبعد الحدود ومن خلال رؤية تفتقر الى البصيرة النافذة الواعية .

اذن يمكن أن يكون عدم السواء من وجهة نظر اخلاقية (Moral) ووجهة نظر علمية (Scientific) أحد مظاهر أو دوافع الابداع . . وقد كان لكل المبدعين مظاهر سلوكية غريبة هي في حد ذاتها الحد الفاصل بينهم وبين غيرهم في مجتمعهم . . واذا كان المقصود بتعبير العظماء الذين كانت لهم اسهامات ابداعية في مجالات حياتهم الأدبية أو الاقتصادية أو السياسية أو الرياضية فقد لازمتهم صفات سلوكية أو وجهات نظر حياتية مغايرة لمجتمعاتهم . . فإذا نظرنا في سيرة العلماء والعظماء وسيرتهم الذاتية . . لوجدنا ان ملكة الابداع الكبرى هي شكل من أشكال السلوك غير السوي ولكنه الايجابي الحميد العاقبة . . ان (فان جوخ) الذي قطع اذنه من أجل حببته كان يعاني في الحقيقة من الصرع و(دستوفسكي) كان ضحية لمحنة عاطفية عاصفة في حياته و(نيتشه) كان فريسة آلام نفسية مبرحة بينما (سقراط) الحكيم المعلم الأول كان نموذجا في الابداع ومثاليا طبائيا في حياته الخاصة وسلامة العقل .

اذن الابداع ليس ملازما للجنون ولا مظهرا من مظاهره وقد يصح ان نقول ان الجنون قد يولد حالة من الابداع ولكن الابداع لا يبدأ من حالة الجنون .

ولكن المبدع تملكه حالة من الابتكار تكون في نظر مجتمعه لوثة عقلية أو حالة نفسية أو نمط سلوكي شاذ والخلط بين الابداع والعبقرية والجنون تركة مثقلة في الفكر الانساني المعاصر نتيجة العلاقة القديمة بين الفلسفة وعلم النفس وافرزات الصراعات المريضة وغير العقلانية بين علم النفس والدين . . خاصة في

مجال النفس والروح . . . ولكننا في الطب النفسي نرى تصورا مغايرا . . . لأن الطب أحد فروع العلوم الطبيعية Biological Science وترى النفس مجموعة وظائف فسيولوجية نتيجة نشاط خلايا المخ خاضعة للقياس والتقويم بينما الروح قدرة إلهية في قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . . . صدق الله العظيم سورة الاسراء آية ٨٥ ولذلك نعتبر هذا الأمر محسوما فنطلقه في اتجاه علمي حديث مودعين أهل بيزنطة في جداهم العقيم .

الابداع . . والمرض العقلي

اننا يجب أن ندرك العلاقة الدقيقة . . في نظرة متكاملة ثلاثية الابعاد للعلاقة بين الابداع والعبقرية والجنون . .

لماذا نكتشف ابداع الفرد بصورة أوضح بعد عصره . . اننا نبهر بشعر شكسبير ولوحات سيزان ونظريات نيوتن أكثر مما فعل معاصروهم وبالضرورة سوف يحتفل أطفالنا بعد أجيال بما يقدمه مبدعوننا اليوم بصورة أكثر شفافية في شكل مهرجانات وكرنفالات لا لأن جيلهم أصابه العقم من ولادة المبدعين ولكن لأنهم ينظرون الى العالم برؤية الطفل البريئة المندهشة المتفلسة لا بنظرة العجوز (الحكيم) الغائر العيون المتعب الجسم المرهق النفس المستقر على رتابة الفكر والعاطفة المتطبع على شكل الكون المألوف غير المتغير .

الابداع يستدعي وجود وحده نفسية داخلية عميقة وقدرة خاصة كما ذكرنا على تنظيم طاقاته الواعية واللاواعية من أجل غاية واحدة هي الابداع في الشعر . . الرسم . . الكتابة أو الغناء .

وديمومة الابداع . . خلافا لنهج العبقرية . . وتعارضاً مع أشكال الجنون هي في السر الكامن في قدرة البعض على القيام بهذه المهمة وبهذه الدرجة من الغيرة والمثابرة بصورة تفوق الآخرين (مازال هذا الاعرابي يهذي حتى قال شعراً) .

ان نظرية السوي والاهام في الابداع تنطلق من ضرورة وجود حافز خاص وصوت داخلي ينبع من شعور المبدع بضرورة التعبير عن قدراته المتميزة والهاجس الشخصي المستمر بضرورة ابراز البعد الآخر في شخصيته ومن أجل أن يصل الى هذه الدرجة من الوضوح يظل يصرخ في وجه مجتمعة باحثاً عن مكان تحت الشمس .

والمبدع يرى في الأشياء والأشكال زوايا تغيب على عيون غيره من الناس . . فالسلم الخماسي في الموسيقى العربية لم يتغير . . ولكن تفاوت المبدعون فيها والحروف الأبجدية لم تتحدد . . ولكن تجددت أشكال الكتابة بها والأرقام الحسابية في خانات الأحاد والعشرات والمئات ظلت ثابتة ولكن تحول بالحاسب الآلي ، وكذلك محمد عبد الوهاب والبياتي وأم كلثوم استطاعوا اختراق الواجهة العادية للحقيقة والواقع وتمثيلها بطريقة جديدة رائعة .

من الذي يعطي المبدع هذه البصيرة؟ انها الموهبة في قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ فالخلق الرباني بداية الابداع الانساني ولا يمكن له ان ينطلق من فراغ فكل المبدعين موهوبون من قدرات لفظية تعبيرية أو حسابية رياضية الخ . . وكما يقول العالم النفسي الامريكى آرنست هيلجارد (انه الحلم) . فالمبدع منذ طفولته يحلم . . بيتكر . . يخترع . . يكتشف وعندما يكبر يكبر معه الحلم فالظروف الموضوعية والملابسات الحياتية هي التي تجعل الحلم يتحقق أو يموت وقدرة المبدع في المثابرة على تحقيق الحلم . . هي الميزة عند الوقوف على منصة الالتزام والالتزام . . الزام النفس بالمثابرة والتزام الحلم بالواقع وقد قال الشاعر الالماني شيللر اننا اذا ما حققنا جميعا حلم طفولتنا لأصبحنا كلنا مبدعين .

الابداع الفني لدى الذهانين :

اذا أوضحنا العلاقة بين الابداع والعبقرية فنأتي الى البعد الثالث . . المرض العقلي نجد في بحث تخرج لطلاب قسم علم النفس - جامعة الامارات - يقوم الطلاب بدراسة الابداع الفني لدى الذهانين . . والذهان أحد أنواع الأمراض العقلية . . ويعني انقطاع صلة المريض بالواقع بعكس العصاب والذي يعني استمرار صلة المريض بالواقع . . وكلنا يعاني في مرحلة من حياته احدى حالات العصاب بصورة أو أخرى أما الذهان فهذا أشد خطورة مثل فصام الشخصية

والاكتئاب العقلي وهذا يعني تفكك في القدرات العقلية العليا المتمثلة في التفكير والادراك والتخيل والتذكر. . ولكن وسط هذا المهشيم والحطام من البنية الأساسية للشخصية تبقى القدرات مشتتة ومتباينة ومتناقضة وتبر ز قدرة ابداعية خارقة على حساب القدرات الأخرى فإن (فان جوغ) كان يعاني من الصرع ونابليون كذلك. . والمملك جورج الثامن. . وونستون شرشل كانوا يعانون من حالات ذهانية دورية ولكن قدراتهم الابداعية ظلت مصدر اعجاب ودهشة فاذا شاهدنا اللوحات الفنية لمرضى الذهان نجد هناك وسائل تعبير في الشكل واللون والخطوط تعطي معنى خاصا لدى المريض قد يدركه الطبيب النفسي الذي يعيش حالته وقد يكون أحد وسائل القياس والتقويم لحالته أو أحد وسائل المعالجة النفسية أو التفريغ العقلي.

ومثلها تتناقض رؤية المريض مع الواقع وتنقطع صلته به حسب درجة مرضه فنلاحظ هذا التدرج في رسوماته ونحته ورؤيته للأشياء فقد يرسم شجرة بلا أوراق تعبيراً عن أنواع الفراغ النفسي أو شخصاً بلا عيون دلالة على ضبابية الرؤية أو فقدان البصيرة أو بحراً بلا أمواج تجسيدا لجمود الحياة وفقدان الحركة أو طائراً على قمة جبل تأكيداً لشعوره بالعزلة عن هذا العالم.

وقد يرى الشخص المبدع السوي في نظرنا تفسيراً مخالفاً أو تعبيراً مغايراً أو معنى جديداً أو نفس المعنى الذي قصده المريض. . اذاً اين الفارق الموضوعي بين السوي وغير السوي. . وكم حجم المساحة العقلية بين الجنون والابداع؟ ان هناك خللاً في فهم العلاقة بين السبب والنتيجة في موضوع الابداع والجنون وذلك نتيجة للنهاية المأساوية التي انتهى اليها أكثر المبدعين في عالمنا المعاصر وهذا مما أدى الى ترسيخ الفهم الخاطيء بين الابداع والجنون. . والاجابة على السؤال. . هل الابداع نتيجة الجنون أم سبب فيه! هل الشخص المبدع فيه بذرة من الجنون أم ان الافراط في الابداع يقود الى الجنون! الواقع ان هذه قضية في غاية التعقيد ومحاوله الاجابة عليها بصورة قاطعة فيه تبسيط مخل بصعوبة المعادلة.

ولكن من المشهود والمأخوذ به ان الابداع هو مظهر من مظاهر الحلم كما ذكرنا - وعدم تحقيق الحلم لسبب أو آخر يؤدي الى الاحباط . . والاحباط أحد الأسباب النفسية التي تعود الى الامراض العقلية والجسدية . . وهذا يجيب على الشق الأول من السؤال حول النهاية المأساوية للمبدعين . . فأن المبدع في رحلته لتحقيق الحلم لا يضع علامة النهاية . . فهو يسير في طريق مفتوح فلا توجد نهاية للابداع مثلما توجد قمة للجبل أو عمق للمحيط وفي خلال هذه الرحلة يصطدم المبدع بظروف الواقع المؤدية للاحباط المؤدي الى الازمات النفسية، وهذا يحدث أيضا لدى الأسوياء من البشر وغير المبدعين وحتى الافراد المبدعين في المجتمع ولكن حساسية المبدع وشفافية حسه الفكري يكون أكثر استجابة بصورة قلق متوترة منفعلة بحكم تركيبة المذكور فتؤدي الى الامراض النفسجسدية مثل القرحة والسكتة القلبية والوفاة المبكرة أو أمراض السكري والقولون وشتى أعراض الوهن النفسي في اعتلال الصحة لفترة طويلة كابي القاسم الشابي وبدر شاكر السياب والتجاني يوسف بشير والشيخوخة المبكرة نتيجة الافراط في تعاطي الخمر والمخدرات الى آخر وسائل الترويح النفسي والتفريغ العقلي وهي أحد وسائل الهروب من الواقع في حالة الوعي أو الانقطاع منه في حالة الجنون كما حدث للشاعر السوداني الفذ ادريس جماع . اذا فالابداع ليس ضربا من الجنون . . ولا الجنون نتيجة للابداع . . ولكن الاحباطات المتواترة على نفسية المبدع من خلال العوائق التي تقوم دون تحقيق الحلم تقود الى الانغماس في الملذات الحسية بما يترتب عليها من اضرار نفسية وصحية على المبدع تنتهي بالوفاة أو الانتحار .

فالمبدع لا يساوم ولا يقبل دور الشخصية التوفيقية في أشكال الصراع الدائر في حلبة الفكر . . والمبدع لا يبحث عن الخيارات من موقع الالتزام والالتزام فلذلك يبقى خياره الوحيد ان يطور الشكل الفني الذي ارتضاه وتكون لديه دوافع فسيولوجية وسيكلوجية تجعله ينجح الى القيام بكل جهد ممكن في توظيف كل طاقاته في خدمة هذا الشكل الابداعي بصورة تهدف الى خفض حالة التوتر لديه وتخليصه من حالة عدم التوازن وعندما يفشل فاما ان ينسحب ويتوقع وينظوي في

عزلة معبرة وهذا الموقف الحيادي الايجابي في انتظار لحظة الزلزلة القادمة أو يهرب الى عالم المسكرات والمخدرات وهذا الموقف الحيادي السلبي أو يظل بين المطرقة والسندان حتى يصل حالة من الجنون ولا خيار لمن لا يختار.

الابداع والضغوط النفسية

لابد من وجود دافعية للابداع . . فدوافع الابداع تتمثل في وجود عدة عناصر هامة اولها مناخ ثقافي حضاري يضع قيمة اجتماعية وأخلاقية للابداع . . ويسمو بالمبدع فوق النظرة السطحية المتمثلة في الترف والوفرة التي تجعل كل نمط سلوكي ثقافي ترفا ذهنيا وثانيا وجود القارىء أو الجمهور الذي يعكس للمبدع وجه اشكاله الفنية الابداعية ويعطيه القدرة على العطاء من خلال المثير والاستجابة والا فقد المبدع المثيرات وأصيب بحالة من الشلل نتيجة الحرمان الحسي وهو أحد مظاهر الاحباط وثالثا وجود دور للنشر وصلات للعرض ومسارح فنية فالابداع لا يدور في حلقة مفرغة . . كالباب اللولبي داخل وخارج الفنان فقط وانما يجب ان يفتح على المتلقي والمستجيب وهذا عنصر هام فالذي يصرخ في واد غير ذي زرع أو يغني في مسرح بلا جمهور أو يمثل أمام نفسه لن يبدع لانه لا يعرف درجة اجادته للدور الذي قام به الا من خلال الصدى القادم من المتلقي ورابعا وجود مناخ حر يعطي أجنحة للتخليق في سماوات الابداع . . ان الحرية الفكرية ضرورية لتنمية الملكة الفكرية وهي أحد سمات الابداع . . وهذه الحرية ليست مطلقة في كل الاتجاهات ولكنها مقننة في اسوأ الحالات بحيث تعطي المبدع قدرا من حرية الحركة في اطار المجتمع الثقافي الذي تعيش فيه . . وعدم توفر الحرية لا يلغي وجود الابداع ولكنه يحد من انطلاقه ولعل أروع الكتابات واللوحات كانت في ظروف تعاني أزمة حرية . . لأنها تخلق نوعا من المعاناة . . والمعاناة أحد دوافع الابداع . . والحرية مقصودة ليس بالنص القانوني لها ولكن بالبعد الانساني فيها كحركة اجتماعية وثقافية متطورة فما معنى أن تكون للمبدع حرية التعبير في مجتمع محروم من الاستمتاع بهذا التعبير . . حرمان نفسي عندما يصبح وجود الانسان الاجتماعي مرتبطا بقدر ما يملك من ثروة لا بقدر ما يقدم من خدمة وحدث خلل

في التركيبة الاجتماعية نتيجة النمط الاستهلاكي في الحياة فانصرف الناس عن الثقافة وتجمعت طموحات الفرد في قراءة المانشيتات الكبيرة ورؤوس الأعلام أمام الفيضانات الكاسحة من الاعلانات التجارية ووسائل الاعلام الحديثة التي اختزلت فكر الفرد في دائرة ضيقة من الوعاء الى الامعاء . . في الصحافة والاذاعة والتلفزيون ان الابداع يحتاج الى درجة من المعاناة . . والضغط النفسية أحد وجوه المعاناة . . كالتعب الشخصية والعائلية والمهنية والمالية والاجتماعية لأننا في مجال الطب النفسي ننظر للفرد كوحدة نفسية جسمية اجتماعية متكاملة متضامنة اذا أصيب فيها عضو تأثر سائر الأعضاء .

ان الضغوط النفسية ليست شرطا في عملية الابداع ولكنها أحد الدوافع الموروثة والمكتسبة الأولية والثانوية في تطوير أشكال الابداع .

اننا نعيش العصر الذهبي للازمات النفسية . . عصر القلق والخوف بأنواعه والغضب والكبت والسكتة القلبية والجلطة الدموية والتهايات الدماغ والروماتيزم والعصاب والفصام والهستيريا ، هذه الضغوط تمثل دور المناشير والمقصات في أعصابنا وفي أجهزتنا الداخلية وأضرار أو فوائد هذه الضغوط يتوقف على الاسلوب أو الحل الذي يستجيب به الفرد لشدائد الحياة ومواقفها بغض النظر عن ادراكها بصورة موضوعية أو غير موضوعية فاذا لم يتم اخراج الانفعالات التي تتطلبها الموقف في صورة فيزيائية أو لفظية . . القول أو الفعل الكلمة أو الحرف فان التوترات الداخلية تعمل من الداخل وتعطل الوظائف السوية لجسم الانسان . . فتقود الى المرض أو الوفاة .

لقد قال الطبيب النفسي النمساوي الشهير مانفرد بلوير «من غير الطبيعي أن تكون طبيعي في ظروف غير طبيعية» فاذا كان من غير المعقول ان نتجنب المعاناة في ظروف تفرض علينا المعاناة فمن المستحيل ان نبدع في أوقات لا تتوفر فيها مقومات الابداع . . لذلك كانت المذاهب الفكرية كالوجودية والسريالية نتاجا طبيعيا لظروف غير طبيعية فلاقت اقبالا ورواجا لأنها كانت كالعقار السحري خافض التوتر لحالات القلق والتوتر . وكانت كالمخدر في موضع الألم

فوجدت استجابة تلقائية أشبه بحالة الادمان والهستيريا الجماعية وهي أحد الصور
المأساوية للابداع غير السوي الذي يعكس حالة مرضية في المجتمعات المعاصرة .
وبما أن الابداع أحد القدرات التي لا تخضع للقياس والتقويم لخصوصيتها
وتفردتها المتميز عن بقية القدرات الخاصة فاننا فقط نستطيع الحكم عليها من
خلال دراستنا لسيكولوجية المجتمع ومعايره الخاصة به في تحديد معنى السوي
وغير السوي .

وأخيرا فان كثيرا من معاناة المبدعين في حياتنا المعاصرة ناتجة عن أسباب
نفسية تسببها مواقف انفعالية تثيرها ظروف اجتماعية عديدة كالضياع والاعتراب
والكبت والقلق والمشكلات العائلية والاجتماعية والقمع وسواها مما تفرضه عليه
الحضارة المعقدة المعاصرة فإذا لم تتمكن انفعالاتنا من التعبير الظاهر عن نفسها
بصورة ملائمة تتولى أجسامنا التعبير عنها بما تستهلكه من لحم ودم وهذا
الاستهلاك السريع أو البطيء هو التقسيط المريح لفاتورة المعاناة الطويلة للمبدع
في ظروف الاحباط أو بداية النهاية .

وهكذا تشهد الساحة الفنية والأدبية شتى أنماط النشاط الانساني
الابداعي . . والمبدعون يتساقطون كثمار شجرة يقتلعها الاعصار في عمر الزهور اما
بفقدان ارواحهم أو ضياع عقولهم أو انقطاع صلاتهم بالمجتمع . . نفس المجتمع
الذي احترقوا في سبيل اضاءة أركانه المظلمة وطرقاته الموحشة وعندما احترقت
شموعهم في تلك الاركان أو وسط هذه الطرقات تركوا الساحة وهذا قدر بعض
المبدعين ان لم يكن أكثرهم فالابداع يعني استمرارية عملية الاحتراق وضرورة
الاضاءة حتى يقول كلمته في الشعر . . أو النثر أو اللوحة . . وهي عملية طويلة
المدى بعيدة المسافات في الداخل . . قصيرة المشوار في الخارج والناس لا يحصون
عدد الخطى ولا يعيشون طول المعاناة لأنها عملية احتراق داخلي .
وهذا سر العلاقة بين الابداع والضغط النفسية .

المراجع العربية

- ١ - المرجع في علم النفس - د. سعد جلال - القاهرة - دار المعارف ١٩٦٧ .
- ٢ - النوم . التنويم . الاحلام - ل. روخلين ترجمة شوقي جلال مراجعة د. أحمد عكاشة . الهيئة المصرية للتأليف والنشر.
- ٣ - أسس الصحة النفسية - د. عبد العزيز القوصي .
- ٤ - الطب النفسي المعاصر - د. أحمد عكاشة .
- ٥ - علم النفس العام أسسه وتطبيقاته التربوية - القاهرة - النهضة المصرية - د. سعد جلال .
- ٦ - علم النفس في مائة عام - فلوجل ، ترجمة لطفي فطيم ، مراجعة د. سيد خيرى (الألف كتاب) .
- ٧ - علم النفس الاحصائي وقياس العقل البشري - القاهرة - دار الفكر العربي ١٩٧٩ ، فؤاد البهي السيد .
- ٨ - الأسس الفنية للابداع الفني - د. مصطفى سويف - دار المعارف .
- ٩ - دراسات وبحوث في الابتكار - القاهرة - عالم الكتب - ١٩٧٦ . دز سيد صبحي .
- ١٠ - في الصحة العقلية (الامراض النفسية والعقلية والانحرافات السلوكية) - د. سعد جلال .
- ١١ - مبادئ علم النفس العام - د. يوسف مراد - دار المعارف .
- ١٢ - نحو علم نفس اسلامي - دكتور حسن الشرقاوي - مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٨٤ .
- ١٣ - مدخل الى دراسة الطب التجريبي - كلود برنارد ، ترجمة يوسف مراد وحمدان سلطان (وزارة المعارف) .
- ١٤ - مدخل الى الأسس النفسية والفسولوجية للسلوك - د. عباس محمود عوض ، القاهرة - دار المعارف الجامعية ١٩٨٠ .
- ١٥ - سيكولوجية الانسان - القاهرة - عالم الكتب ١٩٧٤ - د. سيد خير الله .

ENGLISH REFERENCES

1. ARIET, S. American Handbook of Psychiatry. New York Basic Books Inc.
2. BLACK, S. The Phenomenon of hypnosis : Modern Perspective in World Psychiatry.
3. COPPEN. A. Recent Developments in Schizophrenia. Recent Development in Affective Disorders, Headly Brothers, Kent.
4. DALLY, P. & HARRINGTON. Psychology and Psychiratry. The English University Press Ltd.
5. EYSENCK. H. J. Hand Book of Abnormal Psychology.
6. FLUGEL. Men and Their Motives.
7. HATFIELD. J. H. Dreams and Nightmares.
8. HUNTER I. M., Memory : Facts & Fallacies, Pelican - London.
9. JERSID, A. T. In Search of Self.
10. KAPLAN, B. The inner world of Mental Illness.
11. KRINGLEN. E. Heredity & Environment in the functional Psychosis. Heinman - London.
12. LADER. M. H. Phsyiological Measures, Sedatives, drugs & Morbid anxiety. Oxford University Press.
13. MORROW. W. & WILSON. R. Family Relationship of Bright high achieving and under achieving High School Boys. "Child Development Journal"
14. OMARA. Z. A. Lecture Notes on Basic Psychiatry.
15. PRICE. J. H. Modern Trends in Psychological Medicine - Butterworth - London.
16. SHIELDS. J. Man, Mind & Heredity. John Hopkins Press.

محتويات الكتاب

صفحة	
٩	المقدمة
١٣	الفصل الأول : قضايا الطب النفسي
١٥	(١) القاموس النفسي
٢٠	(٢) اللغة .. جسر العبور النفسي
٢٥	(٣) اللغة والطب النفسي
٣٠	(٤) طب الحواس
٣٥	(٥) مدخل الى دهليز
٤٠	(٦) الأخذ .. والعطاء
٤٥	الفصل الثاني : بين الحقيقة والخرافة
٤٧	(١) بين الحقيقة والخرافة
٥١	(٢) العقل الغائب
٥٤	(٣) الفردوس الضائع
٥٧	(٤) القيمة .. والثمن
٦٠	(٥) الميزان
٦٤	(٦) سلطان الوعي

صفحة	
٦٩	الفصل الثالث : أزمة الهوية
٧١	(١) الطبع .. والتطبع
٧٦	(٢) رحلة البحث عن الذات
٨١	(٣) الشيخوخة بين الدار والديرة
٨٥	(٤) الصحة النفسية للجميع
٩١	الفصل الرابع : الأصل والصورة
٩٣	(١) الوجوه المُقنَّعة
٩٨	(٢) زهور عباد الشمس
١٠٣	(٣) الكاميرا الخفية
١٠٨	(٤) الأمل
١١٣	الفصل الخامس : اليقظة والنوم
١١٥	(١) اليقظة أعظم أسرار النوم
١٢٠	(٢) الأحلام بين اليقظة والنوم
١٢٤	(٣) التنويم المغناطيسي
١٢٩	(٤) الرسم بالموجات
١٣٥	الفصل السادس : الأمراض النفسية والعقلية
١٣٧	(١) الصرع بين العلم والخرافة
١٤٢	(٢) المرأة المهشمة
١٤٧	(٣) الوادي الظليل
١٥١	(٤) الوسواس

صفحة	
١٥٥	(٥) صرخة الاستغاثة
١٦٠	(٦) الادمان وحوار الطرشان
١٦٦	(٧) السلوك الانتحاري
١٧٣	الفصل السابع : حول العلاقات الانسانية
١٧٥	(١) عيون الرضا
١٧٩	(٢) ترتيب العالم الخاص
١٨٤	(٣) في دائرة الوعي
١٨٨	(٤) أسرار الغيرة
١٩٣	(٥) لمسة وفاء
١٩٧	الفصل الثامن : الحلم والحقيقة
١٩٩	(١) وثيقة السفر
٢٠٤	(٢) هجير الحياة
٢٠٩	(٣) القارب والطوفان
٢١٤	(٤) اطلالة على الجهات الأربع
٢١٩	الفصل التاسع : سباحة ضد التيار
٢٢١	(١) المعادلة الصعبة
٢٢٦	(٢) المصعد والدرج
٢٣١	(٢) الايقاع والصدى
٢٣٦	(٤) قلبي على ولدي
٢٤١	الفصل العاشر : في دائرة الضوء

صفحة

- (١) العلم نور ٢٤٣
- (٢) القراءة والكتابة ٢٤٧
- (٣) رُكن المتحدثين ٢٥١
- (٤) من أجل عيون النكبة ٢٥٥
- الفصل الحادي عشر : حول قضايا التربية ٢٥٩
- (١) شرخ في الجدار ٢٦١
- (٢) السابقون واللاحقون ٢٦٦
- (٣) المصيدة القاتلة ٢٧١
- (٤) الحُرمان ٢٧٦
- (٥) الشباب في الصيف ٢٨١
- الفصل الثاني عشر : الخطر الجديد ٢٨٧
- (١) الأحرار المستعبدون ٢٨٩
- (٢) الدخان عادة أم ادمان ٢٩٤
- (٣) مثلث الشيطان ٢٩٩
- (٤) الحصار ٣٠٤
- (٥) عالم .. داخل المتاهة ٣٠٨
- (٦) الرسالة ٣١٣
- الفصل الثالث عشر : قضايا أدبية ٣١٩
- (١) بين الطب والأدب ٣٢١
- (٢) من حصاد المرید ٣٢٦

صفحة	
٣٣١	(٣) أزمة الرمزي في الشعر
٣٣٥	(٤) الشعر والذاكرة
٣٤١	(٥) عود على بدء
٣٤٧	الفصل الرابع عشر : الحزن النليل
٣٤٩	(١) أمة في واحد
٣٥٣	(٢) الحزن ينطق الحجارة
٣٥٨	(٣) محراب النيل
٣٦٣	(٤) لكل أجل كتاب
٣٦٩	الفصل الخامس عشر : سيكولوجية الابداع
٣٧١	(١) تعريف الابداع
٣٧٥	(٢) الابداع والوعي
٣٨٠	(٣) الابداع .. والشخصية
٣٨٣	(٤) الابداع .. والمرض العقلي
٣٨٨	(٥) الابداع .. والضغط النفسية
٣٩١	المراجع العربية
٣٩٣	المراجع الأجنبية

صفحة	
٣٣١	(٣) أزمة الرمزي في الشعر
٣٣٥	(٤) الشعر والذاكرة
٣٤١	(٥) عود على بدء
٣٤٧	الفصل الرابع عشر : الحزن النليل
٣٤٩	(١) أمة في واحد
٣٥٣	(٢) الحزن ينطق الحجارة
٣٥٨	(٣) محراب النيل
٣٦٣	(٤) لكل أجل كتاب
٣٦٩	الفصل الخامس عشر : سيكولوجية الابداع
٣٧١	(١) تعريف الابداع
٣٧٥	(٢) الابداع والوعي
٣٨٠	(٣) الابداع .. والشخصية
٣٨٣	(٤) الابداع .. والمرض العقلي
٣٨٨	(٥) الابداع .. والضعف النفسية
٣٩١	المراجع العربية
٣٩٣	المراجع الأجنبية

المؤلف



- من مواليد مدينة عطبرة بالسودان .
- تلقى تعليمه الثانوي بمدرسة (حتتوب) الثانوية بمدني بالسودان .
- نال بكالوريوس الطب والجراحة من كلية الطب - جامعة الخرطوم .
- نال دبلوم الطب النفسي من جامعة لندن .
- نال زمالة كلية الاطباء النفسانيين الملكية البريطانية بالملكة المتحدة .
- عضو الجمعية الامريكية للاطباء النفسانيين بالولايات المتحدة
- عضو جمعية الطب النفسي للاطفال بالكلية الملكية بريطانيا .
- عضو مجمع الدراسات النفسية باكسفورد .
- عمل أخصائياً للطب النفسي بوزارة الصحة بالسودان .
- عمل أخصائياً للطب النفسي بمستشفيات بريطانيا .
- عمل مستشاراً للطب النفسي بوزارة الصحة بدولة البحرين .
- عمل بالتدريس - كلية التربية قسم علم النفس - جامعة الامارات العربية المتحدة .
- عمل بالتدريس - مركز التأهيل التربوي - وزارة التربية والتعليم بالامارات .
- عضو اللجنة الوطنية العليا لمكافحة أضرار المسكرات والمخدرات - بدولة الامارات العربية المتحدة
- عضو هيئة التدريس بشعبة الطب النفسي - كلية الطب - جامعة الخرطوم .
- عضو مركز الدراسات الأمنية والتدريب - بالرياض - المملكة العربية السعودية
- يعمل حالياً رئيساً لقسم الطب النفسي بمستشفى الجزيرة وأبوظبي المركزي
- عضو اتحاد الاطباء النفسانيين العرب .
- عضو اتحاد الكتاب والأدباء العرب .
- صدرت له المجموعات الشعرية التالية عن دار الثقافة بيروت :
 - ١ - الضياء والحريق
 - ٢ - مايو والأطفال
 - ٣ - مع رياح العودة
 - ٤ - قصائد من بريطانيا
 - ٥ - نقوش على البحر
 - ٦ - أشباح المدينة
- صدرت له المطبوعات التالية عن دار الثقافة بيروت
 - ١ - مدخل الى الطب النفسي
 - ٢ - أضواء على النفس البشرية
 - ٣ - أساسيات الطب النفسي (باللغة الانجليزية)
- يصدر له تحت الطبع المجموعات التالية :
 - ١ - محاضرات في الطب النفسي - باللغة العربية
 - ٢ - مقالات مختارة بين الطب والأدب
 - ٣ - حول سيكولوجية رعاية الطفل
 - ٤ - الطب النفسي في الخليج : تجارب ودراسات
 - ٥ - المرأة المهشمة (مجموعة شعرية) .